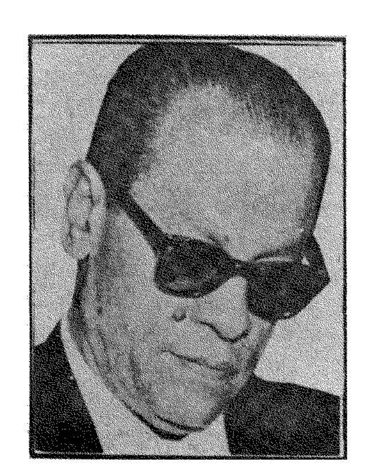
شهادة

نجيب محفوظ



مجلة « الآداب » تمثل لي اكثر من قيمة خالدة :

١ – تمثل لي الملتقى الذي يتحاور فيه مفكرو العرب كل شهر .

٢ – تمثل لي الصلة بين الحاضر والتراث .

٣ – تمثل لي الصلة بين الحاضر والتراث والعصر الحديث .

وان صمودها ، مع رفعتها ، لآية على ذكاء صاحبها من ناحية وأصالة الشعب العربي من ناحية أخرى .

تحية للآداب وصاحبها وكتابها وقرائها .

القاهرة

الربّان والدفة



ميخائيل نعيمه

أخي الدكتور سهيل ،

كانت « الآداب » لا تزال جنيننا في خيالك عندما جئتني ذات يوم لتستأنس برايي في اخراجها الى الوجود . وكان رايي انك اذا استطعت الصمود ولو لعامين فمشروعك ناجح لا محالة .

وها أنت قد صمدت ربع قرن . وها هيَ « الآداب » تغزو العالم العربي بطوله وعرضه ، فتستقطب خير المواهب في ذلك العالم ، وتعيش مشكلاته الحياتية من شهر لشهر ومن عام لعام .

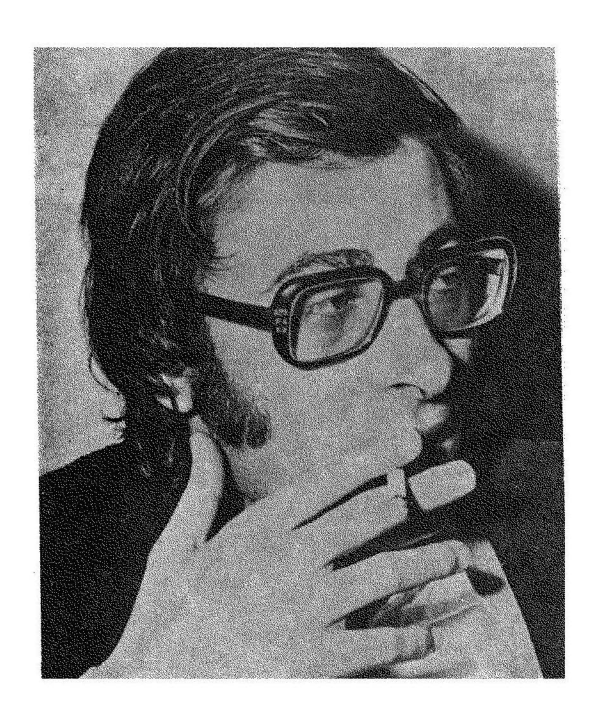
لقد كنت خير الربان لـ « الآداب » في هذه الفترة العصيبة من تاريخنا العربي . فحق لك ولنا أن نحتفل بيوبيلها الفضي . واني لارجو لها أن تحتفل بيوبيلها الذهبي ، ثم الماسي ، وأن تكون يدك لا تزآل على الدفة . وعليك وعلى « الآداب » أطيب السلام .

من المخلص
ميخائيل نعيمه

٧ – ٧ – ٧٧

رسالة

محمود درويش



عزيزي الدكتور سهيل ادريس .

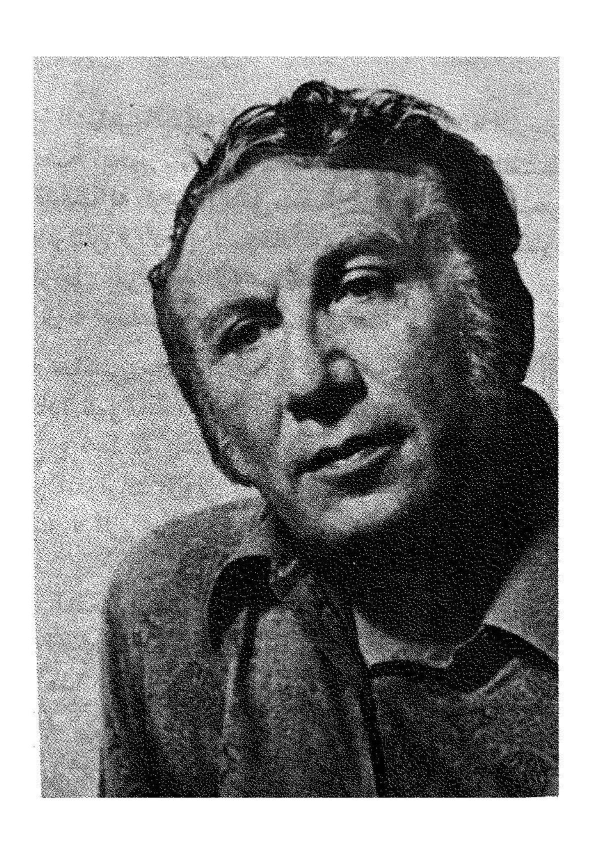
في أيام عربية أخرى ، يتحول هذا العمر الى عيد . ولكن ، لا يغبطك اليوم أحد ، وأنت تقاوم النسيان الذي يحالف جمهوريات القمع الشرقي الجديد . فماذا تؤرخ ؟ وقد كبر الجيل وافترق . انني ألمس حزنك وانت تلتفت الى الوراء بفرح : مضت خمس وعشرون سنة من متابعة النبض الادبي وتحولات أمة تصعد الى دورها الابداعي . معارك لا تحصى وأحلام لا تنكسر . والآن .. الآن تواجه المنعطف الاكبر ، فهل يستطيع المرتدون عن مسيرة الثورة والحرية ان يفرقوا أحلامنا بالعصي والخطب المسيلة للاشمئزاز كما يفرقون المظاهرات ؟

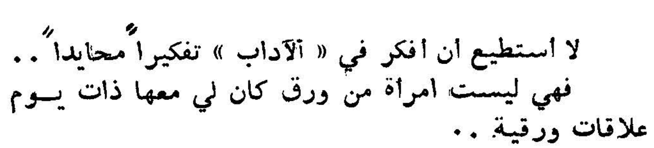
ان الامة بأكملها مهددة ، فماذا تكون اللغة ، وماذا تكون الكتابة ؟ أرى ان هذا السؤال هو الذي سيوفر لمسيرة « الآداب » زخم النذور والجدوى ، بعدما استطاعت ، قبل هذه الوقفة ، أن تمنح الكتابة فاعلية الامل والتغيير .

هل نسيت أن أهنئك ؟ ان عيدك هو عيدنا ، ولا يهنىء أحد نفسه . سأشكرك الى الابد ، لانك كنت نافذتي الى هذا الوطن العربي الذي لا يبدأ ولا ينتهي . أيام كنت في الاسر الصهيوني محاصرا بالغياب والكراهية ، كانت « الآداب » امتدادي وأفقي العربي الواسع . منها أخذت أصابعي والشعر الحديث ، وعلى صفحاتها تحققت عملية التفاعل الاولى . وسأشكرك دائما ، لانك نشرت تجاربي الاولى وقدمتني الى العرب . سأشكرك لانك شاركت في ولادتي الادبية . ولم أقل لك قبل الآن انني وزملائي في الجزء المحتل من الوطن كنا نتقاسم «الآداب» كما نتقاسم رغيف الخبز والزنزانة .

ستعثر الكتابة على جدواها ، في التحام الشارع واللغة . وأن تبلغ « الآداب » الخامسة والعشرين من العمر معناه ان الكتابة لا تذهب سدى ، ولا تضيع . اشكرك مرة أخرى ، ولا أهنئك لان المرء لا يهنىء نفسه .

المخلص
محمود درويش





السمكة تتذكر اللون الازرق

لا استطيع أن افكر في « الآداب » تفكيراً محايداً ..
فهي ليست امرأة من ورق كان لي معها ذات يوم علاقات ورقية ..
انها امرأة الدم واللحم ، والليل والنهار ، والصحو والقيلولة ، والنبيذ والكتابة ، والفرح ، والحزن ، والتسكع تحت احتمالات المطر .. واحتمالات القصيدة ..
انها أول امرأة علمتني كيف اكتب جيداً .. وكيف أغني جيداً ..
وليس من طبيعتي أن انسى النساء اللواتي علمنني فن الكتابة .. أو علمنني فن الحب ..
مع « الآداب » بدأت المغامرة الاولى .. وتلعثم الكلمات الاولى .. وخجل القصائد الاولى ..
فاذا اصبحت مع الزمن « شيخ طريقة » في العشق .. وربما شيخ طريقة في الشعر .. فان «الآداب» لها الفضل في تعليمي الابجديتين .. فلقد دربتني كما تدرب الخيول على الصهيل .. وكما تدرب الاسماك على اقتحام قدرها الازرق ..
بعد خمس وعشرين سنة من الاقامة في جسد البحر ، تحاول السمكة أن تتذكر ...
البحر في الخمسينات والاربعينات ، لم يكن بحرا مفتوحا للملاحة كما هو بحر الشعراء اليوم ...
كان المرور في هذا البحر ممنوعاً على المراكب الصغيرة .. والمواهب الصغيرة .. والاسماك الصغيرة..
لم يكن في بحر الاربعينات سوى الحيتان الشعرية الكبيرة .. وسوى القراصنة يسيطرون على منافذ البحر ، والموانىء ، ويمنعون اي سفينة غريبة أن تدخل او تخرج من مياههم الاقليمية ..
كان أكثر من « فرزدق » واحد يهددنا بالقتل .. وباغراق مراكبنا اذا هي اقتربت من مناطق الصيد التاريخية التي يسيطرون عليها ..
على سواحل هذا البحر ولدنا ...
تحت شمس عدوانية ، وصيف عدواني ، وشتاء اشد عدوانا ، ومجموعة من اسماك القرش كانت تتسلى بمزمزة لحمنا .. وقرقشة عظامنا ..
كان البحر في تلك الايام بحراً مغلقاً .. وكان « مشايخ » البحر يمنعون السباحة المختلطة .. ويمنعون

دخول النساء والاطفال ... ويفرضون على النازلين الى الماء أن يرتدوا العباءات .. والعمـــــائم .. والسراويل الطويلة .. والقباقيب الخشبية ..

مشايخ البحر كانوا يعتبرون الانف عورة .. فما بالك بالنهد ...

بكلمة مختصرة كان البحر أملاكا خاصة يتوارثها اقطاعيو « البحر الطويل » .. أبا عن جد .. ويطوبونها في الدوائر العقارية لاولادهم واحفادهم ...

كان البحر لهم .. والموج لهم .. والافق لهم .. والمراكب ، والبحارة ، والموانىء ، تدخـــــل في حدود مملكتهم ..

اليوم ، لا يعاني شعراء السبعينات أي مشكلة مع البحر .. أو مع الشعر ..

فالمسابح الشعبية متناثرة على طول الشواطىء ، والماء في متناول الجميـــع .. ومشايــــخ البحر قدموا استقالاتهم .. وانسحبوا ...

أما نحن فقد اخترعنا بحرنا .. واكتشفنا جزرنا .. وسافرنا بشكل سري الى كل المرافىء التي منعونا مـــن دخولها ..

كانت معركتنا من أجل اللـــــون الازرق طويلة .. ومتوحشة .. الى أن انتصر اللون الازرق .. وانتصرنا ..

■

خلال معركتنا من أجـــل تكريس اللون الازرق .. كانت « الآداب » قيادة أركان الشعر الجديد ..

فيها كنا نعقد اجتماعاتنا السرية ، ونستلم التعليمات والاسلحة .. والدعــوات الصالحات بالنصر .. « لان سهيل ادريس لا يدفع فلوسا للثـــوار .. ولا لغيـــر الثوار ... » .

ثم تزوج سهيـــل ادريس .. ففرطت الثورة .. وتفرق الثوار .. لأن عايدة مطرجي ، التي صارت فيما بعد عايدة ادريس ، لم تكن تسمح لسهيل بأن يخرج في الليل مع الثورة « باعتبارها اسما مؤنثا ... » .

بعد أن تخرج سهيل من المحكمـــة الشرعية زوجا شرعيا .. تحولت « الآداب » من رئاسة أركان .. الى « تكية » لا يسمح فيها بتقـــديم المشروب .. أو تدخين السجائر ..

وهكذا ترك ثوار « الآداب » بنادقهم لـــدى مدام ادريس .. وذهبوا الى الديار المقـــدسة لاداء فريضة الحج ...

حتى الشاعر الكبير يفتشنكو اضطرته عايدة ادريس لتأدية فريضة الحج .. حين دعته مرة الى تناول العشاء لديها ، وقدمت له كوب أناناس (سكر زيادة) .. وصحن تبولة (بقدونس زيادة) .. فاذا به يصرخ مـــن حلاوة الروح ، كرجل يقودونه الى ساحة الاعدام :

« .. يا جماعة .. انا الشاعر السوفياتي يفتشنكو .. فلماذا تعاملني مدام ادريس كخروف ؟؟... » .

وانقاذا للموقف ، ولعلاقاتنا الطيبـــة مع الاتحـاد السوفياتي ، أخذت يفتشنكو الى أحد بارات الروشة ، وبعد كأس الكونياك الاولى رجـــع يفتشنكو من حالته « الخروفية » الى حالته الشعرية ...

■

على الشعر الحديث أن يرفـع قبعته عاليا لسهيل ادريس . أقولها ، وانا أدرك أبعـــاد كلماتي .. وأتحمل مسؤولية هذا الكلام ..

ولا بد لي هنـــا من كشف سر صغير لا يعرفه الا القليلون . وهو انني كنت شريكا لسهيل في « دار الآداب للنشر » لمدة عامين (١٩٥٨ — ١٩٦٠) .

وكان رأس المال المبدئي الذي وضعناه للدار تعيسا لى درجة انه لا يكفي لاصدار اكثر من خمسة كتب ..

وبدأ الشعر ينهال علينا .. من شعراء كانوا في ذلك الوقت مغمورين ، وصاروا اليوم من المشاهير ..

وكنت أتشاور مع سهيل في شأن كـــل مجموعة شعرية تأتينا . وفي حين كنت أفضـل التريث في نشر بعض المجموعات التي لم أكن أتوقع لها الانتشار ، خشية أن نقع في عجز مالي .. كان سهيل يصر علـى النشر ، بحجة أن هذا هو شعر المستقبل .. وان رسالتنا كمثقفين هي أن نكون مع هذا الشعر دون قيد أو شرط ..

وتركت بيروت في مهمـة دبلوماسية الى الصين ، وتركت لسهيل أن يتصرف بالمجموعات الشعرية بالتي هي احسن .. موفقا بين رسالتنا الشعريـــة ، وقدراتنـــا الماليـــة ..

وحين رجعت من الصين بعـــد عامين .. وجدت مأمور الحجز واقفا على باب « دار الآداب » وفي يـــده الكبريت والشمع الاحمر .. وادركت فورا ان سهيلا نشر كل المجموعات الشعرية التي جاءتنا .. ونشر معها عظام ميزانيتنا ..

وبالطبع .. طالبني سهيل بدفـع عجز الميزانية . فدفعته اكراما لعيون الحداثة .. وشعر المستقبل ..

أما شعراء الحداثة الذين حملهم سهيل ادريس على كتفيه .. ونشر لهم مجموعاتهم الشعرية الاولـى « التي بقيت في مستودعات دار الآداب خمسة عشر عاما » فقد تركوه بخمس دقائق ، عندما عرض عليهم ناشر آخر أن يشتري لهم سيارات مارسيدس Second Hand تشتغل على المازوت ...

■

أعترف انني « ورطت » سهيل ادريس بنشر أخطر قصيدتين في تاريخي الشعري :

١ ـ « خبز وحشيش وقمر » عام ١٩٥٤ .

٢ ـ « هوامش على دفتر النكسة » عام ١٩٦٧ .

عندما نشرت « الآداب » القصيدة الاولى ، سقط سقف البرلمان السوري فوق راسي . وسقطت بقية السقوف فوق راسه ..

أتذكر الآن انني جلست فوق الانقاض .. وغنيت . كنت لا أشعر بالحروق ، والرضوض ، والجروح المفتوحة في رأسي .. وكان دمي يسيل فلا اعرف انه دمي ..

في تلك الايام من الخمسينات كنت مجنون شعر .. ولم أكن احسب حسابا لاي شيء .. فالحساب ضد الشعر ..

غير انني أدركت ، وأنا امشي فوق الحجارة ، والزجاج المكسور والاعمدة المتساقطة ، ان الكتابة هي بعض الموت ، وان الشاعر الذي لا يموت فوق أوراقه ، لا يستطيع ان يولد في وجدان الآخرين ..

« خبز وحشيش وقمر » كانت أول اشتباك بالسلاح الابيض مع مؤسسات السحر .. والشعوذة .. والطب العربي . والخرافة ..

وعندما رأيت وفود المتزمتين والدراويش تتجمع على باب رئاسة الوزارة في دمشق مطالبة بشنقي .. وعندما كانت المسيرات تعبر شوارع العاصمة السورية مطالبة بحرقي .. وعندما كان وزير الخارجية السورية آنئذ يتعرض في المجلس النيابي السوري لاشرس حملة عليه من اليمين الديني بسبب قصيدتي .. كنت اتمشى في حديقة بيتي في لندن .. منتظرا برقية طردي من وزارة الخارجية السورية .

لكن البرقية لم تصل ..

وانما استدعاني سفيرنا آنئذ في لندن الاستاذ فائز الخوري ، وهو اديب ، وعالم ، ورجل قانون ، ومناضل من الرعيل الاول . وبعد أن قدم لي فنجان قهوة في مكتبه ، قال لي :

ـ لماذا أنت حزين ؟

قلت له : ـ أما جاءتك الاخبار من دمشق ؟ أما قرات محاضر المجلس النيابي ؟ انهم يخونونني .. ويطالبون بشنقي ..

قال فائز الخوري :

ـ قرات كل شيء .. وسمعت كل شيء .. ولكن هل أنت خائف من الشنق ؟

اسمع يا نزار .. لا احد في التاريخ يستطيع ان يشنق قصيدة !! فالقصيدة رقبتها طويلة جدا ..

ثم بكل هدوء ، مدّ يده رحمه الله الى درج مكتبه ، واخرج دفتر شيكاته ، وقال :

ـ هل تأخذ خمسة آلاف جنيه استرليني ، وتسمح لي أن أضع اسمي تحت القصيدة ؟

اذهب يا ولدي الى بيتك ، ونم في فراشك مطمئنا .. وتذكر بيت المتنبي العظيم :

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ـ القضية حلها المتنبي منذ الف عام .. حين ادرك بحدسه الخارق ، وبصيرته النافذة ، ان القصيدة الحقيقية هي القصيدة ـ المشكلة ...

■

الورطة الشعرية الثانية كانت قصيدتي « هوامش على دفتر النكسة » والتي كتبتها بعد ايام من هزيمة عام ١٩٦٧ .

واذا كانت « خبز وحشيش وقمر » بقيت تتفاعل داخل أسوار دمشق .. فان « الهوامش » قد انفجرت على نطاق الوطن العربي كله ..

صادروا « الآداب » في بعض المدن العربية ، واحرقوها في مدن أخرى .. وشعرت انني « افتريت » على سهيل وأسأت الى عذريته وطهارته القومية .. واحسست برغبة طاغية في الاعتذار ..

ولكن سهيل ـ وهذه شهادة ثانية اسجلها له رفض ان يسمع اعتذاري ، واخبرني انه يعتبر نفسه شريكا متساوي الحقوق والواجبات في القصيدة ..وان مصادرة « الآداب » واحراقها ، والتنكيل بها .. أصبحت تقليدا عربيا راسخا .. فالمجلة التي لا تصادر في العالم العربي هي المجلة التي لا تقول شيئا .. ولا ترى شيئا .. ولا تسمع شيئا .. ولا ترفع يدها احتجاجا على شيء ..

وهكذا كانت « الآداب » المختبر الذي جربت فيه متفجراتي .. وكان سهيل يراني أحمل صناديق الديناميت .. واضعها على مكتبه في شارع « الخندق الغميق » فيبتسم لها كأنها علبة شوكولاته ..

صحيح .. ان سهيل بعد زواجه صار يحسب حساب الديناميت ، وصار يخاف على اثاث غرفة النوم ، وعلى السجاد ، والثريات ، وعلى عايدة .. ولكنه كان يبذل جهد الانبياء حتى لا يظهر الخوف على وجهه ..

لذلك استمر على التعامل مع حاملي الديناميت من الشعراء .. ولا يزال يستقبلهم ، ويرحب بهم حتى كتابة هذه السطور ...

■

... وبعد .. وبعد .. ماذا تستطيع السمكة أن تتذكر ؟

كل ما استطيع أن اقوله في يوبيل « الآداب » الفضي ان البحر الذي سبحنا فيه في الخمسينات كان بحرا خطيرا .. ومثيرا .. ومليئا بالمفاجآت ..

كان بحرا حقيقيا ...



الآداب والحرية

رياض طه

أين كنا قبل خمس وعشرين سنة ؟

كان العرب سبعين مليونا ، وهم اليوم مائة واربعون مليونا .

وكان عدد أعضاء جامعة الدول العربية لا يزيد عن نصف العدد الحالي .

اما الاقطار المستقلة ، فانها لم تكن تتجاوز الربع . وكانت كبرى الدول العربية تطالب بجلاء الجيوش البريطانية عن اراضيها .

واما الوضع المالي الاقتصادي فقد كان في ادنى مستوى - يكفي أن مجموع دخول النفط العربي لم يكن يبلغ نصف مليار دولار ، وهو يزيد الان على الستين مليارا .

كانت جيوش مصر والاردن وسوريا لا تشكل خمسة بالمائة من عدد جيوش المواجهة اليوم . وكانت المشكلة الاساسية هي البحث عن السلاح ، لان الغرب كان يمتنع عن تسليح العرب ، بينما كانوا لا يفكرون بالاتجاه الى الشرق .

كنا نحسب ، حينئذ ، ان الاستعمار هو العائق الاوحد - او الاكبر - في سبيل الحرية والوحدة . وكنا نظن ان تبديل الحكام القدامى كفيل باحداث التغيير المنشود .

شهد جيلنا ، في ربع القرن المنقضي ، من الاحداث ما لم يشهده اي جيل مضى . ولقد صعدنا الى قمة الزهو ، ثم سقطنا الى حضيض المهانة .

في البدء ، كانت امكاناتنا قليلة ، وكانت قوانا ضئيلة ، ولكن طموحنا كان اعظم ، واملنا كان اكبر !

كنا نحسب ان جلاء الاجنبي عن ارضنا كفيل بتحرير ارادتنا ، وان استقلالنا الوطني مرادف لانطلاق العزة والكرامة .

وكان في حسباننا ان تدفق الثروة على بلادنا سيغني نفوسنا ويعزز منعة الامة ويحقق وحدتها .

ولكن طموحنا الساذج لم يلبث ان فجع ، ونكبنا حتى في طموحنا . ذلك لاننا لم نعن بالانسان .

ولقد اتضح اخيرا ، لكل ذي بصيرة ، ان كرامة الانسان ليست ادنى من كرامة أرضه ، وان حرية المواطن ليست اقل شأنا من حرية الوطن .

فهل لنا ان نتجه بآدابنا في هذا السبيل ؟

وهل لنا ان نلتزم بتحرير الفرد ، بعدما التزمنا بتحرير الجماعة ؟

اذ من حقنا - ونحن نكافح في سبيل هذه الامة - ان نغدو مجموعة احرار ، لا قطيعا حرا !

على ان الوهم الكبير الذي كان يخيم على عقولنا هو التوق الى تحرير الوطن من دون تحرير المواطن !

لقد كنا نجهل ان الحرية كل لا يتجزأ ، وان تحرير الارض وارادة الجماعة لا يكفي ، اذا ما بقيت حرية الانسان مغلولة وارادة الفرد مشلولة .

***

رافقت « الآداب » رحلة ربع القرن تلك ، وحاولت ان تنفعل بها وتفعل . وقد تفردت هذه المجلة برفع راية الادب الملتزم ، اذ آثرت ان تكون لها قضية قومية وطنية ، الى جانب قضية الابداع .

لم يكن في وسع « الآداب » ان تحول مسيرة الامة ، وقد عجزت القيادات التاريخية عن ذلك . على ان الصحيفة - في مفهوم الاعلام العصري - ليست اداة للتوجيه والارشاد ، بقدر ما هي مرآة للواقع .

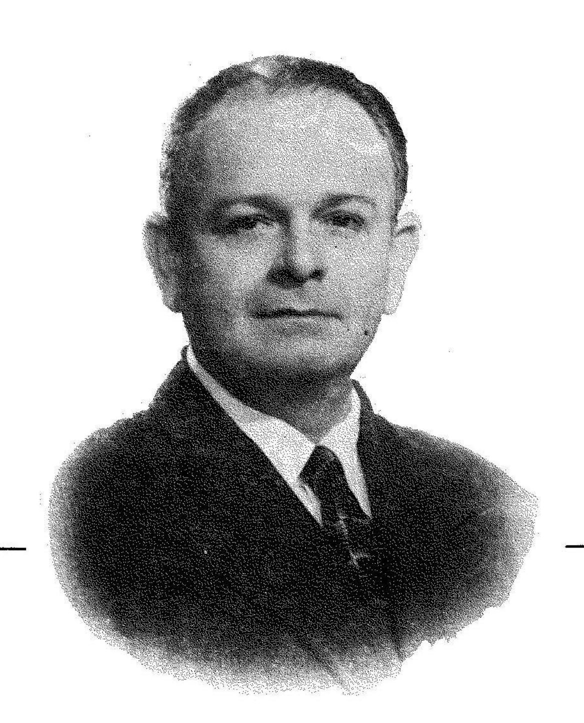
كانت هذه المجلة منبرا رفيعا من منابر حركة التحرر القومي . وقد تعثرت ، مثلما تعثرت آدابنا والفنون ، بل الثقافة نفسها والحضارة كلها ، تبعا لتعثر الحركة القومية الصاعدة الهابطة .

وماذا تستطيع الصحيفة المناضلة ان تفعل ، عندما تقفل امامها الحدود وتسد في وجهها الابواب ؟

بل ماذا يفعل القلم ، حينما تتساقط القذائف والحمم ، وتتصاعد السنة اللهيب لتحرق الاشخاص والاشياء ، وتأتي على خفقات الحياة والاحياء ؟!

***

بيروت



تحيّـــــة

ألبير أديب

ربع قرن في حياة مجلة ادبية شهرية يعتبر حدثـا هاما ، فاذا كانت هذه المجلة تصدر في بلد عربي باللغـة العربية ، عدّ ثباتها على الصدور مدة ربع قرن شبـه معجـزة .

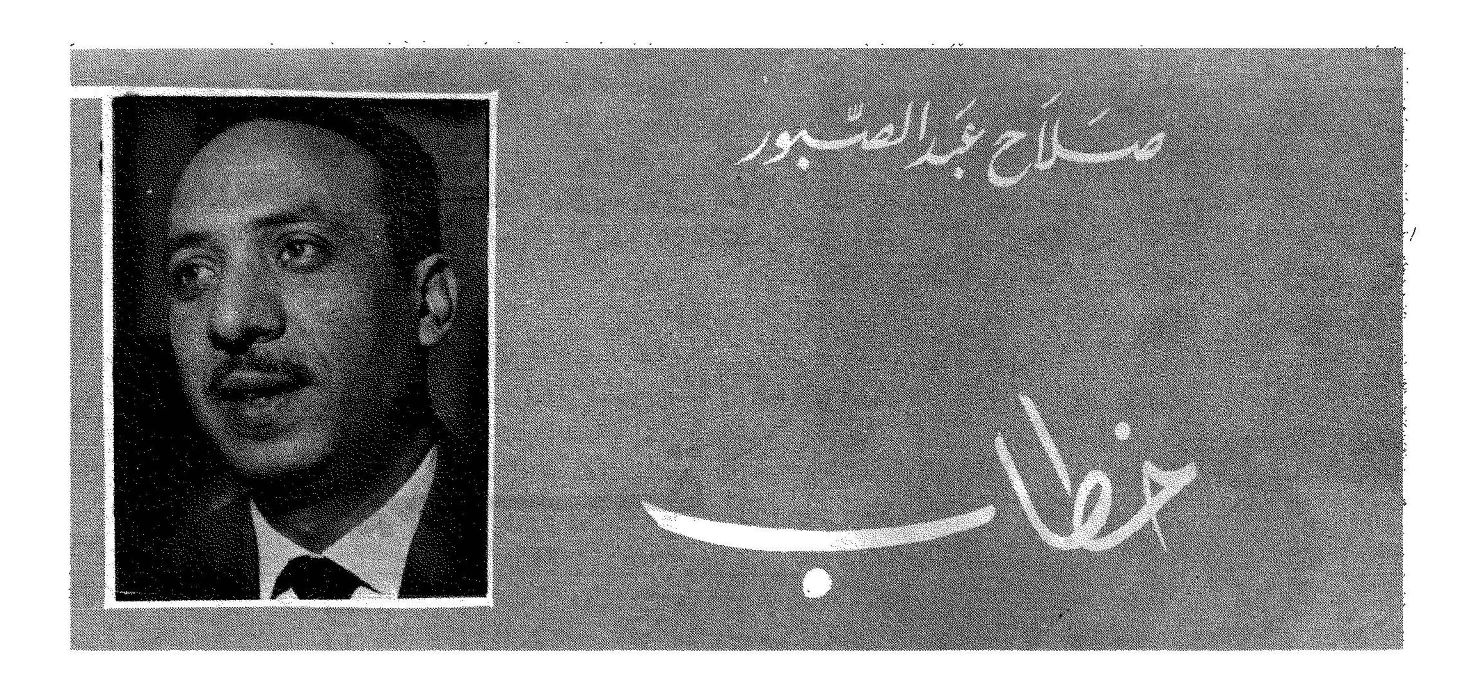
ومجلة « الآداب » لصاحبها الصديق العزيز الدكتور سهيل ادريس ، التي نحتفل اليوم بيوبيلها الفضي ، قـد حققت هذه المعجزة .

لا نحاول هنا في هذه الكلمـة الموجزة ، التي هي مجرد تحية من زميل الى زميله ، ومن مجلة أدبية شهرية الى زميلتها المجلة الادبية الشهرية ، نعم اننا لا نحاول هنا أن نتحدث عن تأثير مجلة « الآداب » ودورها الذي قامت به طوال هذه المدة ، في مجالات البحث والنقد والقصـة والشعر وسواها ، فمجلدات المجلة خير دليل على هـذا التأثير ، والمجال واسع أمام الباحثين والدارسين للقيام بأبحاثهم ودراساتهم في هذا المجال . وستبقى «الآداب» دائما مرجعا من مراجع الادب الهامة لتأريخ الادب فـي عصرنا هذا ، لا غنى عنه لمؤرخي الادب وتطوره .

ارجو من الاخ العزيز سهيل أن يعـذرني اذا انا قصرت في تحيتي هذه عن ابراز ما فيه الكفاية ممـا تستحقه مجلته الكبرى التي أتمنى أن يحتفل العالم العربي بيوبيلها الذهبي ان شاء الله .

ألبير أديب

صاحب مجلة « الاديب » ورئيس تحريرها



الى سهيل ادريس .. والى كل من يهمه الأمر !

.. وهكذا صحبنا « الآداب » ربع قرن من حياتها وحياتنا ، سبق ميلادنا ميلادها ، ولكنها ولدت شابة وحاولنا ان نكون شبابا معها . ثم مرت السنون بصخبها وغضبها ، فالتقت في مفارقنا تراب ايامنا المحترقة ، ولكن الآداب تظل شابة ، وهاهي ذي تخرج من حريق المحنة وقد اكتست ريشا وزغبا ، وها هي ذي تتأهب للتحليق مفتتحة رحلة ربع قرن جديد ، وها نحن اولاء نعود لنكتب ممسكين بالقلم كأننا نمسك به للمرة الاولى .. نفس الرعشة في اليد ، ونفس التوجس في القلب والخاطر .

وقد لا تعلم يا عزيزي سهيل ، وقد لا يعلم احبابنا من القراء الذين اولونا حبهم هذا الزمن الطويل ، انني لم امسك بالقلم منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات الا لخاطر عابر أو نفثة حبيسة . حتى لقد اصبحت لا آلف هذا القلم واوشك ان اخشاه . واني لاحاول الآن ان اتلمس في نفسي علة ذلك الاعراض فلا أجد الا الالم الممض واليأس اليائس ، وتطالما مرت بي ليال كومت فيها امام ناظري اكواما مما كتبت وكتب زملائي من ابناء هذا الجيل ... جيل الآداب .. ، وسألت نفسي : ترى هل جعلت اشعارنا وقصصنا ومقالاتنا عالمنا اكثر جمالا او اقل قبحا ؟ ولطالما ساءلت نفسي : أهذه هي صورة العالم العربي الذي كنا نحلم به في بداية الخمسينات حين خرجنا في غزوتنا لقهر الشر ودحر الرداءة ؟ هل كان العيب فينا ام في زماننا ، ام اننا قنعنا بالحكمة بينما كانت القدرة في يد غيرنا من اعداء العقل وخصوم التأمل والذوق .

لا اريد ان ادخل في متاهات السياسة ، فالسياسة الغربية عصية على التحليل . لا تنسجم معطياتها مع اي من المناهج التاريخية .. المنهج تلخيص الوقائع المفردة في نسق ، والسياسة العربية لا نسق لها ، وانما هي وقائع مفردة توشك ان تكون عشوائية . والعالم العربي غريب الشأن حقا . فليس هناك مجموعة من الناس كانت مؤهلة لدخول العصر الحديث بقدر ما كان العرب مؤهلين لذلك ، ولكنهم مع ذلك يشدون انفسهم شدا الى الزمن القديم ، وهم لا يشدون انفسهم الى زمنهم القديم ، بل الى زمن قديم وافد عليهم .. الى زمن المماليك والمغول . فيتشرذمون شراذم ، ويتحول سادتهم الى امراء اقطاع يجندون الجند ويحتكمون في امرهم الى الخديعة والسيف ، بينما تظل العامة تزرع وتقلع وتدعو الله ان يصلح الاحوال .

أين ما بشر به روادنا الاول .. رفاعة الطهطاوي ومعاصروه .. وطه حسين ومعاصروه ؟.. ان اسلافنا ليتميزون منا الان غيظا ، فقد اضعنا تراثهم المجيد ، ولعلهم زرعوا في الريح فجنت العاصفة الثمار . من يستطيع الآن ان يتحدث كما تحدث طه حسين عن حرية العقل فلا تحاصره الاصوات اللاغطة بالصخب الذي تذيعه وسائل الاعلام الحديثة عن الاصالة والسلف الصالح ، ومن يستطيع الآن ان يتحدث كما تحدث طه حسين عن حرية العقل الاثينية فلا تحاصره الاصوات اللاغطة بالصخب الذي تبثه المترجمات الرديئة عن الديموقراطية الاجتماعية والوعي الطبقي ؟

ايـة اصالة هي تلـك التي يتحدثون عنها ، واي مـن الاسلاف الصالحين ؟ ان من اراد اسلوب هارون الرشيد في ادارة الدولة اراد بالتالي اسلوب مسلم بن الوليد في الشعر ، ومن اراد اسلوب صلاح الدين الايوبي اراد بالتالي اسلوب القاضي الفاضل في النثر . وكلاهما يريد العـودة الى الجند المرتزقة ، والى نشوء طبقة « العسكر » التي تحمي الثغور حينا فاذا خلت من ذلك الهم عادت لتتسلط علـى رقاب العباد .

واي ديموقراطية اجتماعية هي تلـك التي يتحدثون عنها ،واي وعي طبقي . والعالم العربي كمـا يؤكـد فطاحله الايديولوجيون قد قام بما لا يقل في التعداد عن عشريـن او ثلاثيـن «ثورة» في اجزائه المختلفة ، وكلهـا ثورات تزري بالثورة الفرنسية والثورة الروسية ، ومع ذلك فان نسبة الاميـة فيه تزيـد عن سبعين في المائة حتى الآن. واظـن ان عالمـا كهذا العالم لن يستطيع فيه الفلاحون ان يمثلوا انفسهم ، بل سيتصدى لتمثيلهم والحكم باسمهم من يملـك وسيلة الاقناع التي تحدث عنها المعري حين قال :

تلوا باطلا ، وجلـوا صارمـا

وقالوا : صدقنا ، فقلنا : نعـم

ان ما يلوح لي ياعزيزي سهيل هو ان عالمنا العربي كـان يطمح منذ ولادته الحديثة في القرن التاسع عشر الى شيئين : هما الديموقراطية والتحديث . وقد سار للاسف في عكس هذين الطريقيـن في الثلاثين سنة الاخيرة .

***

وتطوف بي الآن ايهـا العزيز ذكريات معك ، فقـد قضى الله ان نكون قريبيـن في موقفين من اجلك ما مـر بالامة العربية ، وان ننفض احزاننا ومواجدنا كل لصاحبه.

صداقتنا طويلة ، ضحكنـا فيهـا كثيرا ،ولكننا بكينا معا مرتيـن ، لعلـك تذكرهمـا ايها العزيز .

هل تذكر يوم الانفصال ؟

لقد كنت في مؤتمر الادباء العرب ومهرجان الشعر بدمشق ، وغادرت العاصمة السورية قبل ان ينتهـي المهرجان بيوم قاصدا بيروت . وأويت الى فندق فـي شارع الحمراء (كيف هو الآن ؟). وفي الصباح كنـت اتناول افطاري في باحة الفندق الخارجية ، حين سمعت صوتا يهتف بي ، ونظرت لاجد وراء الزجاج وجه كمـال ناصر (صوبت الطلقة في فمه لكي تسكته الى الابد ، ولم يثأر له حتى الآن) ، وناديته فدخل ، لكي ينبئني بمـا يذيعه راديـو دمشق منذ الصباح من بيانات مرقمة ..

وتسمم الافطار وفسدت القهوة . فقد كانت الوحدة عوضا باذخا عن عناء ثقيل . كان كل ما حولنا سخيفـا متعطنا ، وكانت الوحدة هي الحلم النبيل ثم هي الحقيقة المضيئة وسط هذا الظلام المتراكم بعضه فوق بعض طبقات. وبعد قليل كنا ــ كمال وانا ــ نلتقي بشفيق الحوت فـي « الحوادث » لعل لديه اخبارا ،ثم ننتقل ثلاثتنا الى منزل سميرة عزام (قضت حسرة على هزيمة العرب في الخامس من يونيو) . ولعل سميرة كانت تجري تجربة المـوت المحسور في ذلك اليوم ، فقد بكت حتـى أبكتنا جميعا ، وفي الاصيل التقيت بك يا عزيزي سهيل ، ومشينا علـى الكورنيش نتباكى معا . ثم خطر لك ان تزور صديقا لنا يسكـن في شقة مطلة على الكورنيش في احد بنايـات بيروت الكبيرة ، واخبرك من بالباب ان صديقنا يقيـم احتفـالا بالانفصال !

هل اثرت المواجع القديمة ؟. لا عليك ، ولا لوم على صديقنا ولا تثريب ، فلقد عشنا زهرة حياتنا مرتبكين ، يختلط علينا الابيض والاسود ، وتتشابه امام اعيننا الاقنعة والوجوه . ولن اعطي لنفسي ابدا هـذا الحق المترف في ان اديـن احدا من ابناء جيلنا من الادبـاء . فلقـد بعثر وجداننـا كمـا يتبعثر الهشيم في الريح . ومددونـا مصلوبين على صليب اخد ذراعيه صدق مطلق وذراعـه الاخرى كذب صراح ..

ولنعد للبداية .. لعلك تذكر بعد ان افقنا من جهشات البكاء انني قلت ، وربما كان هذا رأيك ، ان سبب الانفصال كان هو : غياب الديموقراطية .

وهل تذكر ايام يونيو ١٩٦٧ التعسة ؟

كنت انت في القاهرة في تلك الايام ، وانقطعت بك الاسباب حين اغلقت المطارات .. وشهدت معنا احـداث اليوم المشئوم ، وبعد ان انكشف ستر الحقيقة من تحت غطاء الكذب والدعاية السوداء كنا نجلس في بيتي ، وكان معنا فيمـا اذكر رجاء النقاش .

لقد ازعجتك وقسوت عليك في ذلك اليوم ايها العزيز .. كنت حزينا فزدتك حزنا ، وكانت صورة « البطـل » نابضة في نفسك فانهلت عليها تحطيما وتمزيقا .. كنت احس انه قد خانني وخانك وخاننا جميعـا ، بينمـا خنـا انفسنـا ومعتقداتنا في الحرية والديموقراطية من اجله . لقد اغتفرنـا له كل شيء طمعـا في ان يصون كرامـة وجوهنـا في يوم كهذا اليوم ، ولكنه مرّغ وجوهنا في التراب .. واأسفاه .

وحاولنا ان نتفلسف ، وقد كانت كلمتا الفلسفـة والتفلسف كلمتين بغيضتين عند هذا البطل . وكان عادة يخلط بينهمـا وبين كلمتي الحذلقة والتحذلق ، ويطلقهمـا في مجال السخرية بالمثقفين .

وقادتنا ــ او قادتني ــ الرغبة في التفلسف ــ الى القول بان السبب فيما كـان هو غياب الديموقراطيـة ، وسألتنـي متحديا :

ــ ولماذا لم تتحدثوا ايهـا المثقفون عن هذا الامـر وتكشفـوه للناس ؟

وقلت لك في دعابة سوداء :

ــ اتظننا مجانين يا سهيل ؟ لو تحدثت انا مثـلا لاتهمت بابشع التهم . لن يكتفوا بسجني ، ولكنهم سيلوثون سمعتي وشرفي . ولسوف تبادر الصحف التي اعـرف

معظم العامليـن فيهـا معرفة وثيقـة الـى نشر صوري متهمـا بالخيانة والتخابر ، وربمـا زعمت لي نسبا الـى الصهاينة او غيرهم من الاشرار ، ونسجت لي قصة مـن الكيد القديم للبلاد .. وربما دفعتك انت ايها الصديق القديم الى ان تصدق في صاحبك ما قالوه من الافك ... انك لا تدري كيف يقف الفرد عاريا منزوع السلاح امـام مؤسسات الدولة الشمولية !

واظنك في ذلك اليوم لم تعجبك دعابتي السوداء . وسكت مطرقا ، ثم اجهشت بالبكاء .

وها قد مرت سنوات على ذلك اليوم . حدث فيهـا ما حدث . وكان اوجعه هـو الحرب الاهلية في لبنـان ؛ وقد خرجت منها سالماً بجسمك وروحك . وبالآداب روحا تريد ان تتجسد . ولكن لا اشك ان جراحك كثيرة ، غير انك تتجاوزها بحماستك وحميتك . لقد صنعت الاداب جيلا من الادباء كان تعس الحظ ، فلعلها تصنع في ربـع قرنهـا القادم جيـلا آخر يكون اسعـد من سابقه حظـا.

اما انا . فانني لائذ بصمتي .. حتى اجد ما اقول .

نيودلهي

ريجيس دوبريه

مذكرات برجوازي صغير

بين نارين واربعـة جدران

ترجمة د . سهيل ادريس

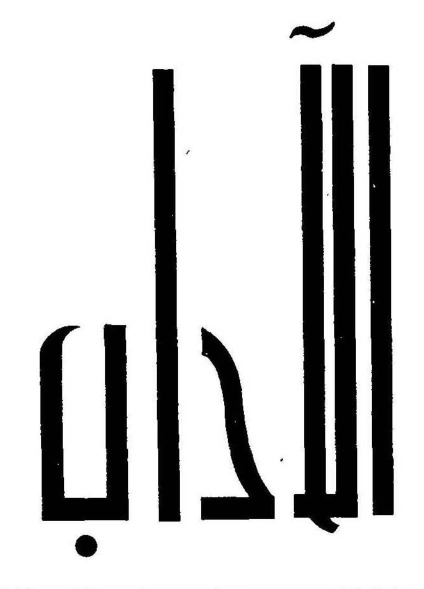
في اثناء الحرب البوليفية ، اعتقلت السلطات ، بعد مقتل تشي غيفارا ، الكاتب والمناضل الفرنسي ريجيس دوبريه وحكمت عليه بالسجن لمدة عشرين عامـا . ولكن انقلابا حدث عام ١٩٧٠ خفف عن دوبريه قيود الزنزانة في « كاميري » فسمح له بأن يقرأ ويكتب ..

وهذا الكتاب هو ثمرة افكاره وتأملاته في السجن ، وفي كثير من مقاطعه يخاطب الكاتب نفسه ، متحدثا عـن كثير من هموم المناضلين والمثقفيـن ، دون ان ينسى انه ينتمي في اصله الـى « البورجوازيـة الصغيـرة » ..

انه في سجنه ، يعيش في صحراء تبعـد الوف الاميـال عن اوروبا ، وداخل اربعة جدران يكاد يعتبر نفسه جزءا منها ، فيلتزم صمتا يتكوّن جرحه مـن الكلمـات ..

ان السجن هنا هـو لحظة الحقيقـة وقدامتدت علـى سنوات ..

منشورات دار الآداب ــ بيروت



المؤسسة التقدمية القومية

د . سعدون حمادي

كنا طلاب مدارس ثانوية عندمـا صدر العدد الاول من « الآداب » ، وكانت فترة ازدهار الثقافة الادبيـة الجديدة وبعث التراث الثقافي العربي ، حيث عمل الانتاج الثقافي ، الذي كانت تنشره المجلات الادبيـة المعروفـة آنذاك في العالم العربي ، على توثيق صلة الجيل الجديـد بماضي الامة وفتح قنوات الاتصال بالقيم الروحية والمثل العليـا التي اتسمت بها الحضارة العربية القديمة . وكان ذلك النشاط الثقافي ، انتاجا وقراءة ، هو الاساس الاول لبعث الروح القوميـة من دون شك . وعندمـا صدرت « الآداب »كمجلة ادبيةرصينة عالية المستوى ، لم نر فيها واحدة من المجلات الادبية الرصينة العالية المستوى التي كنا نعرفهـا آنذاك ، بل وجدنا فيهـا شيئا اخر هو انهـا اكثر وضوحا .. واقصد بذلك انها قد خطت خطوةجديدة الى الامام في مجال نشر الوعي القومي والدعوة للوحـدة العربية .. لذلك وجدنا بها شيئا جديدا . وربما كان ذلك هو الذي دعاني شخصيا لان ارسل لها مقالا يبحث فـي



فكرة القوميــة العربية بصورة مباشرة وانا طالب فــي الولايات المتحدةالامريكية،الذي نشرته في مكان الافتتاحية، وقال عنه الدكتور ادريس ، في رسالته لي حول هــذه الكلمة ، بالنص: (نشرناه افتتاحية ، ولم نكن نعرفك ، ولا تعرفنا) .. وتلك هي الحقيقــة بالضبط . كانــت « الآداب » ،بالنسبة لي ، اوضح مجلة ادبية في اتجاهها القومــي .

ومنذ ذلك الوقت اعتقد ان « الآداب » قــد حافظت على هــذا الاتجاه ولم تغير فيه شيئا .. وانه مما يسر حقا ان نجد في الوطن العربي مؤسسات ثقافية مستمرة ثابتة الاتجاه رغم كل ما حدث سياسيــا وفكريا في هــذا العالم الذي يمر بفترة انتقال مضطربة .

ان الاستمرار وثبات الموقف امور يجب عدم النظر اليهــا وكأنها امور سهلة التحقيق ، ولا هي من قبــل تحصيل الحاصل في مثل اوضاعنــا الحاضرة ،بل هــي تحتاج ، من دون شك، الى صفات معينة ومقدرة علــى السيطرة على الظروف بدلا من التأثر بها .. لذلك فهــي مزيــة تستحق ان تذكــر .

ولن يكون الحديث عن دور « الآداب » تامــا اذا لم نذكر انهــا تولت مهمة الدعوة الى تجديد المجتمع العربي.. فالآداب ليست مجلة محافظة ،بل هي مؤسسة تقدمية . لم تقف « الآداب » موقف اللامهتم بقضية انتقال المجتمــع العربي من طرق التفكير واساليب المعيشة التي تكونت في فترة الهبوط ، التي يدعوهــا المؤرخون بالفترة المظلمة ،الى طرق التفكير واساليب المعيشة الحديثة المتلائمة مــع متطلبات النهضة القومــية . واظن انها تناولت هــذه القضية ، وهي تسير ، من جميع النواحي . صحيح انها لم تتناول هذه المسألة (ولا حتى مسألة الدعوة القومية) بصورة نظامية ، الا انهــا عالجتها كلما سنحت الفرصة .. وقد لا يكون من المتيسر اصلا معالجتها بصورة نظاميــة بضمــن ظروفها كمجلة محدودة الوسائل في العالم العربي .. ولكــن ،مع ذكر كل ذلك ، فقــد عالجت « الآداب » مسألة التقــدم .

واستطرادا في الحديث عن هذه القضية ، يسرني ان اقول شيئا أكثر ، وهو انها قد عالجت هذه المسألة بنظرة قومية ، اي انهــا اعتمدت الواقع العربي اساسا ولــم تنفصل عنه ، ولم تقع في الخطأ الشائع الذي ينشد التقدم في البحث النظري والانفصال عن التجربة والشخصيــه القوميــة .

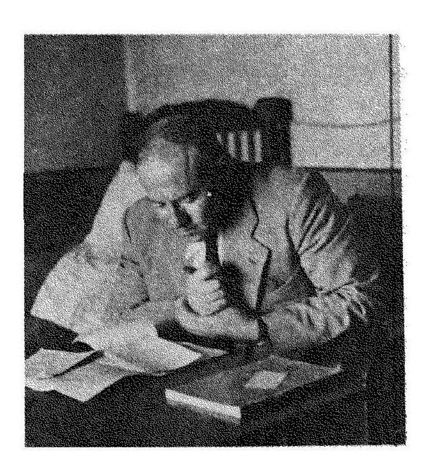
اننا الآن نعيش فترة لا يمكن ان تعتبر امتــدادا صاعدا للوعي القومي ، واقصد بذلك ، على وجه التحديد ،، ان الفترة الحاليــة تشهد فتورا في الاهتمام الثقافــي بالقضيــة القومية وبهدفها الاساسي : تحقيق الوحــدة العربية ، بدون التعرض للاسباب .. لذلك يتحمــل المثقفون العرب مسؤولية خاصة في هذا الوقت بالذات، وهي بذل جهد خاص لتصحيح هذا الوضع . فالقضيــة القوميــة بحاجة الى تحريك ، والوعي القومي بحاجة الى غذاء جديد . لقد شهــد الوطــن العربي تطورات واحداثا، كما شهــد العالم تطورات واحداثا ، وقد ازدادت كثيرمن الامور وضوحا : عربيا وعالميا ، ولكن خلاصة كل ذلك هي ان العالم العربي لا مستقبل له الا بوحدته القومية ، ولا حل ، لاي من مشاكله الكبيرة ، الا بقيام دولة الوحدة . اذا كان هذا التحليل صحيحا ، واذا كانت الفترة الحالية تشهد فتورا بالاهتمــام العام بهذه القضية ،اصبح علــى المثقفين العرب واجب عام لا بد من تأديته .

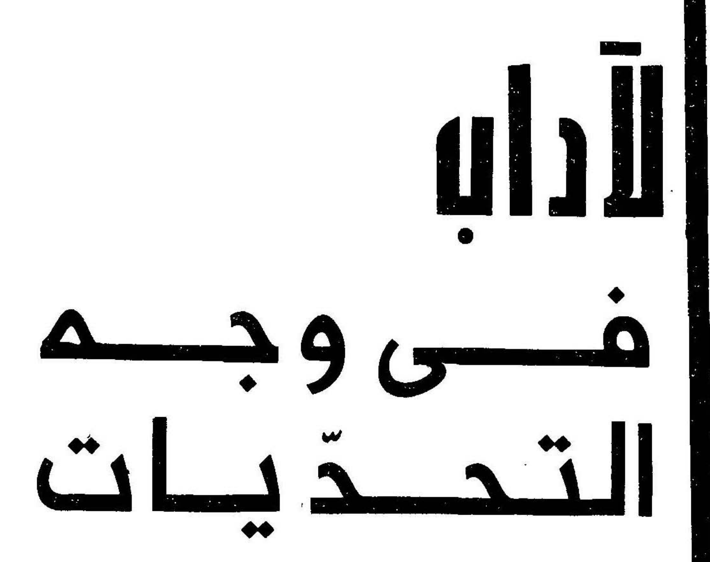
ان « الآداب » ، كما قلنا ، مؤسسة ثقافيــة عنيــت بالوحدة العربية وبالنهضة العربية منذ البداية ، وهي اليوم اكثر خبرة وحكمة من ايام نشوئها الاولى ، لذلك فهــي ممــن يقع عليهم الواجب الذي اشرنا اليه .. فهي ، كمــا حققت ، عندمــا صدرت ، خطوة جديدة الى الامام فــي الوضوح ، تستطيع الآن ان تحقق خطوة جديدة اخرى في نفس الاتجــاه .

صحيح ان « المجلة » تعكس، لحد بعيد،انتاج كتابها، وكتابها من هذا المجتمع يتأثرون باهتماماته السائــدة ، ولكن،مع كل ذلك، هنالك دور مهم للارادة والتأثير فــي الواقــع .

يسرني حقا ان اكتب شيئا في هذه المجلة بعــد انقطاع طويل ، ويسرني ان ابقى من اصدقائها وفي محيطها الثقافي .. فلها مني تحيــة التقدير وتمنيات النجاح على نفس الطريق فيمــا هــو قادم من سنينها ..ولصديقي الدكتور ادريس التحيات والتقدير .

بغداد





ذو النون أيوب

انه لشيء يلفت النظر ، ويستوجب التقدير ان تعيش مجلة ادبية عربية ، مهما كان نوعها ، ربع قرن . واما ان تكون هذه المجلة قد اختطت خطة عربية . في سياستها، ودافعت عن الحرية الفكرية اجل دفاع ،وتطلعت الى نشر ثقافة انسانية عالية ، متحدية كل انواع المعوقات والمثبطات ، بل والمدمرات ، من القوانين والانظمة الرجعية، في لبنان وغير لبنان ، فامر يدعونا الى ان ننحني للدكتور سهيل ادريس وازوجته المصون ، وننتظر يوما سيشترك فيه الاولاد والبنات في هذا المجهود العربي السامي .

يوم رجع الدكتور سهيل ادريس من باريس يحمل شهادته العالية في الادب اسس مجلة الاداب ، وكنت يومئذ اخوض ، مع الادباء الاحرار في العراق معركة صعبة، ضد سوء الفهم والتخلف ، والتسلط الاستعماري، محاولين الدفاع عن الفكر السامي ، والسياسة الاستقلالية ، عن طريق الادب . وكانت اغلب الصحف في العراق علينا لا لنا . واذا بمجلة الاداب في لبنان تفتح صدرها لنا ، وتبادر بالاشادة بمجهودنا ، وتنشر لنا ما تجود به قرائحنا ، في مناسبات سياسية مرعبة ، دون تردد او وجل. ليس هذا وحسب، بل جعلت من نفسها منبرا لكل اديب مبتدىء ، او شاعر مجدد ، وكم تخرّج من مدرستها من اديب اصبح يشار اليه اليوم بالبنان .

وتشتد المعركة في البلاد العربية بين الاستعمار والحرية والصهيونية والعرب ، والرجعية الرأسمالية والاشتراكية التقدمية ، ومجلة الاداب سلاح ماض للعرب والاشتراكية والتقدمية ، سلاح لا يفل ، واصيبت من جراء ذلك بجروح وندوب ، واصيب الكثير من الاحرار بطعنات، اتت من الاصدقاء الغافلين ، والاعداء الالداء على السواء

فلا تنسى الآداب ، وهي في محنتها ان تدافع عن اصدقائها القدامى ، وابنائها الذين تربوا على صفحاتها، متحدية سوء الفهم ، غير مبالية بالمفاهيم الآنية الغامضة، التي حاولت ان تفرق بين المرء وزوجه ،والاخ واخيه ، والصديق وصديقه . بقيت منبرا حرا للفكر النير ، والوطنية الصادقة ، والتسامح الفكري النبيل ، ولم تكتف بصفحاتها الشهرية المعدودة ، بل انشأت لها دارا للمؤلف والناشر ، فترجمت روائع الادب العالمي ، غير مبالية بالتعصب والتزمت،عقائديا او سياسيا . وكنت اتصورها تلهث تحت سياط التخلف وسوء الفهم ، ولكنها لم تتأوه. واخيرا تمخضت النزاعات العالمية ، عن نقل رحى الحرب الى بلاد العرب ، لاعانة الصهيونية في محنتها العالمية . وبدات المذابح والمجازر ، واثخن لبنان بالجروح. وتحولت بيروت لؤلؤة الشرق ، الى انقاض . واغلقت البنوك والمتاجر ابوابها . ولم تثبت مجلة ولا صحيفة امام هذه الكارثة . واذا بمجلة الآداب تتحدى الموت فتصدر ، وقد تتأخر ، ولكنها تصدر،من بيروت،اوبغداد ،لتقول للعالم: اني اتحدى كل ما ركم عالم الهمجية من اساليب الفناء. اني ما زلت على قيد الحياة .

مرحى للاداب ، ومرحى لابيها وامها ، وبقية اسرتها، وتحيات من القلب من احد المعترفين بفضلها . ولتتقبل اعجاب انسان يقدس الحياة العاملة في سبيل خير الانسان .

محمد النقاش

... ولم تغرق السفينة . حساباتنا وتقديراتنا هي التي غرقت . وعبد الله المشنوق وانا أسعد الناس بهذا الغرق . وليت المرحومين محيي الدين وانيس النصولي على قيد الحياة ليشاركانا هذه السعادة .

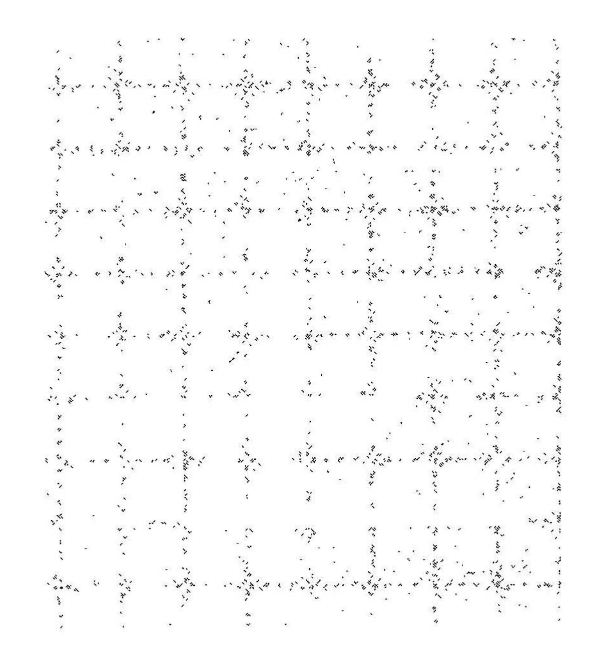
لم تغرق « الآداب » بل مخرت عباب الزمان على طول خمسة وعشرين عاما ، في امان واطمئنان ،واستوت على يوبيلها الفضي سالمة غانمة ، واستوى ربانها الهمام سهيل ادريس على عرش النجاح .

لقد غنى « مواله » واستراح ... غناه طويلا طويلا باذن الله ، والسامعون يرددون : كمان وكمان ...

ولم تنحرف السفينة عن الطريق الذي رسمه لها سهيل ادريس منذ البداية . لم تحمل بضاعة مزجاة او غرّتها صفقة تهريب ... ظلت على امتداد خمس وعشرين سنة مشحونة بالادب الجيد والجديد ، شعرا وقصة ومقالة ودراسة . لم تعرف هبوطا ولا اسفافا . بل على العكس ظلت ابدا في صعود وتجويد ، على مهل بالتأكيد، لكن في ثبات . ولم تنجرف في أي تيار من تيارات التبذل والزخرف والماكياج . كانت على الدوام رصينة المظهر والمخبر . نميل عن العرض الى الجوهر . لم يتلون منها الا نصف غلافها ، وبكثير من الوقار ، فكان كوشاح صفير زاه فوق ثوبها الابيض ــ الاسود الذي لا يتغير .

بالاختصار كانت خلوا من كل شعوذات العصر . ومن هنا معجزة نجاحها ، أو قل مجرد عيشها هذا العمر الطويل . أما سر المعجزة ، ففي منتهى البساطة . انها حصيلة الاخلاص لما نحب ، وبذل اقصى الجهد لسلامته وازدهاره . وهما فضيلتان تحلى بهما سهيل ادريس الى جانب مواهبه . ولئن عمل في الصحافة ذات فترة عشر ساعات في اليوم ، وعمل مثلها طالبا للدكتوراه في باريس ، فقد راح يعمل في « الآداب » عشر ساعات واكثر . وكوفىء باخوان صدق من شعراء العرب وادبائهم ومفكريهم رجالا ونساء ، ممن قدروا « مغامرته » حق قدرها ، فآزروه بغير حساب . وكانت « عايدة » بقلبها وقلمها شريكة حياة ورفيقة كفاح .

ولم تكتف « الآداب » في رحلتها الشاقة والسعيدة معا برفع لواء الادب الجيد والجديد والملتزم ، فرفعت باليد الثانية مشعل القومية العربية المتحررة وثورتها العارمة ، بالتزام طوعي ، لا هوادة ولا تردد ولا انحناء . وبذلك اصبحت مجلة العرب الاولى على صعيد الروح والفكر والمذهب . وكانت هذه المكانة دليلا آخر على ان الشعب العربي الذي يبدو عليه التخلف حينا والتمزق

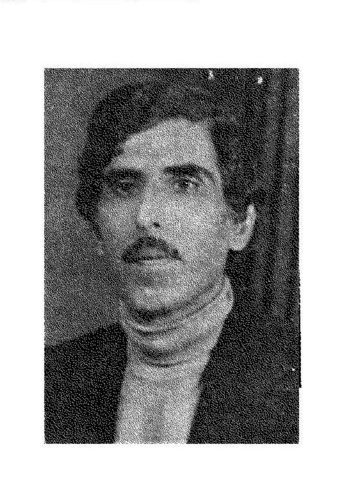


حينا آخر ، شعب راشد ، مقدر للجميل والحسن عندما يتسمان بالصفاء والجودة ، ويكون من ورائهما جند أمناء مستعدون للتضحية .

نعم ، المهم هو الاستعداد للتضحية . فربما كان الاستعداد لها كفيلا بتفاديها . تماما كما يقول العامة في الشجاعة : لا تهرب من الموت يهرب منك . وقد كان سهيل ادريس مستعدا للتضحية ، مصمما على قبولها حين عزم على اصدار مجلته برسالتها المحددة . فعل ذلك دون ان يدل أو يمن على أحد ، ودون ان يسترحم احدا او يستجديه . كان محتشما في الامر احتشامه في كل شيء . فوافاه الرزق حلالا زلالا ، ان لم يكن مباشرة بمجلة « الآداب » فعلى جوانبها تأليفا وترجمة ، نشرا وطباعة . ولئن لم تهبط عليه الثروة الواسعة (لحسن الحظ ...) فقد هبطت عليه نعمة العيش الكريم ، العيش المحتشم ، وقضت على أسطورتنا القديمة المعروفة عن ادراك الفقر كل من « ادركته حرفة الادب » ...

وبعد ، فمبارك وسعيد عيد « الآداب » الفضي . انه عيد كل عربي يعتز بالتراث ، ويؤمن بالتقدم . عيد كل عربي يحب الفكر والفن ويتذوق الجمال . فبازدهار القيم والمبادىء التي حملتها « الآداب » وسوف تحملها أبدا ، ترقى الشعوب .

بيروت



جيـــل الاصـــابع المتوتّرة

سَعْدي يوسُف

ربع قرن من زمن صعب .

كيف قطعنا ربع القرن هذا ؟

وكيف استطعنا ان نواصل مع اصابعنا المتوتـرة النحيلة ، مشتبك الاحداث ومشتبهها ؟

ونحن اناس لا نمتلك سوى الاصابع المتوتـرة النحيلة ...

سقطت انظمة ، ونهضت انظمة .

اندلعت حروب ، وتهاوت رايات .

فقد قادة ، العرب . وافتقد العرب قادة .

ونحن الذين لا نمتلك سوى الاصابع المتوتـرة النحيلة ، ظللنا متشبثين بوهم لن نتخلى عنه يوما ، وهم اننا مغيّرو حياة ، ومبدّلو مصائر ..

لقد تهاوى من بين صفوفنا العديد : قهرا او اعياء، يأسا او شراء .

ولقد اطبقت علينا الانظمة : رقابة وسجنا ، نفيا وقتلا ، فغاب الغائب ، وغيّب الشهيد .

ولقد خيّرنا فيما نكتب ، بين المصادرة والمسايرة، فكان ما يصادر ، وكان من ساير ...

ربع قرن من زمن صعب .

وفي ربع القرن هذا ....

في المشهد كله ..

بل في البؤرة من هذا المشهد كله ، كانت« الاداب ».

***

لاكاد اقرن عمري الشعري بعمر « الآداب » ..

فقبل خمسة وعشرين عاما ، اصدرت اول مطبوع شعري ، كراسا في ملزمة واحدة،يضم قصيدة واحدة..

وقبل خمسة وعشرين عاما ، صدر العدد الاول من « الاداب » ، مجلة تعنى بشؤون الفكر ، تضم هيأة تحريرها اسماء ذات مسميات :

منير البعلبكي – جورج حنا – حسين مروة – سهيل ادريس – واسماء عزيزة اخرى ...

كان للعدد الاول من « الآداب » طعم النبيذ الجديد.

وكان صدوره ، كالفجاءة ، بالنسبة لنا ، نحن الذين افتقدنا الالوان الجديدة ، منذ خبت تلك السنوات المجيدة من عمر مجلة « الاديب » .. ايام كانت ترضي وتدغدغ عندنا نزوعا طليعيا معينا .

واذ كنا نتقرى حروفها – الآداب – ، ونتاج اسمائها اللامعة ، وجدنا بين ما تنشره نتاجا لاسماء لم نسمع بها قبلا ، ولم نقرأ لها ، وكان هذا النتاج مكتوبا ، هو ايضا ، بجد وجدة واضحين ..

آنذاك بدات صدورنا تخفق باغراء مراسلة « الآداب » ولم نكن لنطمح الا بالدخول من باب « المطبخ » كما يقال ... باب الرسالة والتعقيب الوجل الوجيز ..

واتذكر أن تعقيبا كهذا ، نشرته لي المجلة عام ١٩٥٤ ، وكان عن قصيدة « اغنية في شهر آب » لبدر شاكر السياب ....

***

وتتوالى اعداد المجلة ..

ونقرأ لبدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي وصلاح عبدالصبور وكاظم جواد ... وتتبنى « الآداب » حركة الشعر الحر ، كأعمق ما يكون التبني واصفاه ، وتشق حركة الشعر الحر سبيلها الثوري الذي غيّر البنية الكاملة لشعر امة كاملة .

واقولها صريحة ، ان دور « الآداب » في عملية التغيير هذه ، لهو من الاصالة والشجاعة والاستمرار ، بحيث لا يمكن ان نفصل انتصار حركة الشعر عن مجلة « الآداب » .

واعتقد ان « الآداب » قامت ، هنا ، بالدور الـذي تطمح المجلات العظمى الى ان تقوم به :

دور البؤرة التي تنتظم حركة واسعة للتغيير فـي ضمائر الامـم .

في سنوات الغربة الطويلة ، بعيدا عن العراق .... (١٩٦٤ ـ ١٩٧١) ،كانت « الآداب » لـــي ، الصديق ، والعون،والنافذة ... كما كانت الناشر ، حين اصدرت مجموعتي « بعيدا عن السماء الاولى » سنـــة ١٩٧٠ . ايامها ، كنت في مدينة بأقصى الغرب الجزائري ، فــي « سيدي بلعباس » ، ولفترة طويلة كان جواز سفــري مسحوبا . كان من الصعب تمامـا عليّ ان أتابع ما يجري في المشرق من امور متصلة بالثقافة ..

واشهد ان الرجل ، د . سهيل ادريس ، داب بامانة المثابر ، على ارسال « الآداب » اليّ ...

وكان كل عدد منها فرحة عزيزة .

الاصدقاء الذين انقطعت اخبارهم ، وتفرقوا في ارض الله الواسعة ، يجتمعون في صفحاتها .. انهم يزورونني محتفلين ، في كل عدد ..

ارى قصائدهم وابتساماتهم واحزانهم .. واتابع معهم رحلة العمر ، التي تبدو ـ احيانا ـ مثقلة الخطـــى بالرصاص .

في تلك الفترة ، كان لمجلة « الآداب » فضل عميـم عليّ ، اذ واظبت على نشر قصيدة لي ، في كل عدد مـن اعدادهـا تقريبـا ..

وربما كان للمجلة تأثيرغيرمباشر ـ بل مباشر ـ في اعانتي على مواصلــة الكتابة ، وانا في « سيدي بلعباس » بأقاصي الغرب الجزائري .

وفي الفترة ذاتها ..

وللمرة الاولى في حياتي الشعرية ..

يكون لقصيدتي في رثاء بدر شاكر السياب ان تحتل صفحــة « الآداب » الاولى ..

يا للرحلة الطويلة ، الشاقة ، والبهية :

من « مطبخ » المجلة ، الى صفحتها الاولى !

***

هو ربع قرن اذن .

في ربع القرن هذا ، ظلت « الآداب »، تتنفس نبض الحياة العربية ، تتألق اذ يتألق النبض العربي ، وتخفت اذ يخفـت .

انها مجلة لم تعتمد « عطايا » الانظمة سندا ، ولـم تفرط بكلمة الحق حين تنبغي المجاهرة بالحق ، وان لحقها بسبب ذلك عنت ، وضاق بها سلطان ومتسلطون .

وللحق اقول ، ان مجلة مستقلة للفكر ، ستظل غير قادرة على منافسة المجلات الرسمية ، ماديا ..

لكنها ـ بالتأكيد ـ ستظل قادرة على منافسة المجلات الرسميه ، ما دامت امينة لحرية الفكر ، وقدسية المنبـر الطلـــق ..

وما دام المبدعون العرب ، متشبثين بحرية الفكر ، وقدسية التعبير الطليق .

انها لمفخرة لهذا الجيل ...

مفخرة ان يستطيع جيل من الاصابع المتوترة النحيلة ، امداد مجلة فكرية مستقلة ، طيلة خمسة وعشرين عاما .

ومفخرة ان تستطيع هذه المجلة ـ باصرار غريب ـ مواصلة استقلاليتها الرائعة ... منبرا حرا للثقافة الوطنية وابداعاتهـا .

قد آخذ على « الآداب » هذا الشيء او ذاك ...

لكنني ازاء المسيرة المجيدة ، لا املك الا ان اظــل متحمسـا للمجلة ، حماستي الى الجيل الـذي رفدهـا ، والرجل الذي امدّها ، والسيدة التي غذتها ..

وبالتأكيد ، سيظل لـ « الآداب » دين في اعناقنـا يستحق الوفــاء .

بغداد

سليمان العيسى



الآداب المقاتلة

غرفة المدرسين تزدحم بالزملاء في ثانوية المأمون بحلب .

وجرس الدرس يقرع ..

والطلاب الشباب يتزاحمون في اروقة المدرسة كل . يريد صفه ..

وما أذكر اني تأخرت لحظة عن موعد درس .

ولكن موزع البريد يستوقفني على الباب ليناولني رسالة من بيروت .

الرسالة من « دار العلم للملايين » ..

وافتحها على عجل وأقرأ .. وأنا ماض في الرواق .. أريد غرفة الصف .

مجلة جديدة ..

مجلة أدبية اسمها « الآداب » ستصدر قريبا جدا عن « دار العلم للملايين » يرئس تحريرها ـ فيما أذكر ـ الدكتور سهيل ادريس ، ويشترك معه في اصدارها الاستاذان منير البعلبكي ، وبهيج عثمان .

المجلة تدعوني الى أن أكتب فيها ..

أن أنشر قصائدي الجديدة على صفحاتها .

والمجلة جادة فيما يبدو .. والدعوة جادة .

وطويت الرسالة في جيبي وغرقت في الدرس .

ولكني اذكر ان ارتعاشة سرور عميق استقرت في أعماق صدري في تلك اللحظات ..

كان ذلك في أوائل الخمسينات من هذا القرن .

هل تريدني أن أحدد السنة ؟

من الذي لا يمكن أن ينسى مثل هذا التحديد بعد ربع قرن ونيف من الزمن ؟

وأية ذاكرة لا يمكن أن تهتز بعد كل هذا التاريخ الذي طحننا بأحداثه ربع قرن من الزمن ؟

* * *

وتمضي أيام ..

ويأتينا العدد الاول من « الآداب » ..

ونتخاطفه من المكتبات ..

وأقرر أن أنشر قصائدي التي كنت اقاتل بها وما أزال ..

اقرر أن أنشرها في هذه المجلة العربية المتحمسة الجديدة « الآداب » ..

ان دما جديدا يجري فيها .

وانها لتفتح صدرها لربيع جديد .

هذا ما قلناه فيما اذكر ونحن نطالع عددها الاول .. قل أعدادها الاولى .

لا اذكر اية واحدة من قصائدي كانت الاولى التي أخذت طريقها الى « الآداب » ..

مرة اخرى .. من الذي يستطيع أن يحدد بعد ربع قرن طحننا بأحداثه ؟ من يستطيع ؟

ويطلب الي الاخ الدكتور سهيل أن أتذكر .. وأن أقول شيئا في هذا التاريخ ..

وأجهد ذاكرتي ..

ثم أعود فأتمنى لو فتح مجلدات « الآداب » وأراحني ..

انها كانت السجل العربي الذي رافقنا ..

قاتل معنا .. بما يملك من سلاح وعتاد .

وقف معنا ..

فتح صدره لنا ..

سجل لا نستطيع أن ننكره .. ولا يستطيع ان ينكرنا ..

* * *

وأسافر مرة الى بيروت ..
وأقصد الى الاخوة في « دار العلم للملايين » ..
ويستقبلني الصديقان العزيزان منير وبهيج . ـ كان الدكتور سهيل غائبا آنذاك ـ
ويقول لي الاخ الاستاذ منير :
لقد استقل الدكتور سهيل « بالآداب » .. صارت ملكا خالصا له ..
وأعلق : وماذا يهم ؟ وما الفرق ؟
ستبقى المجلة منبرا لنا .. نحن الشباب العرب ..
لا تنسوا اننا كنا شبابا في ذلك الحين .. نحمل في صدرنا أمتنا العربية الواحدة .. ووطننا العربي الرائع المزق الكبير .
وأوالي ارسال قصائدي الى « الآداب » ..
وتنشرها المجلة العربية المقاتلة معنا بما تملك ..
« ولا يكلف القتال نفسا الا وسعها .. » .
وتتصل بيني وبينها الرسائل مع القصائد ..
ونمضي في طريق العروبة التي تبحث عن نفسها تحت الشمس .
طريق صعبة دامية ..
ولكنها الحلوة المرة .. والمرة الحلوة ..
ونحن الذين اخترناها ..

* * *

اقرأوا « الآداب » ولا سيما في مجلداتها الاولى ..
ستجدون كتابنا وشعراءنا الذين حملوا الشعلة ..
وقاتلوا بالكلمة الى جانب السجن والتعذيب والدمع والدم ..
ستجدونهم في « الآداب » ..
« على الرصيف » .. « الارض التي وزعها المذياع » .. « في شارع أبي رمانة بدمشق » .. عشرات القصائد مما لا أذكر كانت تحملها لي صفحات « الآداب » ، ومنها تجد طريقها الى اخوتنا الشباب العرب الذين أكتب لهم .. وأتنفس برئتهم .
كنا في مرحلة البدايات ..
ولكن البدايات .. ولكن الينابيع الاولى تظل الاصدق والاحلى والاغلى ..
لا أريد أن أطيل ..
سيفتح الصديق العزيز الدكتور سهيل مجلداته الاولى من مجلته العزيزة .. وسيجدنا هناك ..
بطفولتنا الصافية ..
بشبابنا الجمرة ..
بهمومنا وأحلامنا العريضة ..
أما أنا .. فاني ما زلت مصرا على الينابيع .. ما زلت مصرا على الطفولة .. والاطفال .
وتحية لرفيقتنا القديمة ..
وتحية للصديق والاخ العزيز .. سهيل ادريس .
ومرحبا بشريط الماضي يعرضه علينا هذا العدد ..

شهادة ميلاد واغنية الى نفس

في الاول من ديسمبر ١٩٦٣ اخذتك في احضان السر خفيفا ، وطوحني العشق الفجائي الى مسارب لم تكن نألفها خيول جسدي ، وفي الطريق الى « بابل » طرحت عليك ثياب غبطتي الاولى .. ومشيت قربك عاريا انتظر حفيفا يأتي من اوصالي .. كنت اكبر منك سنا ، ولكن حين اسميتك امي طلعت لي من صدرك آلاف الاثداء اللبنية .. وحين استضفتك خجلا في حقل من حقول ابي ، نزلت علينا طيور كثيرة الالوان تنثر علينا ريشها ، وتشهد عقد قران الاثنين ـ آه كم ارتكبت معك وجدا ـ وتذكرت اني اثب على جرف في الدلتا ، واني ادخل في مداد الخليقة أخط اول حرف في ديوان المملكة ـ التراجيديا الريفية ، واني اعرف تاريخ ميلادي .
بمنتصف الليل على مقهى يدعوه الشعراء : المرج (ها أنذا ادخل اقطارا واسعة ، فأجالس كل الشعراء بمنتصف الليل على مقهى يدعوه الشعراء : المرج الشعري ، اقرب من جسدي رائحة الياقوت ورائحة الصفو الملكي والبس تيجان المملكة البيضاء ، افتش عن جسد تلبسه تيجان الرعي الملكي :
هنا امرأتي أوفت اعوام مراسمها .. وانتظرت تحت سماء ميتة قمرا يطلع من بين خفايا التدوين) .
وفي آخر الليل يا حبيبتي كنا نلبس معاطفنا ـ نحن الشعراء الغرباء ـ ونلحق بآخر ترام متجه الى منازل آهلة بسكناها ، فندخلها ونضب وراءنا أبواب الصفحات المبجلة .
وحين طوحت بي الدنيا الى كل جهات الارض .. كنت اسأل في الموانىء والمطارات وفي الشوارع الغريبة ، عن منزل يسكنه شعراء الفيروز .. وابكي على ارصفة الليل وحيدا .. لان حبيبتي التي تعذبت معي في زمن الوصل طويلا ، تركت على جسدي علامة الثديين ، وهجرتني عشرة أعوام كاملة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٦) وقد سميتها عام الانكسار العربي .
وعلى مقهى في شارع محاصر بالجنود وبالمتاريس .. رأيتك فجأة تقبلين من خلف الثياب فانخطفت روحي اليك ـ انخطفنا معا ـ ودخلنا ارض التذكر :
ها أنذا الملك الضليل ابحث عن ملك ابي الضائع، واكمل قربك عامي الاربعين .. وانت تكملين عامك الخامس والعشرين .. وانت امي .

حسن النجار

القاهرة

تحية .. وذكرى

د. عبدالعزيز الأهواني

أما التحية فهي للمعنى الجديد الذي تحمله الى نفسي اليوم مجلة « الآداب » . لقد حملت اليّ والى قرائها من قبل وخلال سنوات طويلة معاني التجديد والتقدمية ، كما حملت رسالة العروبة تستكشف بها آيات ماض مجيد ، وتتطلع بها نحو مستقبل منشود . كما كانت رباطا بين أجيال متعاقبة ، وصلة بين حضارات متجددة .

ولكن المعنى الجديد الذي تضيفه « الآداب » اليوم هي انها صارت في ضميري رمزا لمعنى الصمود . وانه لمعنى كبير ذو دلالة خطيرة .

ان وطننا تعصف به الاعاصير من كل جانب ، ويحاول خصومه في عناد أن يطفئوا كل مشاعل الثقافة والعرفان لجدير به أن يستبشر وأن يتفاءل حين يرى شعلة على مدى ربع قرن تقاوم العواصف ، وتصمد في شجاعة وعناد ، وتظل ترسل أنوارها في كل اتجاه ... انها تحية الحب والامل والابتهاج .

***

أما الذكرى فانها حول موضوع من أخطر مواضيع حياتنا الثقافية هو لغتنا العربية .. فلقد حملت صفحات « الآداب » منذ سنوات خلت مقالا بعنوان « العربية الفصحى في حرج » قارن كاتبه فيه بين اللغتين اللاتينية والعربية . وتساءل هل هنالك قانون لغوي يحكم على العربية بأن تلقى نفس المصير الذي لاقته اللاتينية فتموت لتحل محلها اللهجات العامية ؟ وأثار التساؤل عددا من القراء ، فحملت « الآداب » ردودا في أعداد تالية تهاجم المقال ، وتناقش القضية نقاشا موضوعيا هو الاقل ، ونقاشا عاطفيا هو الاكثر .

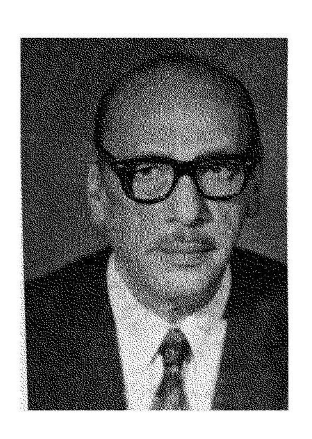
ومضت الايام ، وأعاد الكاتب النظر في القضية ، وتقصى جوانبها المختلفة ووضع القوانين اللغوية التاريخية موضع الفحص ، وانتهى فيما بعد الى ان المشكلة اللغوية في الوطن العربي ليست مشكلة العامية ومزاحمتها للفصحى ، وانما هي مشكلة الامية ونفوذها بين المواطنين العرب . وانه حين يقضي الوطن العربي على الامية التي فرضتها عصور التخلف والضعف ستنقضي بانقضائها المشكلة التي كانت ولا تزال تؤرق المخلصين من أبناء هذا الوطن .

فهل نطمح في أن تسهم « الآداب » ــ ونحن في ذكرى عزيزة ــ بنصيب في هذا المجال ، فتخص الامية بدراسات تنفذ منها الى جوهر المشكلة وتستكشف أبعادها اللغوية والاجتماعية والتاريخية ؟ انها لقادرة على أن تنهض بذلك .

واخيرا فان كاتب تلك المقالة المذكورة ومرسل هذه التحية المخلصة :

عبدالعزيز الاهواني

القاهرة



جيل بعد جيل

أمل دنقل

يلتفت القلب الى الوراء !

هل كنت انا ذلك الفتى الممتلىء بالحلم الواثق (اليوم: اجمع شظاياه من أرضية الروح القاتمة) ، هل كنت انا الذي وضع ذات صباح قصيدة في غلاف وعنونها : بيروت ــ الخندق الغميق ــ شارع سوريا (الآن : من حفر الخندق بين بيروت وشارع سوريا ؟) يلتفت القلب الى الوراء : من دل يدي على عدد الآداب قلبت فيه فوجدت اللمسة التي هش لها القلب ، لمسة جيل جديد يكتب ببساطة ورقة وسخرية واثقة ، حتى المعارك التي تشتعل خلف غبارها عذوبة طفلية ورغبة جارفة للكبر قبل الاوان .

يلتفت القلب الى الوراء :

كيف استطعت ان اصبر عددا تلو الآخر دون ان اجد اسمي ، لا بد أن بضاعتي فاسدة دون ان أدري ــ الى الاسكندرية ايها المغامر ، لا شعر بعد اليوم ــ واكتشفت فيما بعد أن قصيدتي نشرت ، وهكذا قرات قصيدتي الاولى في الآداب بعد عامين كاملين من نشرها ــ حين قررت العودة الى الشعر والقاهرة ، استعنت بصديق لاستعيد ما فاتني من القصائد والاسماء ، وهكذا وجدت نفسي محشورا في صفحتين كاملتين وتحتهما توقيعي الكريم (رحم الله صديقي : فقد تخرج وحارب وتزوج وانجب وطلق ومات في خمس سنوات) اذن فالآداب طويلة البال والحبال ، ولو ظللنا على هذه الحال لفقأت الآداب مرارتي : قال لي صلاح عبدالصبور : لماذا لا ترسل شيئا للآداب ، لقد نشرت هنا كثيرا لكنك ان تكون شاعرا عربيا الا اذا نشرت لك الآداب . ولم اجرؤ ان اروي له قصة السنتين ، وفي النهاية غامرت فأرسلت قصيدة ..

يلتفت القلب الى الوراء : لقد تكرر الامر بصورة اخرى ، فقد نشبت الحرب وانتهت ، وصودر العدد الذي به قصيدتي لاسباب لا اعرفها حتى الآن ..

(وحتى الان لم ار هذه القصيدة المنكودة !) لكن لا بأس فقد نشرت بسرعة على اية حال .. اخرى .. وثالثة وصارت الآداب جزءا من ذاكرتي .

« هل تكتب مقدمة لديواني ؟ » هكذا سألت صلاح عبدالصبور . وقراه ، وسألني اين انشره ، اجبت : دار الكاتب العربي .. فقال : خسارة ..

في طشقند التقينا في مؤتمر، وجاءني يطلب مني ان ارسل ديواني للدكتور سهيل . لم أكن رأيته من قبل ، شهران فقط وكان الديوان في معرض القاهرة الاول للكتاب ، وهناك رأيته ..

قال : لقد نفدت نسخ ديوانك من المعرض، واضاف مازحا : لكن لا تظن انك شاعر جيّد ..

ضحكت وانا أتأمل هذا الرجل الذي حمل امانة صوتي ليبلغها الى كل من لا اعرفه من الكتاب والقراء ، قلت لنفسي « انه يحاول الا يبدو رقيقا »

* * *

يلتفت القلب الى الوراء : لا كتابة الا كتابة الشعر « اكتب لنا نقد القصائد ــ لا » ، « ردّ على اتهامات ضدك ــ لا » والدكتور البشوش الوجه الخشن المجاملة يتلقى القصائد ، نختلف ونتفق ، لكن كلا منا يضع الآخر في مكانه الصحيح ، وهكذا عرفت عنه ــ ومنه ــ موضوعية الحكم .. وكبح العاطفة .

* * *

وها أنذا اكتب نثرا للمرة الاولى ..

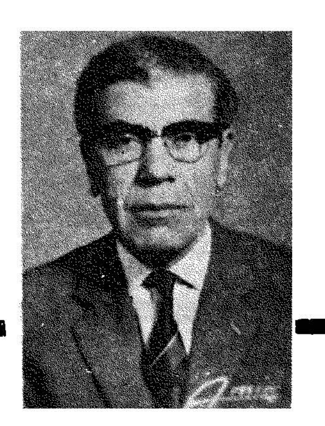
* * *

هل احسب عمري بأعداد الآداب ، لست وحدي في هذا ، جيل كامل ظلت الآداب وجبته الشهرية الدسمة، والحبل السري الذي يصله بالأم : العروبة .

لكنني اظلمها واظلم نفسي ، لقد تكسرت امواج هذا الجيل على صخرة الهزيمة . الحزن هو الحي الباقي . كبر ممدوح عدوان ، وعلي الجندي ، وحسب الشيخ جعفر، وسعدي يوسف ، ومات تيسير سبول ، وطأطأت الاعلام التي طالما جاهدت الآداب أن تبقى خافقة في الشمس !

فاذكريهم .. واذكريني !..

القاهرة



د. حسين مروّة

قراءة موضوعية ـ ذاتية !

قراءة ربع قرن من رحلة « الآداب » ، تعني قـراءة مرحلة من حياتنا نحن الذين عشنا مع « الآداب » زمـن ميلادها ، فزمن سيرورتها، ثم زمن عيدها الفضي العتيد .. فكيف نقرأ هذه المرحلـة ؟ .

أبموضوعية خالصة باردة نقرؤها ؟ .
ام بمشاعرنا الذاتية صرفا نفتح عليها ابواب الذاكرة ؟
ان علاقة المرحلة كلها بحياتنا تحكم شكل العلاقـة بيننا وبين « الآداب » نفسهـا . نحن اذن في قبضة هذه العلاقة . فليس بالارادة نستطيع ان نحدد كيف نقرأ ربـع قرن مضى من رحلـة « الآداب » ، اي كيف نقرأ ربع قرن مضى مـن حياتنا ..

الموضوعية الخالصة الباردة ، محكومة بحرارة هذه العلاقة، اي بمشاعر ذاتية لا يمكن شدّ الحبل على خناقها **باسم الموضوعية** .. لكن ، لا يمكن ـ ايضا ـ قطع هـذا الحبل ، كيلا تبقى المشاعر الذاتية وحدها هي الحاكمـة المستقلـة . بقرارهـا دون ضابط .. والضابط هنا هـو موضوعية ترى الواقع بحجمه ووزنه ولونـه وعلاقاتـه الحقيقيـة .

ليس من تناقض أن تلتقي الموضوعية والذاتية على صعيد العلاقة بين «شبكية» الرؤية الفكرية لدى الانسان، التي بهـا يتعرف وجوه الكائنات وحقائقها ، وبين «شبكية» العين الداخلية لديه ، التي بهـا تتحول معرفته تلك الـى

خصوصيتها الفردية ، اي الى مشاعر ذاتية ، اي الـى مواقف ، والمواقف الى شكل من الانحياز .. فالموضوعية دون موقف لا وجود لهـا الا تجريدا محضا .. والموقف دون انحيـاز لا وجود له الا وهما أو ايهاما ..

لا نقرأ بموضوعية باردة .. انما نقرأ بموضوعيـة حية ، اي حارة .. اي بموضوعية ـ ذاتية ، أي بمـوقف محدد يعنـي انحيازا محدّدا ..

بهذا النمط من الموضوعية ، بهذا المفهوم الحـي للموضوعية ، أقرأ ربع قرن « الآداب » : اقرؤه تاريخا في اطار الزمن الخارجي ، وتاريخا في أطار الزمـن الداخلي، ولا فـاصل بين هذا وذاك ، فانمـا هما معا « تاريخية » سيرورة واحدة ..

زمن ميلادهـا هو زمن الميلاد الجديد لحركة التحرر الوطني العربية ، بعد الاحباط الحياتي « التاريخـي » عـام ١٩٤٨ !

من هذا الباب « الزمني » ندخل في القراءة . صحيح ان سندخـل من هذا الباب الى غابة كبيرة فيهـا الشجر الاخضر والعاري وفيهـا الشجر الواقف والمائل .. لكنـه الباب الذي لا بد من عبوره لرؤية الغابة ، ولا بد من رؤية الغابة لتمييز الشجر الاخضر من العاري وتمييز الشجـر الواقف من المائـل ..!

زمن ميلادهـا رافق زمن المنعطف المرحلـي لمسيرة الثورة العربية .. من هنـا نقرأ الحروف الكبرى التـي رسمت لـ « الآداب » معنى أن تكون في ذلك الزمن بعينه ، اي أن تنغرس في مكان الشجر الاخضر من الغابة الكبيرة، وان تبقى في صفوف الشجر الواقف دون المائل ..

ربع قرن كتبته « الآداب » التزاما بمضمون هذا « التزامن » بين مولدها ومنعطف الحركة التحررية العربية غداة الخمسينات .. منذ البدء كان التزامها انحيازا الى المسار التاريخي لربح التحرر الوطني على صعيد الفكر والفن والادب . فالتحرر الوطني هو - بحقيقته الكاملة في عصرنا - مدخل الى التحرر بمعناه الاشمل والاعمق . وقد استوعبت « الآداب » مضمون المرحلة ، وعلاقات هذا المضمون بحركة الفكر والفن والادب، فوضعت سيرورتها تعبيرا عن سيرورة فكر المرحلة وفنها وادبها ، وجعلت من « ذاكرتها » الشهرية « ذاكرة » لتفاصيل العملية الابداعية العربية : الفكرية والفنية والادبية ، ولتفاصيل العلاقة بينها وبين العملية الابداعية الخارجية .

* * *

هكذا ذهب مسار « الآداب » في مداره من حركة التحرر الوطني العربية ، يرصد فعل الحركة هذه في المدى الاوسع لمختلف حقول التشكيل الادبي والفكري على الخارطة العربية بوسعها الكامل ، كما يرصد فعل النتاج الادبي والفكري في هذه الحركة على خارطة المجتمع العربي بوسعها الكامل .

ان هذا الرصد الجامع الشاسع هو بذاته قيمة بنائية ، من حيث كونه يؤسس لبناء دراسات وبحوث ميدانية عن مرحلة كاملة لحركة الفكر والادب في اطار حركة التحرر الوطني العربية . غير أن هناك من يرى هذا السجل المفتوح دون حدود لكل ما انتجته المرحلة من فكر وادب ، رغم السمة التناقضية للنتاجات المرصودة ، ملمحا من النزعة « الليبرالية » .. وهناك من يرى في ذلك - من جهة اخرى - منزعا « انتقائيا » .. لكن كلتا هاتين الملحوظتين تتطرف في تجاوز المضمون الواقعي للمرحلة التي تعنيها ، وتتطرف اذن في اضفاء مفهوم على النتاج الفكري والادبي للمرحلة ذاتها ليس هو المفهوم الحقيقي والتاريخي لهذا النتاج . ان الطابع الليبرالي والطابع الانتقائي كليهما ، ليسا غريبين عن الطابع العام للمرحلة ، ولا عن الطابع العام لنتاجها في الفكر والادب. لذا كان فضل « الآداب » انها تفردت ، تقريبا ، بكونها هذا السجل المفتوح بالذات وهو الذي يتأسس معناه الايجابي على كونه القيمة الوثائقية النادرة ، في عالم المجلات العربية ، لدراسة ابرز الظاهرات الشعرية والقصصية والنقدية في الوطن العربي بكامله خلال مرحلة تاريخية بكاملها .

* * *

من منطلق « الموضوعية - الذاتية » نفسها التي اقرأ في ضوئها عيد « الآداب » الفضي ، اراني اقرأ في الوقت نفسه ، منذ اللحظة ، لمحات من عيدها الذهبي ... الآتي .

د. ميشال سليمان

العقبى للذهبي

اخي الدكتور سهيـل

تحيـة ...

سألتنيه « موضوعيا » في يوبيل « الآداب » الفضي، واني لمجيبك كعهدي بالقلم ، هذا الذي اتيح له ، شعرا ونثرا ، ان يدرج على صفحات « الآداب » حينا بعد حين. وليس وفاء ان اجيب وحسب ، وليس تمنينا ان اشهد ، وانما هي ضرورات الاقرار بالواقع ، تملـي عليّ شروط حقيقة ، لا بد لمثلي من ان يجهر بهـا في مثل « الآداب »، وهي المطلّـة على عتبة جديدة من حضورها الحافـــل بالجهد وما يفيد .

وما يوبيل « الآداب » هذا ، سوى مرحلة ثرّة من حياة لبنان والامة العربية جمعاء . فيها تداعت انظمـة ، وقامت على انقاضهـا انظمة اخـرى ، وامتـــدت اشراك واحلاف استعمارية تحاول تكبيل انساننا فـــي مختلف اقطاره . وفيهـا تفتحت مفاهيم ادبية وفنية ، وطلعت تيارات تتراوح بين الممتد من واقعنا الى الجحيم، يعمه بالغيبيات ليشدّنا الى دركات الانحطاط ، وبين الطالع من هذا الواقع طلوع الاعصار ، يزلزل القديم ، يدكه ، ليبنـي على رقمه عمارات مشرعة النوافذ والابواب للنور البهي ، يدخلها المرء ولا يخشى مغبّات الانهيار .

في غضون هذه المرحلة ، غابت وجوه ادبية كبيرة ، وظهرت وجوه اخرى ، تسلمت القيادة ، وما زالت فـي الصف الامامي من جبهة الشعر ، والقصة ، والنقد وسائر الفنون الادبية الاخرى ، وقد كانت « الآداب » من كل هذا، المرآة التي تعكس الصراع حينا ،والساحة التي يلتقي في رحابهـا فرسان الكلام ، وكثيرا ما كانت تحتدم المعارك على صفحاتها ، ويعلو الغبار ، ويسيل الدم « الادبي » طبعا ، حينا آخر . وينتصر هذا لذاك،وينقض هؤلاء على اولئك . فيسقط من يسقط ، وينهض من ينهض ،وتظل « الآداب » في مسيرتهـا ، مشرعة الابواب لكل الرياح، تهب بين دفتيها، مراوحة بين الصبا والسموم . الا انها في الحالين . رياح مما يعصف بحياتنا الادبية ، فيكشف تارة من مساوئها ، ويمسح تارة اخرى عـوامـل الصدأ المتراكم فوق جبينها .

ومفاد هذا ، ان«الآداب» جاءت في مرحلة لم تكـن فيهـا معظم المجلات الادبية العربية شيئا مذكورا ، اذ كانت السياســة تأخذ بخناق الصحائف ، فــــلا تترك للادب والشعر من صفحاتها الا الحيز الضيق . وكانت«الآداب» في عداد المجلات النادرة التي عنيت كليا بالادب والشعر والنقد والقصة والندوات .

لقد قامت « الآداب » في غضون هذا كله ، بجهود بارزة ، من خلال ما اصدرت من اعداد خاصة بمواضيع ، وشخصيات ادبيـة وفكرية وفنية . فكانت بذلك اشبـه بمحطات لتطور الحركة الادبية العربية ، على مثلها ممـا رصدت من حركات ثقافية في العديد من بلـدان العالم ، ناقلـة للمثقف العربي شذرات من روائع ، واطرافا مـن تيارات .

ولعل اهم ما قامت به « الآداب » في هذه الاثناء ، الالتفات الى الشعر العربي الحديث ، وتبنّيه . فمن خلالها ظهر شعراء ما كان لهم أن يبرزوا لولا رحابتها وتعهّدها. ولطالمـا التقينا في « الآداب » شعراء من كل الاقطـــار العربية ، فتباعدنا في المنحى والاتجاه ، وتقاربنا في مـا يضارعها . ولطالما تطارحنا وجهـات النظر فـي مـا ينبغي ان يكون ، او لا يكون . الا اننـا كنـا نجد عندهـا البساط الصالح للتلاقي فالتفاعل الموفي بشعرنا الــــى اغراضه الكبرى ، ولقد عبنا فيها تنافر الاتجاهات مـرة ، وتبايـن الأهداف والوجهات مرة اخرى ، لكننا كنا مـن هذا وذاك ، على مثل مـا يكون الحارث المجـد ، يشـق الارض ليستنبتها الخصب الهاجع ، ولا يأبه للشوك يبرز، او للحسك يطل ، حسبه انه الـزارع ، لا حسب الارض انهـا المستجيبة .

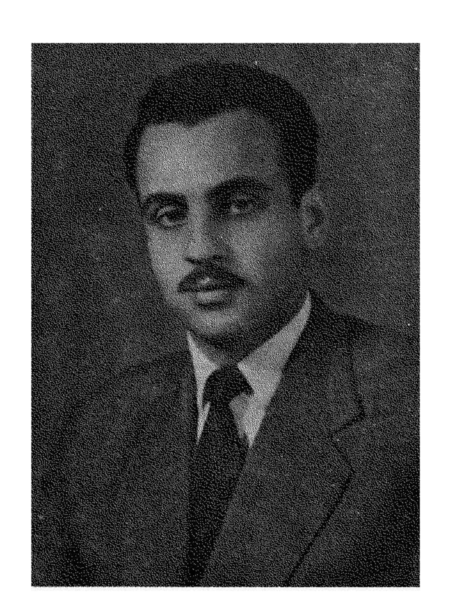
أتراني، بعد هذا ، المت بمناحي « الآداب » عبــر خمسة وعشريـن عامـا ، وبمـا قدّمت واسهمت ، ومـا اطلعت واضافت للحركة الادبية اللبنانية والعربيــــة عمومـا ؟ ربمـا .

الا انني ، في يوبيلها الفضي هذا ، لا يسعنـي الا التمني باستمرار المسار الطويل . وحسبي انني كنت منها المطل ، وكانت مني الشرفة الرحبة . فالعقبى للذهبي ، والسلام عليك صاحبها ومحرّرها والمضفي عليها الجهد الكبيـر الصابـر .

اخوك ميشال سليمان ـ بيروت

ناجي علّوش

مدرسة الآداب



لا اذكر بالضبط متى تعرفت الى مجلة الآداب ؟ وكيف . اني أذكر انني كنت عند صدور الآداب أدرس في الكلية الاهلية بمدينة رام الله . وكان لنا صندوق نشتري منه الكتب والمجلات ، ومن هذه المجلات مجلة الآداب . وذلك بالطبع بعد صدور الآداب مباشرة . كنا ننتظرها بلهفة ، ونعتبر انفسنا صفارا على الكتابة فيها.

وحدث ذات مرة ان كتبت قصيدة رومانسية ، او هكذا خيّل لي ، ليست عندي الآن ، وان كنت اتذكر خاتمتها التي تقول :

فشروق على حطام غروب

وغروب على حطام شروق

واردت ان انشرها . كان ذلك في صيف سنة ١٩٥٣ على الارجح . وفكرت طويلا اين انشرها . ولم يكن حتى ذلك الحين متاحا لي ان انشر في الصحف الاردنية ، ومع ذلك قررت ان ارسلها للآداب .

أعدت كتابتها بخط جميل ، واخذت انتظر من يحملها الى البريد في المدينة . وقرر والدي ان يسافر الى المدينة ، فطلبت منه ان يضعها في البريد . فقبل ذلك راضيا ، مع انني كنت احس انني سأكلفه دفع خمسة قروش ثمنا للطابع الضروري لارسال الرسالة . وهذا المبلغ الزهيد كان يعني شيئا بالنسبة لعائلتنا الفقيرة .

وانتظرت . الآداب تصدر والقصيدة لا تنشر ، وكنت كل مرة أتلهف منتظرا صدور العدد ، والعدد يأتي والقصيدة لا تنشر .. وكنت أظن ان الرسالة لم تصل . وان المخابرات افتضتها واخذتها .. ومضى الزمن ولم افرح بنشر القصيدة .

ومضت قرابة عام ، اعددت خلاله دراسة عن الشعر في الاردن . وفكرت بنشرها . كنت قد اصبحت في السنة الثانوية الاخيرة على ما اذكر . وقررت ان ارسل الدراسة للاداب . ارسلتها وانا قلق ، تنشر او لا تنشر ، تصل او لا تصل . وجاء عدد الآداب وليس فيه شيء . ثم جاء الآخر ، واذا بعنوان مقالتي ينشر ضمن قائمة المواد التي ستنشر في الاعداد القادمة ..

وفرحت في سري ...

لقد اصبحت من كتّاب الآداب . ولكن هل تنشر الآداب مقالات لطلاب لم ينهوا المرحلة الثانوية ؟ والحقيقة انني خفت ان يرسل أحد زملائي رسالة الى الدكتور سهيل يخبره فيها اني طالب ، فيلغي نشر المقالة .

ولماذا لا ...؟

لقد حدث معي ذلك في مرة سابقة ، عندما نشرت لي مجلة الاحد في بيت لحم مقالة حول الشعر ، فما كان من احد زملائي الا ان اخبرهم اني طالب في السنة الثانية الثانوية ، واذا بهم يلغون نشر القسم الثاني منها .

هل سيحدث ذلك مرة أخرى ؟ ربما . الآداب تصدر ، وفي كل عدد يأتي عنوان مقالتي بين المواد التي

ستنشر* في العدد القادم . وانا اسأل هل ستنشر ؟

ومرة كنت خارجاً من الصف ، عائدا الى موقف الباصات التي تنقلنا الى القرية . فخرج معنا استاذ اللغة العربية عيسى بلاطه . وتحدثنا انا وزملائي ، ونحن نسير معه . ولا ادري كيف انتقل الى الحديث عن مقالي . قال لي : سيكون لك مستقبل ، لان الآداب لا تنشر مقالا اذا لم يتوفر فيه حد يسمح بنشره .

ونشر المقال ...

لم اكن قد تخرجت من الثانوية بعد .

ولقد نشرت في الآداب في هذه الفترة ايضا قصيدة اخرى حول ثورة الجزائر ...

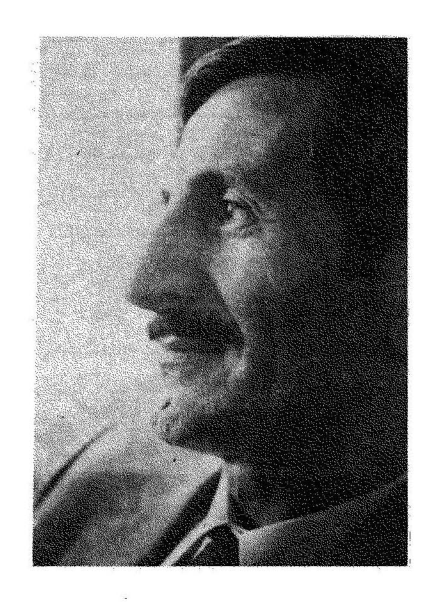
ثم اتصلت علاقتي بالآداب .. وخاصة بعد ان انتقلت الى الكويت في نيسان سنة ١٩٥٦ .

لقد كنا ننتظر الاعداد بلهفة . وكنا نقرأ الشعر ، كما نقرأ الدراسات السياسية والادبية . وعلى صفحات الآداب لمعت اسماء بدر شاكر السياب وصلاح عبدالصبور واحمد عبدالمعطي حجازي وغيرهم وغيرهم. كانت الآداب منبرا قوميا ، وكانت الى جانب ذلك مدرسة نشأت اجيالا من الادباء ، شعراء وكتاب قصة . وكنا نحس انها تخوض معركة الجديد ضد القديم البالي ، ومعركة الوحدة والتحرر ضد التجزئة والتخلف . ولذلك حرصت انا على المشاركة في المعارك التي خيضت على صفحاتها ، سواء كانت ادبية او سياسية .

وحين زرت دمشق في صيف سنة ١٩٥٧ لاول مرة ، قررت ان ازور بيروت . ذهبت مع صديق لي ، وصلنا قرابة الحادية عشرة ، وكان اول من سألنا عليه سهيل ادريس صاحب مجلة الاداب ..

وسرنا في الخندق الغميق صعودا ، نسأل ونسير حتى وصلنا . قرعنا الباب ففتح لنا ، واستقبلنا الدكتور سهيل ادريس . عرفته بنفسي وبصديقي فرحب بنا . واخذنا نتحدث في امور شتى . وحين انهينا الزيارة قررت ان اعود الى دمشق ، وصاحبي يحاول اقناعي بالبقاء في بيروت ولو ليلة واحدة .. غير اني لم اقتنع ، ورجعنا .

ومنذ ذلك الحين توطدت العلاقة مع مجلة الآداب ، كان ذلك منذ عشرين عاما على وجه التقريب .



في « ١ كانون الثاني » من عام ١٩٥٣ ، صدر العدد الاول من مجلة الآداب ، مزينا بغلاف يحمل صورة الشاعر الرقيق الراحل علي محمود طه ، ثم تلته الاعداد الاخرى تحمل صور كبار الكتاب والشعراء والفنانين امثال : ايليا ابي ماضي ، والياس ابي شبكة ونسيب عريضة ، وعمر فاخوري ، وفان غوغ ، ولويجي بيراندللو .. وغيرهم ممن اسهموا اسهامات رائعة في خدمة الثقافة والفكر ، مع دراسات ضافية عنهم .

في العدد الاول ، طالعنا الدكتور سهيل ادريس رئيس التحرير بافتتاحية ، تحت عنوان « رسالة الآداب » استغرقت صفحتين اثنتين لخص فيهما صورة مستقبلية لمسيرة ربع قرن من عمر المجلة ، واستشرف بثقة عالية ، نهج الآداب ، ورسالتها في خدمة الفكر العربي الحديث .

يقول الدكتور ادريس في الفقرة الاخيرة من الافتتاحية :

« .. بهذا كله سيتاح للاداب ان تكون مرجعا مهما من مراجع الادب العربي الحديث ، يستشيره كل من رغب في الاطلاع على النشاط الفكري العربي ، ولا سيما المستشرقون الذين لا تنقطع شكواهم من فقدان المراجع التي تمكنهم من دراسة الادب العربي المعاصر .. بتلك الرسالة وبهذا النهج ، تتقدم الاداب الى قرائها ، آملة ان تجد عندهم التشجيع الذي يمكنها من متابعة حمل رسالتها ، وتحقيق منهجها » .

بهذه « النهاية ـ البداية » ختم رئيس التحرير كلمته .. ومط البعض شفاههم في وقتها ، ونظرت وجوه في وجوه .. ثم انتهت مسيرة الالف ميل ، وجاء الرائد يسعى ،

الآداب وشرف حمل الرسالة

محمد جميل شلش

بعد ربع قرن من الجهاد الفكري، ليشهد من يشهد ، على تراث ما زال اكثر شهوده احياء ، وبرجاء الصراحة والحرية التي عرفت بهـا مجلة الاداب .

وكواحد من الشعراء الذيـن تخرجوا في مدرسة الاداب ، وواكبوا مسيرتها ، ونشروا على صفحاتها فـي سنيهـا الاولى ، وفي خضم الذكريات الحلوة والمرة . مع الاداب ، ومع صاحب الاداب ، اشهد ان المجلة صدرت في فترة كان يتعاظم فيها شعور كبير بالحاجة الى مجلة ادبية تحمل « رسالة » .. وقد حملت الآداب جهدها هـــذه الرسالة مؤكدة على الادب الملتزم الفعال الذي« يتصادى ويتعاطى مع المجتمع » .. ومسهمة في « العمل القومـي العظيم » وصولا الى خلق الادب الانساني .. فكانت بحـق ميدانا لاهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم ، كما اراد رئيس التحرير لمجلته ان تكون ...

ولا يخفى على المثقفين العرب ، ان الآداب بعمرهـا الحافل الذي امتد بين السنـوات ١٩٥٣ ــ ١٩٧٧ عانت من تناقضات وارتجاجات الواقع العربي ، كما عانى منـه رجال الفكر والسياسة ورواد التقدم . فانعكس ذلك على حيويتها ، وصلابتها ، وصمودهـا فاقـدمت . وهاجمت وتراجعت . وتخندقت ، واحتمت في الموقع الآمن . الا انها لم تهادن على حساب رسالتها ، ولم تلق السلاح . ولم تدر ظهرها لرسالتها التي استشرفت في مقدمتها آفاقها .

ويؤاخذون الاداب على انها كانت في اساليب كرها وفرها تتوخى العيش بأمان . وتهادن . مستشهدين ببعض طبعاتها الخاصة . واقولها للحقيقة: ان الآداب في نهجها هذا لـم تكن « متاجرة » وانما كانت تنظر بعيدا الى ضرورة بقائها ، لتظل المنفذ الوحيد للمثقفين العرب آنذاك ....

ولم يكـن لها الا هذا السبيل ، فلقد آثرت ان تقـــدم للمثقف العراقي في بعض اعدادها سبعين صفحة بـــدل ثمانين او تسعين ، مسقطة قصيدة هذا الشاعر او ذاك . لكي تستمر في خدمتها ، وهي بهذا لم تكـن تنتهز الفرص على حساب القيم العليا الثقافية والسياسية .

وأنا اذ اذكر هذه الظاهرة في حياة مجلة الآداب ، لن انسى على الطرف الاخر ، مواقفهـا الشجاعة والمبدئية .

واذا كانت قد حجبت بعض القصائد من اعـــداد مخصصة للسوق العراقية فقد عمدت في اعتى ظـروف الارهاب في العراق، ان تنشر لعراقيين وعرب ــ ما سيكون سببا في منعها من دخول العراق .

في عام ١٩٦١ وانا سجين ، نشرت لي الآداب عامدة متعمدة قصيدتي « الى اخواني الشعراء » :

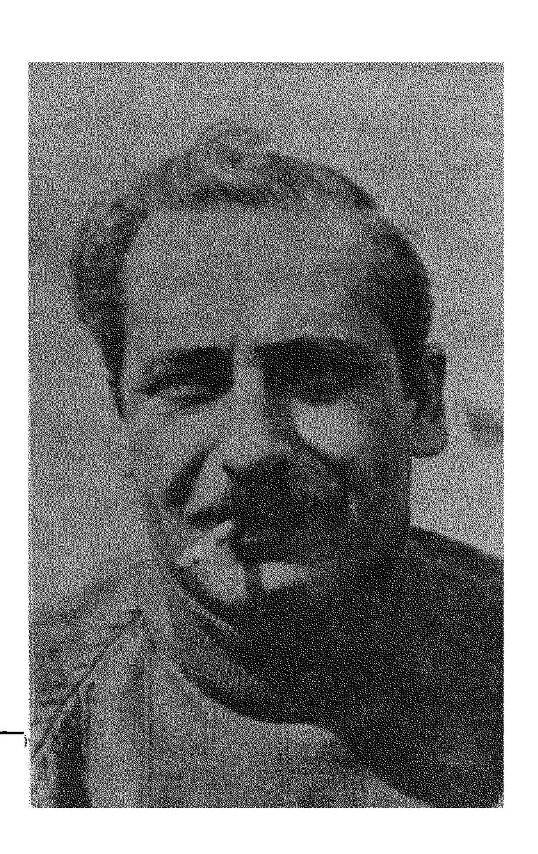
يا يدا ترفع مصباح ديوجين شعار
يا فما يبدع سمفونية الاجيال من نور ونار
يا صدى ينداح في ليل مخاض الشرق خصبـا واخضرار
باسمكم يا اخوتي غنيت في ليل التتار
باسمكم غنيت في اعماق سجني
باسمكم غنيت للشعب وما زلت اغني :
ايها الشعب الذي يحمل من الف عجاف
في ليالـي بعثه
عن سارق النار عن المستعبدين
عبء كل الناس .. كل الثائرين

وقد جعلها الدكتور ادريس بمثابة افتتاحية للعدد لولا الصفحة الواحدة التي سبقتها بقلمه .. لقد كانت القصيدة ارهاصا بزوال حكم الطاغية وايذانا بانبعـاث جديد . كان واضحا لدى صاحب الاداب ان هذه القصيدة ستكون سببا في منع المجلة .. ولكنه آثر المنع والخسارة الماديـــة .

وبعيدا عن مواقف الدفاع او الهجوم او الالتـزام السياسي والمبدئي المتصلب . فانه يكفي مجلـة الاداب فخرا في ربع قرن من حياتها . انها كانت مدرسة حية للادب العربي الملتزم . ومنبرا طليعيا للاصالة والتجدد في النقد والقصة . والمسرحية . والقصيدة . ونافـــذة مشرعة على الاداب الاجنبية . فاستحقت بهذا كله اجمل الثناء . وشرف حمل الرسالة التي استشرفت آفاقهـا فـي عددهـا الاول .

تحية لها ولصاحبها لما اسدياه من خدمة للثقافة الحديثة . وعمرا مديدا لهمـا على طريق خدمة الفكـر العربـي الجديد .

محمد جميل شلش
مدير الثقافة العام ــ بغداد



لا حياة للادب دونها...

حنا مينة

بعض الكتابات لا تحتاج الى شهادات . انها شهادات بذاتها ، اعطت برهانها ، وكانت في الصادقين .

وبعض المجلات ، كذلك ، لا تحتاج الى شهادات ، ما دامت ، في مجلدات اعوامها ، واوراقها ، وفكراتهـا ، قد كانت شهادة للتاريخ ، وعليه ، معا .

له ، لانها ، في ذاتها ، قد كانت من صانعيه ..

وعليه ، لانها ، في ذاتها ، كانت شاهدة على احداثه ..

وما بين صنع التاريخ ، والشهادة على وقائعه ، في السياسة او الادب ، تكـون المهمة الصعبة ، التي ينهض لهـا من اوتوا قدرة على حمل الرسالات .

« الآداب » مجلتنا ، منبرنا ، مدرستنـا ، قد كانت من حملة رسالات الادب ، خلال ربـع قرن ، هـو الاغنى ، الاعرض ، الاعظم ، بين ارباع القرون التي عرفهـا الادب العربـي .

بعيدا عن المبالغة ، عن الزلفى ، عن اشعال الشموع كمـا في عيد الميلاد ، عن تقديم باقة زهر ، كما يقتضي الواجب ، لا نملـك نحن قراء « الآداب » الا ان نعترف اننا تعلمنـا منها ، وفيها ، الكثير ..

اطلعنا على آداب اجنبية لم يكن لنا ، لولاها ، ان نطلـع عليهـا .

وعرفنا آدابا عربية ، لم يكن لنا ، لولا الملتقى فيها ، ان نتعرف اليهـا .

وكتبنا ، وتعلمنا الكتابة ، في آن ، على صفحاتها .

وجمعنا مجلداتها ، على مدى سنواتها الطوال ، فكانت لنـا مراجـع .

ونشطنا ، بدفع منها ، على الابداع فابدعنا ،

وخضنا المعارك الادبية ، في مناظراتها ، فاستفدنا وافدنـــا .

وعاشت اجيال من المثقفين ، في الخمسينات ومـا بعدها ، على عطاءاتها ..

وكانت للآداب شبكـة موزعة كالشرايين في جسم الوطن العربي ، بواسطة مراسيلها ومندوبيها والكاتبين اليهـــا .

وهكذا ، كالصحيفة التي قال لينين انـه لا حياة لحزب دونها ، كانت لنا مجلة لا حياة للادب دونها .

جمعت ما تفرق ..

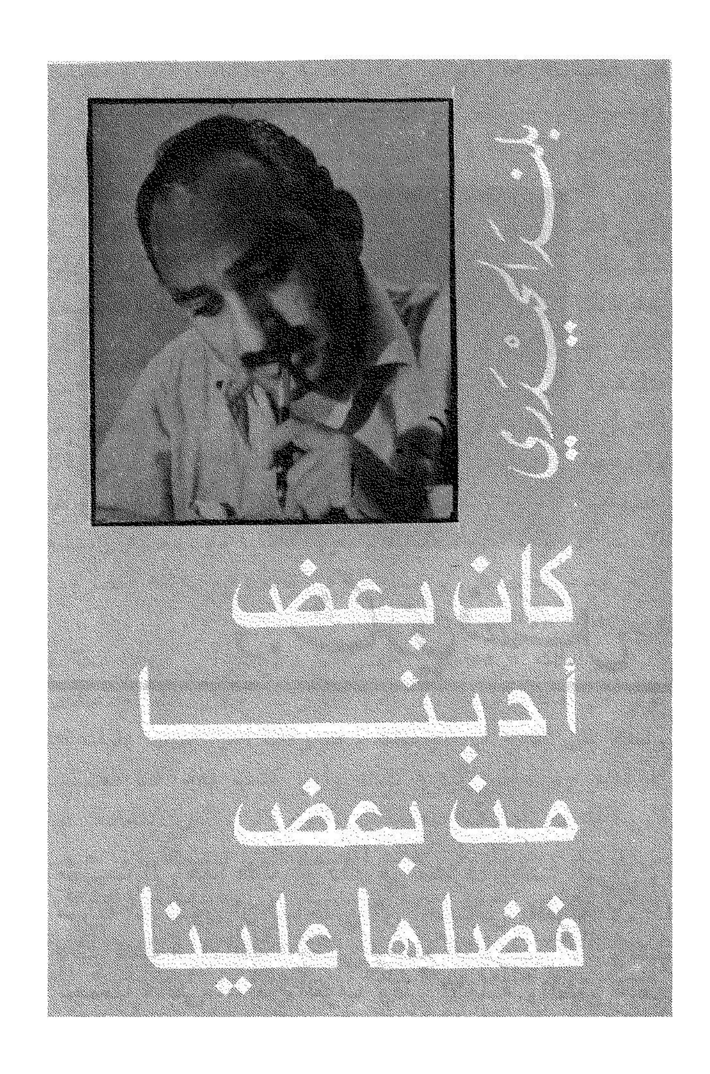
وجودت ما تخلف ،

واحتضنت الحركة الادبية ، رعتها ، تعهدتها . ولها ، الآن ، ان تفخر انهـا كانت من صانعيها ، والى حد بعيد .

وزورقها ما يزال يمخر ، في هذا البحر الرحيب ،

وعلى جانب هذا الزورق ، ليسمح لـي الصديـق صاحبها ، ان ارشق زجاجة عطر ، وذلك بعض الوفاء . اقله اذا اردنـا الدقة .

دمشق



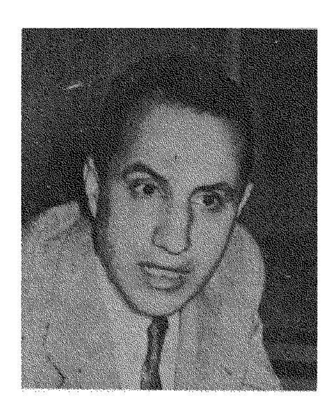
لعل ما شدنا اليها يوم كان لنا ان نتلمس بكثير من الحيطة والحذر طريقنا لان نكون من اهل الادب واربابه ، هو ان مجلة « الآداب » ومنذ ان ولدت ، اجتمع اليها من فضل مؤسسها عليها وفضل العاملين فيها معه ، حسّ قويم ، باصالة تراثهم القومي ، المتأكد بالوعي به ، والنازع الى كل جهد ابداعي فيه ، والمنتصر لكل جديد يغنيه بحيث لا يكون لقديم هذا التراث ان يقف حائلا دون نشوء جديده الذي يريد ان يتمايز به وان يتفاضل عليه بموقف الابن المتطور من ابيه ، كما لا يسمح لجديده ان يتنكر لعظيم مآثر تراثنا القديم وجليل ما فيه من الاعمال .. كما اجتمع لها من فضل القيّمين عليها وبما توفر لهم من اطلاع على آداب العصر ، وما اخذوا به انفسهم من تأمل في غرره ودرس لمصادره ومنابعه ان اوسعوا للمجلة غير باب الى فهم بعض ما يجد في العالم من جديد في الادب والفكر تستكمل رؤيتها وتطلعها وتشحذ من هممنا به ، وهكذا فقد كان لهذه المجلة ان قامت على نهج افردها في الخصوصية بما كان لها من تواصل واع بين التراث والمعاصرة عبر حوار دائم يعزز من مسيرتها ، ويغري الناشئة منا ممن كانوا على مثل رؤيتها وتطلعها ، على ان نطيل لها أسنان اقلامنا ونأتمنها على حمل تجاربنا ونتدبها لتقويمها ، وصار من دأبنا ان ننتظرها بكثير من اللهفة أول كل شهر لنتحلق حولها في احدى مقاهي بغداد ولنقف على ما فيها من جديد أو ما ترجمت لنا من ادب الغرب حتى لكاد الواحد منا ان يتعرف من خلالها الى غير صديق من كتابها وشعرائها نؤثره بودنا ومعزتنا ونتحزب لادبه ونحلم بلقاء به .. فلم تكن الآداب مجلة فحسب ، بل كانت من بعض وعدنا في ان نكون على حجم طموحنا فيها وطموحها فينا ، بحيث ما كان لنا ان قرأنا مجلة من اول حرف فيها الى آخر حرف فيها كما قراناها يومذاك ، ونحن نتفحص ما فيها ونفندعمل هذا الشاعر أو ذاك ، وقد نتحاور في أمرها ونتجادل في غير شأن من شؤونها ، من تبويبها الى تصنيفها للاسماء الى محاباتها لبعض الشعراء ، واذكر مرة ان جدلا احتدم بيننا لان واحدا منا أخذ عليها انها تقوم بحذف صفحات او اضافة صفحات حسب ظروف هذا البلد او ذاك ، ونالها بكلام هجر ، فما كان من صديق آخر الا ان انبرى للرد عليه بعنف وكاد ان ينفجر صراع بيننا ، بين من يرى في ذلك مسا للامانة الادبية وبين من يرى فيه ضرورة فما معنى ان يحجب كلها بسبب من بعضها .. ولكن سرعان ما هدأت الخواطر وبردت الحناجر وكأن كلا منا اكتشف على حين غرة في حماسة الاخر اجره في المؤمن وان اسرف ، فعذره .

وبعد ...

فان كانت حال « الآداب » اليوم غير حالها بالامس ، بين متحمس لها أو متحمس ضدها ... واذا كانت « الآداب » اليوم لا تنهض بهممنا كما نهضت بها بالامس ولا تذكي حماستنا كما اذكتها من قبل ... واذا كان لنا ان نأخذ عليها انها ليست اليوم على مثل ما تمنينا لها بالامس من شيوع وذيوع ومريدين وقراء وكتّاب ، مع ما نجل لها من صبر وجلد على مواصلة مسيرتها النبيلة ، دون ان تنحرف عن اهدافها او تنصرف عن مراميها .. اقول اذا كان لنا ان نقول بذلك ، فحقيق بنا ان نشير ايضا الى ان بعض مرد ذلك عقوق من حدبت عليهم وكلأت عطاءهم وبشرت بادبهم واسهمت في ذيوعه ، حتى اذا ما استتب لهم مقام في غيرها من صحف ومجلات يبيعونها ما يكتبون لها بأفتار واشبار ، ويحترفون الكتابة لغاية في الكسب المادي ايضا بجانب غايتهم في الادب .. وصار لهم ان يتدارسوا جداول الدفع والقبض لينزلوا حيث تعشوشب مواردهم ، شغلوا عن « الآداب » ـ وهي التي لم تقبض لتدفع ـ وتناسوا ذكرها وبخلوا عليها بالنزر اليسير مما يكتبون فاصابها من جنائهم بعض ما نأخذه عليها اليوم ولا ابرىء نفسي من جريرة ذلك ، بل انني لاعنيها بها قبل غيرها على كثير امل من ان يكون لي عبر هذا الكلام موعد لاستعادة ود . كان بعض ادبنا من بعض فضلها علينا .

بغداد

الآداب الملتقى



د. شكري فيصل

أخي الكريم الاستاذ الدكتور سهيل .

حين قرأت كلمتك عن العدد الذي تنوي اصداره بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على اصدار «الآداب» انتابتني رعشة خفيفة لست أدري بالضبط مصدرها .. ولكني اذ عدت الى نفسي بعد ذلك أدركت ان هذا الفاصل الزمني الذي يفصل بيننا وبين العدد الاول الميمون من مجلتك الكريمة هو الذي استثارني .. لم أكن أشعر بهذه السنين على هذا النحو .. كانت الايام تمر بعد الايام ، وكأن الشهر يقود الى الشهر ، وكان العدد من « الآداب » يسوق الى العدد الذي بعده ... فلم نكن نحس هذا التتابع بمثل هذا الاحساس .. كان يمضي بطيئا .. ولكنني وجدتني مع رسالتك للمرة الاولى اواجه هذه الاعوام كلها مرة واحدة .

واذن فقد انقضى ربع قرن على رسالتك الاولى التي بعثت بها الي تخبرني عن اصدار « الآداب » .. ولا أزال احتفظ حتى اليوم بهذه الرسالة .. كان فيها بعض الاسئلة التي أجبت عنها ببعض المقترحات .. وكان فيها صورة أعلان اقترحت علي نشره آنذاك في بعض صحف دمشق .. وكان فيها هذه الروح التي تلازم الانسان اذ يقدم على مشروع ضخم مثل مشروعك .. روح من الامل واستشفاف المستقبل ، وروح من الاشفاق والتهيب المقرون بالحزم .. كنت كأنما تخط بعض آفاق مستقبلك من خلال هذه الرسالة ، وكأنما تتطلع اليه وتتقدم نحوه .

خلال هذه السنوات الكثيرة كانت « الآداب » معي وكنت معها .. أغتربت وأقمت ، رحلت وسكنت .. مضيت الى هذا البلد أو ذاك في مشرق وطننا العربي وفي مغربه .. دون ان يداخلني أي احساس بالغربة .. ذلك لانك كنت « بآدابك » معي ومع الكثيرين .. وكنت تجمعنا ، على البعد والقرب وعلى الاقامة والظعن ، على صفحات مجلتك .. فاذا التقينا بعد ذلك كنا على صلة بكل الذي كان في دنيا الفكر أو في دنيا الانتاج الادبي ..

وفي صفحات « الآداب » وجدنا متنفسنا في كل ما كان يخالطنا وما كنا نكابده .. لا تكاد تفاجئنا الهموم حتى نجد في الكتابة الى « الآداب » أو في قراءة «الآداب» ما يفثأ هذه الهموم .. لاننا كنا نحس اننا لسنا وحدنا وان هناك هذا الرباط الروحي الذي يصل بيننا ... على ما يكون بيننا احيانا من خلاف في الرأي أو في النظر .

* * *

« آدابك » كانت هذا الخيط الذي وصل بين الكثيرين من المثقفين والادباء .. عرّف بعضهم ببعض ، ونقل الى بعضهم صورة بعض في أدبه وفكره وفي تجليات عالمه الداخلي .. ولقد استطعت من خلال أهدافك العميقة وانتمائك العربي العريض أن تكون الملتقى .. كان لك في ذلك فضل متابعة هذه المجلات الاصيلة التي الفت بين قلوب القارئين والمثقفين والادباء والشعراء الذين حملوا هموم أمتهم وتطلعاتها كما حملوا همومهم الذاتية .. وانت معي أيها الاخ الصديق في ان المدى لم يكن بعيدا بين همومنا الذاتية وبين همومنا القومية .. كانت الدائرة الصغرى مشتقة من الدائرة الكبرى .. وما عرفنا منذ مرحلة الفتاء والنمو ان لنا قضية خاصة .. كانت قضيتنا

هي قضيـة هذا الوطن .. قضية وحدته اولا ، وقضيـة وقضية استئناف حياته وحركته الحضارية ثانيا .. في كثير من الاصالة والابداع ..

قلت انك تابعت هذه السلسلة الطويلة من المجلات التي استأثرت بهموم الوطن وأفكاره وأدبه وحضارته .. سلسلة يذكر منها الانسان : المقتبس والزهراء ، ويذكر بعد ذلك الرسالة والثقافة .. ثم يذكر الاديب والآداب.. يذكر جيل كردعلي ومحيي الدين الخطيب ، وجيل الذين تتلمذوا على مجلة الزيات ومجلة أحمد أمين .. ثم هـذا الجيل الذي توزعت – مع مجـلة الاديب – تطلعاتـه واتجاهه .. فأما الاديب فقـد أولت الادب الذاتي اكثر اهتمامها ، وأما أنت فقد قرنت بين الادب الوجداني وهذا الادب الآخر الذي أخذ يلح على قضايا مجتمعـه ويسخر ادبه لهذه القضايا .. ممازجا في تآلف بين ذاته الضرورية وبين ذاته الاجتماعية ..

ولعلك في بعض الفترات ذهبت الى أبعد مما كنا نؤثر أن تذهب اليه .. كان لك رأيك وكان لك اجتهادك ، ولعله كان لك ، في موقفك ، ظروفك التي املت عليك هذا الموقف .. ولكن كيف كنت وأين كنت فقد كنا مطمئنين الى انك لن تفارق منطلقاتك الاولى .. كان ابتعادك نوعا من تأكيد وجودك في هذه الجبهة التي تضمنا .. جبهـة الوطن العربي الذي يجب أن ينشد أول ما ينشد وحدته.. لان وحدتـه أولا هي التي تضع أقدامـه على الطريق المستقيم ، اما ما وراء ذلك من اتجاهاته الاجتماعية فأمر لا يجب أن يستبد به ولا أن يقسم صفوفه ... ان اجتياز النهر الى الشاطىء الآخر هو القضية .. أما ما نفعله حين نصل الى الشاطىء الآخر ، شاطىء الامان ، فأمر لا يعسر أن نجد له الحل .

* * *

على نحو ما تنثـال أمامي ذكريـات « الآداب » ومواقفها ، أقدر ان أضعاف أضعاف هذه الذكريات كانت تراودك وستظل تراودك وأنت نعد لعددك الاول في العام السادس والعشرين .. فهل تملك فـي غمرة فرحتك أن تقدر (الدور) الذي نهضت به « الآداب » خلال هذه الاعوام الطويلة ؟

هل تقدّر ان المجلة كانت مدرسه متنقلة .. كانت جامعة أشاعت ألوانا من الادب وفنونا من الدراسات .. الكبار ألقوا اليها بما عندهم والذين كانـوا صغارا أفادوا منها ونشأوا بين ظلالها ...

لا أستطيع أن أتصور مدى السعـادة التي تغمرك وانت تعرض أسماء كل الذين كتبوا الى « الآداب » والذين نشأتهم « الآداب » ، الذين أعانوها والذين استعانوا بها.. انهم هذان الجيلان .. وستحار أين تضع اصبعك .. فمن بين طلاب « الآداب » الان وجوه بارزة في معالجة القصة والشعر والادب ، في النقد والدراسة ، في قضايا الوطن العربي وفي مشكلاته وهمومه وقضاياه .. منتشرون هنا وهناك ...

فليهنك أيها الصديق الكريم انك كنتصورة للمواطن المثقف الذي وضع نفسه في الصفوف الاولى .. اخذت واعطيت ، قبلت ورفضت ، ناقشت وناصرت .. كانت لك مع مجتمعك كل هذه الخيوط والخطوط التي وصلت بينك وبينه .. تنبع حينا من ذاتك وحينا من ذات المجتمع .. على تماثل وتوافق .

الكلمات يا صديقي لا تعينني على أن اقول لك كـل شيء .. لا مما أحسه ولا مما أفكر فيـه .. لا أملك أن أقول كل ما أحسه لاني مأخوذ بكل ذكريات هذهالسنين.. ونحن لا نملك أن تبين حين تأخذنا عواطفنا وانفعالاتنا .. ولا أملك أن أقول كل ما أفكر فيه لاني لا أريـد أن اتهم بالثناء عليك .. وان يكن هذا الثناء فريضة يفترضهـا ما أعرف من اخلاصك وما قدمت بين يدي اخلاصك مـن عمل كبير .

أخشى أن أكون قد أطلت عليك .. ولكن لا بد مـن أن أشيد بالجهد الآخر الذي تكامل مع جهدك .. جهـد السيدة التي رافقتك وستظل ، في هذه الرحلة وفي أمثال عديدة متطاولة لها .. كان مكانهـا في « الآداب » حين تغيب أنت مثل مكانك .. ومن يدري فقـد يكون فوق مكانك في بعض المرات حين تسافر هنا وهناك ...ومـا دخلت دار الآداب في مقرها القديم أو في بنائهـا الجديد وكنت غائبا الا وجدتها تتابع العمل وتراقب الحركة وتدفع بها هنا أو هناك ...

ألم تكن تلك من معاني شركة الحياة ؟

* * *

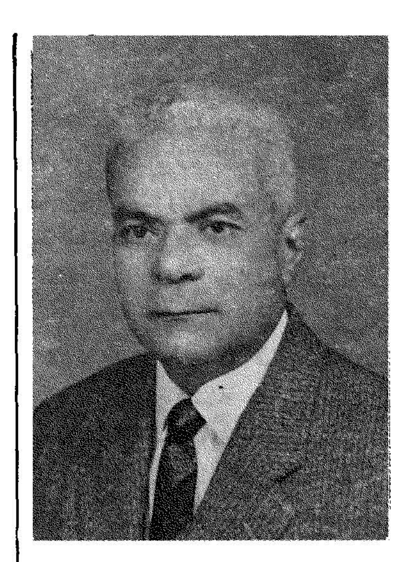
احاول أن ألفت نظري عن السنوات التي مضت الى سنوات تستقبلها وتستقبلها .. وان الآمال الخضر لتتلامح فوقها كلها ، وانها لتومىء الى (اليوبيل) الذهبي .. ثم انها لتومىء الى (اليوبيل) الماسي .. انه لا شيء أحلى من الامل الذي يخالط أصحاب العقيدة .. ولا شيء أثمن عندهم من أن تتجلى هذه العقيدة في عمل من الاعمال .. وهل أحلى من عملية التواصل الفكري .. أن تكون فيهـا وأن تكون منها وأن تكون لها ؟!

الدعاء في أدبنا وتقاليدنا يمثـل لهفتنا وآمالنـا ومكابداتنا وتطلعاتنا .. فليحفظ الله علينا جميعا سلامة المعتقد وصلابته ، وصحة الطريق ورشادته ، ووضـوح القصد وتألقه .

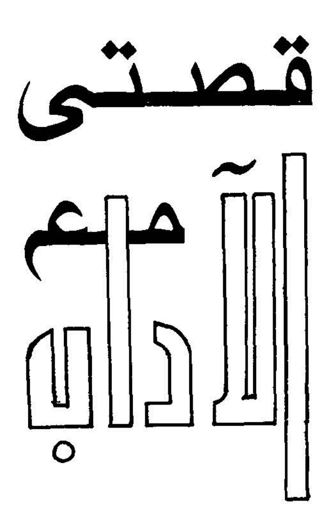
وسلمت « الآداب » لرسالتها في خدمة العربية ، في لغتها وفكرها ، والعروبة في حركتها ووحدتها .

ولك من أخيك ، موافقا في اكثر الاحايين ، مخالفا في أقلها ، أطيب أمانيه .

دمشق



د. محمد النويهي



أفضل أن يكون هذا حديثا عن تجربة شخصية على أن يكون لجوءا الى تقريظ عام غير محدد .

في أواخر سنة ١٩٦٤ شاركت في ندوة أقامتها الجمعية الادبية المصرية حول شعر صلاح عبد الصبور بدراسة لقصيدته « أغنية من فيينا » من ديوان « أحلام الفارس القديم » . ثم عجزت وعجز أصدقائي من أعضاء الجمعية عن أن نجد مجلة مصرية تقبل نشرها ، لان الموضوع كما قيل لنا « حساس » . فاقترح عليّ ارسالها الى « الاداب » ، وبالفعل نشرتها « الآداب » في عدد فبراير ١٩٦٥ كاملة لم تحذف منها كلمة .

وفي أوائل سنة ١٩٦٥ سألني رئيس تحرير «المجلة» القاهرية أن أشارك فيها ببحث أدبي ، فكتبت دراسة للفن القصصي الدرامي في شعر عمر بن أبي ربيعة ، وبراعته في تصوير مشاعر المرأة وانفعالاتها وقوتها وضعفها وتعدد شخصياتها . لكن رئيس التحرير اعتذر لي عن عدم استطاعته أن ينشر دراستي ، وأكد لي انه شخصيا يقدرها ويسره لو استطاع نشرها ، لكنه يخشى غضب المحافظين والمتزمتين ، مع ان حقيقة من أهم الحقائق التي عنيت بشرحها في الدراسة هي تعفف عمر وأدبه العظيم في التعبير عن التجارب المعينة التي تناولها ، على عكس ما يكتظ به أدبنا القديم من افحاش (وهذه أيضا ميزة بينتها في قصيدة عبد الصبور التي اشرت اليها) . فلجأت الى « الآداب » فبادرت بنشر دراستي على قسمين في ابريل ومايو سنة ١٩٦٥ ، لم تحذف منها سطرا ولم تغير كلمة — فيما عدا الاخطاء المطبعية !

في تلك الاثناء كانت الاحوال قد ازدادت حرجا للحريصين على حرية فكرهم واستقلاله في مصر ، الامر الذي ينسب الآن الى تأثير « مراكز القوى » . فازداد لجوئي الى « الآداب » أنشر فيها كل ما تضيق به صحف القاهرة ومجلاتها ، من طريقتي الخاصة الغريبة في دراسة الادب القديم ، ودفاعي عن الشعر الجديد ، ودعوتي الى تحرير الفكر ، وتغيير مفهوم « القومية » حتى يتسع لتحليل الاخطاء والنقائص العربية ، وتطوير مقاييسنا الاخلاقية ، وتجديد فكرنا الديني . وهكذا نشرت لي « الآداب » أبحاث « من دروس الايام الستة : حركة الشعر الجديد في ضوء الهزيمة » في يونيو ١٩٦٩ ، و « الفضيلة بين البدو والحضر : هل نحن أرفع أخلاقا من الغربيين ؟ » في يوليو من نفس السنة ، ثم « والآن ... الى الثورة الفكرية » في فبراير ومارس ١٩٧٠ . وأبحاثا أخرى متعددة من قبل هذه ومن بعدها ، تركت لي في جميعها الحرية التامة في التعبير عن آرائي مهما تكن مخالفة للعرف السائد القومي أو الديني أو الاخلاقي أو الفني .

وما فعلته « الآداب » لي فعلته منذ نشأتها لعشرات آخرين من كتاب العرب ، على اختلاف مدارسهم السياسية والفكرية والفنية . ولست أعرف في العالم العربي كله مجلة تناظرها في سعة صدرها وسماحها لاختلاف الراي . فان كانت حرية التعبير من ألزم ما يلزم وطننا العربي كي يحقق ما يصبو اليه من تقدم ورقي ، وانتصار وعزة ، فاننا جميعا مدينون أعظم الدين الى « الآداب » . فلها مني التحية الصادقة ، والشكران العميق ، والدعاء بطول العمر وسعة الانتشار .

القاهرة

د. عبد السلام العجيلي

نحن و الآداب في ربع قرن

اذن فقد مضى ربع قرن على صدور اول عدد من مجلة «الآداب» !

هكذا انبأني الدكتور سهيل ادريس في رسالة جاءتني تحمل خاتم بريد بيروت . اول رسالة تحمل الي هذا الخاتم بعد شهور الاسى الطويلة التي احترق فيها لبنان ، واحترقت قلوبنا عليه فيها .

ربع قرن مضى من عمرنا ، ومضى من شبابنا وحيويتنا وامانينا الزاهرة . وربما كان الاحرى ان اقول انه مضى بذلك الشباب وتلك الحيوية وهاتيك الاماني .

وفي ربع القرن هذا كانت الآداب ميدانا حققنا فيه ، او بسطنا فيه ، بالحيوية التي امدنا بها شبابنا ، امانينا الزاهرة كما صورتها او تخيلتها او خططتها مواهبنا الادبية وتطلعاتنا الفنية .

وحين اتحدث عنا ، بضمير المتكلم وصيغة الجمع ، فانا أعني بنا نحن كتاب الآداب في ربع القرن الذي مضى وفي اعوامه الاولى بصورة خاصة . وربما انسحب هذا الضمير على جانب كبير من قراء الآداب الاوفياء الذين استمروا يقرأون مجلتهم لانهم يرون فيها ناطقا بأمانيهم ومعبرا عن عقيدتهم . واذا كنت ذكرت الشباب ، فلست استثني من بين كتاب الآداب من جاوزوا في العمر سني « الفتوة » . فقد كانت الكتابة في الآداب ، منذ ظهورها ، تعني فتوة النفس والفكر . فما كان يغيب عن الذهن بأن هذه المجلة الجديدة التي رأس تحريرها شاب سلفي الثقافة في اصوله جاءت لتعبر عن الجديد وعن الفتي في الثقافة ، وعن الطليعة المتقدمة في الادب ، وجاءت لتفتح اذهان المتأدبين في النصف الثاني من القرن العشرين على آفاق هذا العصر الذي اصبح عصر ثورة في الفن والادب والفلسفة ، مثلما كان العصر الذي سبقه عصر تطور في هذه وذاك وذلك .

واتكلم عن نفسي ككاتب من كتاب « الآداب » . لقد وجدت نفسي منساقا بعوامل متعددة الى ان اكون كذلك منذ الاعداد الاولى من مجلة الدكتور سهيل ادريس . كانت تجمعني برئيس تحرير المجلة الجديدة معرفة شخصية وميول ادبية متشابهة وفكرة قومية واحدة ، عدا المقاربة في العمر . ليس غريبا ان أجد في صفحات الآداب مجالا لنشر مقالاتي النقدية والسياسية ، وقصصي بصورة خاصة . لقد كتبت في اكثر من عدد من الآداب « قصة الشهر » . وانا في الواقع لم اكتبها لتكون كذلك ، ولكن الدكتور سهيل ادريس كان يجد قصصي التي اكتبها لمجلته جديرة بأن تحمل هذه الصفة ، ويوافقه على ذلك النقاد والقراء . وعلى انني لم اكن جديدا على ميدان القصة ، فان القصص التي كتبتها خصيصا للآداب اصبحت معالم بينة في مسيرتي الفنية ، وفي اذهان كثير من متتبعي نتاجي الادبي بين القراء . « الشباك » ، « سالي » « بنادق في لواء الجليل » ، « كفن حمود » ، « النهر سلطان » ، وغيرها كثير ، قصص نشرتها لي الآداب وحظي بعضها بالترجمة الى لغات اجنبية مختلفة ، كما اصبح بعضها مثالا للقصص القومي في كتب التدريس بعد ان اطلع عليها القراء وعرفوها منشورة على صفحات الآداب . والى اليوم لا تزال مجموعتي القصصية « قناديل اشبيلية »

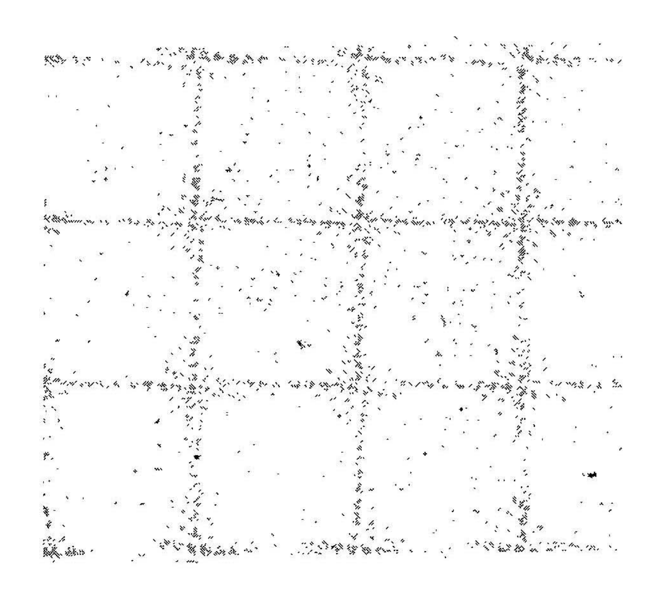
التي اصدرتها لي دار النشر المنبثقة عن هذه المجلة في اوائل مطبوعاتها ، لا تزال آثر مجموعاتي القصصية على نفسي واشملها دلالة على اتجاهاتي الفنية والاجتماعية والسياسية . لهذا فليس من السهل لي ، ولا لكثير من ادباء العربية المعاصرين ممن تقرب علاقتهم بالآداب من علاقتي الشخصية بها ، ان افصل شخصيتي الادبية عن هذه المجلة التي تفاعلت معها خلال حقبة من الزمن تعد من احفل الفترات المعاصرة في تاريخ امتنا الفكري، وفي تاريخ امتنا من كل الجوانب .

واقول ادباء العربية المعاصرين لأني لا اريد ان اغفل قيمة مجلة الآداب كملتقى لاقلام الكتاب العرب على اختلاف اقطارهم ، ودورها في تعريف بعضهم ببعض . ولقد واكبت « الآداب » حركة الازدهار النشري التي جعلت من بيروت مركز اشعاع وهاج للثقافة المطبوعة في الكتب والدوريات بل انها كانت ،بصورة مباشرة عن طريق دار الآداب للنشر ، وبصورة غير مباشرة بتأثيرها كمجلة واسعة الانتشار ، كانت احدى القوى الدافعة في حركة الازدهار تلك . وكانت بهذا تلعب الدور الذي كان يريده العرب للبنان نفسه ، من كل النواحي : مجلة عربية بالصورة القومية المثالية تصدر في لبنان الذي يمثل نشاط العرب وحيويتهم وتحركهم الفعال .

كل هذه خواطر جالت في بالي حين تنبهت الى ان خمسة وعشرين عاما قد مرت منذ ظهر العدد الاول من مجلة الآداب . ومرت في بالي خواطر أخرى اجملتها في قولي ان ربع القرن هذا ، كما مضى بشطر من عمرنا وبشبابنا ، مضى بأمانينا الزاهرة . فأين نحن اليوم مما كنا عليه ، ومما كنا نؤمله ، قبل خمسة وعشرين عاما؟ هل اختصر ام افصل ؟ بحسبي ان اصف ما وقعت عليه عيني منذ اسابيع قليلة ، حين عدت الى بيروت في فترة هدوء عابرة ، فمررت فيها باحياء ما كان اكبر الفتي بها: حي الخندق الغميق ، وحي على السور بجانب العازارية، حيث كانت تحرر الآداب في أعدادها الاولى وحيث استقرت ادارتها في السنين الاخيرة .. لقد رأيت الخراب والدمار وآثار النيران في الامكنة التي كانت مبعث الاشعاع الفكري والفني . كان ما رأيته اطلال ابنية واطلال آمال واطلال القيم والمثل العليا .

... ولكن هذه هي رسالة الدكتور سهيل ادريس في يدي تنبئني ان من بين كل هذه الاطلال ترفع « الآداب » راسها لتقول لنا ان ارادة الحياة فيها لا تزال قوية، وانها ستصدر في عدد ممتاز في ذكرى انقضاء ربع قرن على وجودها . فهل لنا ان نعدها بشارة وفأل خير ؟

آمل ذلك . وتحيتي الى الآداب التي ترفع راسها من بين الانقاض متوثبة ،في عيدها الخامس والعشرين !



حضرت مولد الآداب .

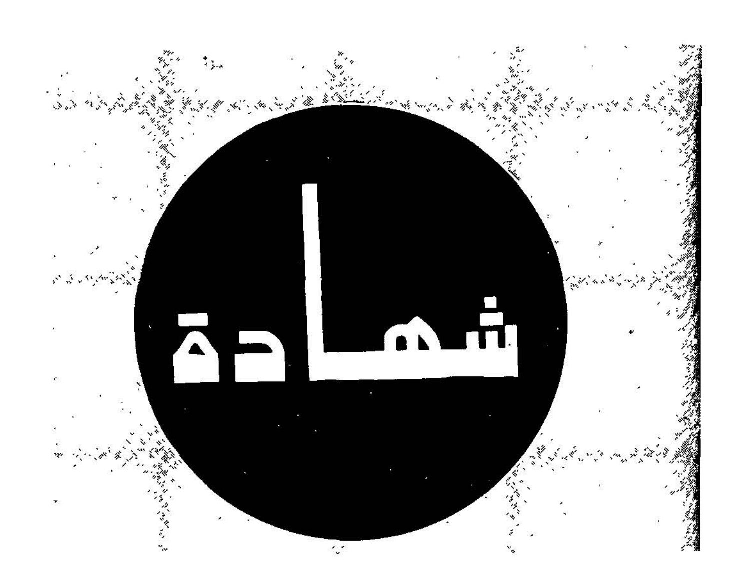
وكنت اتابع نموها ويفاعتها ، مزودا بثقتي في رائدها سهيل ادريس ، على غير معرفة شخصية ، ولكني اخذت بحماسه وهو ينشىء مجلة شهرية للآداب في بداية عهد بيروت بانطلاقة جريئة لحركة النشر والتوزيع .

وقرأت لسهيل بعض ما كتب وترجم في الآداب وبعض ما كتب ونشر من قصص ومجموعات ، فآمنت بأن الآداب ستنجح لان الذي يشرف عليها ليس ناشرا ، ولكنه اديب كاتب قبل ان يكون ناشرا .

تتبعت الآداب بعد ذلك واعترف باني لم اكن ملتزما معها التزامي مع « رسالة » الزيات مثلا . فقد كان عهد الطلب يغريني بقراءة « الرسالة » من افتتاحيتها حتى بريدها الادبي،ولكن عهد العمل لم يكن يسمح لي بقراءة الآداب قراءتي للرسالة . غير ان عددا منها لم يكن يمتنع علي فكنت أتخير من كتابها القدامى والجدد ، وكانت سيرتها تؤكد فكرتي عنها : التصميم . العزم .الحماس. التطلع . الجدة ..

في مقدمة ما لفت نظري حماس المجلة الى الجديد في القصة والشعر والبحث . فهي مجلة الطليعة المتجددة من الكتّاب ، لم تعتمد على النخبة المعروفة في لبنان او سوريا ،ولكنها حاولت استقطاب الكتاب الجدد في الوطن العربي . ويخيل الي ان الاسم الجديد كان يغري التحرير اكثر مما يغريه المضمون . ولذلك تلاحق الكتاب الجدد الذين واصلوا نضالهم مع الآداب حتى اصبحوا في الطليعة من كتاب القصة والقصيدة والمقالة .

وحاولت الآداب ان تكون للوطن العربي جميعه فكانت تنشر للادباء من الخليج الى المحيط . وبذلك كانت للكتّاب العرب او حاولت ان تكون . ولا اكتم ان الذين كتبوا فيها



من المغرب العربي قلة . وهذا لا يرجع الى المجلة بالقدر الذي يعود الى هذا الحاجز الذي نحاول ان نحطمه بين مشرق الوطن العربي ومغربه . والذين اجتازوا الحاجز فكتبوا للآداب نشرت لهم بترحيب . ويبقى ان تجتاز هي الحاجز فتبحث عنهم في عقر دارهم . وقد حاولت بالفعل حينما خصصت ملفات خاصة بأدب المغرب العربي .

انطلاقة الآداب في الوطن العربي كانت سبيلا للتعارف بين ادباء العربية . وكثير من الذين كانوا يحضرون مؤتمرات الادباء العرب تعارفوا قبلها عن طريق الآداب .

وهذه من النقط الايجابية في نضال ربع قرن .

اهتمت الآداب بالقصة والشعر والمقالة النقدية . وبذلك تخصصت في الادب الابداعي . وابتعدت عن البحث التاريخي والبحث العلمي، ولم تهتم بالتراث العربي الا عندما يتطرق ناقد الى حركة النقد عند العرب مثلا . وقد يكون اقتصارها على الآداب الحديثة سببا في ضيق الآفاق امامها ، ولكنه اختيار يشير اليه عنوانها وتخصص المشرفين عليها . غير ان هذا الافق الضيق فسح المجال لكثير من الانتاج – يقل عن مستوى الهدف – تسرب الى الآداب ، فكان يضعها احيانا في ارجوحة ترتفع بها بقدر ما تنزل ، وتنزل بقدر ما ترتفع ... ولكن ذلك ليس غريبا على مجلة عربية تصارع ضعف الحركة الادبية وانعدام اتجاهها في الوطن العربي ، كما تصارع التقلبات السياسية والمحن التي مرت بهذا الوطن طيلة ربع القرن الماضي . وكلها ظروف تطبع الحياة الادبية بالاهتزاز وانعدام الاستقرار ، بل وانعدام الايمان والثقة في جدوى الادب ، والتعبير بفن الكلمة عن المشاكل التي يعانيها الانسان العربي .

وكانت الآداب في طليعة المجلات العربية التي ناصرت الشعر الحر بفكرة مسبقة ودعوة صريحة . وبذلك اسهمت بحظ وافر في توجيه الشباب الى الشعر الجديد . وكانت – وما تزال منبرا له فنشرت الكثير منه . وبرز في صفحاتها شعراء اصبحت لهم مكانتهم الادبية بين رواد الشعر الحديث في دنيا العرب .

ولكنني الاحظ ان حماس الآداب ضد الشعر التقليدي كان اكثر مما تحتمله مسؤولية مجلة تتطلع الى نشر الجيد من المضمون ، مهما كان الشكل الذي يحتويه . وسيقول الاخ سهيل : ان للاداب رسالة . ومن رسالتها ان تؤصل الشعر المتحرر من الوزن والقافية ، ولو على حساب الجيد من الشعر التقليدي الشكل .. ومع ذلك فهناك شعر ، وهناك شعراء ما يزالون يمارسون الشكل القديم ، ومضامينهم شعر له وزنه الممتاز في الشعر العربي . وفي رأيي ان رسالة الآداب لا تضيق عن مسايرة التطور في الشعر التقليدي كما لم تضق عن مسايرة التطور في الشعر الجديد . وربما كان الكثير مما نشر من الشعر الجديد ليس فيه من الجدة الا تقليد الشكل . وهذا ما وقعت فيه كثير من المجلات والملاحق الادبية للصحف العربية .

ولعل السر في ذلك حماسها – حماس شباب – للجديد مهما كانت قيمته المضمونية والتعبيرية ، وحماسها – حماس شباب – ضد الشكل القديم ، مهما كانت قيمته المضمونية والتعبيرية .

حافظت الآداب على الخط العربي القومي في كل ما نشرته رغم وجودها في محيط تضاربت فيه التناقضات بشكل خطير . وقد اثار هذا الالتزام في وجهها كثيرا من المتاعب فكانت تصادر وتراقب في كثير من البلاد العربية . ورغم ذلك استمرت الآداب خمسا وعشرين سنة . وهذه شهادة يشهدها وجود الآداب ، وليست في حاجة الى مزيد .

ورحلت الآداب لتنجو من المحنة التي مر بها لبنان في السنتين الاخيرتين لتؤكد وجودها ، وها هي ذي تعود كقيمة من قيم لبنان التي اختفت او هاجرت اثناء المحنة لتعود من جديد بعد انكشاف الغمة .

اذا كنت اهنىء الآداب بعيدها الفضي واشد بحرارة على يدي الصديق سهيل ادريس والسيدة عائدة فلأنني اعرف عن طريق الممارسة الدائمة ماذا يعني اصدار مجلة ادبية عربية بمجهود فردي طيلة خمس وعشرين سنة . انه مجهود فكري وجسماني ومادي كبير ، ولكنه في وطننا العربي اخطر من مجهود ، انه انتصار على الفشل الذي يتربص بمثل هذه المشاريع الفكرية والادبية .

وليس من السهل الانتصار على فشل تصنعه كل ظروف الحياة في الوطن العربي .

الرباط (المغرب)

الآداب ومطامح الأجيال

علي الحلي



عندما تعود الذاكرة الحية بالادباء العرب المناضلين الى سنوات الخمسينات الحافلة بالاحداث السياسية الجسام وعنفوان النضال العربي الاصيل .. لا بد لهم ان يتذكروا ويستذكروا معا وفي اللحظات نفسها انتفاضات الحركة الزاهرة للادب والفن والترجمة ، وتتوثب امام انظارهم رؤى مساراتها المشخصة ، وتتحدد هويات مواقعها وسمات اتجاهاتها على خارطة الوطن العربي الكبير.

وعلى الرغم من هيمنة الانظمة الاستبدادية شبه المطلقة خلال تلك الحقبة السوداء ، وتمتع زبانيتها بشهوة القمع والارهاب بصورة شاذة واستثنائية ، الا ان قوة تلاحم الجماهير العربية الشعبية الواسعة.. كانت تلد عناصر التحدي والمجابهة والتصدي للطغاة والخونة بأكسير الحياة والديمومة .

ولما كان التلاحم بين الكفاح القومي والمقومات الثقافية الاصيلة كلا عضويا لا ينفصم ، لذلك فان أيا من عوامل الانحدارات او الانتصارات التي تؤثر على أحد منهما، لا بد ان تنال وبشكل حاد من الجانب الاخر وتترك بصماتها عليه بصورة بارزة .

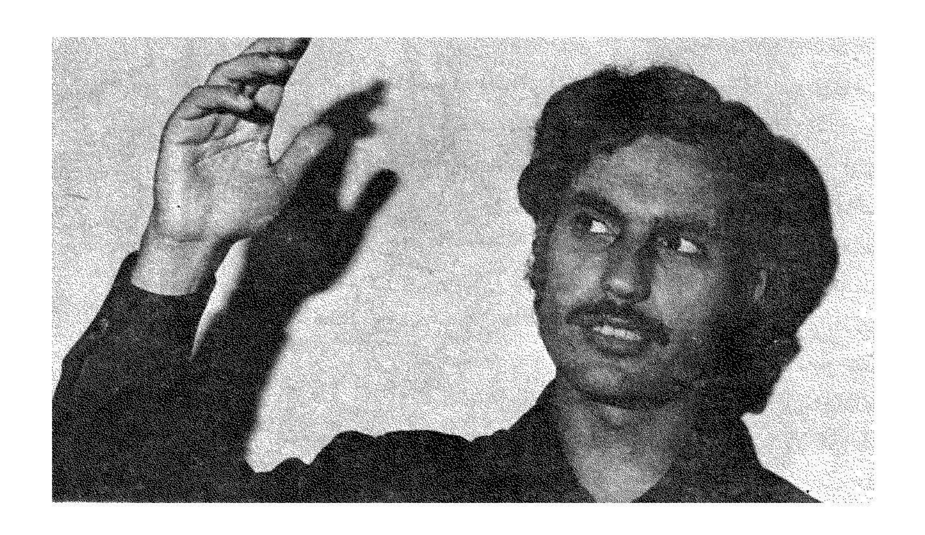
وفي تلك الفترة الحاسمة – وكنت من ابنائها بكل اعتزاز – المشحونة بعصارى الالم الخلاق وعذوبة الفرح الثوري ، لا بد من القول الحق بان (الآداب) كانت احدى ابرز ادوات النشر التقدمية القومية في الوطن العربي، التي عبرت بجرأة وصبر عن طموحاتنا في حركة البعث العربي الكبير من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي، على الرغم مما تتعرض له اكثر اعدادها للمنع او القطع او المصادرة الكيفية من قبل سلطات الحكم الملكي الغاشمة في القطر العراقي قبل ثورة الرابع عشر من تموز الخالدة عام ١٩٥٨ .

وكانت قصائدي – وهذه شهادة مخلصة للتاريخ – تنعم بالنصيب الاوفى من لعنة قراصنة الحرف ،ولا زلت اتذكر كيف كانت (المشردون)و(الطوفان)و(لنا المجازر) و(اعراس الثوار) و (نعش النسور) و (عودة النازحين) وسواها من القصائد الملتهبة يتلقفها المخلصون من ابناء شعبنا سرا .. وأتذكر جيدا كيف كانت النسخة الواحدة من العدد الممنوع من (الآداب) تنتقل من يد الى اخرى في المقاهي والكليات واللقاءات السرية ، وتستحيل الى مجموعة من الاوراق التالفة نتيجة التداول المستمر، وكأنها « نص آثاري » اغفت على سطوره صلوات القرون الاولى من عصر الانسان المتحضر !

تحية صميمية الى الصديق الحر الدكتور سهيل ادريس والى اسرة مجلة (الآداب) واصدقائها في عيدها الخامس والعشرين ..

والى الامام على طريق اهداف امتنا العربية المثلى .

بغداد



أحمد حبور

عن الآداب بين الحلم والذاكرة

هي هكذا ـ الآداب ـ بين الذاكرة والحلم ..

اما الذاكرة ، فلها ان اقترح تاريخا يناسبها ، وما دامت ذاكرتي انا ، فليكن هذا التاريخ ، الصغير ، الحميم ، مرتبطاً بالشهر الخامس من عام ١٩٦٢ ، كنت يومها قد تجاوزت عامي السادس عشر ببضعة ايام ، وكان مجرد اقتنائي لمجلة الآداب لا يخلو من تنطع وادعاء في اعتقاد بعض أساتذتي في اعدادية خالد بن الوليد بحمص . فكيف يبلغ بي التطاول ان ارسل قصيدة الى مجلة « الآداب » بالذات ؟ وليس هذا فقط ، بل كيف يسمح صاحب الآداب لنفسه بأن ينشر القصيدة ، وهو الذي لوّع « كبار » شعراء المدينة بتجاهله خرائدهم . وماذا سيكون وضع « الشاعر » المراهق ذي الستة عشر عاما امام استاذ له ـ او هو في حكم الاستاذ ـ ردت عليه الآداب ذات يوم في زاوية بريد القراء فجعلته اضحوكة المدينة ؟؟

بالحق أعترف ، ان هذه الشريحة من ذاكرتي لا تخلو من شماتة وبعض اعتداد ، وكلا الشماتة والاعتداد معيب، لكن مهلا ، هل كانت « الحروب » الادبية بين الاساتذة الوقورين الجلادين وطلابهم المتحمسين حروبا عادلة ؟ ألم تطلعنا الآداب نفسها على حرب بين استاذ جامعة وأحد طلابه ، كانت تسفر عن انتصار الطالب على صفحات الآداب وانتصار الاستاذ في مدرج الجامعة وقاعة الفحص، بحيث لم يتمكن الطالب المذكور من الفوز بالشهادة الا بعد انتقال استاذه الاشوس من الجامعة ؟ او لا يحق لذلك الطالب ان يعود الى بعض الشماتة المشروعة عندما يلتفت الآن فلا يجد لاستاذه حضورا ادبيا حتى ولا في باب الطرائف ؟؟

لعلي اريد القول : ان جيلي فتح عينيه على الآداب تخوض معركة ديمقراطية ضد الجمود والاسماء الطنانة او من في حكمها ، منحازة الى مستقبل لم يكن غامضا ، فها هو الآن واقع ملموس : انا اشك بوجود اديب عربي تقدمي ومعروف وفي العقد الثالث من عمره(فما فوق) ولم يمر بصفحات الآداب .

***

على ان معركة الحداثة والتخلف لم تكن المعركـــة الوحيدة لمجلة الآداب .. فمع ان شعار المجلة يبدو بسيطا لاول وهلة (مجلة ادبية تعنى بشؤون الفكر) الا انه كـان تطبيقـا ميدانيا لمعركة الثقافة الوطنية الديمقراطية ،بحيث تمتد « شؤون الفكر » الى الشؤون النضالية كافة ،وربما كانت الامثلة الذهبية الثلاثة لمحاور نضال « الآداب » هي: الوحدة العربية ، وثورة الجزائر ، والثورة الفلسطينية .. ولا يصعب على الذاكرة ان تشهد كم عانت هذه المجلة في تقديمها لاصوات الادباء الملتزمين ،بحيث انه لم يمر عـام واحد عليهـا الا وشهدت منعـا في قطر عربي او اكثرمن اجل قضية قومية او في سبيل حرية الكلمة .

***

— مرحبا دكتور

— قبل السلام .. اقرا هذه القصيدة .

واتناول القصيدة التي فوتت علي لقاء حارا بالدكتور سهيل ادريس بعد غياب غير قليل ، كانت « اغنية الكعكة الحجرية » للشاعر امل دنقل ، وهي بالطبع من اجمـــل قصائد امل، وفي رأيي انها واحدة من اهم القصائد العربية فـي السبعينات ..

— قصيدة عظيمة وخطيرة .. ولكن هل ستنشرها ؟

ويبتسم الرجل وهو يستعيد القصيدة مني ليدرجها فـي مواد العدد القادم قائلا :

— اذا كان الشاعر جريئا الى حد كتابة القصيدة ، فهل يكـون كثيرا ان اجرؤ على نشرها ؟؟

***

الوجه الثاني للصورة ، شهدته هكذا :

— مرحبا دكتور ..

— قبل السلام .. اقرا هذه القصيدة ...

وأتناول القصيدة مبتسما ، سعيدا بهذه التحيـة الحميمة ، كانت القصيدة لشاعر صديق ، من خيـــرة شعراء جيلنا ، لكنهـا كانت محيّرة فعلا ، كان فيها شيء عصبي ، وحاد ، نبرة خطابية وانفعال يضعهـا علىشفير الغلط . قراتهـا ولم اقل شيئا ، اما الدكتور فقال :

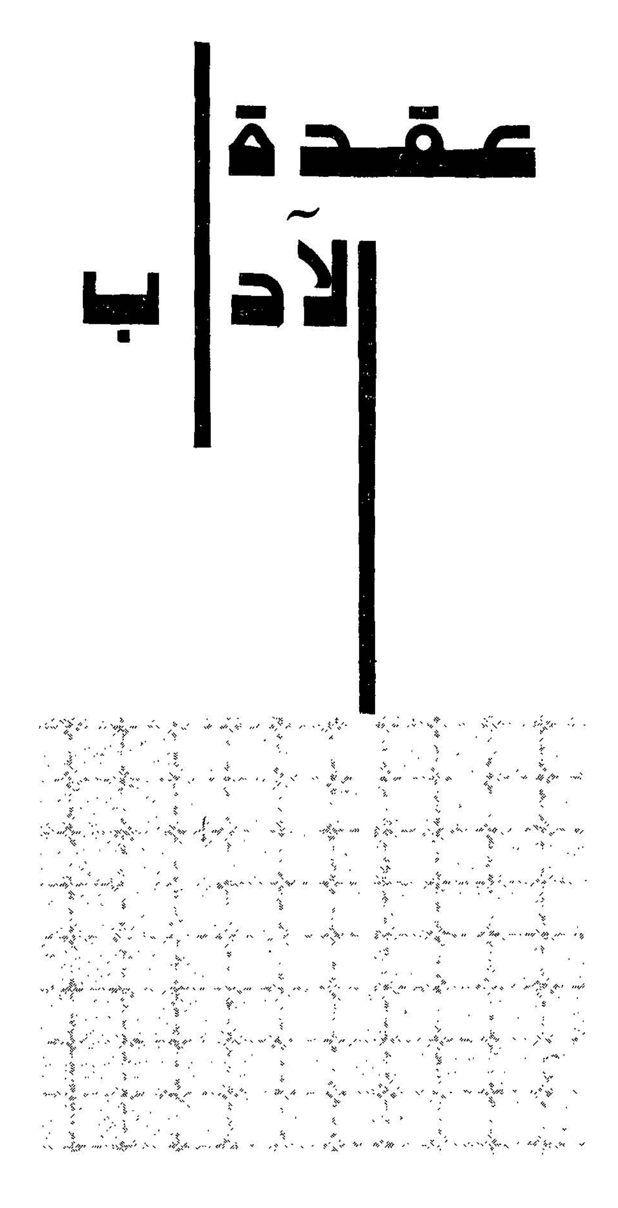
— انت تعرف كم يعزّ عليّ هذا الشاعر ، ولكـــن قصيدته خطيرة .. انا واثق انه لن يتبناها بعد ان تهـدأ اعصابه ، ولذلك فأنـا اقبل زعله مؤقتا ، لاني مع صوتـه الحقيقي دائما ..ولن انشر ما يشوّه ذلك الصوتالجميل.

***

تلك كانت نثرات مبعثرة من ذاكرتي « الآدابية » .. اما الحلم فاننـا نخوضه معا .

حمص

عقدة الآداب



في عام ١٩٦٢ جئت الى دمشق طالبا في كليـة الآداب (قسم اللغة الانكليزية) بالجامعة . كنت حتى ذلك الحين اكتب قصائد كلاسيكية في هجاء بعض رجال الدين وبعض المظاهـر الاجتماعيـة .

في الجامعة ، ذلك العام الدراسي ١٩٦٢ ، – ١٩٦٣ التقيت بعلي كنعـان وكنا في صف واحد . كان اكبر مني سنـا لكنه لاسباب صحيـة قد تأخر في دراسته والتقينا. كان علي كنعـان يومهـا اهم اسم شعري في الجامعـة وخارجها . وكان ، مع خليل خوري ، شاعري دمشـق المبرزين . اما علي الجندي فلم يكـن يومهـا يثير اهتماما كبيـرا .

وكانت اهمية علي كنعان مقرونة بانه « ينشر فـي الصفحات الاولى من الآداب » . وكـان هذا امتيازًا باهرا لمجموعة من الشباب الذين يكتبون الشعـر ويحلمون ان ينشروا في الآداب .

لم اكن يومها اعرف من شعراء العربية بعد احمـد شوقي وحافظ ابراهيم الا نزار قباني وشعراء المهجـر وبدوي الجبل . كانت بيئتي لا تقدم لـي الا المصادر الكلاسيكية من التراث . واستطعت ان اكتشف ان نزار قباني يكتب شعرا على الشكل الحديث لكنه موزون : هناك تفعيلة . فما هذا الذي تكتبه يا علي كنعان ؟ قال :شعر. قلـت : موزون ؟ قال : نعم . تحديته ببجاحة وحاورنـي بهدوئه المعهود وجلسنا في بوفيه الجامعة وبين ايدينـا مجلة « الآداب » لكي تقطع قصيدته « بابا نويل والموتى ». وكانت القصيدة موزونـة !!

استعرت المجلة من علي كنعان وقرأتها ومنذ ذلـك اليوم اصابني ما يشبه الجـرب . تحك وتحك وتحس بحاجة الى المزيد من الحك . بدأنا ننتظر الآداب لقراءتهـا وبدأت اعود الى البسطات ومكتبات الاصدقاء لقـراءة الاعداد القديمة والنقد والردود والمساجلات .. ثـم الدواوين التي تنشرها دار الآداب وكتب النقد، وتعرفت على رواد حركة الشعر الحديث ووجهات النظر النقديـة ومعاركهم مع اخصامهم .

كانت الآداب في ذلك الحين منهلنا الثقافي الهام. وكنـا نقرأ مجلة « شعر » ايضا . غير ان عواطفنا القومية ومبادئنا السياسية كانت تجعلنـا اكثر ميـلا للآداب واهتمامـا بهـا .

وحتى ذلك الحين لم اكن قد كتبت اية قصيـدة حديثة . وذات يوم كنت ادرس وحدي في شرفـة الغرفة التي أستأجرها وكانت هناك فتاة تدرس في غرفة مجاورة، ولم اكن ارى منها الا ظلها الذي يروح ويجيء على الجانب الآخر من الشارع . كنت مستمتعا بمراقبة ظلها . وحين اطفأت الضوء للنوم بقيت وحدي دون ظل .. احسست بالوحشة والفراغ . ثم احسست بتفاهتي (اجلس هنـا لارقب ظل فتاة وانا في دمشق ؟) ثم احسست بفقـري وبانني لا املـك شيئا من هذه المدينة .

مجموعة من الاحاسيس والمشاعر . وجلست اكتب . وجاءت قصيدة على الشكل الحديث ، وكان من المستحيل ان تأتي الا على الشكل الحديث طالما انني ممتلىء بهذه الاحاسيس الصعبة .

في الصباح راجعتها قليلا ثم طرت الى علي كنعان، قراها بهدوء . اعجبته فيها بعض الاشياء وانتقد فيها اشياء اخرى (فسرت نقده لحظتها بانه غيرة من ابداعي) وقلت لنفسي : لماذا يتبجح هذا العلي كنعان ؟ نحن ندرس الادب الانكليزي معا . وهو ، كطالب ليس افضل مني ، وانا اطالع بنهم مرضي . ألانه ينشر في الآداب ؟ وحق ديني لا بد ان انشر في الآداب . وسأنشر هذه القصيدة ذاتها .

ولكنني بعد ان عدت الى البيت شككت بقيمة القصيدة واحتفظت بها في دفتري . وظللت وعلي كنعان صديقين حميمين مياومين . ندرس معا ونسهر معا ونتناقش ونستدين ونجوع . وتعززت علاقتنا ونسيت التحدي الذي كان بيني وبين نفسي في ان انشر في الآداب . كنا مسحوقين تحت وطأة هموم كبيرة علينا وتبدأ من ورطة تأمين التنوطة او شرب القهوة في البوفيه الى التفكير بالفلاحين وبفلسطين .

في اواخر العام الدراسي كتبت قصيدة ما ازال احبها حتى الآن وكانت مناجاة لعلي كنعان تحكي معاناة شابين ريفيين فقيرين في دمشق وفي الجامعة . كانت بعنوان « غريبان » غافلت صديقي وارسلتها للآداب ،لاول مرة ، وكانت مهداة اليه .

وفوجئت في الشهر التالي انها منشورة . كانت فرحتي كبيرة . وفوجيء علي . فوجيء انني اهديتها اليه وانها منشورة في الآداب . وفوجيء زملاؤنا في الجامعة .. ولكن بعضهم همس « سهيل ادريس نشرها لانها مهداة الى علي كنعان » . كابرت وناقشت. ولكنني بيني وبين نفسي وبعد ان قال لي علي كنعان ان القصيدة تحتاج الى اعادة نظر قدرت ان هذا قد يكون صحيحا . وانتظرت العدد القادم لاقرا النقد .

كان ناقد العدد محي الدين صبحي انهال على القصيدة بشتم مقذع ومسح بها الارض ، ولكنني رغم ذلك سررت لانه ، على الرغم من شتائمه ، قال انها قصيدة تمس شغاف القلب .

بعد فترة اردت التأكد من ان القصيدة قد نشرت لانها تستحق وليس لانها مهداة الى علي كنعان . ارسلت قصيدة بعنوان « دير ماما » ــ اسم قريتنا ــ وانتظرت عددا وثانيا وثالثا ولم تنشر .

اذن هذه هي الحقيقة !!

في العام الدراسي التالي ، اعلنت الآداب عن عدد خاص بالقضية الفلسطينية فارسلت قصيدة تعتمد على حكاية شعبية بعنوان « السيف والصدأ » . ارسلتها بعد تردد . وصدر العدد الخاص وقصيدتي ليست فيه . كانت طعنة مؤلمة لي .. ولم اعترف لاحد من اصدقائي بانني قد ارسلت قصيدة للآداب . وظللت آمل انها قد تنشر في عدد قادم طالما ان رئيس التحرير قد نوه الى ان هناك قصائد اخرى ضاق بها المجال او وصلت متأخرة وانها ستنشر في العدد القادم .

جاء العدد القادم وكانت القصيدة فيه !-

بعد حين توفي السياب وحزنا عليه بحق ، وكتبت قصيدة بعنوان « النبي » ارسلتها للآداب ايضا ونشرت فورا وعلى الصفحات الاولى (قدرت يومها ان مكانة السياب عند الآداب هي التي قدمتها الى هذه الصفحات الاولى ولكنني مع ذلك سررت بنشرها سرورا لا يوصف).

وفي العام ذاته سافرت قرابة عشرين يوما الى اندونيسيا . وعدت من هناك بقصيدة . بيضتها في الطائرة.. وحين وقفنا في استراحة قصيرة في مطار بيروت القيتها في صندوق البريد الى الآداب .

ونشرت في العدد القادم (كان عام ١٩٦٥).

وكانت هي القصيدة الاولى التي احس انها نشرت دون شفاعة ، لا شفاعة علي كنعان ، ولا شفاعة فلسطين ، ولا شفاعة السياب .

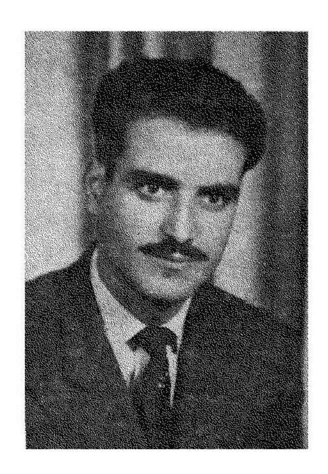
ان الثقة بالنفس التي يستشعرها شاب مثلي ــ في ذلك الحين ــ تعطيه دافعا لا يستهان به نحو السعي الجاد من اجل تطوير وسائله وادواته . الاعتراف واكتشاف منبر ملائم لك تقول صوتك من خلاله دون ان تحس بالحرج .

هذا يعني انني ابتداء من عام ١٩٦٥ بدات احس بانني قد تخلصت من « عقدة الآداب » وضرورة نيل اعترافها وانطلقت فرحا بوجود منبر تقدمي استطيع ان ارفع صوتي منه . وبين ١٩٦٥ و١٩٧١ نشرت معظم قصائدي في الآداب . وقد كتبت بغزارة لم يكن يجاريني خلالها الا سعدي يوسف .

ما تزال حتى الآن لتلك الايام نكهتها. وما تزال ذكرى سعينا الاول للتعرف على امكانياتنا وتثبيتها ثم تطويرها وذكرى الشره الثقافي الذي يتصف به الاكتشاف الاول لعالم جديد ولرؤيا جديدة للعالم وذكرى المناقشات الحارة في الجامعة حول الشعر .. هذه الذكريات كلها تتمحور حول الآداب وتعيش معها .

واحس الآن وانا اكتب هذه التداعيات انني اعود (١٣) سنة الى الوراء واحس « للآداب » رائحة خاصة تذكرنا « بقراميش » الخبز المحروق في التنور وبرائحتها تمتزج روائح الطفولة والقرية ..وبرائحة الآداب تمتزج الخطوات الاولى لشباب يبحثون عن صوت وعن منبر ويحملون هموما كبيرة ويناقشون قضايا الثقافة والادب والجنس والسياسة في بوفيه الجامعة وهم يضربون الطاولات التي تربعت عليها مجلة الآداب .

دمشق



علي كنعان

كانت الآداب جامعتي المتنقلة !

ربما كان من العسير التقاط الذكريات الغالية من شتاتها الموغل في مسارب النفس واغوارها السحيقة المتردمة ، وبخاصة حين ترتبط هذه الذكريات بأنضر سنوات العمر واشدها قلقا ورهافة وفجيعة . فقد عاش جيلنا خلال هذه السنين ثلاث حروب موجعة فاضحة ، وعانى سلسلة من التحديات والهزائم والاحباطات ... وما زال يعاني من عقابيلها اقسى المرارات وافدح الاهوال .

ولكن ، ما دامت « الآداب » ـ بكل ما لها من رصيد المحبة ، وما لها من قيمة ادبية متميزة في مستوى الابداع ومنزلة متفردة في المجال القومي ـ اقول : ما دامت « الآداب » هي صاحبة الدعوة فان الجهد يهون في واجهة الذات ونبش الذكريات وكشف الحساب ، على ما في هذا الكشف والمكاشفة من جرح جديد وتفتيق جراح قديمة ، شخصية ووطنية وقومية ، ولعل شيئا من العزاء يكمن في تلك المكانة التاريخية المرموقة التي تمتعت بها « الآداب » فنا وفكرا وادبا في ازهى مرحلة عاشها جيلنا واقساها ، بين ثورة عبدالناصر وحمامات الدم في لبنان ... دون ان تعني هذه العبارة اي خلط بين قوى الثورة واعدائها .

عرفت « الآداب » في منتصف الخمسينات ، بعد حوالي اربع سنوات من صدورها . يومها كنت في ختام المرحلة الثانوية .. وقد تكشف لي فيها نفس جديد ، حار ، مدهش . فبعد رحلة طويلة ، باهظة ومثمرة ، مع المرض والبحث عن عزاء وسلوى في كتب التراث بين جدران مشافي بيروت ودمشق ، توقفت بولع واعجاب لدى علي محمود طه والشابي وابي ريشة وبعض المهجريين كأبي ماضي والاخوة معلوف .. ويوم التقيت « الآداب » الفيتها قفزة نوعية متقدمة في الزمن والادب ـ بنسيجه الفني واتجاهه الفكري ، ليس في ما يتعلق بحركة الشعر الحديث وحسب ، وانما بشقيقته التوأم ـ القصة القصيرة كذلك .

ان طالبا محروما طالما من بيئة فلاحية فقيرة ـ شبه بدوية .. لا يملك ان يشتري اكثر من كتبه المدرسية ، ولا يتاح له ان يقضي العطلة الصيفية في حمص لان قريته المشلوحة على كتف البادية تحتاج صيفا الى ايدي الطلبة ليساعدوا اهلهم في جني المحاصيل ، رغم شح مواسمها واعتمادها على رحمة الغيوم . وكان النمل مثلا اعلى طالما ردده اخي الاكبر على مسامعنا اثناء ذلك العمل المضني ، لنزداد صبرا وتماسكا ومثابرة . وقد دخلت تلك الايام وهمومها في نسيج قصائدي الاولى التي لم تأخذ طريقها الى النشر لتصوري ان تلك الهموم والاوجاع الفلاحية لا تعني احدا غير اصحابها :

النمل يسعى حاملا مرارة العراك
طول شهور القيظ لا ينام
مستمسكا بصبره البطل
يلم من هنا .. ومن هناك
مؤونة الشتاء
واهلها .. كالنمل دائبون
ماتوا وعاشوا عمرهم على امل
ان تقبل الرياح من غربيتها
موفورة العطاء .

وكانت « الآداب » حلما ، كوكبا يضيء من بعيد .. وليس لذلك الطالب وامثاله ان يطمع بالوصول اليه . فبينما كنا نلهث في الحقول او البيادر كان زملاؤنا من ابناء المدينة يتنعمون بثروة المركز الثقافي من كتب ومجلات . وتمتد العطلة خمسة شهور من كل سنة ، فكيف تمضي

دون قراءة ؟.. وليس في بيتنا غير ديوان ابي تمـــام وحماسته وديوان المتنبي والبحتري وبعض الصوفيين ،ولم يكـن في قريتنا غير قصة الزير سالم وتغريبة بني هلال وبضع مخطوطات لقصائد بدوية ملحمية . وهذه كلهــا شبعنــا منهــا حفظا وترديدا قبل مجيء المدارس الى تلك المنطقة البائسة . فكان لا بد من تعويض .. وكانــت « الآداب » هي ذلك التعويض المرتجى: فسعرها لا يتعدى ليرة سورية وما تحتويه من شعــر وقصة ونقد وبحوث لا يمكن ان يضمهــا كتاب بمفرده .

جرت العادة المتحدرة من ايام انقبيلة ان يقدم الادباء الاساتذة مريديهم الناشئين الى المنتديات الادبية ووسائل النشر ، مشفوعين بآيات التبني والتزكية والمباركة .وكنت محرومــا من هذه النعمة ، حتى اني لم اجرؤ يومــا علــى مفاتحة استاذنا الجليل الشاعر رضا صافي بتورطي فـي اقتراف آثام الشعر . ورحت اشق طريقي بتخبط تجريبي واجتهاد عفوي مثل اي نبات بري ..

واصحو يوما على حدث ابهى من الحلم واغلى ... فها هي « الآداب » تفتح لي صدرها الفني الدافـــيء وتتبناني وتكرمني ، دون وساطة او معرفة مسبقة ، حين نسرت أولى قصائدي في تشرين الثاني عام ١٩٥٩ .وهذه مأثرة كريمة غاليــة احتفظ لهــا بمكان خاص في الذاكرة وزاويــة حميمة في القلب ، لا يمكن ان انساها او اتنكر لهــا مــا حييت .

اذكر اني خرجت من الجامعة في اصيل ذلك اليوم، مثقلا بالكآبة واليأس .. فالحالة المادية لا تسمح بمتابعة الدراســة والعمل غير متيسر ، وليس امامي الا طريــق العودة الى القرية والاستسلام لقدر الاجداد في العمـل الزراعي الشاق والعيش الصعب . ورحت اتسكع فـي شــوارع دمشق مودعا ..واتصفحواجهات المكتبات فاذا بالعدد الجديد من « الآداب » يناديني كصديق حميـم يفرش العزاء ويجدد الامل ..اقتربت منه بلهفة وتصفحت الاسماء على الغلاف فهزني وجود اسمي بينها واعترتني نشوة فجائيــــة غامرة ، أشبه بنشوة الولادة ،وساءلت نفسي : اصحيح ما أرى ؟!

ولعل « الآداب » لا تدري ، ولا صاحبها العزيز ،ان تلـك المأثرة الغاليــة كانت نقطة تحول جذري في حياةذلك الطالب التعيس . فمن تلك اللحظة قرر ان يتابعالدراسة الجامعية ، ولو في القرية . كان في صباه الباكر قد قاوم المرض اربــع سنين وانتصر عليه ، فلمــاذا لا يقــاوم ظروف القحط والجهالة والظلم الاجتماعي ؟.. وكانــت « الآداب » طوال هذه السنين جامعته الصغيرة المتنقلـة ومعلمته المثلى وانيسة وحدته ، في منطقة ما تزال حتى اليوم غارقــة في ظلمات القرون .

ان « الآداب » مجلة الشباب المبدع بحق ، وقــد استطاعت من خلال بابها النقدي « قرات العدد الماضي من الآداب » ان تقوّم نتاجهم وتصقل تجاربهم وتحفزهم على تجاوز انفسهم عامــا بعد آخر . ولقد آثرت ان اطيــل الحديث عــن مرحلة البدايات تلك لاصل الى مسألــــة موضوعية هامة ، تتخطى حدود الآداب والفنون لتغطـي الحياة العامة باسرها . فأنا ازعم ان بدايات جيلنا فيعدة اقطار عربيةكانت متشابهة،وان اختلفت التفاصيل.وحين انتقل هــذا الجيل بمجتمعه من ظل الاقطاع والعشائــر والبرجوازية الذيلية (خليفــة الاستعمار وحليفته) الـى ظل البرجوازيــة الصغيرة .. فقد كان يحمـــل آمالا وطموحات كبرى ،لم يبق منهــا بعد الاحتكاك بالواقــع العملي والاصطدام بامراضه وتحدياته .. اقول بمرارة :لم يبق منهــا غير الدم المتخثر والبثور وشريط جهنمي مـن الذكريات والافكار السوداء التي تفرزهــا كل حقبة مـن الخيبة والقهر والاحباط .

لقد عرفنا « الآداب » اول ما عرفناها.. والمــد الشعبي الديمقراطي يتسع ويمتد من قطر الى قطر وقوى الثورة العربية ، القومية التقدمية ــ ولا اقول الاشتراكية حتى لا اظلمها ــ في تصاعد حثيث .. وها نحن بعد كـل هذه السنين وليس في الواقع العربي ما يوحـي بالضوء والهواء والامان . ثمة اضاءة تاريخية مبشرة حملها الينــا العمل الفدائي .. لكنهــا نحرت في مهادها قبل ان تتفتح على مداها وتكتمل .. ولعل ابرز ميزة تفردت بها«الآداب» هي منطلقهــا القومي وتوجهها التقدمي ــ الاشتراكـي . ولئن طغى العامل الاول على غيره ، فالسبب يعود الى اننا كنا ، وما نزال ، نخوض معارك تحررنا الوطني ، برغم كل مــا يقال وما يحاك .

كانت فلسطين قضية القضايا التي حملت «الآداب» هاجسها . وكذلك ثورة الجزائر وفاجعة بنزرت وبــور سعيد .. وشتى الجراح التي مني بها الوطن العربي مـن اقصى مغربه الى اقاصي المشرق . وقومية« الآداب » لـم تقتصر على طرح الافكار وانما تجاوزته الى الواقع فكانت اول واحب مجلة تنتشر في معظم اقطار الوطـن وتحتضن مختلف الاقلام من المغرب الى الكويت . فلولا الآداب لمــا قرأنــا محيي‌الدين فارس والبياتي والسياب وعبدالصبور وحجازي وسليمان فياض وزكريا تامر ومالك حــداد ، وسعدي يوسف وصباح‌محيي‌الدين وقاسم حــداد ... وغيرهم عشرات .

واذكر ايام الانفصال ، ونحن في جامعة دمشق ، كنا نتلقف اعداد « الآداب » ونتداولها خفية كأنهــا منشور سري .

ولكن ، كيف انحسرت تلك الاندفاعة الشعبيةالمتدفقة من قطر الى آخر .. وكيف تحولت الى فقاعات قزحيــة طافية على السطح الرسمي ، فذلك حديث موجع ويطول . ولكـن لا بد من الاشارة الى اصل الداء حتى لا نفقد الامل في جماهير امتنا وما قدمته من تضحيــات لا يمكن ان يحيط بــه اي بيان . واصل الداء ــ كما اراه ــ يكمـن

في ان البرجوازية الصغيرة ، بفلسفتها الاقليمية المموهة وانبطاحها المفيظ تحت اقدام الامبريالية .. اخطر بكثير من كل ما شهده الوطن العربي في هذا القرن من ويلات وكوارث ، وبخاصة حين تستعيض عن رصيدها الشعبي المفتقد بالانضواء تحت خيمة ام القرى واستجداء بركاتها المنقوعة بالزيت والقطران .

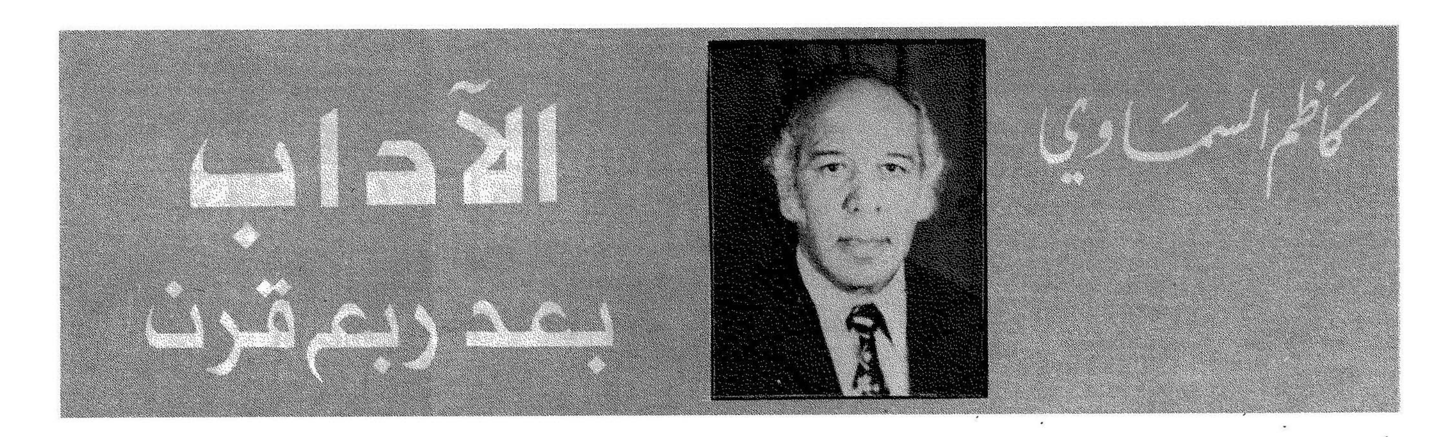
ويبدو لي بعد هذه السنين ان « الآداب » ارتكبت خطأ فادحا في التزامها القومي وقوة اندفاعها وسعة انتشارها . ويتجلى هذا « الخطأ » في انها نبهت القبائل والحكومات الاقليمية الى خطورة الادب ، فاستحدثت هذه الحكومات في عواصمها مجلات ادبية اقليمية على صورتها ومثالها ، اي انها لا تحمل من سمات العروبة غير اللغة .. وبعضهم لا يتحرج في اقلمة اللغة ذاتها. بذلك انكفأ الادب انكفاء خطيرا وانقطع ذلك التواصل الثقافي القومي .

والعتب الودي الذي لا بد في الختام من توجيهه الى « الآداب » هو عزوفها ، او تقصيرها ، عن تناول الفكر الماركسي . ان الثورات القومية الاشتراكية من كوبا الى كوريا قد استندت اساسا الى هذا الفكر . وحين ادعو مجلة رائدة كـ « الآداب » الى تناوله ، فأنا لا اعني تلقينه كتعاليم كهنوتية مقدسة حولت بعض معتنقيها الى مومياء او في احسن الاحوال « وكلاء تشريفات » .. وانما اعني ان نستفيد من ماديته الجدلية وقوانينها كمنهج علمي في دراسة واقعنا وتحليله وفهمه حتى نصل يوما الى تغييره .

شيء آخر ، ارجو ان يدخل تراثنا الادبي والفكري ــ الجوانب المضيئة منه بالتحديد ــ في دائرة اهتمام « الآداب » بحيث تتناول موضوعا في كل عدد .. لا كما يفعل بعض المحنطين في تحقيقاتهم السكونية الجامدة ، ولكن ان يتم ذلك في ضوء المنهج الجدلي . فمن الامور المؤسفة ان الجيل الطالع ــ جيل التلفزيون ــ لا يعرف من تراث امته غير ذلك النزر اليسير الوارد في كتب المدرسة . ويكفي هنا ان نشير الى ان احد الجهلة الكبار يصف المتنبي بانه « برجوازي حقير » وينسى نفسه لانشغاله بمصادرة الشعر الجاد وحصار الشعراء الشباب . وقديما قيل : من قلة الخيول ..

دمشق





الآداب بعد ربع قرن

كاظم السماوي

لم اتحدث عن تاريخ صحيفة ، او مجلة .. في عالمنا العربي .. الا وتكاد الجراح المندمالة ان تنكأ من جديد : انها جزء من تاريخنا الفكري والسياسي بكل جراحه ، ومآسيه ، والتوآته وصراعاته وتحديه ..

اننا نعيش عصرا تكاد الكلمة فيه آن تصبح سكينا ... او طلقة ، او لا تكون : لهذا يقف .. او لا بد ان يقف هذا المطبوع .. مجلة، جريدة، او كتابا .. في هذا الصف .. او ذاك : ولم يبق للتأرجح - كرقاص الساعة - في الموقف من مكان لدى اهل اليمين أو اليسار ..

ربما من اجل هذا ما يزال اللهاث بين الحاكمين والمحكومين ، الجماهير والسلطات ان تمتلك الكلمة !.. تشترى !.. وهكذا ما يزال السوق حافلا بالمنظرين والسماسرة والمروجين .. والجماهيز تدري ... وهي تضع يدها على الكلمة .. وتعرف الى اين ؟.. ومن اين ؟ فلم تعد المساحيق المذرورة بين الحروف .. وفوقها او تحتها .. تخفي جلدة الكلمة ولحمها وعظمها ...!

لم تعد الكلمة لعبة في السيرك الصحفي .. او الفكري ..

انها شرارة في موقد .. ومضة في ظلام .. طابوقة في بناء .. وما عداها .. فانه الزيف ... والدجل .. والعفونة .

والصحافة في عالمنا العربي .. اما ان تكون خدرا، تمويها .. خداعا .. أو ان لا تكون : وقد عرفنا مع من تقف - ولم تزل - الى هذا الجانب.. او ذاك ، ولم يعد ان تقف بين بين !!.

ولا بد لنا في هذا الخضم ان نهرع الى تقييم مجلة « الآداب » بعد ربع قرن من صدورها ، بعد المعاناة الدائبة العنيدة .. رغم العواصف .. والعقبات ، والازمات التي عرفتها عاما فعاما .. وكان لها اخيرا ان تحتفل وسط النار ،والرصاص ، والدماء .. والخرائب .. في (بيروت) المشتعلة .. المتشحة بالحزن ، والصمت ... والدموع ..

لسنا ندري كيف نشد على يد صديقنا الروائي الكبير الدكتور سهيل ادريس .. وهو يضم حلمه .. الذي اصبح تاريخا .. وواقعا .. وخندقا للفكر المعاصر.. عرفه الكثيرون وعرف الكثيرين .. اقلاما وشخصيات ، ومدارس ادبية ..

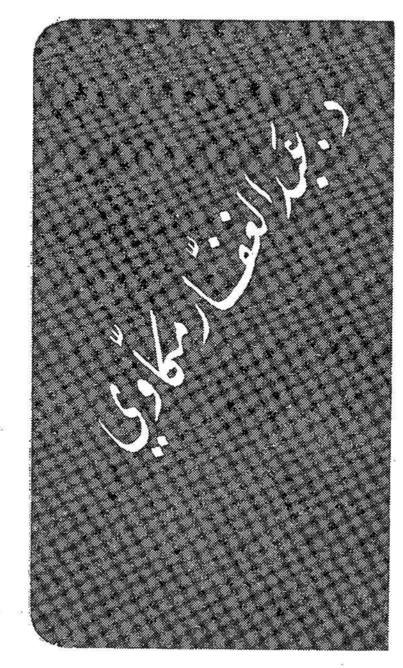
و« الآداب » كانت ولم تزل « نبراسا » للادب العربي المعاصر رغم الاعاصير ، والمتاعب ، والاستلابات.. وبالرغم من طوفان المجلات الرسمية .. والاعلامية وامكاناتها المتعددة الجوانب ، ولكنها لم تزل تنفرد بطابعها وديمومتها وكتابها وشعرائها الذين يسهمون بأصدارها .. لانها « آدابهم » كما هي « آداب » سهيل ادريس .. وكما هي « آداب » القارئين .. في المشرق والمغرب .. العربي على آختلاف مدارسهم الفكرية .

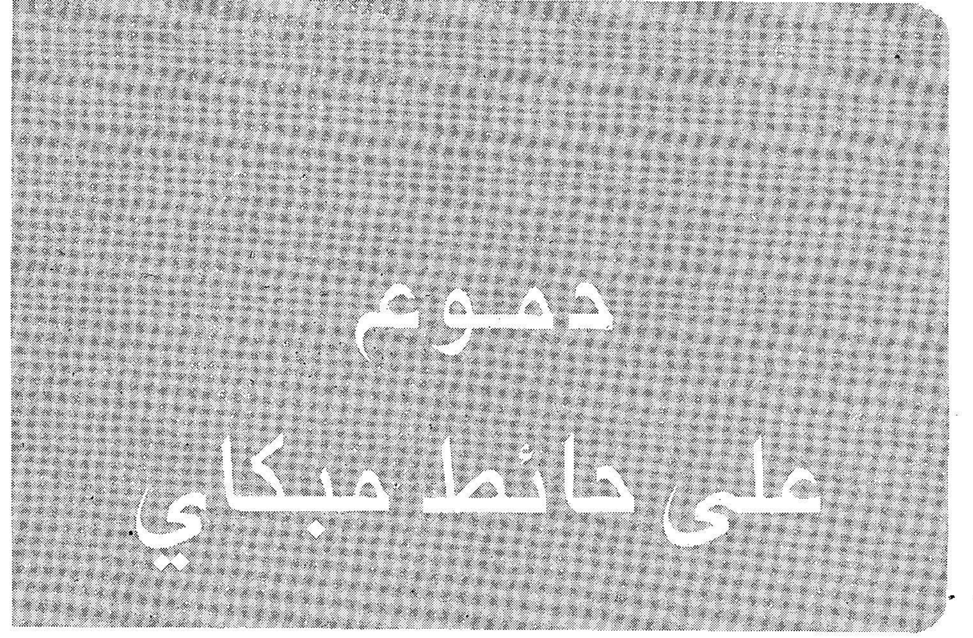
ربما .. كانت هناك بعض الاشارات الى بعض المواقف السياسية التي اتخذتها المجلة .. عبر عمرها الطويل .. موقفا منحازا رغم مواقعها الفكرية الانسانية الراسخة ولكنه كان انحيازا غير مدروس .. سرعان ما تخلت عنه .. وعادت الى مواقعها الاصيلة .. والى تقاليدها الطليعية ..

هناك ابطال مجهولون في تاريخنا الفكري المعاصر - كما هو الامر - في تاريخنا الحضاري الغابر .. اولئك الذين حملوا وحدهم شعلة الفكر.. سنوات طوالا ، دونما تكريم او تعضيد .. من المؤسسات الرسمية التي تقف بكل امكاناتها المادية .. وكوادرها ومطابعها .. فلا تبلغ.. ما بلغته الجهود والقدرات التي بذلها ورسخها هؤلاء الابطال الرواد في مؤسساتهم الفكرية .. والادبية ، وما قدموه من زاد فكري ، وما حملوه - حتى ولو كان شمعة .. في الظلام ..

انني لا اوجه نداءا هنا ، لانني اعلم - علم اليقين - ان الجميع مصابون بداء الصمم او التصامم ولكنني لا اريد ان اقف في الساحة المقفرة .. وحدي .. اريد ان يقف معي اناسنا البسطاء .. فهم الاغنى .. وهم الاوفى .. ليشدوا على يد الرجل الرائد - سهيل ادريس - وعمرا مزدهرا « لآدابنا » الراسخة في مواقعها في المشرق العربي .. وغربه .. وصعودا بعد « ربع قرن » فكرا وعمرا .

بغداد





وتنويعات على لحن عظيم

قلت للصوت الصديق الذي دعاني للمشاركة في العيد الفضي لـ « الآداب » (١) : أنت توقظني من نومة أهل الكهف : منذ سنتين وأنا غارق في بحر السواد والاكتئاب . منذ سنين وأنا جثة تأكل وتمشي وتنام وتضحك أحيانا وتثرثر بالحكمة ، تنكر الصوت الخارج منها وتضيع في المتاهات بحثا عن هويتها . طمأنني وألح علي . قلت سأكتب بكائية ، وسأرثي نفسي وشبابي ! سأفعل ما فعل الشاعر العربي الوحيد الذي نعى نفسه — ذكرت اسمه ونسيته الآن ! — قال افعل . قلت أليست قلة ذوق أن أنصب مأتما وسط أفراح العرس ؟ هل كتب علينا أن نبكي طول العمر ؟ وفكرت أن أقيم حائط مبكى عربيا ادعو اليه الاحباب . فكرت أن أهتف بالقراء : دعونا نبكي فنحن أولى من أعدائنا بالبكاء . فدموعنا على الاقل ليست دموع التماسيح ، وذنوبنا في حق أنفسنا أثقل من ذنوبهم عبر التاريخ . لكنني وجدت من الغرور أن أدعو غيري للبكاء ، ولن يغتفر لي احد أن أسقط ذنوبي عليه ، أو أعمم اتهام الذات — وهو في حد نفسه لا يخلو من الزهو والتبرير — على عشرات من جيلي أنا أول من يحبهم ويقدر انجازاتهم ولا يقارن نفسه حتى بالتراب الذي تدوسه أقدامهم . فلأذرف وحدي دمع العين على حائط مبكاي . وليغفر ثرثرتي القراء . وليتسع صدر «الآداب» لاعتراف جاء بعد خمسة وعشرين عاما ، هي في النهاية عمري المسفوح في دم القلم . وهل كانت طوال هذه السنين الا حائط مبكانا الذي تلقى بالحنان دموعنا ، وفتح صدره لصراخنا واحتجاجنا وتجاربنا الساذجة التي ضاقت بها بلادنا ؟ هل كانت الا المهجر والملجأ للثائر والمتعب والباكي ؟

***

في دمك صوات الندابة القديمة ، شجن المغني الاعمى على القيثار ، أحزان ايزيس الثكلى وأحفادها الذين تترنم بهم الرباب والمواويل . أهو القبر والتابوت الفرعوني الذي لم تستطع الفكاك منه (من عجب انه يتسع للنكات والضحكات ، أن السياح يقصدون طيبة ويغفلون عن القبور والتوابيت الحية !) أهو سجن العمر الموروث ؟ أو كانت كل كتاباتك لطما في مأتمك الازلي — نصبته « معات » الربة لكن نسيته ؟ ها أنت ذا بعد آلاف الصفحات وآلاف الليالي الوحيدة تدرك فجأة انك لم تخرج من التابوت ، لم تستطع أن تزحزحه لان الاجداد صنعوا منه ضلوعك . تفتح عينيك فجأة — بعد فوات العمر — فترى الكتب تحيط بك ، سور شائك غرسته دون أن تدري فحرم عليك بستان الحياة . صورت لك الاوهام ان الحياة كتاب وان الكتاب حياة ، لم تدر الا وقد أصبحت مجلدا يمشي على قدمين ، ينطح صخر الواقع والناس بأحلام ليست أحلامه . عند أول ريح تطايرت الاوراق . عند أول صدمة غرقت كما غرق تراث أجدادك في مياه الفرات والبحر الابيض . فتشت عن طوق النجاة . آه لو كنت كتبته ! كتابك انت لا ما نقلته عن الآخرين . لربما كان

أغاثك أو خفّ اليك كقارب نجـــدة . يا نوح العجوز ! لا عاصم اليوم من الطوفـــان . يا نوح ، لم لـــم تصنع سفينتك ؟ دموعك الآن هي الطوفان . فالجأ قبل فـوات الوقت الى حائط مبكاك . لكن حاول أن تبكـي بدموعك أنت . أن تتعرى في الريح أمام المكتبة المحترقة . فلعلك يوما تتطهر . أقم الحائط وابك عليه ..

* * *

« الناس جميعا فرحون ، كأنهم يشاركون في وليمة، كأنهم ذاهبون الى مهرجان الربيع . أنا وحدي أرقد في سكون ، أشبه بطفل صغير ، لم يبتسم مرة في حياته . أنا وحدي متعب ، حزين القلب ، مضيّع كأني بلا هدف ، أنا وحدي غير الآخرين » ـ سطور من كتاب ترجمته منذ سنين (٢) . أهناك شيء يصدق عليك مثلها ؟ الاكتئـاب كان قدرك . أمك المسكينة كانت تسميك مالك الحزين . كنت لا تبكي وتنشج الا في الافراح . أيها السم الاسود ، من الذي خلطك بدمي ؟ أهذا هو الذي قرّبك من الشعر ؟ عرفت مبكرا انك أفلست فيه . أهذا هو الـــذي جعله يلازمك كظلك فأخذت تنقله الى لغتك ؟ سوّدت عنه مئات الصفحات . تجولت في جزره البعيدة من سافو الـــى اليوت (في العام الماضي منحوك الجائزة ـ فضـلا منهم وكرما ـ فاغرقتك في مزيد من الاكتئاب :) يا اوديسيوس الخائب . سدى كانت مغامراتك . الحوريات كذبت عليك. الرحلة كانت مضيعة للعمر . الاوذيسة كانت فخا لك . غنيت أغاني الفير . وعزفت عـلى قيثار لم يصنع لك . هل تعجب بعد وصولك آيتاكا أن تتنكر « بنيلوبه » لك ؟ أن تهتف بك : لا لست الزوج ! والسجادة لم تصنع لك . لم انفق فيها العمر لكي أنتظرك . ها هي ذي تطردك الآن. وعلى مرأى من كل الخطاب الجشعين واهلك ومربيتك . هل كان الاولى بك أن تبقى في زي الشحاذ ، أن تصدق مع نفسك أنت ؟ طهر نفسك واغسل كفيك . هل يتسع العمر لرحلتك الاخرى ، رحلتك الحقـــة ؟! (موضـوع مسرحية بدأتها ولم تتمها . ما أكثر ما بدأت ! ترى لماذا لم تستمع لتصديق عمرك (٣) الذي وجهك لسيف وأبي زيد وعنترة ؟) لم غرّبت ؟ لم تبعد دوما عن نفسك ؟ وعـلى من تلقي الذنب ؟ الطفولة كانت قاسية . الزمـــن اشتد عليك . طوفت بكل الآفاق وها انت تعود : الابن الضال ، يهرع نحو أبيه ليغرق كفيه بدمع التوبة ، لكن الاب ، قـد فقد الذاكرة ونسي الابن . وهو الآن تراب يرقد فيحضن تراب ـ والابن التائب يصرخ : لم تتركني ؟ (عنوان رواية تدور في عقلك منذ سنين . لم لم تبدأها بعد ؟) أما كان الاولى من رحلة الشعر ـ ضيعت في كتاب واحد عنـــه خمس سنين ، حبست شبابك في سجـن لا تدخله الا أوزان الشعر وكلماته ، هل كان الامر يساوي هذا الجهد؟ أم انك تهوى دوما أن تلعب دور ضحية ، حتى لو كـان الجلادون هم الشعراء ؟! هل هي مأساتك وحـــدك ؟ أم

سحرت « كيركه » بحارة جيلك في سفن الفـن كمـــا سحرتك ؟ أما كان الاولى من هذه الرحلات أن تعلم أميا واحدا ؟ وهل تنسى ان أمك ماتت وهي أميـــة ـ تذكر تعبك أياما وأسابيع لتحفظها انا اعطيناك الكوثر ! ـ هـل تنسى ان شقيقتيك ما تزالان عاجزتين ـ كما يقال ـ عن تمييز الالف من كوز الذرة ؟ وأين تهرب من كلمة ذلك الذي زار بلادك (٤) ؟ سارع اليه كهنة الثقافة ـ وكم انبهرت مثلهم بكل جديد ـ فقال ما معناه : لو كنت مكان المثقف عندكم لاخذت طباشيرة ولوحا اسود وهرعت الى الريف لتعليم الأميين. وها هي الهاوية تتسع بين الكاتب والقارىء ولا تضيق . ونحن نواصل كتابة الرسائل المفتوحة الى بعضنا . لا نكفّ عن الصراخ من ذنبنا وخجلنا من عـار الامية . ومع ذلك لا نفعل شيئا . (أين اتحادات الادباء لتوجه قوافلنا نحو الريف ؟) هل نعزي أنفسنـا بأجيال أخرى ـ قد تأتي أو لا تأتي ـ تتذوق عندئذ أشعارنـــا المترفة وعباراتنا الرنانة ونظرياتنا المتعاليـــة وقصصنا ومسرحياتنا التي تفرغ فيها مشاعرنـا المذنبـة ؟ عـزاء يستحق البكاء ! فابك اذن على حائط مبكاك ..

* * *

وهبطت الى المتاهة كما هبط تيسيوس (يا للاسماء الصعبة .. لو كنت أدرى بتراثك لوجدت أسماء أرحم !) متاهة الحكمة التي ضاعفت حمـــاقتك .. في كل ركن عجوز أشيب ثرثار . وخيوط المذاهب كثيرة ومعقدة . تخرج من نسيج عنكبوت لتقع في نسيج عنكبوت . مـن طاليس الى هيدجر وأنت تقرأ وتتابع . تجعد الجبيـن واكفهرت الملامح . والشعر شاب فوق السالفين . وأنت تتحمس لكل رأي وتتأثر بكل صوت . تفرّق نفسك على خبزهم الجاف لكي يبلعه الناس . يقولون لك : أنت تكتب الفلسفة بقلب شاعر . أنت تحولها أدبا . هل يعزونك أم يجرونك من انفك كما جرّ فاوست تلاميذه عشر سنين : سموه الاستاذ وسموه الدكتور ، فاكتشف انه لا يزال هو الاحمق المسكين ، واننا عن معرفة أي شيء عاجزون ! وها هم يسمونك الاستاذ ، ينادونك حضرتك وسيادتك .. (لكن من يقف جوارك . من يشعر بك) . هنـاك تجلس كصنم بوذا المسكين . وبين جدرانك الاربعة أبكم أخرس كالبوم . ويرونك ـ حين تناقش اطروحة ـ في مسوح الحكماء المملين . ويثرثر صوت يخرج منك فتنكره حين تفاجأ به . وتود لو انك تخرج من جلدك ، تدخل جسـدا آخر ـ أبهى وأصح ـ او أن تجري عريانا كالمذعور . لكن الدور يمثل فوق المسرح . سيظل يمثـل حتى تنفجر وتخرج منه الى قبرك أو للنور . (أيتها العين الواسعة السوداء . تابعت صعودي نحو الواحد وانا أقرأ أفلوطين. هل أحسست بأني أتمنى أن ألقي السلّم كي أصل اليك ؟) واكتشف انك تـــورطت . أنت ونحن وهم متورطون . تورطت في جسد فرض عليك ، في عصر وبيئـــة لـم

تخترهما . يقولون وتصدقهم أحيانا : مصيرك بيديك ، فاقبض عليه ! حياتك من صنيعك ، فوجه دفتها بنفسك. في هذا الزمن وجدت وهذا الركن من العالم . فواجه الموقف وتحد" المشكلة ! وتدق كلمات التحدي والكفاح وسائر الطبول الضخمة . وحين يجن الليل تقول : انا مع ذلك في ورطة ! وتناجي نفسك : لو خيرت لكنت اخترت، أن أصبح شجرة ، أو أتقمص قطة ! (فالشجرة تلقي ظلا ، للتائه والحيران ، تعطي خشبا للبردان ، فاكهة أو خبزا أخضر للجوعان ـ والقطة متوحدة ، متكبرة تعشق سر الانجم والكتمان !) وتكتشف انك ضيعت الخيط . و « أريادنة » لم تمسك بطرفه ولم تنتظرك يوما على باب المتاهة .

وتواصل ثرثرتك ودموعك تجري في صمت . والسنة الدراسية على الابواب . ونفسك داخل المتاهة تبحث عن حائط مبكاك ..

* * *

وحيدا تذهب . وحيدا تجيء . (في الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته) . آلاف الليالي ، مكورا كالجنين في بطن أمك ، تمد أكف الجوع اليه . تتعرى ، من يغطيك . يسعل صدرك يتفجر بالربو ، تتشنج معدتك وأمعاؤك ـ بالمرض المصري الازلي ! ـ من ينعطف عليك ، من يطعمك ويسقيك . يا جوعا أبديا للانثى والام ! ومنذ تخطيت الاربعين وأنت تخاف اللصوص ـ في الظلام تتربص الاقدار . والسماء تمطر الكوارث كل يوم . وصفحة الحوادث قضاء ينزل على الراس مع كل افطار . ضيعت الحبيبة فضاعت الزوجة والابناء والاحفاد ، ضاع الآباء وضاع الاجداد ، ضاع الماضي والحاضر والمستقبل . صرت ترابا ، عدما ، هاوية معتمة في لحظة . لحظة رحت لخطبتها فانعقد لسانك ، شل" القلب ، أطبق فوق الشفتين الموت . (كل سنة أو سنتين تراها صدفة ، في منعطف طريق أو عند عبور" شارع ـ أن ساء حظك لم تر الا ظهرها ، فاتتك عيناها السوداوان النافذتان كحد السيف ، اللامعتان كسحر الموت ـ في يدها طفلاها . كان من الممكن أن يكونا منك . وحين اكتست السواد تقدمت . لكن النجم المنحوس هناك . ونجم الحظ بعيد عنك . تتحسر : آه لو كانت ، لو كنت وكنت وكنت .. وتمضي مسرعا الى مسكنك . تضع المفتاح في الباب . تتحاشى عيون المتطفلين . تطالعك سدود الكتب كحيوانات منقرضة . تتفرس فيك عيون الاموات ـ الاحياء ، طالت وقدتهم في كهف الورق المصفر ! وتدفن رأسك بين يديك . في بحر الحزن الاسود تغرق سفن العمر . ويوم سلمت عليها ـ للمرة الاولى أيها الريفي الرومانسي ! ـ صرت شعاعا ، عصفورا وفراشة . وحفرت التاريخ على الحائط ، ومعه كلمة نيتشه : حب القدر ـ ما زال الحفر هناك . يشبه شاهد قبر الغرباء ، في أرض الغربة : « أيها العابر ، قل لمواطنينا في اسبرطة : هنا نرقد مقتولين ، وما زلنا في الموت لوصاياها أوفياء » (٦) .. ما أشبهك بنيتشه . كم احببته : ثورته ، خيبته ، وجنونه . والتسليم . هل نملك الا التسليم ؟ (في أواخر حياته ، بعد أن أطبق عليه ليل الجنون ، لم يعد يعرف أنه نيتشه . تنظر أخته اليه فلا تملك أن تحبس دموعها . ينظر اليها ويقول : لم تبكين؟ ألسنا سعداء ؟!) واللحظة كانت مسؤولة . لم تتركها تمضي وتفر" ؟ لحظة عجز عن تصميم في وجه الحب ـ الموت . عبرت لن ترجع أبدا . لم تمسكها من خصلات الشعر الذهبي . كانت تدعوك وتبتسم لك : لم احجمت ؟

وتجيء الموجة بعد الموجة في طوفان الجري وراء الرزق ، وراء الخبز المر ، مفموسا في أوعية الملل ، اليأس ، القبح ، الذل . لكن اللحظة لا ترجع أبدا . أهي فكرة ثابتة تنام على فراشها المريح ؟ عزاء للنفس وتبرير ؟ هل تخدع نفسك ؟ تضع الدرع البراق على جثة فارس ؟ كي تستمتع بالحرية خلف السور الشائك ؟ تتلذذ ببكائك في كهفك ؟ يا للاوهام السهلة ! سهل ان تتهم النفس ، تعذبها ، فالتعذيب شريعة هذا العصر. لكن الفاجعة أمر" . والمحنة اكبر من مشكلة الحب . فلكم أحببت وجربت ، حاولت ان تكون البرجوازي الصغير ـ من يملك أن يخرج من جلده أو يتخلص من ظله ؟ ـ تقرأ الجريدة وتتابع أخبار النجوم والاغاني الجديدة ، تحرص على مسلسل الاذاعة والتليفزيون ، تتحسر على أيام الخير وتقول مع ذلك : غدا يتحسن كل شيء ـ لكنك لا تدري كيف ؟ ـ ومثله وضعت الخاتم في يدها (وضعته مرتين في يدين ، ابرأت ذمتك ككل مواطن صالح يؤمن بالله والوطن) وعندما أردت أن تضع يدها في يدك خلصتها منك . الموعد لم تحضره . كانت مع الآخر ترقص وتأكل من الشجرة المحرمة ـ على آدم المسكين وحده ! ـ كنت مملا والكتب مملة . وجه الحكمة لا يلمع مثل وجوه العملات الصعبة . والاخرى كانت أذكى وأمر" . داعبت الطفل الراقد فيك وسخرت منه . أخذت منه الذهب المصنوع بعرق العمر . يا من تتلوى في محراب الفكر . أحرق كتبك قبل فوات العمر . أربط ربطة عنقك واسمع آخر اغنية في ما يطلبه المستمعون . واذكر حين يجن الليل ، انك وحدك . وحدك كالّه الصمت أو الوحش المجروح المجنون . وحدك تتألم وتموت ، حتى لو كانت في أحضانك ملكة تدمر . واحمل حائط مبكاك الى القبر .

* * *

اللحظة ضاعت (هل يتسع العمر لعودتها ؟ هل يرجع دولاب الزمن الدوار فتظهر لك ، تبتسم كنجم صاف خلف سحاب الدمع المر ؟) عبثا تجمع عنها أكوام المعلومات ، تشغل نفسك بالزمن القاسي . ها أنت تحاضر عنها منذ سنين . تهتف أحيانا : ما دام القلب يدق فلا

يأس ! فاللحظة فاكهة تنضج في موسمها . حين يحين أوان النضج . اللحظة ــ سر الوهج الخالد نحت تراب الفانين ــ تحتاج الشمس ، الريح ، المطر ، سنينا بعد سنين . لا تيأس أبدا ، حين تزيد المحنة يأتي المنقذ . (عنوان كتاب بين يديك ، عن افلاطون : هذا المنقذ يخرج من كهفه . يترك كهف الاشباح المسجونين لنور الحق . فمتى يخرج منه ؟ أم خرج ولم يرجع بعد ، ليفك قيود السجن وأكل العيش ؟!) تهتف بقلوب بكر : عيشوا اللحظة ! لحظة الحسم والقرار والاختيار . لحظة التحدي والفعل الحر . بها يواجه الفرد مصيره ، والشعب قدره . من يخذلها ، من يهرب منها ، من يحجم عنها يبقى مدحورا أبد الدهر . هذا قانون الزمن وسر التاريخ . من يتحدى الموت يعيش ! من يحيا الموت يكون ! كلمات ضخمة . (أحيانا تتحقق ، تتجسد ، تنقذ فردا أو شعبا يغرق . احمد ربك انك عشت اللحظة . لحظة عبر أخوك الجندي الى سيناء . ما أعظمه وهو « يكرر » صيحة « بدر » . ما اكرمه وهو يلف حزام البارود على جسد أضناه الفقر ، كي ينسف ــ باللحم الدافىء ــ درع حديد متكبر . هل تتكرر هذي اللحظة في سيناء وغزة والجولان ؟هل تنقذنا الا لحظات الحسم الحر ؟ أم نشغل عنها ، نهرب منها ، نستثمرها في شيكات وشعارات ، في المستورد والبوتيكات ، في أفلام واذاعات ، في الجشع الذاهل عن لحم الجندي المسكين ؟) . أخشى ما أخشاه الآن : ان تأتي اللحظة وأنا أحتضر والفظ آخر أنفاسي . أن تتقدم مني كالعذراء وتهمس : هل تذكرني ؟ ــ واذكر عندئذ انني نسيت ، اني لم أكن انا نفسي . يقول قائل يعزيك :

ومن الذي حقق نفسه ؟ اين الذي رضي عنها ؟ حتى الذي انجز الاعمال الكبرى ، في الفن أو الحياة ، هل رضي عن نفسه ؟ وربما قلت لنفسك : حقا لم أتم عملا كبيرا ، ولكن آلاف الصفحات التي كتبتها ــ يا للذنوب الثقيلة ! ــ لا تخلو من أنفاسك . ترجمت كثيرا وانكرت نفسك . اليس هذا عطاء ؟ الم تعش وتجرب كل كلمة وسطر ؟ واأسفاه . الطيبة جنت عليك . (في أيامنا يسميها الكذابون ضعفا ، كما يعدون الرقة عجزا والوداعة والادب جبنا ..) . البراءة والنقاء ظلماك (وكل ما فعلت أن حاولت البقاء نقيا أبيض مهما خضت المستنقعات وقذفت بالطين) . فنيت فيما كتبت ونقلت (صادقا تقول : ما أقله وأهون شأنه ! كم كانت هناك أعمال أخرى أجدر وأهم !) حتى أوشكت أن تتقمص أرواح الذين شغلت بهم . أسروك حتى كدت تصبح صدى لا صوتا ، ونسخة لا أصلا . أكانت « شهامة » اداء الواجب ، فريضة لغة نادرة شاءت الصدفة أن تطرق أبواب حضارتها وأدبها . ولم لم تستطع الجمع بين هذا « الواجب » وواجب آخر اكبر منه ؟ أهو ضعف الحيلة ، قلة الهمة ، غباء الطبع ، ذل الخبز اليومي ، لذة الانهيار بالآخر والغير ، غرور التلويح به في وجوه الآخرين ؟ ربي ، ماذا كان الامر ؟ المسألة ــ كما قيل بحق ــ نسبية ، والغرور لم يبلغ بك أن تصدق الثناء (في النهاية : ماذا تقوى الكلمة أن تفعل في مجتمع متخلف ؟) والشوكة ما تزال تدميك : لم لم تحقق نفسك أو بعض نفسك ؟ لم لم تستجب للحظة الخلق ؟ لم لم تصبر وتثابر ، وفي أجيال الرواد واجيال معاصريك وجوه مضيئة تحبها وتسعد بها وتتعلم منها ؟ بالامس فتحت كراساتك القديمة ــ كدت تنساها في غبار الادراج ! ــ طالعت خواطرك وقلبت المشروعات (ــ عشرات القصص بدأتها ولم تتمها ، مسرحيات وروايات طويلة وقصيرة ــ) أين كنت ؟ لم جرفك التيار ؟ كم نحن اغنياء بالافكار فقراء في الاعمال (٧) ! يهزون رؤوسهم ويقولون : مترجم حساس وباحث جاد . وتطعن في القلب . وتدور دوامة التدريس . تطحنك الطاحونة (ترى كيف يواجه المحنة من هم افضل منك وأعلم : جبرا ابراهيم جبرا وخليل حاوي وشكري عياد وغيرهم وغيرهم ، أم انك تهول كعادتك وتصارع شبحا لا وجود له الا في رأسك ؟!) . وفي النهاية لم تقول هذا الكلام ؟ لمن ؟ الم يكن الاولى أن تصوره في مشاهد ومواقف وشخصيات ؟ أهي الغريزة الموروثة في تعذيب الذات ؟ الا يجدر بك أن تبدأ السير على طريق الثقة والاطمئنان ؟ اتبذل وعدا ؟ أتحاول أن تنزع خيطا من عقدة الصمت ؟ ومن تهمه دموعك على حائط مبكاك ؟

كان الزمن قاسيا . عشت الزمن الاسود . الضوضاء حاصرتك والازعاج طوقك واطبق عليك . (ألهذا آويت الى كهفك ، وجعلت من تراث الانسانية منفاك ؟) الجهد كان قليلا والحيلة ضعيفة . الشعارات تنطلق وتدوي .

رياح الجديد والغريب تعصف. الانبهار بالمودات والعجائب يذهل النفس عن ذاتها (أنت أيضا شاركت فيه . هل تقبل توبتك الآن ؟) . البطولات الزائفة والصيحات الكاذبة وتعليمات كهنة الايديولوجيات « ينبغي ويجب ولا بد » سحقت براعم المواهب المتفتحة وشتتت أوراقها وأرعبت عصارتها الحية وسلطت عليها سموم الادانة (بعضها سكت ، بعضها اتجه للمسلسل وأكل العيش ، بعضها لاذ من جحيم الضوضاء الى قاعات الدرس ، أقلها نجح وصمد وأبدع أعمالا لا يبدعها الا الصبر ..) عشت الزمن الاسود . (عندما يظهر الطاغية الكبير يصبح الجميع طفاة صغارا ، من الحاكم الى الكناس وجندي الشرطة) (٨) لم تعذب ولم تعلق من قدميك ولم تركل أو تلطم على وجهك ، لكن بعض هؤلاء كانوا أقرب الناس اليك . وكتبت عن الطغيان (حتى أوشك أن يكون هو اللحن الاساسي في قصصك ومسرحياتك القليلة الشأن) . حتى الدراسات لم تخل — مع الحذر الواجب ! — منه . (لن تنسى لهذه المجلة فضل نشرها لمقالك عن الاحتجاج الذي ضاقت به مجلات بلادك في ذلك الحين) . حاولت — على طريقتك الهامسة الحيية — أن تواجه الازعاج والضوضاء . كتبت عن « صمت غوته وعن السكينة التي قتلناها فقتلنا معها روح العلم والهدوء والنظر المتزن. كانت الخناجر أقوى من العقل (هناك الآن بصيص أمل في ان كفة العقل والعلم بدأت ترجح . لكن هل اختفت من حياتنا الاصوات العالية والادعاءات المدوية والعنتريات الزائفة ؟ اليس من واجبنا — نحن الكتاب — أن نقاومها ونخمد أنفاسها ؟ يتردد في سمعي الآن صوت بح من الدعوة للعلم ، للفكر المنتج عملا ، للنظر الموضوعي الخالص من اضطراب العواطف وزعيق الشعارات وبريق المطلقات والتعميمات — وبالجملة من الكذب والضوضاء التي كادت تصبح علامة عربية مسجلة (٩) . (والنتيجة : ملايين ملايين اللاجئين والمشردين ، والادعياء والمتبججين ، والعاطلين والمتسولين . والخطر المحدق بملايين أخرى . والخطر المحدق أن نصبح « كغثاء السيل » — أن تنقرض حضارتنا ، نصبح مجدا فات — هل عرب أنتم ، هل عرب أنتم ، هل عرب ...) (١٠) . أعرف انني أسرف في المبالغة ، ان شبح الانقراض — الذي خيم علي سنين طويلة وجسمته أمامي قراءات في فلسفة التاريخ — قد بدأ يزول . ولقد عشت — بحمد الله — حتى رأيت مواجهة الصمود في اكتوبر — رمضان ، ولمست أبواب الحرية توارب ، والاصوات تردد شعار العلم والايمان (ولا بد من الصبر والعمل المشترك حتى يصبح سلوكا حيا لا مجرد شعار) . لماذا استطرد ؟ الأجد تبريرا ؟ الأفضح ضعفي وعجزي أنا وكثير من جيلي ؟ الأقول للمواهب الشابة : ثابروا على الاعمال الكبيرة ، اصمدوا لمعرفة الذات ، فمعرفتها والصبر على اكتشافها والدفاع عنها في وجه كل ما يشتتها هو العبقرية نفسها . ومن أنا حتى أقول هذا أو أدعو اليه ؟ كيف يعطي الشيء فاقده ؟ هل يشاركني أحد في المي ، هل يحس به ؟ أهو اعتراف ، ولمن ؟ ولماذا اعلنه في هذا المكان ؟ الم يكن من الممكن ان استغل كرم هذه المجلة في شيء انفع ، وقد سبق لها أن أكرمتني ورعت بعض بذوري الفقيرة التي أقلب الآن في حصادها المرير ؟ هل أعدتني « البطولة » التي يدعيها الكاتب حين يرتدي مسوح النبي والكاهن والمعلم والرائد ؟ أم أصابني — دون أن ادري — المرض الذي حذرت منه كثيرا حين تكلمت عن التواضع والاعتدال ، حين جعلت مثلي الاعلى ذلك « البطل » الصيني المسكين ، ذلك الحكيم الطاوي الذي حارب معركته وحقق الانتصار ، ثم استقل مركبا خفيفا واختفى عن الانظار ، انظار الذين وعدوه بنصف المملكة هدية وانتظروا للاحتفال به ؟ رب لم هذا التناقض كله ؟ هل آن أن اخلص نفسي من هذه المناجاة وأعبر بالصورة لغة الفن ؟ أم يمنعني أكل العيش وضعف الحيلة ؟ أنتم يا من ستظهرون بعد الطوفان الذي غرقنا فيه ، فكروا عندما تتحدثون عن ضعفنا ، في الزمن الاسود الذي نجوتم منه ، واذا رأيتمونا نبكي ، فاذكرونا .. وسامحونا (١١) .

***

« الضعيف هو الغبي الذي لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الاغبياء » (ص ٢٤٨ من هذا العمل الذي أمهد لمقال ينشر عنه) . هنا اجد نفسي امام عمل رائع يكشف لي اليوم — وبعد كتابته بحوالي عشرين سنة — عن معاني وايحاءات جديدة ، شأنه شأن كل فن عظيم . كما أجد نفسي امام فنان لم يكف عن التجربة والريادة والمغامرة ، هو بالنسبة لي (وربما لكثير من جيلي ، وان كنت لا احب التعميم ولا التورط في الكلام نيابة عن أحد) منارة شامخة ترسل ضوءها الهادي لسفينة المصير العربية ، ولقوارب الموهوبين الصغيرة التي تتلمس طريقها في الظلمات . هذا رجل عرف نفسه ، سر قوته . كجبل المقطم بقي صامدا يطل — بحبه وحزنه الجليل — على المدينة العتيقة المضطربة بالفقراء والمقهورين والمتسولين والفتوات . كتب ما كتب ليمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان ، لتختفي الحشرات والذباب والنبابيت . وبشرنا بالسحر — العلم ليخلصنا من قهر الفتوات وكذبهم — والفتوات في كل مكان ، فهل آن ان يختفوا ؟ — ومن الزيف والبطش والشكل — وهو في حكايات الرباب كما هو في دعاوى المتبججين وبلاغيات الهتافين ، حتى كدنا نحن العرب نصير الفاظا تمشي وتأكل وتنام — هل نقرا هذا العمل من جديد ؟ هل نأمل — بعد أن توفر شيء من الحرية التي تكفل الهدوء والاتزان والموضوعية — أن نحاول قراءته بعيدا عن التشنج والخوف ؟ هل ندرك الآن انه كان رؤية بصيرة لتصحيح الثورة ومحاولة للمزج بين العلم والايمان الذي أصبح الآن كلمة على كل لسان (راجع حديث

نجيب محفوظ الاخير في مجلة الدوحـــة ، العدد ٢٢ ، اكتوبر ١٩٧٧ ، ص ١٣٦ – ١٣٧) . هل نطمع في قـدر كاف من الحرية الباطنة التي تسمح للاديب بتناول مادته من التاريخ الديني أو الاسطوري فيتصرف فيه كما يشاء له فنه وضميره (والفنان الحق ضمير العـالم ، ميزان التاريخ) مثلما يحدث في كل بلاد الله فلا يرتفع اصبع اتهام ولا يجمح رأي ولا يتطاول ثرثار ؟ – هذا ما سـوف تتكفل به الدراسة الآتية (١٢) ، لعالم ألماني يجمع بيـن النادرين : الحكم الموضوعي النزيـــه ، والقلب المحب المتعاطف . وبمثل ما اهدي المقال لهذا الاستاذ الذي كان له – ولا يزال – أكبر الفضـل علي (علمني الالمانية منذ اكثر من عشرين عاما ، وهبني منحة درست بهـا خمس سنوات في بلاده ، أخذ بيدي في ساحات أدبها وفكرها ، شجعني في أزماتي ، أحبني وأحب بلادي وتراثي ولغتي حبا لم أجده عند انسان آخر ، دعانا – أخي وصديقـي يوسف الشاروني وأنا – في صيف العام الماضي الـى برلين – التي يرأس المعهد الاسلامي بها – فأكرمنا كرما لا نتصوره أو نحلم به) ، وأهديه كذلك للمجلة الشجاعة التي اتسع صدرها لابناء جيلي الذين اصبح اكثرهم الآن روادا تتردد أصواتهم المتميزة ، كما اتسع لبعض محاولاتي الساذجة على مدى عشرين سنة أو يزيد . (وأين أجـد مجلة تتلقى دموعي وتتحمل حائط مبكاي ؟!) .

كـان من المفروض أن أقـول شيئا عـن الآداب والآداب الأجنبية . لكن الاستطراد يعفيني الان من هذا الواجب الاليم . هل يؤذن لي أن أختم بالتحيـة والتهنئة القلبية ؟ ولكن هذا شيء بديهي . فلمن أتجـه بهما لغير هذا المنبر الشجاع الذي صاحب آلامنا وأزماتنا ، وصبر على صراخنا وضجيجنا – الشعري والنثري ! – وكـان من آثار شجاعته نشر هذا العمل الفني الذي صـودر في بلده . ومن يستحق التهنئة غير هذه الساحة الادبية التي وقفت دائما تحارب من اجـل وحدة العرب وتكـافح لتعليمهم وفتح عيونهم عـلى كل ما هو ثوري وانساني وجديد في الفن والفكر والسياسة والاجتماع ؟ أينتظر مني ان أضيف شيئا من النقد وأملا في المستقبل ؟

ليتها تسمح لي بتحذير وامل : تحذير من الانبهـار بالجديد وقد لا يستحق في بعض الاحيان هذا الانبهار ، وامل في المحافظة على رسالتها العربية المجردة الخالصة – التي حافظت عليها بغير شك حتى الآن – وعـدم تقديم تنازلات لاتجاهات « ايديولوجية » عارضة سواء جاءت من يمين أو يسار ، المزيد من النقد العلمي مهما تكن قسوته – لانه يعبر عن الحب الصادق اكثر ممـا تعبر عنـه المجاملات – التوسع في الاعداد الخاصة عن أدب الاخوة العرب الذين يخجلنا الا نعرف عنهم شيئا أو لا نكـاد – أدب الشمال الافريقي والسودان واليمن ودول الخليج ... الخ – بجانب الاعداد الخاصة عن القضايا الحيـة الملحة (وكم قدمت من أعداد ناجحة) .. الاتجـاه الى الاهتمام بنشر الاعمال الحية من تراثنا بأقلام متفتحة حية – فما أحوجنا والجيل الشاب من بعدنا لمثل هذه الاعمال على ضوء معاصر وجديد ! – ومن تراث الانسانية كلها من شرق وغرب ، فالعربي في موقفه الراهن في وجه تحديات تكون أو لا تكون – في حاجة لمزيد من الوعي والعلم ، اكثر مـن حاجته لبعض الاسماء البراقة التي اهتمت بها « الآداب » وانطفأت الهالات المحيطة بها او اوشكت : (ماركـوز علـى سبيل المثال !) . فلتعش « الآداب » ، وليهنأ صاحبهـا وقراؤها ، وليغفروا لصاحب السطور تحيته الدامعـة السخيفة !

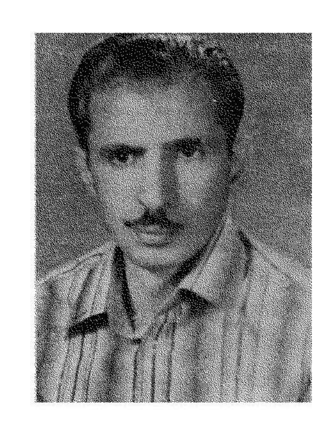
د. عبد الغفار مكاوي

القاهرة

اشارات

(١) هو الصديق الناقد سامي خشبة .
(٢) هو كتاب تاو – تي – كنج (الطريق والفضيلة) للحكيم الصيني لاو – تسي .
(٣) هو الكاتب الدارس فاروق خورشيد .
(٤) هو الفيلسوف سارتر .
(٥) نشيد الانشاد ، الاصحاح الثالث .
(٦) ابيجرام منسوب الى سيمونيدز (من حوالي ٥٥٦ الى حوالـي ٤٦٨ ق.م. – شاعر اغريقي من جزيرة كيوس) .
(٧) عن قصيدة لهلدرلين .
(٨) رأي للكواكبي في « طبائع الاستبداد » .
(٩) هو صوت أستاذنا زكي نجيب محمود الذي يدعو للتفكير العلمي وحضارة العلم لا حضارة الالفاظ منذ حـوالي نصف قرن ، وبخاصة في كتبه الاخيرة .
(١٠) عن قصيدة لمظفر نواب .
(١١) بتصرف عن قصيدة برشت المشهورة : « الى الاجيال المقبلة » . وأود الاشارة الى خواطر رائعة لفرسوا باسيلي نبهني اليها صديقي الفنان ضياء الشرقاوي ، وقد نشرت في مجلة «الكاتب» القاهرية تحت عنوان « تساؤلات لخدش كبرياء الخـداع » ، العدد ١٨١ ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٥٢ – ٦٤ .
(١٢) نشرت الدراسة في مجلة « مراسلات الشرق » ، العدد ١٣ ، دون تاريخ (حوالي ١٩٧٥) ، في عدد خاص أهداه الى ذكرى المستشرق أ. آبيل نخبة من تلاميذه وأصدقائه ، تحت عنـوان « امشاج اسلامية » وصدر ضمن منشـورات مركـز دراسـة مشكلات العالم الاسلامي المعاصر بمدينة بروكسيـل . واليك العنوان الاصلي للدراسة وبيانات النشر لترجع لها ان شئت :

I. Steppat : Gott, die Futuwwât und die wissenschaft. zu Najib Mahfuz : Aulâd Hâratnâ. in : Melange d'islamologie, dediés à la memoire de A. Abel par ses Collegues, ses élèves et ses amis, Volume II, Correspondance d'orient No. 13. Publications du centre pour l'Etude des problèmes du Monde Musulman Contemporain, Bruxelles, P. 375 - 390.



مهدي عيسى الصقر

الآداب

علامة بارزة في تاريخنا الادبي

ان تصمد مجلة تعنى بالادب مدة ربع قرن وتواصل مسيرتها بثبات، فذلك امر يدعو الى الدهشة ،فالمعروف ان المجلات التي تعنى بهذه الحرفة الكاسدة لا تعمر طويلا فهي تموت يافعة ، وفي احيان كثيرة تموت قبل ان تبلغ الفطام ، فما هو السر ؟

— هل هو اصرار صاحبها على اصدارها رغم الخسارة ؟

— أم هو المكانة التي احرزتها لدى القراء في العالم العربي ؟

— ام كلاهما ؟

المهم بالنسبة لنا نحن قراءها المدمنين والمساهمين — احيانا — في الكتابة فيها ، أنها لا تزال تتمتعبالعافية وانها تزداد شبابا كلما تقدم بها العمر !

***

انها نافذتنا على العالم العربي ..

في السنوات العجاف ، عندما كنا نشعر بالضيق ونبحث عن متنفس لهمومنا ولا نجد غير صحف تطبل للسلطان وتزعم ان ليس في الامكان احسن مما كان ،كانت « الآداب » تتسلل الى الداخل . كيف كان يسمح لها بالدخول في وقت كانت المجلات العراقية التي تجاز سهوا توأد بعد صدور عددها الاول ؟! لعل السبب اعتقاد الذين يقررون ما يجوز وما لا يجوز ان انها مجلة تعنى بالادب فقط والادب لا علاقة له بالسياسة ، وهي بعد ذلك ليست عراقية وبالتالي فلا ضرر منها . وهكذا كانت تدخل (*)،

وكنا نتلقفها بشوق ، فهي النافذة التي نطل عبرها على العالم ، وعلى صفحاتها كنا نبث همومنا الفتية شعرا وقصة ومقالة .

ولكن ما الذي شدنا اليها ؟

لنقلب صفحات اعدادها الاولى لكي نتعرف على هويتها .

(*) ملاحظة من « التحرير » : احقاقا للواقع ، نذكر ان« الاداب» منعت كثيرا من دخول العراق ، ولا سيما في عهد عبدالكريمقاسم ..

فعن رسالتها تتحدث الآداب فتقول في عددهـا الاول :

« .. تؤمن المجلة بالادب نشاطا فكريا يستهدف غاية عظيمة هي غاية الادب الفعال الذي يتصادى مع المجتمع اذ يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به .. » .

وفي مكان آخر :

« .. ان مفهوم هذا الادب سيكون من السعة والشمول حتى يتصل اتصالا مباشرا بالادب الانساني العام .. ». وهي بعد ذلك — وكما تقول في العدد الاول لسنتها الثانية —:
« .. تلح اكثر ما تلح على اتجاهين: اولهما واهمهما دون ريب محاربة الاستعمار الذي ترزح تحته الامة العربية ايا كان شكل هذا الاستعمار .. اما الاتجاه الآخر فاستيحاء المجتمع العربي الادب الذي يحتاج اليه هذا المجتمع .. » ماذا كنا نريد غير هذا الذي تدعو اليه « الآداب » ؟ ادب يتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه الاديب ويكون في الوقت ذاته شمولي الرؤية والهدف يكون الانسان غايته ومنتهاه ، وهو بهذه الصفة لا بد ان يكون ادبا معاديا للاستعمار ما دام يعكس المشاكل الحقيقية للمجتمع ويهدف الى خدمة الانسان .

لذا فلا عجب اذا وجدنا في « الآداب » اللسان المعبر على مدى ربع قرن !

« الآداب » والفكر التقدمي المعاصر .

كثيرة ومتنوعة هي المواضيع التي تناولتها الآداب عبر السنين الطويلة التي مرت بها وبنا : القصة العربية في شمال افريقيا .. الوضع الثقافي في تونس .. تطور القصة الليبية القصيرة .. تقرير عن الحياة الادبية في مصر .. واقع الحركة الفنية في اليمن الديمقراطية ... وغيرها لا يعد ..

وكانت التساؤلات والاستفتاءات التي تطرحها « الآداب » حول قضايا الفكر المعاصر عامل اثارة وتنشيط للجو الادبي على نطاق العالم العربي .

الى جانب ذلك كله كانت «الآداب» تنقل الينا باستمرار انباء ما يستجد في الغرب في ميدان الفكر والقصة والشعر، وتجعلنا على صلة دائمة باتجاهات الفكر التقدمي على نطاق العالم .

* * *

« الآداب » علامة بارزة في تاريخنا الادبي

ان العديد من الاسماء التي نعرفها اليوم في عالم الادب ، في ميدان القصة والشعر والنقد بدأت خطاها المترددة الحذرة على صفحات « الآداب » ، فقد فتحت المجلة صفحاتها بجرأة وثقة للشباب من الكتّاب جيلا بعد جيل وهي لا تزال تحتفظ ببعض كتابها من الذين كانوا شبابا يوم مولدها قبل ربع قرن مع كتابها الجدد !

وقد حظي الادب العراقي بصورة عامة باهتمام متميز من المجلة . ولعل السبب في ذلك هو ان الادب العراقي هو « ادب صراع ومقاومة وثورة » كما وصفه الدكتور سهيل ادريس . اما القصة العراقية فلا اظن انها حظيت بالاهتمام من احد بمقدار ما حظيت به من « الآداب » ، فقد بدأ الدكتور سهيل ادريس دراسته القيمة عنها منذ العدد الثاني للمجلة مغطيا بها الفترة من ١٩٢١ ؟ مبتدئا بآثار الاستاذ محمود احمد السيد حتى بدايات الخمسينات حيث اخذت القصة العراقية منعطفا جديدا على يد عبدالملك نوري والذين واكبوه من القصاصين . وكان رأيه فيها متفائلا جدا حيث قال قبل ربع قرن « .. بأن القصة العراقية الحديثة كافية بالرغم من انها موجزة لان تثبت بأن النتاج القصصي في العراق يحتل مركزا مهما في مجموع الآثار القصصية في « الادب الحديث .. » ان دراسة الدكتور سهيل ادريس عن القصة العراقية ، في الفترة التي ظهرت فيها هذه الدراسة هي في ظني أول جهد كبير في هذا الباب ، وهي احد المراجع المهمة لمن يريد دراسة القصة العراقية المعاصرة بصورة اشمل ..

* * *

وهي للبعض منا جزء من تاريخ عمر ..

لقد بدأت علاقتي بالآداب كقارىء منذ عددها الاول، وككاتب منذ عددها الرابع عام ١٩٥٣ بقصتي « دماء جديدة » وبعد ذلك نشرت في الآداب معظم ما كتبت من قصص قصيرة . والمجلة اذ تحتفل الآن بمرور ربع قرن على صدورها انما تذكرنا — دون قصد — باننا تشيخ !!

* * *

.. وملتقانا ايضا ..

شوقي بغدادي ، سعيد حورانية ، حنا مينا وكثيرون غيرهم تعرفنا عليهم على صفحات المجلة ووجدنا لديهم اهتمامات وتطلعات مشتركة ، حتى كتاب القصة والشعراء داخل القطر العراقي كنا في الغالب نلتقي بهم على صفحات المجلة قبل ان تجمعنا الصدفة بهم ونتعرف عليهم شخصيا ، فقد كانت المجلة بطاقة تعارف ، تدلنا على بعضنا وتشعرنا دوما بأن لنا رفاقا على الطريق .. يتابعون نفس الخطى المعذبة الحائرة ؟

* * *

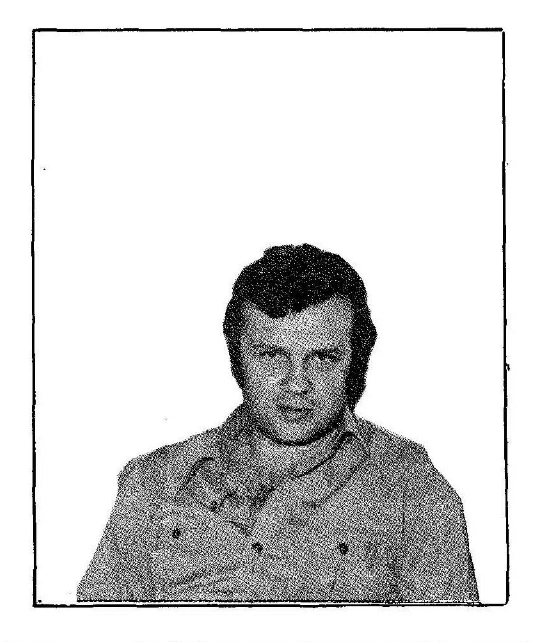
وبعد ؟

فان من حق الدكتور سهيل ادريس ان ينظر الى الوراء في زهو وان يرنو الى المستقبل في تفاؤل وثقة ، فقد ترعرعت البذرة واصبحت شجرة كبيرة تمد جذورها القوية في اعماق ارضنا .. وارضنا خصبة ... رغم كل شيء !

بغداد

محمد علي شمس الدين

شجرة الدم وشجرة الكلمات

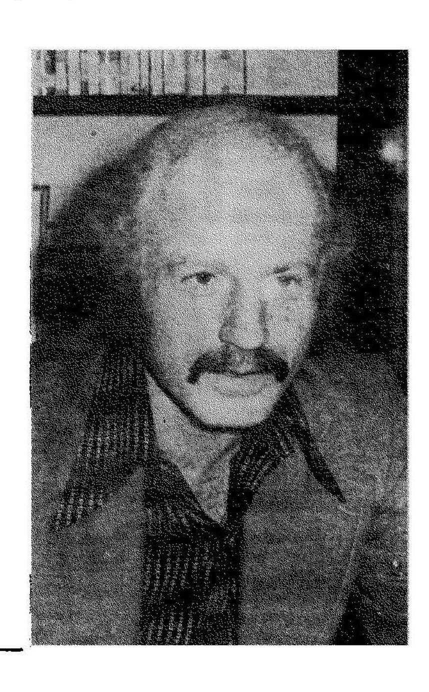


تلك اللحظة الفائرة في القلب كالخنجر، انبشها الآن.
كانت سماء بيروت تتفتح مثل الوردة في ليل الحلم الدموي، وكانت الحرب الاهلية تحاول ان تستنزف اخر قطرة دم في عروق الوطن، وتتلف آخر عصب من اعصابه.
ليلتئذ، شعرت بالخوف الحقيقي على امرين :اطفالي وكتبي. وكانت « الآداب » من بين أطفالي.
ليس سرا ان وشيجة الدم تربطني الى هذه المجلة، وليس سرا ان اولى قطرات الحبر التي سالت من اصابعي انسربت في صفحاتها، واورقت كما يورق شجر الدمع او حجر العيون، وليس سرا انني حين المسها، فكأنني المس شعر « آسيا »،وان بعضا من خلايا القلب مفروس هناك: بين الآلة والحلم.
انني الآن اتحدث عن الكتابة:
بدأت اتناثر في « الآداب » منذ عام ١٩٧٣. وصار لي شجرة في هذا البستان العربي الوارف، اتفيأ ظلها، وآنس فيها للاغصان والاوراق والحجر والتراب،
كانت « الآداب » شجرة الكلمات.
— بماذا يحلم الشاعر؟
— يحلم بالآخرين.
— لماذا يحلم الشاعر؟
— لانه يحلم بذاته.
ليس مدفونا في الاوراق. انه منشور على الاوراق.
ليس مقيدا في التاريخ، انه مؤبد في حركة التاريخ.
اطلعي الآن اذن ايتها الاوراق واظفري مجد الشاعر.
نشرب معا نخب الكتابة.

لماذا كلما تفتتت خلية من خلايا اللحم البشري الشائخ، تفتحت خلية من خلايا الحبر الاخضر؟

المجد لهوميروس والمتنبي. المجد للسياب
. . . . . نشرب معا نخب الكتابة:
أحيانا، كان يخالجني شعور الاختناق من هذه الكتب والمجلات. كنت أحسبها كتلا من الرصاص مربوطة الى عنقي، او أرسنة متعددة الالوان: احرقتها مرتين، ولكنها كانت دائما تنمو وتتناسل كنبات الغابات.
تكاثري، اذن، وتناسلي
وتكاثري، وتناسلي واملئي الانهار والبحار والغابات.
واملئي الهواء والتراب وزنزانات السجون
واملئي هذا الربع العربي الخالي الممتد من هولاكو الى النار...
سنرفع معا مجد الابجدية:
... هل تستطيع ان تتماسك حروف الطباعة في سيولة هذا العالم؟
أيتها اللغة:
. . . . . . اخاطبك الآن كالمحموم:
ليس في القرآن سوى « اقرأ »...
فورب من هز كل عروش الدم
ومن رفع الكتب على الاكف في هضبات الصين
لن يشتعل النفط الا بالكلمات
المجد للكلمات
المجد للكلمات.

لبنان الجنوبي



الآداب والصمود

الياس لحود

كانت مجلة « الآداب » بالنسبة لنا ــ نحن الشعراء المتجددين ــ نافذة حديثة الشكل والهندسة لا بد منها للاطلالة على التراث من ناحية ، وعلى الآداب العالمية القديمة والجديدة من ناحية ثانية . كنت انتظرها في نهاية كل شهر من الستينات والسبعينات وكانت تثيرني احيانا وتعذبني أحيانا ، ولكننا سرعان ما نتوحد في خلوة من العشق تسترسل فيها لتمارس معي ثورة التعبير الشعرية بكل حذر ودراية .

نعم كانت « الآداب » حذرة من المغامرات المتطرفة ولكن حذرها في مكانه ، بالرغم من انني كنت اطالبها بشيء من التطرف خصوصا بعد الانتصار النهائي لحركة الشعر الحديث ، أي بعدما لفظت القصيدة العمودية انفاسها في « الآداب » ذاتها .

ان حذرا كهذا لا بد منه ، وان لم تراعه بعض المجلات الاخرى من التي وقعت في هوس التجديد للتجديد ، فقلدت الغربيين بخاصة واوقعت قراءها في نوع من الانفلاش الشكلي الخارجي لا نزال نرى اثره في بعض ما اصبح « دخيلا » على الشعر الجديد بكل وضوح هوية ، اذ هو ليس حديثا وليس جديدا او متجددا اكثر مما هو مأخذ باصحابه وبمادته علينا وعلى الحداثة والتجديد بنماذجه النثرية السيئة السهلة .

وكأني بالآداب ، وقد فطنت الى كل هذا ، تعمل من التراث العربي الحي ساعية لايجاد واستحداث ما يلائم حركة الحداثة الجديدة بفاعليتها المتطورة واستمراريتها بهذه الفاعلية لا بمستوردات قد تؤدي بنا الى نوع من التغرب في الحالة او الى شكل من اشكال الضبابية وان كان الموقف متجذرا الى اعماق معينة في بعض الاوقات

... لقد كان للآداب موقف ثابت محدد من قضايا الادب والمصير ، وهذا لا يعني انها بقيت رهينة لخط واحد من التفكير والممارسة لانها كانت تتجدد دائما ان بنمط علاقاتها وان بتوجهاتها واحيانا ببعض التغيرات في شكلها ومحتواها . . واخيرا استطاعت ان تصهر الشكل بالمحتوى حتى ولو رأى البعض في طباعتها محافظة على شكل من نماذج الخمسينات .

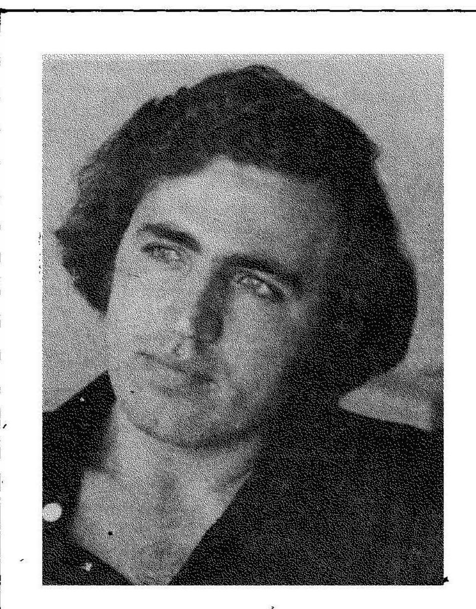
لقد افسحت الآداب لي مجالا بدءا من النصف الثاني من الستينات لأنشر حتى اليوم عددا كبيرا من قصائدي وكانت « تراقبني » لا بحقد النقد التقليدي ومحدوديته بل بروح الموضوعية الفنية ومسؤوليتها الانسانية .

واذا كان المشرفان على هذه المجلة (الدكتور سهيل ادريس والسيدة عايدة مطرجي ادريس) حريصين على ان يجعلا لها مستوى معينا فأنا معهما بالرغم من ان الكثيرين ينتقدون عدم نشر قصائدهم وقصصهم .. فأية مجلة ادبية تحترم نفسها وقراءها عليها ان تحافظ على مستواها شرط الا يحد ذلك من موهبة بعض التجارب التي لا اظن ان المشرفين على « الآداب » يقصران في التقاطها ومساعدتها عن طريق النشر .

وهنا يطول الكلام ما لم نتداركه بوقفة ليوبيل عام ١٩٧٧ لنتحاسب فيها مع الآداب الصامدة طيلة هذه المدد القاسية من الزمن .. فاذا لها علينا اكثر مما لنا عليها بكثير .. فهي الثائرة المكافحة الوحيدة تقريبا امام عواصف اقربائها وغربائها .. وكفاها في عيدها انها دافعت طويلا عن حرية الادب والاديب وعملت لها بكل امكانياتها المتواضعة والمحدودة .

شوقي بزيع

نطالب الآداب بالمزيد



لعلها أكثر من مصادفة أن يتوافق ظهور « الآداب » في مطلع الخمسينات مع انبثاق ثورة ٢٣ يوليو في مصر وبداية النهوض العربي القومي بشكل عام . وبما ان التاريخ ليس أعمى وأحداثه لا تخضع لمنطق الصدفة العشوائية فلا بد لنا من أن نكتشف علامات هذا التوافق وأسبابه .

لقد أسهمت الحرب العالمية الثانية في تغيير العالم وقلب موازينه السياسية والاقتصادية والفكرية . كان هناك عالم يتداعى وينهار وعالم يخرج الى الوجود ، كما كانت هناك قيم تسقط وقيم في طريقها الى الولادة . وبنهوض البورجوازية الغربية ورسوخها كان البحث عن صيغ اكثر تطورا في الفن والسياسة يشق طريقه وسط أنقاض الجيل القديم وخراب عالمه .

في ذلك الوقت كانت البورجوازية العربية في طريقها الى التكون ، وكان عليها أن تواجه مهام البناء الاجتماعي في الداخل ومهام التحرر الوطني من الاستعمار في الخارج . كان العرب يواجهون معركة وجودهم واستقلالهم ، وكان العامل القومي حاسما ضمن أي توجه نحو التغيير . ولم تكن المسألة القومية في الغرب شبيهة بنظيرتها عند العرب ، ففي حين ارتدت الاولى أشكالا من التعصب الشوفيني والهيمنة محاولة أن تتوسع على حساب الشعوب الضعيفة والمتخلفة كان الشعور القومي عند العرب مساحة من الامل بالمستقبل تحاول أن تواجه تحديات الواقع وتخوض صراعا مرا ضد الامبريالية والصهيونية .

ولقد وعت « الآداب » هذه المسألة بعمق واتخذت منها موقفا متفهما وواعيا مؤيدة حركة النهوض العربي ومجمل الثورات التي أسهمت في بعث هذا النهوض وتثبيته .

ومن هنا نفهم أيضا سر احتضان « الآداب » لحركة الشعر العربي الحديث التي كانت استجابة لنهوض البورجوازية العربية وضرورة استنباط اشكال في السلوك والفن مناقضة للمفاهيم الاقطاعية والمتخلفة والتي كانت سائدة آنذاك .

ولقد خاض الشعراء الرواد عبر مجلتهم صراعا مريرا ضد التقليد مواجهين حملة من الاتهامات والافتراءات من القوى المحافظة ، وكان « للآداب » اثر هام في دفع مسيرة الحداثة الى الامام وتكريس الشعر الحديث كشكل من اشكال التعبير لا عودة عنه . كما اتيح للكثير من شعرائنا الكبار أمثال السياب والبياتي والحيدري ونازك الملائكة وأحمد عبدالمعطي حجازي والفيتوري وعبد الصبور أن يجدوا في « الآداب » متراسا متقدما من متاريس الدفاع عن شعرهم الجديد ، في حين كانت « الآداب » تفتح صدرها لكل الكتابات النقدية المدافعة عن هذا الخط والمناهضة له في آن واحد ، مؤمنة بأن التغيير هو وليد الصراع ، وبأن هذا الصراع لا بد وأن يؤدي في النهاية الى تثبيت المفاهيم الاكثر تقدما ضمن الصراع نفسه .

ولم تترك « الآداب » في ربع القرن الاخير مناسبة أو حدثا سياسيا عربيا الا وكان لها موقف منه . وهكذا كانت شهادة على عصر عربي متفجر بدءا من ثورة يوليو مرورا بحرب السويس وتجربتي الوحدة والانفصال وحرب الجزائر وحربي حزيران وتشرين انتهاء بالاحداث الاخيرة في لبنان . كان للمجلة في كل هذه المناسبات وفي أقسى الظروف مواقف شجاعة وحازمة كما كانت جريئة في المواجهة والتصدي .

وفي حين كانت «الآداب» تشق طريقها نحو الحداثة بخطى ثابتة كانت تدرك بأن موقف أية أمة من تراثها هو علامة تطورها أو تخلفها ، وهذا التراث ليس عبئا ثقيلا

كما تصوّرته بعض المجلات الاخرى ولا تركة يجب التخلص منها بحيث جاء رفضها للتراث رفضا للذات العربية نفسها ومحاولة للسير في الفراغ . كان مفهوم الرفض عند « الآداب » ايجابيا وواعيا ، فلقد فهمت رفض التراث على انه رفض للساقط منه ، محاولة أن تتجاوز هذا التراث وتضيف اليه بدلا من قتله واعدامه . وكانت تؤمن ان في التراث عناصر فاعلة ومضيئة يجب الاستناد اليها والانطلاق منها في أية عملية تغيير محتملة . ولقد أملى هذا الموقف على « الآداب » التزامها القومي وشعورها بدورها التاريخي الذي يجب أن تلعبه في بناء الثقافة العربية الجديدة .

في ذلك الوقت كانت مجلة « شعر » التي لا ننكر دورها الفعال في تثبيت الحداثة تحاول أن تقفز فوق الواقع وتلبس قماشة للتغيير لا تتناسب مع طبيعة الجسم العربي آنذاك . كانت هذه المجلة تستعير التجديد ولا تبتكره ، متأثرة بالثقافة الغربية التي اعتبرتها اساسا للمعرفة ورمزا لها في أول موسم للهجرة نحو الشمال على حد تعبير الطيب صالح . ولم يكن ذلك صدفة ولا عرضا ، ولكن شروط هذه المسألة كانت تتحقق في الواقع مع تبعية عدد من البورجوازيات العربية للسيطرة الامبريالية وخضوعها لمنطق البورجوازية الغربية وهيمنتها على المستويين الاقتصادي والايديولوجي .

ولم يكن القارىء العربي ليميز كثيرا بين ما هو مترجم في المجلة وما هو موضوع بالعربية أصلا ، اذ فقدت اللغة شحناتها الحية وبعدت المسافة بين الدال والمدلول وغرقت الجمل في جليد الذهنية والتداعي . غير اننا لا ننكر بالمقابل ما قامت به مجلة « شعر » من جهود وافرة في ترجماتها المختلفة وتعريفنا بالتالي على الآداب الاخرى.

كما لا ننكر أن بعضا من المواهب الكبيرة قد تفتحت براعمها في هذه المجلة وكان لها شأن في الشعر العربي اللاحق . وجاءت « حوار » بعد ذلك فكانت أمينة لخط سابقتها متورطة اكثر مع بعض الدوائر السياسية المشبوهة .

لقد تبنت « الآداب » منذ تأسيسها خطا فنيا حافظت عليه دائما الا وهو الحذر والاتزان ، ولذلك فهي لم تبالغ في اطلاق مسألة الشكل الفني حتى نهاياتها ، في حين كانت « مواقف » مع مطلع السبعينات تغامر اكثر في هذا المضمار وتقدم عددا كبيرا من الاسماء الجديدة التي تقف جميعها تحت لافتة الانفجار .

كانت « مواقف » استمرارا لما بدأت به « شعر » على المستوى الفني ولكنها كانت على المستوى السياسي اكثر وعيا لدورها التاريخي واكثر فهما لمستلزمات المرحلة، الا ان المنزلق الذي وقعت فيه المجلة هو انها كانت اكبر من كتّابها ، وكانت الاسماء فيها مجرد اشارات عابرة ضمن قصيدة طويلة واحدة كان بطلها أدونيس ، أو على الاقل الروح الادونيسية . ذلك لان المجلة كانت تعدّ شعراءها أصلا لخدمة الخط الادونيسي والذي يطمح الى تأسيس كتابة جديدة وفقا لوهم خاص قائم على الانقطاع التام بين ما هو في الواقع وما هو في الذهن .

ونستطيع أن نعتبر أن فترة ما بعد حزيران كانت فترة تراجع قومي في نفس الوقت الذي كانت فيه فترة تراجع « للآداب » . وليس صدفة أن تنمو « الآداب » مع نمو المرحلة القومية وتنحسر بانحسارها ، ذلك لان المجلة قد أقامت منطقها الخاص ضمن دائرة المنطق البورجوازي نفسه ، تاركة لهذا المنطق أن يصطدم بواقع قصور هذه الطبقة عن انجاز مهامها الوطنية كاملة . ولكن ذلك لم يمنع المجلة من الاستمرار والقيام بأعباء

جديدة فرضتها معارك الدفاع عن الحريات في الفترة الاخيرة . وبقدر ما كانت « الآداب » تزيد من مواجهتها لقوانين التحجر وتقييد الفكر بقدر ما كانت تتعرض للمنع والمصادرة في دول عربية عديدة . ولقد خاضت المجلة معركة الديموقراطية في اكثر من دولة عربية بينها لبنان ومصر والبحرين .

كما حملت المجلة مسؤولية التصدي بشجاعة لكل اشكال القمع والارهاب الايديولوجي ، وعبرت عن ذلك في معظم المؤتمرات الادبية التي عقدت في الآونة الاخيرة ومن بينها مؤتمر الادباء العرب الذي عقد في تونس عام ١٩٧٣ .

واذا كنا قد شددنا على الدور الايجابي الذي لعبته « الآداب » عبر مسيرتها الطويلة وتحملها لاعباء فكرية جسيمة فلا بد و « الآداب » تقف على أبواب عامها السادس والعشرين من أن نلقي ضوءا على بعض الثغرات التي تعاني منها المجلة وان كانت هذه الثغرات طبيعية عند من يعمل وخاصة في مجال خطير كالفكر .

اذا كان التعايش بين الجديد والسائد يبدو أمرا مقبولا مع بدايات التجديد في الخمسينات وضمن عملية الصراع الفكري في ذلك الوقت ، فان هذا التعايش في فترة متأخرة مسألة تدعو لاعادة النظر . واذا كنا نقرأ على صفحات « الآداب » في الخمسينات القصيدة العمودية التقليدية الى جانب القصيدة الحديثة دون ان نحس بالغرابة ، فان هذه المسألة تبدو غير طبيعية في السبعينات لانها تدل على التردد في مسيرة التجديد او الحذر من اكمال هذه المسيرة حتى ولو لم يرد أصحابها ذلك . ان على المجلة ان تعمق التناقض بين الاشكال السائدة والاشكال التي يجب ان تسود لا أن تقيم مصالحة بين الطرفين ، لانها بذلك تعيق شروط النمو الابداعي وتمنعه من الاستمرار . ونحن بذلك لا ندعو المجلة الى أن تحذو حذو سواها من المجلات في خوض المغامرات اللامسؤولة والوصول الى حالة اللاالفة او الهذيان التدميري ، ولكننا نريد منها أن لا تحذر من ان تضم بين صفحاتها المزيد من التجارب والانماط الفنية كقصيدة النثر وسواها من الاشكال الحديثة . فالشعر الحديث لا يزال تجريبيا بمعظمه ولم تتحدد أصوله النهائية حتى الان ، ولذلك فان التجارب الجديدة يمكن لها ان تغني هذا الشعر وتدفعه الى الامام .

لذلك نتمنى على المجلة ان تكون اكثر جذرية في عملية المواجهة الثقافية التي تبدو اليوم اكثر حدة من ذي قبل ضمن الدور الخطير الذي تلعبه الثقافة في المواجهة السياسية والحضارية التي نخوضها اليوم .

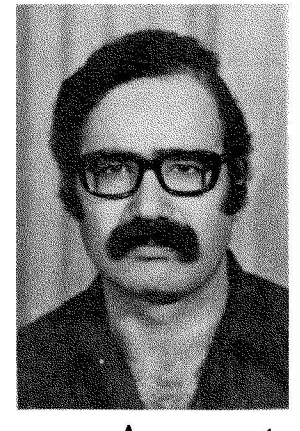
أن تداخل الانماط الفنية والايديولوجية في عالمنا العربي هو نتاج طبيعي لتداخل أنماط الانتاج الراسمالية والمتخلفة مما يدفع هذه التيارات المتناقضة للتعايش بشكل مدهش .

ودور مجلاتنا الطليعية لا يجب ان يكون تكريسا لهذا التعايش بل يجب أن يكون حسما لهذه المسألة باستبعاد ما هو تقليدي وهامشي وتكريس ما هو فاعل ومتطور . ان على « الآداب » أن تعيد النظر في قبولها لبعض الكتابات الرديئة والاقلام المتخلفة التي لا تخدم المجله او الثقافة في شيء ، كما ان عليها ان تركز اكثر على عملية النقد عبر اجتذابها للاقلام النقدية الهامة خاصة وان المجلة قد استقطبت في السابق أهم عباقرة النقد في الخمسينات والستينات ، وأصدرت أعدادا خاصة كانت اشارات بارزة ضمن تطور الشعر والنقد العربيين ، وحسبنا أن نشير هنا الى عدد « الآداب » الممتاز الصادر عام ١٩٦٦ .

هناك مسألة ثانية يجب تناولها بموضوعية تامة ، وهي مسألة الاعداد الوثائقية التي تصدرها « الآداب » بعد كل حدث سياسي او عسكري بارز ، وهذه الاعداد تأخذ غالبا طابعا تسجيليا وتاريخيا محضا ، نذكر على سبيل المثال الاعداد الخاصة التي صدرت بعد حزيران وتشرين وأثناء أحداث لبنان . ان محصلة هذه الاعداد كانت رديئة ومتخلفة (عدا بعض الالتماعات هنا وهناك) وكانت ردود فعل سطحية قاصرة عن بلوغ الفعل نفسه اهمية وتأثيرا . ان هناك مسافة بين الحدث في الواقع وبين الاستجابة للحدث على مستوى الفن . هذه المسافة لا بد منها لانها الفراغ الذي يمنح الرؤيا والعازل الذي يمنع التماثل . لهذا فان الكتابة العميقة عن الظاهرة التاريخية غالبا ما تتأخر عن الظاهرة نفسها أعواما عديدة . ومن هنا نستطيع ان نفسر رداءة القصائد والقصص التي كتبت بعد حربي حزيران وتشرين مباشرة، ففي حين غرقت الاولى في التفجع والندب سقطت الثانية في تفاؤل مصطنع دون أن تجد كل هذه الكتابات مرتكزا عميقا لها في الواقع وان تدخل في خلايا الحدث ونسيجه الباطني . والمجلة الادبية لا يجب أن تغلب المعايير السياسية على الفنية لان شروط الانتصار في الفن ليست نفسها شروط الانتصار في السياسة ، وعلى الفن ان يستكمل أدواته الفنية وشروط تكوينه قبل أي شيء آخر .

ورغم ان « الآداب » لم تغفل النتاج الادبي في العالم ولا الترجمات الادبية ، الا انها تشكو من نقص في هذا المجال ، وهي مدعوة للمزيد من الانفتاح على آداب العالم وخاصة الثورية منها والتي تسهم في اغناء الذاكرة العربية وتوسيعها . نطلب ذلك ونحن نعلم ان « الآداب » ليست مؤسسة رسمية ولا تضرب بسيف اية سلطة ، ولكن من يتصدى للمهمات الجسام عليه ان يبذل الكثير والكثير .

ان ما تقدم ليس اكثر من اشارات عابرة حاولت أن ترسم الخطوط العريضة لدور « الآداب » التاريخي . والدور العظيم هو برسم المؤسسات العظيمة ، ولهذا فنحن نشكر « الآداب » بقدر ما نطلب منها المزيد .



علي الخليلي

تجربتي مع الآداب

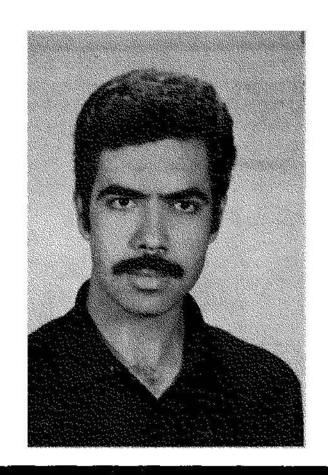
ربما كان ذلك في العام ١٩٥٩ ، حين قرأت ، صدفة، احد اعداد مجلة « الآداب » . كنت طالبا في المرحلة الثانوية بمدينة نابلس ، أحاول ان اشكل ثقافتي الادبية ، حسب امكاناتي المادية الضئيلة ، من مكتبة المدرسة (الصلاحية) ومن مكتبة متواضعة جدا في الحي القديم تعير الكتاب لمدة يوم واحد مقابل عشرة فلوس . ولكن ذلك العدد من مجلة الآداب علمني ، في لحظات ، اشياء كثيرة: ان هناك نافذة كبيرة مغلقة ، وقد انفتحت الآن . وعي ادبي متوتر عبوس في داخلي ، لمسته ، الآن . كنت انشر ما اكتبه تقليديا تماما في الجرائد المحلية . ولكنني بعد ان نقلت الى ورقة في جيبي عنوان المجلة ، بدأ سيل قصائدي الى الدكتور سهيل ادريس . كانت ، بالتأكيد ، تقليدا لقصائد العدد نفسه . ولم اكن املك ثمن شراء المجلة ، وهكذا في كل شهر ، كنت أمر باحدى المكتبات الجديدة في مدينتي، واتصفح « الآداب » فلا اجد طبعا ، اسمي في الفهرس ، فأغضب ، واكتب الى الدكتور ادريس معاتبا . مقابل هذا الغضب والعتاب ، اصبحت ، من خلال « الآداب » اقرأ وأفهم الادب ، والشعر الحديث بخاصة ، بطريقة جديدة ، واستلهام جديد . كنت اكتشف حماسي الوطني في ذلك ، كما كنت اكتشف نفسي داخل اسماء شعراء عرب كبار يحبّرون صفحات مجلة الآداب .

ثم سافرت الى السعودية ، وفي اعماقي حلم مجلة الآداب . فجأة ، وجدت نفسي منقطعا عنها ، لمدة سنتين، في القرى النائية ، حتى استطعت ، في يوم جميل ، ان اكتشف لدى مكتبة قديمة في مدينة الهفوف بالاحساء مجموعة قديمة من اعداد المجلة . اشتريتها كلها واعتبرت ذلك مكسبا حقيقيا لثقافتي الادبية . بعد سنة ثالثة من « المنفى » عدت الى بلدي نابلس ، وثابرت على قراءة الاعداد التي تصل الى البلد . ومن حين الى آخر ، اكاتب الدكتور ادريس ، وارجوه ان ينشر واحدة من قصائدي ، دون جدوى ! فانقطعت عن الكتابة اليه ، وحرقت عشرات القصائد التي لدي ! ولكنني لم انقطع لحظة واحدة عن قراءة « الآداب » ،وعن مناقشة قصائدها وقصصها وابحاثها مع الاصدقاء . توقفت عن الكتابة الادبية ، حتى حرب ١٩٦٧ ، حين عدت اليها مرة ثانية ، وانا افكر في كيفية الاتصال بالآداب، خارج سور الاحتلال، لانشر فيها ! .

خرجت من فلسطين الى ليبيا . وهناك ثابرت على قراءة « الآداب »بكثافة، وبعناد من يريد ان يكتشف ثقله الادبي من جديد . قلت في احدى رسائلي الى الدكتور ادريس : ان النشر في مجلة الآداب ، سيكون ، الآن بمثابة موقف نقدي لتجربتي الادبية ، فاذا نشرت قصيدتي المرفقة ، فسوف استمر . والا ، فانني لن اكتب مقطعا شعريا واحدا في المستقبل . كان ذلك قراري . وكنت صادقا مع نفسي . احسست بارتياح . وانتظرت النتيجة بهدوء تام . فقد عانيت كفايتي من انعذاب . بعد ثلاثة اشهر ، كانت قصيدتي منشورة في الآداب في العام ١٩٧١. فرحت كثيرا . فرحت كطفل . وكتبت الى الدكتور سهيل ادريس عن هذا الفرح . لم اكن قد عرفته حتى ذلك الحين ، وجها لوجه . ولم اكن قد زرت مكتب المجلة في بيروت ، الا بعد سنتين .

منذ ذلك الوقت ، اكتفي بقصيدة او قصيدتين في الآداب كل عام ، فقد قدّمتني « الآداب » بطموح حقيقي، وثقة متماسكة ، الى مجلات عربية اخرى ، مما يعزز اهمية الريادة لمجلة ــ الآداب ــ .

انني احمل حبي لمجلة الآداب على جهة القلب تماما، واعتبر ان ربع قرن من عمل الدكتور سهيل ادريس في خلق وتثبيت واستمرارية ونضالية مجلة الآداب ، هو زمن اصيل في تاريخنا الادبي التقدمي المعاصر ، في الوطن العربي كله .



يحيى يخلف

الآداب وكبرياء الكلمة

عندما امسكت بقلمي ، لاكتب عن ذكرياتي مع الآداب وصاحب الآداب ، قفزت الى ذهني عشرات الاحداث والمواقف .

لقد كانت الآداب المدرسة التي تعلمنا فيها ، ونهلنا منها ، وفتحت لنا صفحاتها واحتضنت كتاباتنا المبكرة .

التقيت بالدكتور سهيل في مكتبه المتواضع في بناية درويش ، والتقيت به في منزله ، والتقيت به في اكثر من مؤتمر ادبي ، وفي كل المرات كنت اجد نفسي امام

رمز من رموز ثقافتنا الوطنية العربية ، وكانت دار الآداب على الدوام قلعة لكل الكتّاب الفرسان الذين يملكون كلمة وموقفا شجاعا .

انني لن اكتب كل ذكرياتي .. سأتوقف فقط عند محطات صغيرة ..

★ التقيت بالدكتور سهيل ادريس لاول مرة عام ٦٨ بعد زيارته لقواعدنا في أغوار الاردن . التقيت به في بيروت ، وكنت قد نشرت عددا من القصص القصيرة في الآداب .

تحدثنا يومها عن قصته القصيرة (شيخ الكرامة) التي كتبها بعد زيارته لبلدة الكرامة الباسلة ... الاسطورة . وكان قد سجل بها تجربة معاشة .

كما تحدثنا ايضا عن الادب الفلسطيني الشاب الذي بدأ يظهر على صفحات الآداب عقب هزيمة حزيران ، وبعد الانطلاقة المسلحة للثورة الفلسطينية ، فأبلغني الدكتور ان ادبا فلسطينيا شابا سوف يرافق ولادة ونمو الكفاح المسلح وتنبأ لهذا الادب ان يلعب دورا طليعيا .

ولا ادري ان كان الادب الفلسطيني الذي ظهر بعد ذلك بمستوى توقعات الدكتور ام انه دون ذلك .

الا ان الحقيقة التي لا خلاف حولها ، هي ان الآداب كانت الساحة الواسعة لحركة الادب الفلسطيني ، وان الكلمة الفلسطينية عبأت مساحة كبيرة من مجلة الآداب ، واستطاعت الاسماء الفلسطينية الشابة في مجال القصة والشعر أن تصل الى القراء العرب عبر الآداب ، ومنهم على سبيل المثال احمد دحبور ، ومحمد القيسي ورشاد ابو شاور ومحمود الريماوي وكاتب هذه السطور ..

★ الصديق الكاتب والمناضل نزيه ابو نضال الذي قطع دراسته الجامعية والتحق بقوات العاصفة قبل العام ١٩٦٧ ، كان في العام ١٩٦٩ واحدا من قادة معسكر ٩٩ للكوادر في الاردن .

وفي نهاية كل دورة كان على الشباب ان يختاروا اسماءهم الحركية ، وكان ابو نضال نزيه يتدخل احيانا ، ويطلق عليهم اسماء من يحب من الادباء العرب .

وحدث ان سمّى احدهم اسما حركيا لكاتب يحبه ويحترمه ويحب رواياته ، هو الدكتور سهيل ادريس .

وهكذا حمل ذلك الفدائي اسم سهيل ادريس ، وتخرج من المعسكر ، وانتقل الى القواعد ، وشارك في عمليات عسكرية داخل الوطن المحتل وخارجه .

رشاد أبو شاور

بريد عشقنا لوطننا وفقرائه

الآن ، في الذكرى الخامسة والعشرين ، امد يدي لاشد على يد الدكتور سهيل ادريس ، واقول له ما قاله السياب بعد غيبة عن الآداب : « ان جيلنا يعود الى الآداب، كما يعود الولد الضال » .

ومع ذلك ، فنحن لم نصل . لقد فتحت لنا الآداب افاقا فاقتحمناها ، وردنا مجالاتها .

الآداب بالنسبة لكل واحد من جيلي – واسمح لنفسي بهذه اليقينية – هي الحلم ، والتحدي .

الحلم بالنشر ، وان يرى الكاتب اسمه ، ونتاجه ،بين اسماء عمالقة الادب العربي المعاصر ، الذين كانت الآداب ، وما زالت ، وطنهم .

والتحدي لان الحلم بالنشر على صفحات الآداب يعتبر طموحا . وهذا الطموح يحتاج ، غالبا ، الى اجنحة قوية . صحيح ان بعض الطيور الهزيلة تتسرب ، ولكن الصحيح ان (قطار) الآداب اسقط كل ما هو هزيل، وتجاوز كل ما هو ركيك . كثير من الادباء ينشرون في الآداب نتاجا غير نتاجهم في المجلات والصحف الادبية الاخرى . وهذا يدل على مسألة (المستوى) بالنسبة للنشر في الآداب .

مثل الكثيرين من ابناء جيلي، طالما وقفت امام الآداب، وتخيلت اسمي على غلافها ، وقصصي على صفحاتها . وذات يوم بلغت بي الجرأة حد ارسال قصة للآداب . ولكني ، وانا في مركز البريد بدمشق ، شعرت وكأن يدا توشك ان تمسك بي ، وكأن سؤالا جارحا مهيبا يحيط بي: « يا فتى ، كيف تتطاول وترسل (خربشاتك) للآداب ؟»

لم تنشر قصتي ، تلك ، عام ١٩٦٤ . ولكنني ما يئست . قلت:علي انا اتقدم اكثر، واطور ادواتي اكثر .

في مطلع عام ١٩٦٥ نشرت لاول مرة ، وكان ذلك وفي احدى المعارك استشهد سهيل ادريس الفدائي، ونعته الصحف والمجلات ...

وقد قابلت بعد ذلك بفترة وجيزة الدكتور سهيل ادريس اطال الله عمره ، فسألني بدهشة وحزن عن الفدائي الشهيد سهيل ادريس .

لقد حدث التباس كبير ، فان عددا من اصدقاء الدكتور واقاربه في الخارج بعثوا ببرقيات تعزية الى اسرته ظنا منهم ان المعني هو الدكتور سهيل ادريس نفسه ، كان الدكتور يسأل بالتفصيل عن قصة ذلك الفدائي الشهيد، ووعدته ان اجمع له المعلومات المطلوبة .

ولم اتمكن من متابعة الموضوع ، فقد هجمت علينا الاحداث والتحديات ، ومرت سنوات صعبة وقاسية نسيت في خضمها الموضوع .

وانني لاتساءل الآن ، وانا اتذكر ذلك واكتب شيئا عن ذكرياتي مع الآداب وصاحبها : هل ان ذلك الفدائي الشهيد سيكون احد ابطال رواية(زمن الهزيمة والنصر) التي ما زلنا ننتظر من الدكتور سهيل ادريس انجازها ؟

✱ عام ١٩٧٢ كما اعتقد ، كنت احضر امسية شعرية في بيروت اقامها احد النوادي الثقافية لعدد من الشعراء الفلسطينيين .

وبعد الامسية جلسنا مع المشرفين على النادي نحتسي الشاي ، وكان الدكتور سهيل ادريس معنا .

اثناء الحديث قدمني احد الاخوة الشعراء الى احد المسؤولين عن الشؤون الثقافية في النادي ، واقترح عليه اقامة امسية قصصية لي ولاحد الزملاء .

فسألني ذلك المسؤول الثقافي :

– اين تكتب .. لم اسمع باسمك من قبل ؟

وعند ذلك ، تكلم الدكتور سهيل ادريس ،وقال بغضب:

– كيف لم تسمع باسمه ؟ ألم تقرأ له بالآداب يا استاذ ؟

لم اشعر لحظتها ان الدكتور يرد عني اهانة فقط ، احسست انه يدافع عن كبرياء الكلمة وشرفها وطهرها .

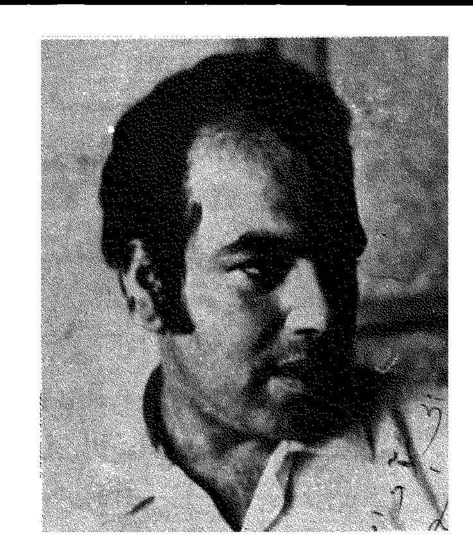
✱ بعد توقف القتال في لبنان زرت الدكتور سهيل في منزله ، كان يحمل في رأسه هموم المرحلة .

وتحدثنا في ذلك اللقاء عن كيفية صدور الآداب في ظل قوانين الرقابة ، وهي التي ظلت لربع قرن منبرا حرا وشجاعا ، وبابا مفتوحا امام كل الادباء والمفكرين الذين يغلق القمع الابواب في وجوههم .

لقد كتب يومها افتتاحية يودع بها الحرية ، وكان موقنا بانها لن ترى النور .

وعندما خرجت ، كانت عيناه تقولان : لقد بدأت معركة الديمقراطية وعلينا ان نخوضها بشجاعة .

حقا لقد بدأت معركة الديمقراطية وعلينا ان نخوضها بشجاعة من المحيط الى الخليج .



على صفحات الآداب . وكانت مراجعة ادبية متواضعة لديوان صديقي الشاعر فواز عيد « في شمسي دوار » .

وبقدر ما فرحت ، حزنت ، يومها . ما كنت اريد نشر مقالة ، او مراجعة ، او خاطرة ، كنت اطمح ان انشر قصصي . وكنت ادرك بيقين راسخ ان النشر في الآداب، يعني (الاعتراف) بالكاتب .

لهذا السبب كنا نعرف كل من يكتب في الآداب . نقارن بين نتاجنا ونتاج الكتاب المحترفين ، اولئك .

ولهذا السبب كنا نرغب وبحسرة في النشر على صفحات الآداب .

لقد مثلت الآداب ، وما زالت ، وارجو ان تظل، وطنا عربيا ، واحدا ، بلا حدود ، وبلا جوازات سفر . وحين كانت تصادر ، كنا نجد وسائل ، لا ادري كيف ، للحصول عليها ، وتسريبها من مكان الى آخر ، ومن بلد الى بلد. كانت الآداب ايام (الانفصال) الهدية الاجمل ، التي يهديك اياها اي صديق قادم من بيروت .

وكانت الآداب ، وما زالت ، هي الخندق (القومي) (التقدمي) ، الذي حاربنا منه الفرعونية ، والفينيقية ، وغيرهما من دعوات الاقليمية ، والطائفية المنحطة .

ولان الآداب كذلك ، فقد واكبت المد القومي ،الذي هبت رياحه من بلاد جمال عبدالناصر ، ومن ثورة جمال عبدالناصر ، في المعارك التي كانت البشارة بانهاء عصور الانحطاط ، وممالك الطوائف ، وتقسيم الوطن .

ايام ثورة الجزائر ، قاتلت الآداب . مع الوحدة العربية التقدمية ، قاتلت الآداب .

مع ثورة شعب فلسطين ، غنت الآداب للمقاتل الفلسطيني ،ولم تنس (زهرة الدم) الفلسطينية . وما وقفت موقفا عاطفيا ، او شوفينيا ،او دينيا ، بل جسدت الموقف القومي الوحدوي ، التقدمي الاصيل .

ومع اغنيات الاقدام الفلسطينية المقتحمة ،والمقاتلة، فتحت الآداب (ابوابها) لادباء فلسطين الشباب ، الذين اتشرف بان اكون احدهم .

كان غبار الهزيمة يغطي سماء الوطن . وكان العار يزكم الانوف . واندفعت جوقات الساخرين بالانسان العربي . .ولكن،كما جاء الرد بالسلاح سريعا ، جاء الرد بالكلمة الفلسطينية الطليعية ، قويا ، صلبا .

اذكر انني كنت مع (ابي علي) – صديقي بائع الصحف والمجلات في عمان – في مستودع التوزيع . تصفحت فهرس مجلة الآداب ، فرأيت اسمي ، وعنوان قصتي ، فطويت المجلة ، وركضت دون ان ادفع ثمنها . وما وقفت حتى بلغت (بسطة) ابو علي ، فجلست على كرسيه القشي القصير ، وعدت اقرأ الفهرس لاتأكد .

واذ جاء (ابو علي) سألني مندهشا : لماذا ركضت هكذا ؟

اشرت له الى الفهرس ، ووضعت اصبعي عند اسمي،فابتسم وعانقني دون كلام .كان ذلك عام ١٩٦٧، يومها دفع ابو علي ثمن الآداب ، وقدمها لي هدية .

* * *

في عمان ، يقف رجل مديد القامة ، يضع على راسه الكوفية والعقال ، ويرتدي القمباز والعباءة ، يقف امام (ابو علي) ، صديقي بائع الصحف والمجلات ، ويسأل :

– ها ، ايوجد شيء من رشاد ؟

هذا السؤال ، الذي يوجهه ذلك الرجل (الامي) ، يقصد به : اتوجد كتابات له في المجلات والصحف؟ أتوجد اخبار (منه) ؟ ودائما يطوي الرجل مجلة الآداب ،ويعود بها الى مخيم النصر بعمان ، يتحلق حوله الاخوة والاقارب ، يقول لاحدهم : اقرأ . شف ماذا يكتب لنا رشاد .

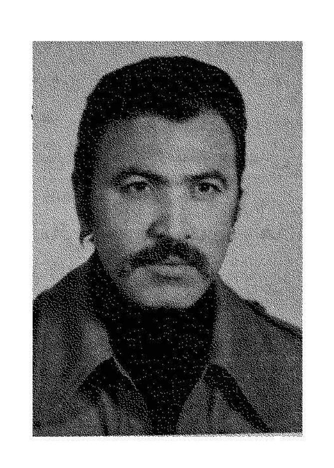
ويصفي ، يهز رأسه مؤمنا على الكلام ، ويطلب من القارىء ان يتوقف ، ويعيد القراءة . .

وهكذا ، فالآداب ، هي (صلة الوصل) بيننا ، هي محطة ارسالنا ، هي بريد عشقنا لوطننا ولفقرائه ، وابنائه المكافحين من اجل مستقبله .

في العيد الخامس والعشرين للآداب ، اشد على يد سهيل ادريس ، الروائي ، والقاص ، والمسرحي ، الذي ضحى ، الى حد ، بمستقبل ادبي كبير ، كي يساعد اجيالا من الادباء ، وكي (يهبهم) ارضا عربية موحدة ، تقدمية ، نظيفة : هي الآداب .

دكتور سهيل ادريس . شكرا للاداب . شكرا لكفاحك .

فلسطين



الآداب هذه الأمّ

خالد ابو خالد

« على الصليب » تلك القصيدة التي نشرتها لـــي «الآداب» عام ١٩٦٤ – على ما اذكر – والتي اثارت في حينها ضجة تطالب بتعليق مشنقتي في ساحة الصفاة بالكويت، عرّفتني لاول مرة معنى الثمن ومعنـــى ان يكلف الادب بصورة صاحبه غاليا ، فلقـد دفعت ثمن هذه القصيدة ، طردا من العمل ، وسجنا ، وترحيلا ، ومنعا من العودة الى جزء عزيز وغال من الوطـن العربي حتى الآن .

انه اشكال سياسي ، يتعلق بالحرية ، حرية الاديب العربي ، في ان يقول كلمته ، على آية ارض وقف ..

لقد علمتـي مجلتي « الآداب » ، كما علمتني التجارب الكثيرة لجماهيرنـا العربية والفلسطينية وعبر مؤسساتها المناضلة كلها ، ان اكوان شجاعا ، وان احترم كلمتي ، وان احاول وضعها في التطبيق مـا استطعت .

ذلك هو اثمن ما أسهمت مجلة الآداب في تعليمي اياه . وعلاقتي بالآداب لا تعـود الى تاريخ نشر هـــذه القصيدة ، انمـا الى حوالي منتصف الخمسينات ، والامة العربية تخوض معاركها السياسية المجيدة ، والباسلة ، في مواجهة التحديات – التي يشكل الاحتلال – الصهيونـــي قطبها الرئيسي ، والاحلاف جزءا منها – كانت الامة العربية من البحر ، الى البحر ، تخوض معاركها تلك بالامكانـات الجماهيرية العظيمة المشحونة بالمعنويات ، وكانت تنتصر .

كنا معا ، ثلاثة ، او اربعة ، نتداول « الآداب » المجلة ، نقرأهـا من الغلاف الى الغلاف ، نتعرف الـــى كتابها ، وشعرائها .. كان « الخندق الغميق » و « الحي اللاتيني » قد بدأا ينموان معا في داخلنا ، كـــذلك كان السياب ، وحجازي ، وعبدالصبور ، والحاوي ..

وكنا جميعا نكتب ، ولكن واحدا منا فقط هو الذي كانت « الآداب » تنشر له ، ذلك هو الصديق والرفيـــق ناجـي علوش .

تنمو « الآداب » ، ونمو معها وفي صدرها ، تدلنا على ما يجب ان نقرأ ، ونصارع معها ، وهي المعبّرة ، في السياسة والادب والفن عن أخصب مراحل النضال العربي آنـذاك ..

.. التصدي الباسل للعدوان الثلاثي ، والتقـدم العظيم للثورة في الجزائر ، والخطوة الاولى في « الجمهورية العربية المتحدة » .

كانت الآداب أماً عظيمة ، نطمح ان نكتب على صدرها اشعارنا ومقالاتنا ، وفي كل عدد جديد نقرأ فيها اسمـاء جديدة وكان لذلك دلالاته .

اذا لم تكن أمنا تلك اسيرة النجوم والاسمـــاء «الكبيرة» انمـا كانت تؤلف حولها وفيها ما يشبه السماء المليئة بالنجوم الصغيرة ولكن المضيئة .

كان ذلك فرحنا ، لقد كانت الآداب اذاً ساحة عريضة واسعة وغنية ، وقادرة على استيعاب كل الحوارات والافكار التي تصب جميعا في محاولة بلورة مفهوم عربي متقـدم للادب والفـن .

في عام ١٩٥٩ ارسلت اليها واحدة من قصائدي لـم تنشر ، فلم احزن ، وتصورت – متبينا فيما بعد ان تصوري كان صحيحا – ان قصيدتي تلك لم تكن في مستوى يؤهلها لاحتلال حيز في المجلـة .

يقولون لي الآن ، انت تلميذ الآداب ، أجيب نعم ، وكم اعتز وافخر ، وكم .. لقد كانت الآداب بالنسبـة لجيلنـا هذا مدرسة ، وأماً ، كمـا انها الصوت الآن .

بعـد قصيدة « على الصليب » المهداة الى الشاعر الصديق فاروق شوشة ، لا اظـن انني لم اختلف مـع الآداب في بعض ما كان يطرحه كتابها وشعراؤها في احيان كثيرة او قليله . لكنني ظللت وما زلت احترمها .. لقد كنت دائما احس بمعاناتها وعذاباتها المالية ، والسياسية ، والتمس لها بعض العذر في لحظة صفاء ، خاصة عندمـا كنت اعيش متابعا صمودها وتطورها ، ومساهما بصورة محدودة ، في هذا الصمود ، وذلك التطور .

ومن فضل الآداب عليّ .. انها عرفتني شخصيـا الى كثيرين من شعرائها وكتابها المبدعيـــن ، السياب ، حاوي ، دنقل ، شوشه ، سليمان فياض ، حجازي وعبد الصبور وآخريـن .

ثم مـاذا ..

تبقى الآداب ، ذات قدرة على مواصلـة المسيرة المتطورة ، والتقدمية ، هذا مـا تثبته الايام ، وكم اتمنى وارغب بصدق فعلا ان اهنئها بصيغة غير هذه . انما لا يملـك الشعراء دائمـا اكثر من الكلمة الصادقة .

تحيتي للآداب في عيدها ..

لرئيس تحريرها الصديق الباسل . د . سهيل ادريس

لرفيقته العظيمة عايدة مطرجي ادريس .

اخيرا .. لقد كبر اطفالي مع الآداب ، وها هم الآن يقرأونهـا فأرجو ان تواصل النمو

وان يواصلوا القراءة ..

ثم ...

... ولكتاب الآداب ، وشعرائها ، الذين عانقتهـم والذيـن لم اعانقهم بعد ، محبتي ، واحترامي ، مواصلا عهدي بالتحرر من مسامير الصليب .

خالد ابو خالد



الفكر القومي في الآداب

سامي خشبة

قضايا الوعي والعمل والتطبيق (١٩٥٦-١٩٦٢)

في السنوات الاولى من الخمسينيات ، كانت الاجزاء المتناثرة من الوطن العربي ، تعيش مرحلة هامة من مراحل تاريخها الحديث : كانت تتهيأ لاستقبال حقيقة انها ليست سوى الشظايا ، الكبيرة والصغيرة ، من الارض والناس والمجتمعات والنظم والمشاكل ، التي تمثل في النهاية ، وبالضرورة « أمة » واحدة ، بما يستتبع ذلك من مسؤوليات ، وما يرتبط به من صراعات وتقلصات داخلية وخارجية ، وما يترتب عليه من تغير كيفي في أوضاع وعلاقات تلك « الشظايا » أو الاقطار ، وتغير في « منظور » كل من القضايا العملية والفكرية ، على كل صعيد سياسي ـ عملي ونظري ـ يمكن تخيله .

انها حقيقة من النوع الذي يترتب على اكتشافه واستقباله واستقراره في الوعي ، اي ايمان الناس به ، واتخاذه قاعدة للسلوك في مجالات العمل أو الفعل الانساني العديدة واللانهائية (الفردية والجماعية) أن يتخلق عصر تاريخي جديد ومختلف كيفيا عن العصور السابقة عليه ، فهي اذن حقيقة من النوع الذي يترتب عليه ، وعلى نتائج استقراره في عالم الواقع التاريخي ، ان تتخذ « الظاهرة التاريخية المرتبطة به ، والظواهر التاريخية المحيطة بتلك الظاهرة الاولى ، وضعا جديدا ، من حيث شكلها ومن حيث مضمونها . وقد كانت « الامة العربية » هي تلك « الظاهرة التاريخية » التي شرعت تتخذ وضعا جديدا ، في شكلها ومضمونها في تلك السنوات ، من خلال وعلى قمة حركة التاريخ طوال ما يزيد على قرن ونصف قرن (١) حركة تلقائية او واعية ولكن بشكل متخبط وناقص .

فالامة العربية في تلك السنوات كانت تواجه وضعا مركبا ، امتزجت فيه القضايا الوطنية (المحلية) لكل قطر ضد القوة الاستعمارية « الخاصة به » بالقضية القومية الوطنية ، متمثلة في الصراع ضد ثالوث اسرائيل والصهيونية العالمية والامبريالية العالمية (٢) ، وفي نفس الوضع التاريخي امتزجت القضايا الوطنية المحلية ، والقضية القومية الوطنية ، مع قضايا الصراعات الاجتماعية المحلية ، وانعكاساتها الفكرية والثقافية (٣) .

وفي هذا الوضع بدأت الامة العربية تواجه « الحالة » التي يفرض فيها التاريخ أن تعي الظاهرة نفسها ، وأن تتخذ الحركة التلقائية أو ناقصة الوعي ، مسارها اراديا ، وفي وعي بذاتها : مكوناتها الخاصة وحركتها وتناقضاتها الداخلية والخارجية ونوعية الالتقاءات والتمايزات مع الظواهر المحيطة بها : أي انها بدأت تحتاج ـ وتفرز ـ الفكر الذي يستطيع ان « يكشف » لها ذلك كله ، وان يمنحها الوعي اللازم لحركة محسوبة تستطيع « الظاهرة التاريخية » من خلاله أن تتحكم في مصيرها ، وأن تشارك في رسم مصير العالم الذي تعيش فيه .

(١) ربما تكون هذه الحركة قد بدأت بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر وفلسطين أواخر القرن الاسبق ، وربما تكون لها مظاهر سابقة على حركة المقاومة ضد حملة نابليون ، في كل من مصر وسوريا وجبل لبنان ونجد العراق وتونس والجزائر ، اتخذت شكل تقلصات مخاض سابق لاوانه ـ لكيان عربي متميز داخل الخلافة العثمانية ، بهدف الخروج بهذا الكيان من قبضة العثمانيين بباشاواتهم الاتراك وسناجقهم المماليك الشراكسة وانكشاريتهم ، ومن جاءوا متسللين من ثغرات تلك الدولة المتهالكة من التجار الفرنسيين والايطاليين وقناصل الدول الاوروبية صاحبة الامتيازات ... الخ .

(٢) ومن خلال هذا الصراع أصبحت قضايانا الوطنية وقضيتنا القومية الوطنية جزءا من حركة التحرر الوطني العالمية واكتسبت « الامة العربية » أفق الصراع الدولي من أجل وجودها القومي والاعتراف العالمي به .

وقد يكون من المهم هنا ، أن نضع ملخصا ضروريا لصورة هيكلية للوضع التاريخي ، السياسي والثقافي ، الـذي انطلق منه الذهن العربي الى محاولة انجاز مهمته الجديدة حتى يكون ممكنـا ان نتصور الاساس الواقعي العملي الذي خرجت منه اتجاهات تلك المحاولة ، وأن نتصور بالتالي السبب الكـامن وراء طبيعـة كل من تلك الاتجاهات (٤) .

(٣) كانت الصراعات الاجتماعية محليـة أو « قطرية » بالضرورة ، ولكن الانعكاسات الفكرية والثقافية المعقدة ، خاصة تلك الصادرة من مصر ولبنان وسوريا والعراق ، كانت تشيع في كل مكـان يستطيع فيه العرب القراءة « بلغتهم » ومع استثناءات قليلة . فقد اتخذت تلك الانعكاسات طابعا « قوميا » في منطلقاتها بشكل عام ، وخاصة في مجال الدراسات التاريخية والدينية والادبيـة ثم في نتيجتها النهائية ، وبالتالي فان تلك الصراعات كانت تساعد على بلورة اجتماعية قطرية بينما كانت أصداؤهـا وانعكاساتها العقلية تساعد على بلورة ثقافية قومية ، وقد أثبتت حركة الواقع فيما بعد ان الخطين كانا يسيران معا في مسار واحد .

(٤) بالشكل الذي انعكست به في مجلة « الآداب » في السنـوات التي سنختارها ، وسيكون علينا أن نبرر هذا الاختيار بناء على المفهوم العام الذي سنحاول الخروج به من تلك الصورة الهيكلية الملخصـة .

الوضع السياسي العام :

كانت قد مضت نحو عشرة أعوام منذ انشئت الجامعة العربية ، واصبح هناك أساس عملي يبرر النظر الى هذه المجموعة من «الشظايا» أو ما كان يومها يتمتع بكيان سياسي دولي « معترف به » ـ باعتبارها مجموعة « اقليمية » واحدة بتعبير القانون الدولي . هناك «شيء ما» أو أشياء تربطها بعضها بالبعض ، وكانت قد مضت سنوات اقل مـن العشر على دخول هذه المجموعة تجربتها « الجماعية » الاولى : تجربة حرب فلسطين ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ ، بكل مرارتها وخيباتها على المستوى العملي المباشر والبعيد المدى ، ولكن بكل خبراتها المباشرة : فلاول مرة يجتمع العرب كلهم ـ بشظاياهم وفي حالة التشظي نفسها ـ حـول قضية واحدة تدفع الى بؤرة الوعي الشعور بوحدة الهدف والمصير والوجود ، ولاول مرة يجتمع مقاتلون ـ نظاميـون وغير نظاميين ، بدوافع تلقائية لا تزيد على الشعور الوطني القومي المباشر « البريء » أو بدوافع واعية ومنظمة ، مختلفة الاتجاهات ، جمعت مناضلين لهم مبادىء وايديولوجيات قومية ، أو دينية ، أو اجتماعية أممية (على ندرة هذه الفئة الاخيرة) أو حتى بدوافـع « انتهازية » اقليمية متنوعة . وكان على هؤلاء جميعا أن يقبلوا « التجربة » على علاتهـا أولا ، ثم بفهم اكثر واقعية وتفصيلا وعمقا بالتدريج ، انها التجربـة التي انضجت تنظيم الضباط الاحرار في مصر فمهدت بالتالي لثـورة ٢٣ يوليو ، وهي التجربة التي انضجت حزبي « البعث العربـي » و « العربي الاشتراكي » في سوريا ولبنان والاردن فدفعتهمـا بعد قليل الى الاندماج والى التحول الى مرحلة جديدة عجلت بالتغيرات التالية في سوريا ثم في العراق ، وهي التجربة التي اسقطت الملك عبد الله في الاردن وانضجت تنظيم الضباط الاحرار في مصر ومهدت لسقوط حكومات الاقليات بكشفها للحركة الوطنية وبعزل الملك عـن الجيش وتصعيد الحركة الوطنية وتنمية الحس القومي ، وهي التجربة التي أدت ـ ضمن عوامل أخرى ـ الى انضاج جناح كبير من التيـار الديني (الاخوان المسلمون) ودفعت هذا الجناح الى الالتقاء بالحركة الوطنية ، وهي التجربة التي كشفت عجز وقصور كل الانظمة العربية التقليدية دون استثناء وكشفت ـ وما تزال ـ الدور الحقيقي للمكيات البيوتات والاسر الاوتوقراطية الخائنة ـ من التجاهل التام للحركـة الوطنية والقومية الوطنية ، الى محاولة ضربها ، الى محاولة احتوائها وانحراف مسارها بالكامل وعكسه ، وهي التجربة التي نشأت مـن خلالها للمرة الاولى قيادة عسكرية عربية موحدة ـ ربمـا كانت أول أشكال « العمل » الوحدوي ، ثم هي التجربة التي دفعت الحركات الوطنيـة القطرية ، بخلق الاحساس بوجود قضية قومية وطنية ، الى المواجهة المباشرة مع الاستعمار العالمي بوصفه « قوة عالمية واحـدة » لا دولا متفرقة ، وبوصفه قوة تتزعمها الولايات المتحدة الاميركية التي اضطرته الى خلع قناع الديموقراطية والاستجابة لمطالب « الشعوب الصغيرة » لاول مرة بعد الحرب الثانيـة في ساحة القضيـة الفلسطينية ، وهذا هو ما أسقط في مصر بعد قليل مشروع الدفاع المشترك وأشعل النضال في سوريا الشيشكلي وعراق الهاشميين ضد هذا المشروع الى أن أسقطه شعب العراق نهائيا في صورته الجديـدة عام ١٩٥٨ ، الامر الذي وسع وعمق جنبات القضية القومية الوطنية ، وجعلها تجري على ساحات مختلفة ـ الى جانب الساحة الفلسطينية ، ولكن ضد عدو تكشفت أبعاده الحقيقية فـلم يعد مجرد « المهاجرين اليهود » ، أو مجرد « دولة اسرائيل المزعومة » وانما هو الثالوث الذي ذكرناه من قبل ، وأخيرا فانها التجربة التي كانت ـ ولا تزال ـ امتحانا صعبا لليسار الشيوعي وللمجموعة الاشتراكية ، أدى ـ ضمن عوامل أخرى ، وما زال يؤدي ضمنها ـ الى تفتيح مجالات جديـدة واساسية أمام العمل النظري والتطبيقـي ، في مجالات الثـورة واساليبها وقواها ، وقضايا القوميـة والنضـال الوطنـي القومي، والعلاقات الدولية وأساليب ادارتها ، والمغزى التاريخي لتصـاعد تأثير القوى الجديدة التي تطرحها حركة قومية لا يمكن عمليا أن تحقق أهدافها الا من خلال مسيرة طويلة نضالية في مواجهـة الاستعمار العالمي ـ دوله وشركاته المتعددة الجنسية وأجهزته بخططها وشبكاتها التي لا تنتهي ـ وفي مواجهة الطبقات المستغلة وانظمتها السياسيـة واجهزتها وتحالفاتها ... الخ ، ثم في مواجهة التخلف بانواعـه ومجالاتـه .

الوضع السياسي للاقطار العربية :

في تلـك السنوات الاولـى من الخمسينيات ، كانت كـل دول المشرق العربي ـ حيث تقوم فلسطين في وسطها ـ قد نالت استقلالها الوطني ـ الشكلي على الاقل ، وكانت مصر وسوريا قد حققتا استقلالا حقيقيا وشرعتا في أول عملية تاريخية لتغيير الطبيعة الاجتماعيـة للسلطة وللفئات الحاكمة ، بينما كانت عناصر الثورة الوطنية ـ وذات المحتوى الاجتماعي المتقدم ـ تستجمع قواها في العراق والجـزائر وجنوب اليمن ، ثم في تونس والمغرب ، وكان السودان ، جنـوب الوطن العربي ، قد استكمل استقلاله الوطني . ونحن نعرف ما يترتب على الاستقلال الوطني ، وظهور الدولة الوطنية والبدء بتغيير التركيب الاجتماعي ـ لتحقيق أهداف عملية بحت ـ من ازدهار ضروري للثقافة القومية وايقاظ للشعور القومي بالتالي (ولنا عودة الى هذا الجانب في النقطة التالية) . وكانت بعض الدول المستقلة قد ثبتت (ولـو شكليا) منظورا قوميا وضعته في مرتبة العقيدة التشريعية للمجتمع ، بذكرها في الدستور انها « جزء من الامة العربية » ، وكانت أحزاب وتنظيمات سياسية (وغير سياسية) كثيرة قد ظهرت على أسـاس منظور قومي واع ، كان بعضها يشدد على الموقف الاجتمـاعي التقدمي صراحة (وعلى رأسها حزب البعث العربي الاشتراكي بفروعه القطرية في أقطار عربية كثيرة) ثم التنظيمات السياسية الجديدة ـ الرسمية ـ في مصر ، واكتفى بعضها بالمنظور القومي مع اصرار على « تأجيل » الموقف الاجتماعي المتقدم (مثل حركة القوميين العرب) ، كما ظهرت قوى منظمة انطلقت من منظور ديني (اسلامي) ، وحاولت أن تتحرك

على هذا الاساس ، ولكنها عملياً لم تستطع ان تتحرك او توجد الا في الاطار القومي ـ أي في الدول أو في المجتمعات العربيـــة (الاخوان المسلمون ، والتنظيمات التالية المرتبطـــة به ، كحزب التحرير الاسلامي ... الخ) واذا فكرنا في النتائج العملية لتحركهم داخل الاقطار المختلفة ، تفكيراً « تعميميا » قليلا ، لاكتشفنا انهم ساهموا جماهيريا في تحريك مجتمعات وفئات معينة نحو الوجـود السياسي حيث لا يكون لهم دلالة في النهاية الا الدلالة القومية ، ولا تأثير الا في النطاق القومي (والقطري أولا بالطبع) ، وكانت الحركـات السياسية « الفئوية » ـ وسط الضباط أو المحامين أو المعلميـن أو الطلبة أو العمال ـ قد تحولت تلقائيا أو بوعي نحو المنظور القومي من زوايـا وبدرجات متفاوتة ـ متخلصة من ايديولوجياتهـا الدينيـة والاقتصادية أو العنصرية السابقة ، مثلما حدث لتنظيم الضبـاط المصريين القديم (تنظيم عزيز المصري) أو لعناصر مختلفة من الحزب القومي السوري ، ولعناصر كثيرة من الوطنيين « المستقلين » ـ ولهم أهميتهم الكبيرة في مرحلة بعيدة عن النضج والاستقطاب الكاملـين للحركة السياسية أو للحركات التقدمية الطابع والمتشرذمة والخارجة عن حركات أكبر وأقدم منهـــا فقدت قوة دفعهـــا الاولى وترهلت لاسبـــاب مختلفـــة .

ولكن الكثير من هذه الحركـات التي نشأت وهي تحمل المنظور القومي أو تحولت اليه في مسار تطورها ، لم تكن قد تبينت بشكـل كاف بعد الطبيعة « اللاقومية » الكامنة في الاجنحة اليمينية مـن الحركات الوطنية نفسها ـ رغم ان أهم تلك الحركات كانت قد تبينت العداء الاصيل الذي تكنه الرجعيات الحاكمة (القبلية وشبهالاقطاعية وشبه الراسمالية) في كثير من الاقطار للمنظور القومي وللمصـالح القومية للامة ، وربما كان هذا القصور راجعا الى طبيعة مواقف تلك الاجنحة في مرحلة التحرر الوطني « القطري » وهي مرحلة لم يكن مصدر الارتباط قد اتضح كاملا فيها بين المعارك الوطنية القطرية وبين القضية القومية الوطنية ، وبينها وبين قضيتي النضج الديموقراطي والتقدم الاجتماعي والتنمية المرتهنة بتوحيـد الطاقات الاقتصادية والفنية والبشرية للامة : في هذه المرحلة لم يكـن قد اتضح ـ اذا استخدمنا تعبيرات ماوتسي تونغ القديمة ـ من هم « الشعب » مـن الامة ـ في مرحلة معينة ـ ومن هم « أعداء الشعب» منها ، ثم مـن هم « الثوريون الى النهاية » بالنسبة للقضايا الثلاث المترابطـة ، ومن هم ثوار المراحل المؤقتة الذين سينضمون الى اعداء الثورة فـي مراحل قادمة . وعلى أي حال فان هذا القصور كان مرتبطا في تصورنا بعاملين ، نعجل بهما هنا ، رغم ان مكانهما الطبيعي هو النقطـــة التالية ، اولهما هو عجز الفكر الثوري « العلمي » العالمي والمحلي بالتالي عن تبين الطبيعة الثورية لقضية القومية العربية تبينا كامـلا (كانوا يظنونها جزءا من افرازات الفكر والمصالح البرجوازية كقوميات القرن التاسع عشر الاوروبية) وثانيهما هو عجز الثقافة القوميـــة (ثقافتنا نحن القومية) بما اتاحته لها مرحلـــة التطور الليبرالي السابقة منذ منتصف القرن السابق من أدوات ، عن حل الكثير مـن قضايا الواقع القومي والكثير من قضايا الواقع ، في كل قطر عـلى حدة (على المستوى النظري والعملي ، وفي مجالات الفلسفة كما في الاخلاق ، والاقتصاد ، والفكر السياسي .. الخ) وعجز الثقـافة القومية بادوات نفس المرحلة عن التحول الى ثقافة « قومية » فعـلا اما للسبب السابق واما ـ معه ـ لانها لم تحل مشكلة الامية ، فتركت للثقافات السلفية ، والعرقية ، والطائفية الموروثة السائدة مهمة ملء الفراغ الفكري والعقائدي لدى الغالبية العظمى من جماهير «الشعب» في أمتنا ، الامر الذي يضعف حتى الان الحركة القومية الوطنيـــة لحساب خصومها « اللاقوميين » بطبيعتهم أو لاسبـــاب مؤقتة فـي الداخل ، والاستعماريين أو قصار النظر في الخارج .

* * *

الوضع الثقافي والفكري :

وحينما انتصف القرن العشرون ، كانت العقلية العربية قـد قطعت مراحل واسعة حقا في مسيرة ذات شعب عديدة ، ولكنهـــا تؤدي جميعا ـ بمنطق وقانون التاريخ ذاته ـ الى غاية واحدة . ولكن المسيرة نفسها لا تنتهي بالوصول الى تلك الغاية : غاية التطابق الحي بين انتاج الامة الفكري وبين حياتها ، وهو التطابق الذي لا يلغـي التناقض الخلاق بينهما ، بل يفترضه كشرط لتطور الفكر والحياة معا ، وانما هو تطابق يلغي التناقض بين الموتى والحفريات المتحجرة حيث لا يكون للحياة القائمة ، الفكر الذي يعبر عنها ويتناقض معهـا في ارتباط بها ، بينما يكون الفكر القائم معبرا عن نمط من الحياة أصبح القسم الاعظم من مكوناته الاساسية منسيا في متاحف الاثـار القديمة ، ورغم ذلك فليس من الصواب أبدا أن نزعم بأن العقليـة العربية في تلك السنوات الاولى من الخمسينات كانت قد حققت ذلك التطابق الحي مع الحياة العربية . ولكننا نستطيع القول بثقة ، بانها كانت قد وضعت قدميها بالفعل على الطريق الصحيح .

وكانت الشعبة الاولى للمسيرة ، هي عملية اكتشاف الغرب ، التي اتخذت نطاقا واسعا ومنظما ونفعيا في دولة محمـد علي الكبير على أيدي المبعوثين المصريين الى فرنسا في نهاية الثلث الاول مـن القرن الماضي ، وهي عملية بدأت من محاولة اكتشاف واكتسـاب كل شيء : من آداب المائدة الى الدساتير والنظم السياسية ، الىالمراجل البخارية وطرق المواصلات ، الى أنواع الفنون الغربيـــة والنظم الاقتصادية والادارية ، الى الفلسفات المتناقضة بمناهجها في التفكير والبحث ، ووصلت مع الزمن ومع تشعب التطور الاجتماعي ومصادر التأثير الخارجي الى محاولة « الانتقاء » من الغرب ثم الــى تبني صراعاته ومشاكله على أساس ـ أيضا ـ مـن مفاهيمه ومنطلقاتـــه هو الخاصـــة .

واختلفت درجة تغلغل كل من هذه الاستعارات في كياننا بحسب شروط « نوعية » أو موضوعية و « شكلية » أو ذاتية كثيرة . فـلم يكن من الممكن أن يتساوى تغلغل الليبرالية السياسية مع نفس درجة تغلغل اقتصاد السوق ، وبينما لم يكن من الممكن أن يصـل تغلغل « التكنيك » الصناعي الى نفس درجـة تغلغل وسائل الاتصـال الجماهيري ، فان الاخلاقيات الليبرالية ومبدأ المساواة المرتبطـة بالمسؤولية الفردية لم تصل الى نفس درجة تغلغل التكنيك الصناعي حتى في « الجزر » الصناعية أو الحضرية المزودة بخدمات التكنيـك الغربي الحديث ، والتي نشأت حاملة معها قيم القرون الوسطـى الزراعية ـ القوميـة ـ وسط بحار الريف أو الصحارى العربيـة ، وبينمـا كان من الممكـن ان نستعير نظام التعليم كله ، ومعظم مناهجه في العلوم الطبيعية والانسانيات ، فلم يكن من الممكن موضوعيـا أن تتحول هذه المناهج من مجرد معلومات نفعية أو لا نفـع فيها الـى ايديولوجية أو تصور عقلاني شامل عن الكون والتاريخ .

ولكننا لم نكن « نستعير » من الغرب ، ولا نتطور ذاتيا فـي ضوء ما نستعيره ، بحرية .

كـان الغرب « يحقن » في جسدنا وفي عقلنا ، وكـانت ارستقراطيتنا اللاقومية ، وطبقاتنا المتوسطة التي لم تنشأ من خـلال تطور اقتصادي يجعلها خصما « قوميا » للمحتلين الاجانب ، وانمـا نشأت اساسا من خلال تطور سياسي واداري ، لحقه تطور اقتصادي ضعيف ، هذه الطبقات كانت تواصل ـ بفهم استهلاكي فذ ـ محاولة اقتناء اشياء اكثر غرابة وتضاربا واغراء مما نطيق تصوره أو استيعابه أو مقاومته . وكانت عناصر هامة من مكونات عقليتنا « الحديثة » هذه ـ السلفي الموروث منها او المستحدث ـ اكثر ترهلا أو جمودا من أن نستطيع تمثل هذا « الحقن » أو فرزه حتى نتبين الممكن المحتمل مـن المستحيل والواجب رفضه ، وبذلك تراكمت أو تجاورت ثقافات كـل العصور ، ونادرا ما تحقق التفاعل الصحي بينها الا في حالات افراد

بعينهم ، لم يستطيعوا ابداً ان يتحولوا الى تيار سائد متطور ، ربما لان أحدا منهم لم يستطع أن يقدم « الحلول » الصائبة لمشكلات الواقع الحقيقية (١) . وبذلك ظلت الثقافة « الليبرالية » بعيدة عن أن تكون « قومية » حقا ، حينما وقعت من جانب في فخ الاقليمية ، ووقعت من جانب آخر في وهم الارتباط بالحضارة الغربية ، وتوهمت بعض فصائلها امكانية استبدال ثقافة الغرب بما ظنته ثقافة «دخيلة» جاءتنا من أواسط آسيا في القرون الوسطى ، من منطلق الوهم باننا بما استعرناه من الغرب أصحبنا جزءاً منه، وان ثقافته هي «الثقافة» .

وكانت الشعبة الثانية للمسيرة هي محاولة العودة الى الوراء ، الى ما قبل « الفتح » الاسلامي ، وكانت الدعوة الفرعونية ثم الهللينية (أو ثقافة البحر الابيض) في مصر ، والدعوة السورية الفينيقية في سوريا ولبنان (والعراق بشكل سطحي في وقت متأخر) هي أقوى ملامح تلك الشعبة التي كان لها خطورتها الفكرية في مصر ، والسياسية في المشرق . ولكن الشعبة الثالثة ، وتقدم الدراسات التاريخية — التي كان الدارسون الغربيون هم أصحاب الفضل فيها ، سرعان ما كبحت الخطرين ، اللذين ارتبطا — بشكل ما — مع النزعات الليبرالية من ناحية ، وفشلا من ناحية أخرى في الارتباط بالجانب الوطني (الاقليمي) من تلك النزعات الليبرالية .

وكانت الشعبة الثالثة هي محاولة اعادة اكتشاف الذات ، في التاريخ والتراث الادبي أولا ، ثم في الفلسفة والدراسات الانسانية العامة والتصوف ثانيا ، ثم في الدراسات الفقهية واللاهوتية الدينية ثالثا ، اعتمادا على أنواع مختلفة من المناهج النقدية « العقلانية » لمدارس الوضعيين والعقليين في الغرب ، وأحيانا في اعتماد على ما وصلت اليه بعض هذه المدارس — من خلال الاستشراق بشأننا .

كان المستشرقون — دون استثناء ومنذ البداية — ينظرون الى موضوعات دراساتهم من التراث العربي خاصة ، والاسلامي بوجه عام باعتبارها تمثل ثقافة متميزة عن ثقافتهم ، ولها قوانينها وقيمها وأسسها الخاصة ، أولا ، ثم كانوا يعتبرونها ، سواء جاءت من العراق او الجزيرة أو مصر أو شمال افريقيا — أو حتى من أندلس فيما بين القرنين الثامن والثالث عشر معبرة عن « كل » ثقافي واحد ، أي عن ثقافة واحدة امتدت — في أصولها القريبة منذ القرن الثالث الميلادي وفي أصولها البعيدة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد على الاقل وتطورت وتفاعلت عناصرها ونمت وازدهرت ثم انتكست وضمرت الى القرن التاسع عشر . ويحدثوننا الان ان هذه اللغة (العربية) تمر بمرحلة يقظة وتجديد وبعث ، وتشير كل الاحتمالات الى انها ستعود مرة أخرى لتكون أداة أدبية عظيمة » (٢) .

ولسنا هنا في معرض البحث عن الحق الذي « شهدت به الاعداء » ولكننا في معرض التساؤل عن السبب الذي منع روادنا — من هذه الشعبة الهامة في بداية مسيرة « اليقظة » العقلية العربية — من التوقف عند هذا المعنى الهام الذي كان « المستشرقون » يبررون به أحيانا عدم فهمهم — أو عجز قرائهم الغربيين عن فهم الكثير من التفاصيل والاشارات والعلاقات المستمدة من التاريخ ، ومن التراث ومن الاسماء وغيرها المرتبطة بالتكوين الثقافي للعرب . ثم اننا نتساءل عن السبب الذي منع هؤلاء الرواد من مناقشة المستشرقين في الكثير من أحكامهم القائمة على الاقرار بالتمايز بين ثقافتهم والثقافة العربية اولا ، ثم على « تمييز » ثقافتهم ثانيا (١) ، وهي مناقشة كانت ستسارع دون شك بعملية تطويع الفكر الليبرالي والعقلاني للواقع القومي ودفعه الى التصدي لمشكلات وقضايا هذا الواقع بقدر ما كانت ستسارع أيضا بعملية انضاج وعينا الذاتي واكتشاف التمايزات القومية داخل اطار الثقافة « الاسلامية » الاكثر عمومية بكثير . والمدهش أن مثل هذه المناقشة ، قد بدأت في وقت مبكر ، على يد جمال الدين الافغاني في فرض ليبراليته الممتزجة بالتصورات الدينية التي جعلته « يدافع عن الشرق » ، ثم استأثر الامام محمد عبده بهذه المناقشة كلها تقريبا لساحة الشعبة الرابعة — الدينية ، التي وان كانت هي أقدم شعب مسيرتنا الجديدة العقلية جذورا ، فقد كانت أيضا آخرها دخولا الى طريق تلك المسيرة . فحينما أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتابه عن « الاسلام واصول الحكم » فانما كان يستند الى تيار « قوي الصوت » وان لم يكن هو التيار المتحكم بالفعل ، صنعته الشعب الاخرى ، واضاف هو اليها من زاويته مساهمته الجديدة . ومن البديهي أن تشترك هذه الشعبة مع شعبة الاتجاه نحو الغرب في انفصالها الشديد عن الواقع : الاولى تنفصل عنه بالمكان ، والثانية تنفصل عنه بالزمن . ولكنها مثلها كانت تستطيع دائما أن تدفع الى كيان الثقافة القومية ككل — بوصفها النقيض الاكثر تطرفا — بالكثير من القضايا والمشاعر الصحيحة ، وعلى رأسها قضية اننا ننتمي الى ثقافة متميزة ، والشعور الثابت بهذا الانتماء ، والمحافظة على قطاعات عريضة — بل على أوسع القطاعات في الحقيقة — من جماهير الامة بعيدا عن تأثير « الاتجاه غربا » وعن تأثير النزعات الاقليمية التاريخية . وكما قلت قبلا عن الاخوان المسلمين ، انه على الرغم من قوة الجذب الى الوراء التي مارستها هذه الشعبة ، فانها كانت نقيضا داخليا ، الصراع ضده أو التناقض معه هو التناقض « الصحي » للثقافة القومية ، وهو في الحقيقة التناقض الرئيسي ، من حيث انه تناقض داخلي في مسيرة تطور هذه الثقافة القومية .

وفي السنوات الاولى من الخمسينات كانت هذه لشعب الاربع قد تشكلت في « كل ثقافي » وفكري واحد . شعبة الاتجاه غربا ، مثل شعبة التاريخ الاقليمي كانتا تتشنجان تشنجاتهما الاخيرة — في هدوء أو في صخب عنيف ، وتقتربان بالتدريج من اكتشاف لا جدوى « الاغتراب » وعقم الرحلة اذا كانت « هجرة » كاملة في المكان أو في الزمان . بينما شعبة اكتشاف الذات تتبصر بما يملكه السلفيون من كنوز يسيئون اليها بدفنها أو باحراقها بدلا من البخور أو بدلا من قنابل الدخان . وكان لا بد أن يمر أصحاب الاتجاه الى الغرب — بمدارسهم المختلفة — بأرض الوطنية الاقليمية قبل أن يكتشفوا المعنى الصحيح للوطنية القومية : فلا التحرر الوطني ، ولا الديموقراطية ، ولا العدل الاجتماعي ، ولا التنمية الاقتصادية أو الحضارية ، ممكنة دون المنظور القومي ، ولا المنظور القومي نفسه بقادر على أن يتحول الى تطبيق قومي حقيقي — بل لا يمكن ان يقوم كمنظور قومي الا اذا كان قائما على « العمل من أجل » تحقيق التحرر الوطني ، والديموقراطية والعدل الاجتماعي والتنمية المخططة . وبينما كان السلفيون يتراجعون الى الوراء ويمعنون في اخفاء كنوزهم (وهي الكنوز التي تخص « الجميع » بالطبع) او في احراقها ، كان لا بد أن يقبل أصحاب اكتشاف الذات المزيد من « علمية » مناهج الفكر الغربي وموضوعيتها ، لكي يكون لاكتشافهم على المستويين النظري والتطبيقي قوة تأثير العقيدة ، وقدرتها بالتالي على «تحريك»

---

(١) راجع في هذا الصدد كتابات عبد الله العروي ، حسن صعب ، الطيب التزيني ، انور عبدالملك وغيرهم : الايديولوجية العربية المعاصرة ، تحديث العقل العربي ، الاسلام ، الفكر العربي في معركة النهضة .. الخ .

(٢) راجع نيكولسون ، تاريخ أدب للعرب ، ص xxiv كمبردج ١٩٠٧

(١) انظر مثلا كتاب نيكولسون المذكور سابقا في قوله : « في نحو بداية القرن السابع من العصر المسيحي ، ظهر رجل يدعى محمد ... » ص xxvii . أن « تاريخنا » كله عند نيكولسون ، على موضوعيته ، ليس سوى « نتوء » في العصر المسيحي الغربي .

المجتمع العربي ككل في اتجاه اكتشاف ذاته ، والتحرك السياسي والثقافي نحو تحقيقها في الوقت نفسه ، بالتحرر الوطني والديموقراطية والعدل الاجتماعي والتنمية .

هكذا كان الاطار العام اللازم لاستكمال الوجود القومي للامة قد اكتمل باستقطاب ونضج المتغيرات والمتناقضات الداخلية في قلبه، سياسيا ، واجتماعيا ، وثقافيا . أي ان « الشظايا » كانت قد اكتشفت انها تشكل « كلا » واحدا ، وانها نبعت من منبع واحد ، وان التاريخ لا يستقيم الا اذا حققت الكيان الواحد الذي يكتمل به وجودها الفعلي على مسرح التاريخ ، وان بقاءها كشظايا يجعلها في حالة بين الوجود والعدم ، بين الكون والفناء ، والتاريخ ـ كالطبيعة ـ يتحرك ، وحركته ـ في مجملها ـ تقدم ، وهو لا يقبل مثل تلك الكائنات التي ترفض الحركة فتبيد ـ أو تتطور ـ بمنطق الوجود ذاته . ولكن التاريخ ـ بعكس الطبيعة ـ يتقدم في ضوء وعي الانسان، وان كان وفقا لقوانينه الخاصة . وكان وعينا بالتاريخ ـ تاريخنا وتاريخ العالم هنا ـ هو فكرنا القومي . فكيف انعكس ذلك الوعي في « الآداب » ؟

* * *

لقد خرجت مجلة « الآداب » الى الوجود في عام ١٩٥٣ ، أي وسط هذا المناخ السياسي ـ الاجتماعي ـ الثقافي : وبصدورها في بيروت ، التي كانت توشك أن تبدأ القيام بدورها الهام في الخمسينات والستينات بوصفها مركزا « حرا » تتواجد فيه وتتفاعل كل التيارات السياسية والفكرية في الوطن العربي بحرية ، ثم بصدورها عازمة على معانقة تطورات وهموم العقل العربي الاساسية ، في الادب خصوصا ، ثم في الحياة الثقافية ـ الفكرية بشكل عام ، وبصدورها عازمة على تجنب الوقوع في شرك النظرات المسبقة الواحدية سلفية كانت ومعبرة عما هو « سائد » ومستقر وآمن ، أم كانت نظرات مغرية بقوة ما يعبر عنها من الاصوات الجديدة ، ولكنها عازفة ـ مع هذا التجنب ـ على الالتزام بما تراه محققا لحريتها من جانب ، ومحققا لقدرتها من جانب آخر على عكس ذلك المناخ المتشابك العناصر المتحرك الى الامام في اطار « الكل القومي الواحد » للواقع السياسي ـ الاجتماعي ـ الثقافي العربي : لكل ذلك ، لا نغالي اذا قلنا ان «الآداب» في حد ذاتها ، وطبقا لمعايير ربع القرن الذي عاشته حتى الان وانطلاقا من معطيات اللحظة التي بدات وجودها فيها ، كانت جزءا أصيلا من ذلك « الاطار » القومي العام، وكان تقدمها ـ بعد سنوات « حضانتها » الاولى ، جزءا أصيلا ـ لا شك انه كان يتحقق بوعي كامل ـ من عملية التفاعل الحرة والصحية بين العناصر التي كانت ـ وما تزال ـ مشتركة في مسيرة تخلق « الكل القومي الواحد » نفسه ، وتحويله من مشروع واقعي الى حقيقة واقعة ، ومن مجرد امكانية في اطار صحيح ، الى وجود فعلي ، لا انفصال بين اطاره ، وبنائه ، ونسيج ذلك البناء .

كانت « الآداب » اذن ، وبكل المعايير ومهما اختلفت معها بعض المعايير ، جزءا من الحلم القومي ، من « الافعال » الرامية الى تحويل الحلم الى حقيقة ، في وطننا العربي منذ النصف الاول من الخمسينات .

ولذلك فان محاولة أن ننتزع من « مادتها » طوال ربع قرن (أي من المادة المنشورة في نحو ثلاثمائة من أعدادها) ما تخصه بصفة « القومية » من الفكر ، هي محاولة عسيرة لاسباب عديدة ، ويكفي أن نتذكر ان كل ما هو ابداع أصيل في تلك الاعداد ، كان « قوميا » في يقيننا ، من زاوية انه يعكس جانبا من الواقع الحقيقي الثقافي ـ السياسي والاجتماعي ـ السيكولوجي الذي تعيشه الامة ، ثم انه بحكم الطبيعة الفعلية والفعالة للعمل الفكري ، يصبح جزءا من ذلك الواقع الحقيقي القومي ايضا .

ولكن من البديهي أن يتركز الاهتمام على الكتابات التي تناولت جوانب الوعي بقضية « القومية العربية » في حد ذاتها ، ورغم ذلك التركيز ، فسوف يظل « الكم » هائلا ، واكثر مما يمكن استيعابه في دراسة محدودة بعوامل كثيرة .

ولذلك رأينا الاكتفاء بالكتابات التي حاولت الوعي بقضية « القومية العربية » في السنوات التي خاضت فيها قوميتنا معاركها الاساسية ، في مجال الواقع السياسي ، ضد أعداء الخارج وبين متناقضات الداخل ، وهي الكتابات التي تركزت في مجال الفكر النظري والعمل التطبيقي ، سياسيا وايديولوجيا ، في المجالات المختلفة التي يتجلى فيها الوجود القومي . واذا لم يكن من الممكن منهجيا في الدراسات التاريخية من هذا النوع بشكل عام تحديد سنة بعينها القول بأن ظاهرة شاملة معينة قد بدات أو انتهت فيها ، فانه قد يكون ذلك ممكنا اذا كانت الدراسة لا تغطي الا فترة قصيرة نسبيا من الزمن ، واذا كانت عملية نمو الظاهرة التاريخية قد عبرت بلحظة حاسمة على مستويات كثيرة مثل لحظة تأميم قناة السويس في مصر (٢٦ يوليو ١٩٥٦) التي انتجت ما تلا ذلك على نطاق العالم من استقطاب بين القوى الاستعمارية وقوى التحرر الوطني والديموقراطي القومية والاشتراكية، وعلى نطاق الوطن العربي من استقطاب للقوى الوطنية القومية والقطرية (المحلية) من جانب واستقطاب للقوى الاستعمارية والصهيونية (اسرائيل بينها) من جانب آخر ، الى لحظة العدوان الثلاثي على مصر ، الذي اقترن بتصعيد الثورة في الجزائر ، وتصاعد الحركة الوطنية القومية في المشرق العربي كله وخاصة في سوريا ولبنان والعراق ، وفي السودان جنوبا ، وفي تونس والمغرب غربا ـ أي ان العدوان على مصر قد استنفر جميع القوى الوطنية القومية على النطاق العربي واستقطبها ـ كما استقطب اعداءها في الخارج ، واصدقاءها العالميين ، وخصومها « القوميين » غير الوطنيين في الداخل ، وبلور وجودها وحدده ايجابا وسلبا ومنحها شعورا قويا بذاتها ، وخلق مرحلة « المد » العظمى الاولى لحركتها التي بلغت ذروتها في تحقيق الوحدة المصرية السورية ، ثم في طرد « الغزو الثاني » للوطن العربي الذي وقع على لبنان

والاردن بعد أسابيع من نشوب الثورة الوطنية القومية في العراق في يوليو ١٩٥٨ .

ثم قد يكون التحديد التاريخي ممكنا ايضا - على الطرف الآخر - اذا كانت عملية تطور الظاهرة التاريخية قد مرت بلحظة اخرى حاسمة مثل لحظة الانفصال وتحطيم الوحدة المصرية السورية (سبتمبر ١٩٦٢) وهي اللحظة التي تمثل القاع ، أو القرار في مقابل قمة أو ذروة حركة المد القومي الاولى عام ١٩٥٨ : اللحظة التي حددت استقطابات جديدة لقوى الحركة الوطنية القومية ، ومنحتها بعدها « الاجتماعي » على نطاق الوطن العربي كله ، كما حددت استقطابات جديدة - أو اظهرتها واضحة - للقوى غير الوطنية على نطاق الوطن العربي كله أيضا ، وحددت أيضا الابعاد الاجتماعية لهذه القوى المعادية لعملية النمو القومي العربي التاريخية واستكمالها، بالاضافة الى تحديد مجال تحرك وتحالفات كل من القطبين « القوميين » العربيين على نطاق العالم .

وعلى هذا فقد حددنا مجال اختيارنا بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٢ ، حتى يمكن أن يكون للدراسة مفزاها وتماسك مادتها او مادة موضوعها مما يساعد على استخلاص الملامح الرئيسية لتلك المادة .

ولكن بحكم طبيعة المجلة « الادبية » والثقافية العامة ، فان الكتابات المنشورة فيها ، تبتعد عن التعبير المتخصص في موضوعات كثيرة عدا « الادب » بفروعه وقضاياه ، غير انها من جانب آخر تمتلىء بالكتابات ذات الطبيعة الفكرية ، والنغمة النقاشية حول القضايا الجوهرية المتعلقة بمسألة الوجود القومي العربي ذاته واتجاهه وحركته وارتباطاته وبرامج العمل لاستكمال كيانه السياسي .

ونستطيع ان نجمل هذه الكتابات في قسمين نسميهما بشكل عام ، أو ندرجهما تحت عنوانين عامين على أساس انهما يتناولان الموضوعات المتعلقة بـ :

أولا : قضية قومية الادب ، واللغة ، والثقافة .

ثانيا : قضية الوعي القومي ، في النظرية والعمل والتطبيق .

وقد يكون من المفيد أن نقدم من البداية قائمة بأهم موضوعات القسمين :

أولا :

١ - كمال الحاج : في آذار ١٩٥٦
- اللغة والقومية .

٢ - طه حسين : في كانون ثاني ١٩٥٨
- الادباء هم بناة القومية العربية .

٣ - رئيف خوري : في كانون ثاني ١٩٥٨
- واجبات الناقد في خدمة القومية العربية .

٤ - محمود المسعدي : في كانون ثاني ١٩٥٨ .
- حماية الاديب والقومية العربية .

٥ - نازك الملائكة : في تشرين ثاني ١٩٥٩
- الناقد العربي والمسؤولية اللغوية .

٦ - سهيل ادريس : في كانون ثاني ١٩٦٠
- ادبنا الثوري .

٧ - سلمى خضراء الجيوسي : في كانون ثاني ١٩٦٠
- ادبنا الثوري والموقف الحضاري .

٨ - علي بدور : في كانون ثاني ١٩٦٠
- المثقفون والمجتمع العربي .

٩ - علي بدور : في نوار ١٩٦٠
- نحو ادب قومي جديد .

١٠ - نازك الملائكة : في آب ١٩٦١
- أغلاط في تعريف الادب القومي .

١١ - علي الحلي : في أيلول ١٩٦١ (رد على نازك)
- حول تعريف الادب القومي .

١٢ - لبيب الصباغ : في ايلول (رد على نازك)
- كلمة هادئة حول الادب القومي .

ويضاف الى هذا القسم :

ندوة « الآداب » : الادب العربي المعاصر بين القومية والعالمية .

اشترك فيها : د. محمد مندور ، د. عبد القادر القط ، د. غنيمي هلال .

***

ثانيا :

١ - شبلي العيسمي : في نيسان ١٩٥٦
- التاريخ في خدمة الامة .

٢ - عبد اللطيف شرارة : في نيسان ١٩٥٧
- العروبة بين الفكر والعاطفة .

٣ - د. عبد الله عبد الدائم : في تموز ١٩٥٧
- القومية العربية والانسانية .

٤ - فريد أبو عيطة : في تموز ١٩٥٧
- نقد كتاب : « مع القومية العربية » .

٥ - ناجي علوش : في تشرين ثاني ١٩٥٧
- معنى التحرر العربي - مناقشة اخرى للكتاب السابق .

٦ - حكم دروزة : في كانون ثاني ١٩٥٨
- معنى التحرر العربي - رد على ناجي علوش .

٧ - مطاع صفدي : في تشرين ثاني ١٩٥٧
- نحو تجربة قومية .

٨ - انعام الجندي : في كانون أول ١٩٥٧
- حول كتاب « معنى القومية العربية » لجورج حنا .

٩ - د. عبد الله عبد الدائم : في شباط ١٩٥٨
- العربي الانسان .

١٠ ــ د. عبد الله عبد الدائم : في آذار ١٩٥٨
● العقل الانقلابي والجمهورية العربية المتحدة
١١ ــ د. عبد الله عبد الدائم : في نوار ١٩٥٨
● معركة العرب معركة انسانية .
١٢ ــ ذوقان قرقوط : في شباط ١٩٥٩
● يقظة العرب وأمل البشرية .
١٣ ــ د. عزة النص : في نيسان ١٩٦٠
● التاريخ بين القومية والانسانية
١٤ ــ نازك الملائكة : في نوار ١٩٦٠
القومية العربية والحياة .
١٥ ــ رجاء النقاش ، سليمان فياض ، جلال السيد ، علي بدور : في حزيران ، تموز ، آب ١٩٦٠
● مناقشة : « القومية العربية والحياة » .
١٦ ــ د. عبد الله عبد الدائم : في ايلول ١٩٦٠
● القومية العربية بين الشعور والعقل (حسم المناقشة) .
١٧ ــ د. عبد الله عبد الدائم : في تشرين أول ١٩٦١
● الديموقراطية وسيلة لتحقيق أهداف القومية العربية .
١٨ ــ د . عبدالله عبدالدائم : في تشرين ثاني ١٩٦١
● الاشتراكية والديموقراطية .

ويضاف الى هذا القسم :

١ ــ شبلي العيسمي : في شباط ١٩٥٦
● حول الوحدة والاتحاد ــ برنامج عمل للنضال القومي .
٢ ــ عبد الجليل حسن : في آذار ١٩٥٦
● ازمة القيم في المجتمع العربي (مناقشة فكرية اخلاقية عامة) .
٣ ــ محيي الدين اسماعيل : في شباط ١٩٦٢
● عقيدة المثقف العربي الثوري ــ حول كتاب « القومية والوحدة » تأليف : عبدالله الريماوي

* * *

وغني عن البيان اننا سنحاول في السطور القادمة ، أن نبين الخطوط العريضة لاهم أفكار هؤلاء الكتاب واتجاهاتهم الفكرية ، واننا سنتدخل بالتعليق حيثما كان ذلك ضروريا ، مستندين أساسا الى ما نتصور انه الخبرة ، والتي لا شك ان لهؤلاء الاساتذة الكتاب رؤيتهم الخاصة الى نفس الخبرة المستفادة والمستخلصة من السنوات الحاسمة التي انقضت ، بمشاركاتهم ومواقفهم وأعمالهم التالية للسنوات موضع الدراسة ، وللسنوات القادمة .

أولا : في قضية قومية الادب ، واللغة ، والثقافة :

نادرا ما حدد احد الكتاب في هذا القسم مصادر فكره ــ على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، وباستثناء الخلاف المباشر بين نازك الملائكة وبين كل من علي الحلي ولبيب الصباغ (آب وايلول عام ١٩٦١) لا نجد تعبيرا مباشرا عن ذلك الاختلاف في مصادر الفكر وفي أصول الاتجاهات الايديولوجية بين الكتاب . ورغم ذلك الاختلاف «الاصولي» فاننا نادرا ما نلمس اختلافا في التناول او في المعالجة الشخصية بين الكتاب حين يتناولون قضية واحدة . في قضية اللغة لا يختلف كمال الحاج كثيرا مع طه حسين ، ولا تختلف معهما نازك الملائكة ولا علي بدور في شيء حول أساسية اللغة القومية لوحدة الامة ، وحول ان وحدة اللغة هي الاساس الاول للوحدة القومية .

يقول كمال الحاج ان اللغة هي الاساس الاول للقومية لاعتبارات فلسفية واجتماعية وتربوية : يتجسد الاعتبار الفلسفي من حيث ان اللغة هي وعاء الفكر ، ويتجسد الاعتبار الاجتماعي من حيث ان اللغة هي وعاء التراث الاجتماعي والتاريخي ، ويتجسد الاعتبار التربوي (واعتقد انه يقصد : الاعتبار الاخلاقي) من حيث ان الالتزام باللغة القومية يساعد على الربط بين التفكير والتعبير .

ويقول طه حسين ان « الشعر » هو المنشىء الاول للقومية العربية (وما الشعر ان لم يكن هو اللغة مصفاة نقية ؟) وهو الذي شارك في تكوينها وتقويتها اولا بعد ان كونها واقامها القرآن . ويقول ان اللغة العربية كانت الجامع الوحيد للعرب قبل الاسلام على اختلاف اللهجات ، وان ظهور الشعر وغلبة الشعراء العظام فرض لهجة معينة ، فهو أول موحد للعقل العربي (وفي هذا تأكيد لفكرة ان اللغة وعاء الفكر والتراث) ثم كانت اللغة وسيلة لتدعيم الاسلام عن طريق محافظة القرآن على اللغة الواحدة في الاقطار العربية .

وتحذر نازك الملائكة من « التسيب اللغوي » ومن الاستسلام لركاكة التعبير اللغوي أو للتحلل من قواعد اللغة التي هي منطقها ، والتي تقوم في الاساس على « المنطق » ذاته . وهنا نجد تعبيرا جديدا عن فكرة التطابق بين اللغة والفكر ، وبين اللغة والعقل ، باعتبار الفكر مادة العقل واللغة وعاء هذه المادة . وتناشد نازك الجيل الناشىء من النقاد أن يتجهوا الى انفسهم حين يكتبون تينبت الذهن العربي الخصيب أثماره و « سرعان ما سوف تكتشف الامة المنابع الحقة في كيانها الفكري ، المنابع العربية التي لن يفتني الادب العربي بسواها ولا مصلحة له في سواها » .

ويؤكد علي بدور على ضرورة التركيز على دراسة التاريخ واللغة لتحقيق فهم « الشخصية القومية » وان اللغة العربية الفصحى هي الوحيدة ، وسيلتنا للتفكير والتعبير ، وهي الوحيدة الصالحة لان تنقل الخواطر والافكار بين أبناء العروبة بعضهم الى البعض ، ما دامت لسان وحدتهم الكبير ، ووسيلة الوحدة الفكرية بنوع

خاص (التأكيد من جديد على تطابق اللغة والفكر والعقل) كل قصور عن استعمالها في سائر ضروب الفكر ، انما يعد رغبة مباشرة أو غير مباشرة في تخليد ادب التجزئة وفكر التجزئة ، ومحاربة الوحدة العربية التي كانت تقوم من حيث التعبير عن الافكار ، على الكتابة بالفصحى ، وباطل كل تبرير للكتابة بالعامية ، باسم الفن » .

ولا نجد خلافا أو فارقا كبيرا بين سلمى الخضراء الجيوسي وبين علي بدور أو رئيف خوري في معالجتهم لموضوعي التراث والتاريخ .

تقول سلمى الخضراء ان « الاديب الذي لا تراث له أديب ضائع . فالادب والفن يتسلسلان في الامم حاملين خصائصها الاصيلة المتميزة والتي تسند اي نتاج تجيء به أجيال من الخلاقين . في تسلسلهما عبر العصور يتطعمان بالروافد الجديدة ، بنكهات آداب وفنون التقياها ، وبطابع العبقريات الادبية المتلاحقة التي تتوتى الادب عصرا بعد عصر . ولكن الخصائص الاصيلة التي تميز ادب امتي وفنها وروحيتها تلازم كل نتاج جديد مبدع » . وتقول : « ان الابداع يحمل اصالته معه . فليس هناك ابداع مزيف او مصطنع أو دخيل . فالدعوة اذن الى التشبث بالاصالة انما هي دعوة توجه الى غير المبدعين ... » . وتؤكد ان من اهم مميزات الثقافة انها تحتاج لكي تكون متمكنة في الاجيال والافراد ، الى عراقة موروثة من جيل الى جيل ، الى ما يمكن تسميته بـ « الاختمار الثقافي » . وتقول ان الاديب العربي مهما درس التكنيك الغربي ووعاه فسيبقى عنده على الغالب ناحية ضعف لا مجال لقهرها : وهي ان الانسان مهما عب من تراث حضارة اخرى ومهما تمثل هذه الحضارة ، فان عطاءه الادبي يستمد جذوره المباشرة من تراثه هو ومن حضارته » .

ويتناول علي بدور نفس الموضوع من زاوية مختلفة ، ويستخدم مصطلح « التاريخ » بدلا من مصطلح «التراث» و « الحضارة » ، ويشير الى « الثقافة القومية » بنفس معنى « العراقة الموروثة من جيل الى جيل » ، فيقول ان تعميق مفهوم التاريخ القومي في ضمير الاجيال العربية ، سوف يؤدي الى تعميق مفهوم الثقافة القومية التي يتثقف بها الناشئة على ضوء هذا التاريخ القومي الاصيل ... فاذا تعمق مفهوم الثقافة القومية ، امكن للادب القومي ان يبدأ نموه بشكله ومضمونه الثوريين المبدعين ... (لا بد من) العناية بالتاريخ القومي أولا ، وبالثقافة القومية ثانيا ، ليكون لنا قيم أدبية وفنية وجمالية صحيحة » .

أما رئيف خوري فيكتفي بطرح واحدة من أخطر قضايا « سوسيولوجية الفن » عن علاقة جماليات الفن بالاصل أو المصدر الاجتماعي للعمل الفني ، هذا الطرح المباشر البسيط : « فالمقاييس الفنية التي هي انسانية مشتركة لم تظهر في مكان ما الا متأثرة بالروح القومي وبالشكل القومي ، انها مقاييس انسانية ولكن عبر بوتقة قومية » ، فيكاد يفرينا بضرورة التخلي عن استخدام كل المصطلحات التي يقال ان لا علم ولا فلسفة بدونها .

ويكاد الدكتور سهيل ادريس يقف وحده في التعبير عن ضرورة حرية الفكر لازدهار الادب القومي ولتمكينه من الالتزام الحي والواعي بالثورة العربية ومساندتها ومساعدتها في بناء الانسان العربي والعقل العربي الجديدين . يقول سهيل ادريس : « .. ان اخطر قضية يواجهها الادب العربي الحديث في فترته الثورية هذه ، هي قضية « حرية الفكر » . فما دام الاديب مدعوا بطبيعة الفترة التي يعيشها الى ان يشارك في قلب مفاهيم بالية واحلال مفاهيم ثورية محلها ، فانه لن يتمكن من اداء رسالته اذا لم يضمن له قدر كاف من الحرية الفكرية التي لا نجاوز الحق اذا قلنا انها غير متوافرة في معظم البلدان العربية » .

انه يتحدث هنا عن حرية ملتزمة ، حرية تمكن الاديب من الالتزام بوعي ، ومن المشاركة في الحركة التي تضمها وتحملها « الفترة التي يعيشها » الاديب ، وهي فترة ثورية ، ولكي يتمكن من « اداء رسالته » وهي ان « يشارك في قلب مفاهيم بالية واحلال مفاهيم ثورية محلها » .

ومع هذا فقد سبق ان نشرت المجلة لمحمود المسعدي حديثا يحمل مفهوما آخر عن حرية الاديب ، يختلف مع حديث سهيل ادريس في الاصول والمنابع . ولكنه نادرا ما يختلف معه في النهايات والنتائج . يقول محمود المسعدي : « .. وحرية الاديب هذه التي لا تجب حمايتها كأقدس ما يحمى من القيم البشرية لا تحتمل أي حصر ولا تحديد لانها في جوهرها ، مطلقة ، او لا تكون. فانه لا يكفي أن تعتق الاديب من رق المسؤوليات السياسية او الدعاية لاوضاع اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية معينة لنضمن حريته كاملة ، بل يجب ان يكون اطلاقنا له في ميدانه الخاص به ، ميدان الفكر والادب ، اطلاقا كاملا لا قيد فيه ، فلا نحاول ان نحمله على ايديولوجية معينة » .

ان هذا النوع من التصور الليبرالي عن « حرية الاديب » الذي يبدو متناقضا مع الفهم الذي عبر عنه سهيل ادريس : الفهم الذي يمتزج فيه المفهوم الوجودي مع المفهوم الواقعي عن الالتزام ، وتتميز فيه الدعوة الى المشاركة في الحركة الثورية في المجتمع من اجل تغيير هذا المجتمع وقلبه ، اقول ان التصور الليبرالي الذي عبر عنه محمود المسعدي غالبا ما يتضمن في قلبه نفس الولع بالقيم الانسانية النقة ، ونفس الاعزاز للحرية الانسانية والاجتماعية والعدل ، حتى من خلال الاحترام للقيم المطلقة الطيبة ، قيم الخير والحق والجمال ، والرغبة في سمو الانسان وحمايته من الشر والقبح والاذلال . ولكن تبقى المشكلة الاساسية لهذا الموقف « النبيل » ، والتي تنبع من حرص الليبرالي الاخلاقي والجمالي على ابعاد شرور العالم وقبائحه عن عبقريته الخاصة ، بما يعني — انعكاسا — حرصه على عدم « التورط » اجتماعيا في موقف يفرضه على نفسه .. ولا يفرضه عليه احد ، الامر الذي يصل بابداعه في النهاية الى الارتباط بصور من الجمال والخير والحق لا علاقة لها بواقع أمته ولا بحركة هذه الامة — ودوافع الحركة وقواها — نحو المستقبل . انها مشكلة تنبع من اختيار الاديب نفسه منذ البداية ، لا مما يخشاه المسعدي ، من أن يفرض عليه أحد — أو الدولة أو المجتمع أو الراي العام — موقفا أو التزاما أو ايديولوجية بعينها .

وينعكس نفس الاختلاف على الموقف الذي نشأ بين نازك الملائكة وبين كل من علي الحلي ولبيب الصباغ . رأت نازك ان كل ابداع ادبي هو أدب قومي ، يحمل خصائص وروح الامة التي ينتمي اليها المبدع ، وادخلت على حجتها مقولة نسبتها الى الداعين للالتزام تقول بأن كل أدب لا يتناول «قضايانا القومية» هو أدب غير قومي ، ورفضت بناء على هذه المقولة دعوة الالتزام كلها ، جملة وتفصيلا ، من الناحية الايديولوجية على أساس انها دعوة شيوعية ، ومن الناحية التطبيقية على أساس انها دعوة تؤدي الى افقار الابداع القومي وعزل قطاعات خلاقة وجديرة بالاحترام من هذا الادب عن مستوى التقييم والقبول العام. ويرد عليها علي الحلي ردا بسيطا ومفحما وان لم يكن قد اقامه على قاعدته « النظرية » البديهية : ان التزام الشيوعيين لا يتشبه في شيء التزام الوجوديين أو أو الفاشيين أو التزام الكاثوليكيين أو التزام القوميين الاشتراكيين . اننا نفهم من هذا الرد ان لكل نوع من تلك الانواع للالتزام أساسه الفكري ، وان هذا هو منبع الفروق والاختلافات بينها . ولا نفهم من رد الحلي ان ثمة فروقا أخرى ، سابقة واكثر جذرية ، تقوم على اختلاف الموقف الاجتماعي من جانب ، واختلاف الرؤية الحضارية — الرؤية التي تصبغ كل أساس فكري لكل نوع من انواع الالتزام بصبغة الثقافة القومية لصاحب الموقف الملتزم ذاته من جانب آخر . ان ارتباط الجانبين هو ما يحدد في النهاية « الدور » الخاص للموقف الملتزم في اطار وجوده القومي وعلى أساس انتمائه الاجتماعي . وهذا هو ما يجعل الالتزام موقفا حتميا ، يفرض « التزاما » ما حتى على رفض « فكرة » الالتزام . ولكن هذا الالتزام الجديد، المبني على « تلقائية » الوعي ، ورفض أي مثل أعلى « مسبق » كما تصورت نازك عن أدب الغرب ، هذا الالتزام الجديد لا بد أن يؤدي الى الالتزام بالنكوص الى الخلف ، لان التلقائية تستسلم بالضرورة للدوافع الاقوى — وصاحبها يتصور انتفاء كل أنواع الدوافع — والدوافع الاقوى هي الدوافع السائدة والمستندة الى تراث التاريخ كله : وتراث التاريخ كله يشدنا الى الماضي ، حيث « المثل العليا » التي فات زمانها ، ولان رفض أي مثل أعلى « مسبق » يختاره الاديب أو الفنان بوعي ، معناه الاستسلام أيضا للمثل الاعلى الذي سبقه الزمان ، لانه لا فن دون « مثل اعلى » سواء في الشكل أو في مضمون التجربة .

ومن المؤكد ان حركة الادب القومي « الملتزم » قد اكتشفت تلك المبادىء العامة منذ زمان بعيد . أما قضية استمرار « سيادة » أصحاب المثل الاعلى المشدود الى الماضي ، فتلك قضية اخرى ، أساسها في الواقع الاجتماعي القومي ، قبل ان يكون في أرض الفكر القومي .

ثانيا : الوعي القومي في النظرية والعمل والتطبيق :

نادرا ، مرة اخرى ، ما نعثر على اشارة واضحة ، او محددة ، للمصدر المباشر لافكار كتاب « الآداب » في السنوات موضع الدراسة . لقد تصدوا لقضايا نظرية كثيرة ، من أساس الوجود القومي ، وطبيعته ، وطبيعة العلاقة بينه وبين أبناء القومية الواحدة ، الى طبيعة العلاقة بين القومية الواحدة وبين الانسانية كلها كوجود فعلي أو كمفهوم عقلي مطلق ، وتناولوا بالتنظير ايضا قضايا العمل النضالي ، السياسي والتنظيمي والتوجيهي ، من زاوية تحديد وصياغة شعارات — ومن ثم أهداف — الثورة القومية ، وما يرتبط بذلك من قضايا طرح المهام الاجتماعية والديموقراطية الى جانب مهمة تحقيق الوحدة القومية في مرحلة واحدة ، أم ضرورة تأجيل المهام الاجتماعية والديموقراطية للثورة الى مرحلة أو مراحل تالية لتحقيق الوحدة ، وتناولوا مشاكل البناء والاسلوب التنظيميين ، سواء بالنسبة لمشاكل تنظيم الكادر الثوري القومي ، او تنظيم جماهير الثورة القومية ، وتناولوا اخيرا قضايا التوجه والتركيز العمليين للثورة القومية (أو الدولة القومية في الحقيقة) فيما يتعلق بالتربية القومية للشعب ، على مستوى الوعي العام أو على مستوى التعليم وبرامجه المخططة ، ثم تناولوا في النهاية قضايا التطبيق العملي في دولة الوحدة الاولى (الجمهورية العربية المتحدة) وما طرحته اكبر اجراءاتها : اعلان الوحدة السياسية الاندماجية ، ثم قرارات يوليو (تموز) المسماة « الاشتراكية » عام ٦٢ ، من مشاكل على العقل القومي متعلقة بقضية الوحدة ذاتها أو بقضية الارتباط بين الوحدة ، وبين التغيير الاجتماعي والديموقراطية .

وهذه كلها وغيرها كثير ، قضايا عالجها في ظروف — متشابهة شكلا ومختلفة في جوانب كثيرة من مضمونها — الثوريون القوميون والاشتراكيون ، الخياليون الطوباويون والعلميون في أوروبا . قد نجد هنا أو هناك اشارة الى معلومات عامة من نماذج الوحدة الالمانية او الوحدة الايطالية ، وقد نجد اشارات الى الثورة الاشتراكية السوفياتية (البلشفية) ، وقد نعقد مقارنة سريعة أو متأنية ، متعجلة كما فعل مطاع صفدي ، أو متمهلة نوعا ولو بشكل انشائي كما فعل ذوقان قرقوط ، أو في محاولة للتعمق بعد تردد كثير مثلما فعل الدكتور عبد الله عبد الدائم . ولكنهم نادرا ما يشيرون الى المصادر « الفعلية » التي من الواضح انهم لم يستقوا منها

معلوماتهم فقط (وتلك غالبا ما تكون معلومات أولية وجزئية بحكم الطبيعة السطحية للمقارنات نفسها) وانما استقوا منها أفكارهم الاساسية أيضا ، وهي في الحقيقة ما يبدو انها « ثقافتهم » الاساسية في « الفكر القومي » وفي مواجهة مسألة « القومية » باعتبارها « مشكلة » وباعتبارها « قضية » : كمادة للعمل ، وكموضوع للتفكير.

كثيرا ما نعثر على أفكار يمكن ردها الى القوميين الالمان وفلاسفة التاريخ – الالمان أو الايطاليين – من هردر وفيخته ، الى كارليل أو هيغل أو فيكو ، وكثيرا ما نلتقي بتأثر ماركسي غائر أو خفي ، من كتابات ستالين في المسألة القومية او لينين في قضايا التحرر الوطني ، أو ماركس في المسألة اليهودية والمسألة الالمانية والالمانية الفرنسية . ولكن تحديد بدايات تلك الافكار ونهاياتها ، أو مدى التأثرات ، يكاد يكلف الباحث مشقة اكبر مما تتحملها الدراسة الحالية ، ربما لان الكتاب كانوا يحسنون « اخفاء » نقلهم للافكار ، أو لانهم كانوا بالفعل قد تمثلوها واندمجت في وعيهم متحولة الى جزء من مواجهتهم الذاتية – والموضوعية – لتجربتهم القومية الخاصة .

ولكننا نعتقد – مرة اخرى – ان هذا الحرص على « تجاهل مصادر الفكر » واهمال تجديد موارد التأثير ، انما كان راجعا الى الاحساس العارم والحماسي وقتذاك ، بضرورة وضع الحلول الفكرية الاصيلة لقضية « أصيلة » تكتشف وتطرح نفسها على الذهن العربي لاول مرة باعتبارها قضية استخلاص الوجود القومي – السياسي والحضاري والكياني من براثن وركام تاريخ ظالم وغير انساني ، وباعتبارها قضية « خاصة بنا » من كل جانب ، علينا أن نخوض معركتها العقلية (الفكرية) مثلما قدر ان نخوض معاركها العملية والتطبيقية ، وحدنا ، ودون سند من اي نوع ، اللهم الا السند المعنوي او المادي من الانواع التي تتحول فور تلقيها الى جزء لا يتجزأ ، وعضوي ، من « امكانياتنا » السابقة ، التاريخية والاصلية الخاصة .

ورغم ذلك – رغم هذا الاحساس العارم بأصالة القضية وضرورة « عذرية » أسلحتها الفكرية والتطبيقية – فاننا لا نجد فيما بين أيدينا من الدراسات السبع عشرة ، وما أضيف اليها ، أية محاولة لصياغة نظرية عامة أو كلية فيما هي « القومية » على غرار ما فعل القوميون الالمان أو الماركسيون الروس . وعلى غرار ما فعل المفكرون العرب – خارج « الآداب » مع مواجهتهم لتجربة الوحدة المصرية السورية وما طرحته من تحديات وجوانب عملية جديدة .

وقد يعود هذا « النقص » (1) الى القصور العام في تطور الثقافة العربية المعاصره ككل ، الحديثة العمر من ناحية ، والمحدودة التجربة في مجال الفكر السياسي، ثم قد يعود النقص نفسه الى سرعة تلاحق التطورات السياسية – منذ مطلع القرن الماضي على الاكثر – وهي تطورات حاسمة حقا – من انهيار دولة الخلافة ، الى مجيء الاستعمار الغربي ، الى مجيء الاستيطان الصهيوني وظهور اسرائيل ، وقبل ذلك تقسيم المشرق وظهور دول وكيانات سياسية لم يكن لها وجود ، حتى في الجزيرة العربية ، واصطدام الثقافة السلفية (غير القومية) بالتصور السياسي الحديث (وهو تصور قومي في جوهره) كل هذا مع تطورات اجتماعية محدودة على المستوى القومي – وعلى مستوى اكثرية اقطار الوطن العربي ، دون ان يجد الفكر الاجتماعي السياسي الفرصة الكافية لملاحقة التطورات وتمثلها وعكسها ومحاولة التأثير فيها (1) .

لقد كان هذا الجيل من الكتاب القوميين ، أول جيل تكوّن وعيه وشرع في العمل السياسي في ظل الكيانات السياسية القطرية « الجديدة » بعد أن حققت درجات متفاوتة من الاستقلال السياسي ، واول جيل يواجه القضية الوطنية القومية باعتبارها قضية تطرح امكانيات عملية من وجهة نظر القوى الشعبية لا مشايخ القبائل ولا ملاك الارض ، وبالتالي فانها قضية تحقق أهدافها ، ليس فقط بمعزل عن القوى الاستعمارية ولكن ضدها ، وأول جيل يواجه مسألة الوعي بـ « الوجود القومي » العربي وكل ما يستتبع هذا الوعي من قضايا أشرنا اليها آنفا ، بينما لم تكن ثقافته « القومية » قد حققت نضجها على المستوى الفلسفي ، ولا انتزعت نفسها (المعاصرة) من تاريخها المتجمد عبر عشرة قرون على الاقل ، ولا انتزعت نفسها من غزاتها الغربيين الاقوياء الذين وجدت نفسها تكافح ضد قهرهم لها مستخدمة في هذا الكفاح مصطلحاتهم هم ومن خلال تطوراتهم هم عن القومية وعن الانسانية ، وفي معظم الاحيان عن « العرب » أنفسهم . ولم تكن ثقافته القومية قد صاغت بعد حتى مصطلحاتها المعاصرة الخاصة للتعامل (مع) ولتلخيص تصورات هذه الثقافة عن الوجود الكوني أو التاريخي ، وكان أقل من خمسة عشر بالمائة من مجموع الامة كلها يحسنون فهم الحديث باللغة العربية الفصحى (لغتهم القومية) المخففة، في وقت لم يكن الاستقطاب الاجتماعي قد اكتمل ، ولم ينفصل المثقفون الثوريون القوميون بعد عن اصولهم

(1) الذي لا يمكن في الحق ان يسمى « نقصا » الا من وجهة النظر الفلسفية المنهجية المجردة .

(1) لا أتحدث هنا عن مجرد مسألة العلاقة المألوفة بين البناء التحتي للمجتمع ، السريع التطور ، وبين البناء الفوقي الاقل سرعة في تطوره ، فقد حرصت الكيانات السياسية والانظمة في الاقطار العربية حتى الى ما بعد منتصف الخمسينات على تجميد الابنية الفوقية (الثقافية والقانونية والاخلاقية) عمدا وبشكل تحكمي قسري ، فيما كانت تحاول – وتنجح أحيانا – تغيير البنى التحتية ولو جزئيا ، ولم تكن هذه المحاولات كلها – كما نعرف – عفوية دائما .

الاجتماعية « اللاقومية » انفصالا كاملا بعد .

لكل هذا ، ولاسباب أخرى لا بد من اكتشافها في مجال دراسة اكبر واكثر شمولا ، تعين على هذا الجيل من الكتاب أن يتعامل مع القضايا والمشاكل التي طرحها ظهور الوجود القومي بامكانياته واحتمالاته الجديدة ، اعتمادا على اجتهاداته ــ فرادى غالبا وجماعات أحيانا ــ سواء في التحصيل التاريخي والنظري وفي فهم عادة تمثل هذا المتحصل من ثقافة الغرب الخصم ، أو في جمع شتات الظواهر العملية المشتتة والمبعثرة والملاحقة على امتداد وطنه الشاسع . كان عليه أن يقوم بأعباء مهام مرحلته التاريخية كلها في وقت واحد ، في العمل اليومي ، وفي تحصيل المعرفة وفي التنظير لكل جوانب القضية ، وهذا في عصر وفي مكان من العالم ، لا تسمح الظروف فيهما بالتطور المتأني ولا بالقدر الضروري من البعد عن التأثير المتلاحق ــ العمدي والعفوي ــ القادم من مراكز التأثير الخارجية البالغة القوة والشديدة الابهار .

***

وقد نستطيع بعد هذا المدخل العام أن نقسم موضوعات هذا الجانب من كتابات الفكر القومي ، تقسيما موضوعيا الى : قضية الوجود القومي والوعي النظري ، ثم الوجود القومي والانسانية ، ثم قضية وحدة جانب الثورة القومية او مرحلتيها ، ثم قضية تحقيق الوجود القومي اشتراكيا وديموقراطيا .

١ ــ قضية الوجود القومي والوعي النظري :

لقد طالب عبد الله عبد الدائم وسعدون حمادي (في كتابات في « الآداب » سابقة على الفترة المختارة للدراسة) وغيرهما بضرورة « النظرية » القومية للعمل القومي ، وحتى يهتدى بها في التنظيم والاعداد للثورة القومية ، وفي قيادة التطبيق القومي نفسه فيما اذا نجحت الثورة القومية . ورغم ان محاولات عديدة مترابطة احيانا ، ومتنازعة في احيان اخرى ــ قد بذلت لصياغة « النظرية » (1) .

ويشير عبد اللطيف شرارة الى ما كتبه عبد الله عبد الدائم ، في « الآداب » عام ١٩٥٥ ، قائلا : « على القومية العربية أن تحدد خطوطها ، وترسم معالمها رسما واضحا ، فقد اصبحت مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر ، يقابل المذاهب الاخرى السائدة في العصر الحديث » .

ويشير الاستاذ شرارة ايضا الى تأييد سعدون حمادي لعبد الله عبد الدائم ، في مقال « بالآداب » في

(1) بينها محاولات « جماعية » اكثرها اهمية مساهمات زعماء حركة « البعث العربي » الاوائل ، وتليها بعض محاولات قادة حركة القوميين العرب ، وبينها محاولات فردية ، أكثرها اهمية بالطبع مساهمات ساطع الحصري . وقد انعكست هذه المحاولات بوضوح على الكتابات في « الاداب » وان لم يذكر الكتاب مصادرهم أيضا في هذه الحالة .

آذار ١٩٥٧ ، يقول فيه : « ان القومية العربية كحركة تاريخية قد اجتازت مرحلة المعرفة عن طريق الاحساس ، أي مرحلة تفتح الوعي ويقظة الروح ، وانها اليوم بحاجة الى دخول مرحلة العقل لتكوين نظرية تفصح عن الروح ، بتحليل الواقع العربي ، وتوضيح تفاصيل المجتمع الجديد ووسائل تحقيقه ، أي أن تكون للقومية العربية ، نظرية » .

ويعكس عبد اللطيف شرارة في رده على الكاتبين ، فهما « ميكانيكيا » نموذجيا لمبدأ « الختم التاريخي » ، في قوله : « أنا لا أرى انه لا يجوز ولا يمكن التحدث عن انشاء مذهب ، وانما هناك عوامل تحتم نشوء مذهب ، وحيث ان هذه العوامل لم تتكامل بعد ، فلا يصح قهر الطبيعة ، وارغامها على اعطاء ما لا يمكنها أن تعطيه » .

ويفصح أكثر عن فهمه في قوله ان : « الفلسفة في أمة كالشعر ، كالبيان الفني ، كالغناء الشعبي ، تنطلق من أعماقها وتاريخها وتجاربها وأجوائها ، ولا يعقل أن تحدث بمجرد الرغبة في احداثها . فهي اما أن تكون ، واما أن لا تكون ، ولا ثالث لهذين ! ثم ان كينونتها نتيجة «محتمات» لا نتيجة رغبات أو ارادات » .

ويحدد أسباب رفضه لجواز وحتى لامكان « التحدث عن انشاء مذهب » فيكشف أيضا عن ربط ميكانيكي مباشر بين الاسباب الاجتماعية « العامة » وبين النتائج « الثقافية الخاصة » دون جسر يصل ما بينهما ، يقول : « فالامية في البلاد العربية لا تزال طاغية والاقطاعية لا تزال هي النظام السائد في كثير من المناطق ، والاقليمية والطائفية والحزبية العمياء الشخصية ، وما تجر هذه الآفات وراءها من بلبلة واضطراب وضعف ـ كل ذلك لا يسمح بنشوء فلسفة » وهو لا يقترب بعد ذلك من السببين الرئيسيين للعجز عن بلورة « نظرية الثورة القومية » : تخلف بنيان ومصطلحات الثقافة القومية نفسها ، واستمرار خضوع المثقفين الثوريين القوميين انفسهم لمقاييس تلك الثقافة لاستمرار ارتباطهم نضاليا بقواعد طبقية « لا قومية » أو غير قادرة على قطع ما يصلها بالوضع الاقليمي ـ وضع التجزئة ـ كمصالح مادية ، ولا بالثقافة السلفية ، كثقافة غير علمانية ، حتى تستطيع أن تكون قومية حقا ، وعلمانية حقا ، وتكتشف ان «مصالحها» وان « كرامتها » الانسانية ، لا يمكن أن تتحقق الا في الاطار القومي . اي ان الاستاذ شرارة لم يكتشف ان « النظرية » يمكن أن يصوغها مثقفون ثوريون مرتبطون بالقطاعات الاجتماعية « القومية » حقا ، أو تلك التي لا بد أن تكون قومية لان مصالحها المادية والمعنوية مرتبطة حقا ـ ولا بد ان ترتبط ـ بالاطار القومي .

ورغم ان كتابا كثيرين ادركوا ان تحقيق الوجود القومي للامة العربية ، بتحريرها وتوحيدها وسيرها على طريق النمو الاجتماعي والعدل والديموقراطية والسلام ، هو عمل « ثوري » ، يقتضي عقيدة شاملة يهتدى بها (اي نظرية) ، فان بعضهم ـ مثل فريد أبو عيطة ـ يكتفي بأن يضع « القومية » نفسها في مرتبة العقيدة ، بعد أن كان قد أكد انها « وجود اجتماعي تاريخي » : أي انها : « قديمة قدم التجمع البشري » ، ولم تنشأ مع البورجوازية ، وليست عاطفة أو تيارا مرتبطا بالبورجوازية ، وليست عنصرية مرتبطة بالعرق ، وليست هي الدين ـ فالقومية وجود والدين رسالة أتت تصلح بعض جوانب هذا الوجود ، وليس هناك تعارض بينهما الا حين يتحول الدين من مجموعة فضائل يتصل من خلالها الانسان بالمثل الاعلى الى حركات سياسية تنفي القومية كوجود اجتماعي تاريخي ، وبالتالي فالقومية كوجود غير الماركسية كفلسفة ، مثلما انها غير الدين بوصفه رسالة . ويؤكد في تقرير صريح بعد ذلك ان القومية وجود ، وليست شعورا ولا عقيدة ولا فلسفة ، ولكنه يقلب التسلسل بعد ذلك فيقول ان القومية كوجود ، عند التعبير عنه ، يأخذ مراتب مختلفة ، فيبدأ شعورا ليصبح فكرة ، فعقيدة ، فينتقل الى فلسفة كلية : تجسدها نفوس الافراد حسب المدلولات اللغوية لهذه النعوت » . اي انها تصبح ما يمكن وصفه « وجودا متجسدا في الافراد الذين يتمذهبون ما شاء لهم التمذهب ولكنهم في النهاية « قوميون » ...

وربما كان لهذا الخلط سببه في الخوف المبكر من انكار تيارات سياسية كثيرة لوجود « القومية العربية » العربية ذاتها في ذلك الوقت ، الامر الذي كان يدعو الى اعلان الايمان بالقومية كعقيدة « أساسية » تصدر عنها بعد ذلك تنويعات كثيرة ، وربما كان السبب راجعا أيضا الى « القوة النظرية » التي كان يتمتع بها الماركسيون العرب ، ولم تكن اكثر فصائلهم قد « اعترفت » بواقعية « القومية العربية » كوجود « حقيقي » ولا بثورية المضمون التاريخي للحركة نحو تحقيق الوجود القومي للامة العربية بعد ، وكانوا يملكون مصدرا جاهزا ثبتت «صحته» في النظرية والتطبيق لتعريف « ما هي القومية » . ولم يعكس كتاب « الآداب » في السنوات موضع الدراسة قدرة مساوية في استخلاص الحقيقة « النظرية » لموقفهم القومي .

بالاضافة الى اشارة فريد أبو عيطة السابقة الى ان القومية : « لم تنشأ مع البورجوازية ، وليست عاطفة أو تيارا مرتبطا بالبورجوازية » ـ هكذا ، على وجه الاطلاق ، يشير الدكتور عبد الله عبد الدائم في مقاله « القومية العربية والانسانية » الى ادراكه لامكانية وجود « فروق » في « النزعات القومية » في البلاد المختلفة . يقول : « وتفتح الانسان والطاقات الحرة لا يمكن أن يضطلع به في مقابل ذلك ، الا اناس عرفوا ان حقيقة هذه الطاقات مرتبطة الجذور بالجانب القومي لدى الانسان ، بالجانب المتصل بحضارة أمته . ولئن كان تاريخ النزعة القومية في البلاد الاجنبية ينبىء عن شيء من التلكؤ في ادراك هذه الرابطة بين القومية والانسانية ، فتاريخ هذه النزعة لدى العرب يفصح منذ البداية عن عمق الصلة بين

هذه القومية والانسانية » .

ولم يزد الكاتب بعد ذلك تفصيلا – في مقاله هنا – لفكرة الفرق بين تاريخ « النزعه القومية » العربية ، وفي « البلاد الاجنبية » ، رغم انهـا تنبىء – في صياغتهـا الحالية – عن حس تاريخي صحيح ، يمكننا الاستناد اليه في الكشف عن الفارق الكيفي بين تطـور قوميات بـدأ تاريخ شعوبها منذ خمسة أو ستة آلاف سنـة ، وبيـن تطور قوميات أخرى ظهرت شعوبها على مسمع التـاريخ لاول مرة قبل الفين من السنين ، وغرقت طوال ثلثيهـا الاولين في عملية « فرز » واندماج وتمـايز ، قبل أن « تكتب » بلغاتها التي تتحدث بها لاول مرة ، وقبـل أن تحاول تسجيل ثقافتها الرسمية ووثائق عقائدها وابداعها الثقافي بتلك اللغات : ان الفرق بين تاريخ قوميات « العالم القديم » في الشرق الاوسط والشرق الاقصى (اذا صحت هذه المصطلحات في هذا السياق) وبين قوميات « العالم الجديد في اوروبا الغربية والشمالية وشمال ووسط آسيا واميركا الشمالية .. وبقية العالم . ولـذلك بالطبـع « قصة » أخرى ، لا بد من دراستها ، كجزء من مساهمتنا « القومية » في فهم التاريخ الانساني .

ان الرفض « المثالي » – المتخلف فكريا – لضرورة « النظرية » للنضـال القومـي ، الفكري والسياسـي والاجتماعي ، يمتد الى أوائل الستينات ، وينمو الـى رفض كامل لمجرد المطالبة بأن يكون للوعي ذاته دور فـي الوجود القومي .

وتمثل نازك الملائكة هذا « النمو » المعبر منذ فترة باكرة عن نكوص قطاعات من المثقفين « القوميين » عـن طريق الثورة القومية الطويل والصعب والفادح الاعبـاء حتى على الصعيد الفكري والعقلي . وفي مقالها « القومية العربية والحياة » تلجأ نازك الى لغة المتصوفين في حديثهم عن الذات الالهية ، أو الى لغة المثاليين الانكليز في حديثهم عن تاريخ لا يريدون تحديد معالمه لكي تتحدث عن القومية ، بل انها بالفعل تضع « العروبة » كحقيقة كلية ، أو كمعنى مطلق ، وسط حقائق كلية ومعان مطلقـة كـ « الله » و « الجمال » و « الروح » و « الغيب » و « العاطفة » . وهي تسبق هذا بتأكيد انه من الغبـاء ، ومن التشبه بالغرب : « الشكاك القاصر عـن أن يتحسس البصيرة المضيئة التي ركبتها الطبيعة في الانسان » ، أن نحـاول تعريف العروبة : « لان ما لا يعرف يبقى بعيدا راسخـا مغلفا بالضباب لا يرقى اليه شيء من الفاظنا ، بينما نتيه نحن ونغرق في تيه الكلمات والضباب » .. ونحن نعرف بالطبع مصير مثل هذا الكلام وتطوره : العنصرية التي تتحدث عن « المزايا الخاصة » لشعب مختار – وقـد اشارت هي الى مثل هذه المعاني مباشرة ، تمهيدا لفاشية عرقية معادية للعقل والديموقراطية ، تنقلب في النهاية الى موقف كوزموبوليتاني يغطي نزعة لا قوميـة حقيقية ، تبرر سحق قوميات الآخرين ، والتخلي في نفس الوقت عن الملامح الانسانية الحقيقية لقومية « الساحقين » .

ولكن هذا الموقف لم يمر دون عاصفة من المناقشات ،

بدأها رجاء النقاش ، واشترك فيها سليمان فياض وجلال السيد للرد على نازك ، وعلي بدور الى جانبها ، وحسمها في النهاية الدكتور عبد الله عبد الدائم ، بعد ان اضطر رجاء النقاش وزميلاه الى الدفاع عن البديهيات التي فرغ العقل الانساني من اثباتها منذ أرسطو ، قبل الميلاد بأربعة قرون . ولكن عبد الله عبد الدائم في الحقيقة ، وهو « يمسك العصا » من منتصفها ، يعمد الى التخفيف من صوفية تصورات نازك ، وروحانيتها ، ويلغي الكثير من لاعقلانيتها ، ثم ينطلق من بديهية « عقلية » وبمنهج عقلاني يتعارض كل التعارض مع منطلقات نازك نفسها ، ثم يكتفي بترديد ما قرره رجاء النقاش وزميلاه بعد هذا عن أستحالة تلقائية نبوع « الفكر » من مادة الامة دون « ارادة » ودون « حركة » من جانب الامة نفسها . ويمزج عبد الله عبد الدائم بين لاعقلانية نازك ، وبين نزعة رجاء النقاش العقلانية ، في محاولة للتوفيق بين نقيضين علاقتهما صراعية في جوهرها ، وفي تطورها العملي (كما أثبت التاريخ بعد ذلك) ، رغم ان « توفيقيته » المخطئة « منهجيا » وعمليا ، حاولت أن تكون في صالح العقيدة القومية اولا ، وفي صف ضرورة الوعي وترشيد العمل القومي بنظرية « علمية » تمنعه من الانحراف وتستقطب حوله القوى « القومية » في الامة المجزاة .

***

٢ ـ قضية وجود القومي والانسانية .

عالج هذه القضية على صفحات « الآداب » ، كل من الدكتور عبد الله عبد الدائم وذوقان قرقوط والدكتور عزة النص .

في تموز ١٩٥٧ ، كتب عبد الله عبد الدائم عن « القومية العربية والانسانية » لكي يؤكد كيف ان المنحى التاريخي الاساسي للنزعة القومية العربية منحى انساني ، على أساس ان القيم الاخلاقية ، التي تدفع الانسان الى توفير حقوق الآخرين ، وبالتالي الى التعامل مع انسانيتهم على أساس الاعتراف المسبق وغير المحتاج الى اعلانه ، هي القيم الاساسية في تكوين « النسق القيمي » للعربي ، حتى في الجاهلية ، ثم جاء الاسلام وحولها الى دعامة من دعامات الدعوة الى العالم ، وتحولت مع الاسلام ـ مع التفتح على شكل التسامح الديني ـ الى واحدة من الاسس الاولية للحضارة العربية . ورغم ان « القصد » الاساسي من هذا المقال كان هو تحذير النزعة القومية من التعصب العرقي والعنصرية ، ومن التسيب القومي في نفس الوقت :

« تنحرف النزعة القومية عن مجراها وتنقلب الى عصبية ذميمة حينما تنسى جوهرها الانساني ، وحين تعتبر القومية غاية في ذاتها ، بدلا من أن تظل وسيلة لاذكاء انسانية الفرد . فتفتح الحياة القومية لا يمكن أن يضطلع به الا اناس افسحوا المجال لطاقاتهم الفردية وحرياتهم ، فذكت قدرتهم على الابداع والعطاء . وتفتح الانسان والطاقات الحرة لا يمكن ان يضطلع به ، في مقابل ذلك ، الا اناس عرفوا ان حقيقة هذه الطاقات مرتبطة الجذور بالجانب القومي لدى الانسان ، بالجانب المتصل بحضارة أمته » .

رغم ذلك ، فان الدكتور عبد الدائم يثير قضيتين خطيرتين ، مرتبطتين بالتاريخ ، وبفهم « التطور » التاريخي ، على أساس الفهم الاجتماعي لهذا التطور ، وان كل مرحلة من تطور « القيم » القومية ـ اي من تطور الثقافة ـ انما تعكس في الحقيقة وضعا اجتماعيا ينشيء سيكولوجيه اجتماعية معينة . فالقول بأن العربي الجاهلي كان انسانيا هو افتئات على الحقيقة ، وعلى الفهم السليم للامور سويا . ان قصص التعصب العرقي (. ضد السود اساسا) وقصص القسوة المتناهية في التعامل ـ حتى مع الاطفال والصبية ـ وقصص تبادل انتهاك الاعراض وسلب الحقوق المادية واعناق الرجال واهدار الدماء (حتى بين ابناء العم ، والاب أحيانا) هي التي تمثل الجانب الاعظم مما تبقى من « مادة » التاريخ الجاهلي العربي قبل الاسلام ، وبالتالي فان النزعة « القومية » العربية ، كانت ترتقي الى « الانسانية » مع الاسلام ، وتتحول كيفيا ، ولم يكن الاسلام مجرد تكريس لـ « فضائل » قيمية اخلاقية سابقة ، ولهذا بالطبع اسبابه الاجتماعية التي يتعين بحثها في غير هذا المجال ـ ولها بالفعل دراساتها التي يجب الرجوع اليها لمن يشاء .

ومن هذه النقطة تطرح النقطة التالية ايضا ، فالقول بأن تطوير الاسلام للقيم الاخلاقية « الفطرية » لدى العرب وكأنها من صفاتهم العرقية التي خلقوا بها مهما كان وضعهم الاجتماعي والتاريخي ، هو الذي تفتح في شكل « التسامح الديني » ، بجعل « التسامح » مجرد صفة اخلاقية ، لا اساس لها في البنيان الثقافي ـ الاجتماعي للاسلام باعتباره « عقيدة » حرصت بوعي تاريخي على أن « ترث » كل فضائل الشعوب السامية السابقة ، وأن تجعل من « العرب » باسلامهم ـ أي بتحولهم التاريخي والاجتماعي الى مرحلة متقدمة اجتماعيا وثقافيا ـ ومن « العروبة » وعاء يضم كل هذه الشعوب « في المنطقة » من الناحية الثقافية ، ويجعلها (العروبة) وعاء أو بنيانا اجتماعيا متطورا عما سبقه يمحو البنيان القبلي السابق والذي كان « عرقيا » وعنصريا بالضرورة .

وفي شباط ١٩٥٨ ، يكتب عبد الله عبد الدائم عن « العربي الانسان » ، وربما لانه كان يكتبه عن « الآن » وليس عن التاريخ ، أي انه كان لكتابته هذه المرة وظيفة سياسية مباشرة ، فانه يكتشف بوضوح العلاقة المباشرة بين « النزعة القومية » وبين النزوع الثوري على الصعيد الاجتماعي ، ويكتشف ان العربي الذي يعاني من « فساد الاوضاع » ، أو ذلك الذي يعي هذا الفساد ويلتزم

بضرورة تغييره ، هو في نفس الوقت العربي الذي يعي ان « تحقيق الوجود القومي » لامته جزء من المسيرة نحو تصحيح الاوضاع الفاسدة، وان انعكس صحيح، فالانقلاب على الاوضاع الفاسدة جزء من مسيرة تحقيق الوجود القومي . وبذلك لا يمكن التحدث عن « فضائل » عربية فطرية مهما كان الوضع الاجتماعي لاصحابها ، لانها على الاقل ، ستكون فضائل لا قيمة لها ما لم تدخل ضمن بناء اجتماعي وقومي انساني بالفعل ، ومتحرر وعادل . وبالمنظور الفردي ، يمكننا القول ان الثوري الاجتماعي الجيد هو الذي يستطيع ان يكون « قوميا » جيدا ، وان القومي الجيد هو الذي يستطيع ان يعطي للثورة الاجتماعية بعدها ومعناها وامكانياتها الحقيقية ، وانهما معا ، هما من يستطيعان اعطاء « الفضائل » القومية قيمتها ومعناها ، ويجعلان ، حتى لوجودها القديم « الضمني » في الماضي قيمة ومعنى .

واخيرا يكتب الدكتور عبد الدائم ايضا في نوار ١٩٥٩ ، عن « معركة العرب معركة انسانية » لكي يطرح قضية بالغة الاهمية ايضا : ضرورة وعي القومية العربية لذاتها ، لكي تستطيع أن تعي غيرها ، ان تحدد مكانها من التاريخ ، لكي تدرك التاريخ كله من منظور محدد :

.. « فادراكها لذاتها ، لنواتها ، لاصالتها ، وضعها بالضرورة أمام الادراك الواعي لغيرها . فأساس ادراك الاشياء ، عمق ادراك الذات ، والآخر لا ينكشف الا من خلال : انا ، مشرق ومضيء ... فلما يسر للامة العربية أن تبدأ من ذاتها ، قبل ان تبدأ من غيرها ، ولما ارادت ان تعرف « من هي ؟ » قبل ان تعرف من هم سواها ، ملكت نورا جديدا تصبه على العقائد والمذاهب المجلوبة ، وقبضت على المعيار الذي يصلح أن تقدر به القيم .. » .

وهذه قضية اخرى من القضايا التي ينبغي أن « تفصل » تطبيقاتها على جوانب النضال القومي والوعي القومي من ناحية ، وأن تدرس تطبيقاتها وتطورات مراحلها على الصعيد التاريخي من ناحية أخرى . وعن التطبيقات التفصيلية يمكننا أن نضرب مثلا بأهمية « اللغة » القومية ، وضرورة بعثها راسيا ــ بجعلها الوعاء الكامل بقدر الامكان لكل « معارف » الامة ، من انتاجها او مما تأخذه عن الآخرين ، وافقيا ، باعادة تعليمها للامة ذاتها حتى لا يبقى أمي واحد يجهل القراءة والكتابة بها ، وحتى تزول « العجمة » من السنة وعقول « المتعلمين » أنفسهم : بهذا يمكن أن تضمن أشياء كثيرة ، تبدأ من زيادة « كفاءة » اللغة الى الدرجة التي لا تجعل العقل العربي عالة على اللغات الاخرى ومستهلكا لها ، وتصل الى قدرة هذا العقل على « الادراك » الصحيح للقضايا التي تطرحها عليه الحياة ، والى امكانية نقل « الوعي » لا مجرد المشاعر العاطفية ، الى أوسع جماهير وقطاعات الامة صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة القومية ــ الوطنية ــ الاجتماعية .

وعن التطور التاريخي لنفس القضية ، يمكننا أيضا أن نضرب المثل بمسألة الوضع الذي احتلته ، والمشكلة التي مثلتها «الفلسفة العلمية» بالنسبة لحركتنا القومية. أن تأخر نضج الثقافة القومية واستخلاصها لنفسها من تحت ركام المؤثرات القديمة طوال عشرة قرون ، من ثقافات الاوضاع الاجتماعية المتخلفة ، او من ثقافات الشعوب الغازية التي كانت اكثر تخلفا ، هذا التأخر كان مسؤولا عن تخلفنا في استيعاب المنهج العلمي استيعابا « خلاقا » بمثل ما كان مسؤولا عن تخلف اجيالنا الليبرالية عن استيعاب المناهج الوضعية والتجريبية استيعابا خلاقا كذلك (مسؤولية نسبية وتخلفا نسبيا كذلك)، وفي نفس الوقت كان من اقتبسوا هذه الفلسفة العلمية أيضا مسؤولين عن العجز عن دمج الفلسفة العلمية بمجموع الثقافة القومية ، حين فضلوا أن ينقلوها كما هي، دون « ادراك ذاتي » يملي « علميا » تصورا خاصا لمناهج تطبيق هذه الفلسفة تبعا لخصوصية مجال التطبيق نفسه .

***

٣ قضية وحدة جوانب الثورة القومية او مرحليتها .

انعكست على صفحات « الآداب » هذه القضية ــ المعركة الهامة من القضايا الخلافية بين الفصائل القومية المختلفة (حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي) في النصف الثاني من الخمسينات وحتى أوائل الستينات على الاقل ، في مناقشة استغرقت نحو نصف العام (من تموز ٥٧ الى كانون ثاني ٥٩) واشترك فيها فريد أبو عيطة ، وناجي علوش وسعدون حمادي بشكل اساسي من ناحية ، كما اشترك فيها علي بدور وحكم دروزة من الناحية الاخرى .

كانت حركة القوميين العرب تقول بضرورة تجزئة مراحل النضال القومي ، تبدأ بالمرحلة السياسية، لتحقيق الوحدة والتحرر واستعادة فلسطين (مرحلة تحقيق الوجود القومي) وتنتقل بعد ذلك الى مرحلة النضال الاجتماعي ، لتحقيق العدالة (مرحلة تحقيق المضمون القومي) ، ورفض حزب البعث هذا التصور ، وطرح تصوره عن ضرورة وحدة جوانب النضال ، على اساس انه من المستحيل عمليا الفصل بينها : فالنضال من أجل الوحدة ، نضال « ضد » أعدائها ، الاستعمار والصهيونية والطبقات المحلية المتواطئة مع الاستعمار ، والمستفيدة من التجزئة اقتصاديا وسياسيا ، والساعية الى تكريس التجزئة لتكريس مصالحها ، والتي تحمي كل « ثقافات التجزئة » من تصورات القوميات الاقليمية ، الى التصورات الدينية (احلال الوحدة الدينية (المستحيلة) محل الوحدة القومية .. الخ) ، والنضال من أجل الاشتراكية والديموقراطية ــ مثلما نرى نماذجه في مصر والجزائر ،

ثم في سوريا والعراق والاردن - هو نضال مندمج بالضرورة في مسيرة النضال من أجل الوحدة ، حيث لا اكتمال لمقومات اقتصاد وطني مستقل ، ووفرة اقتصادية ، وحماية للاستقلال الوطني ومسيرة الاشتراكية ، الا في اطار وحدة قومية سياسية .

كانت هذه هي المعركة الاساسية بين الفصائل القومية المختلفة ، وهي معركة متعلقة في الاساس بمبادىء وقواعد العمل النضالي القومي في الخمسينات ، وما تلاها ، فهي معركة عمل سياسي ، لا مجرد تصورات فلسفية ، ولذلك فقد تميزت بالعقلانية الشديدة ، وبالارتباط بالواقع التاريخي للامة ، والاجتماعي لاقطارها المختلفة ، على الاقل من جانب القائلين بضرورة وحدة جوانب النضال القومي .

وبدأت المناقشة في « الآداب » بتعليق طويل ، كتبه من الكويت ، فريد ابو عيطة ، لمناقشة كتاب « مع القومية العربية » الذي أصدره في القاهرة « اتحاد بعثات الكويت » .

ويبدأ أبو عيطة مناقشته بتأكيد اللقاء الاولي مع الكتاب ، حول أفكاره عن : « اننا كقومية عربية نعاني أزمة وجود . فنحن كأمة عربية بحاجة الى أساس للانطلاق لاعادة خلق هذا الوجود . هذا الاساس لا يجوز مطلقا الا ان ينبثق من صميم الوجود العربي ليعطي ولادة أصيلة صادقة ، مرتبطة ترابطا « رحميا » مع هذا الوجود » .

وبعد تحديد ابو عيطة لاهداف النضال من أجل اعادة خلق هذا الوجود ، يعلن :

« اننا مع الكتاب في نقطة البدء وفي أهداف النضال . غير اننا نختلف في الطريق ، أثناء النضال ، وفي أسلوبه ومراحله ، في استراتيجيته وتكتيكه » .

لكي ينتقل بعد ذلك الى « تحديد » ملامح ذلك الخلاف على الاسس التي أوضحناها قبل قليل .

ويكتب ناجي علوش في تشرين الثاني عام ١٩٥٧ عن « معنى التحرر العربي » ، لكي يناقش مجموع الفكرة القائلة بالتحرر السياسي كهدف نهائي للحركة القومية، بدلا من الحرية والوحدة والاشتراكية ، من خلال كتابات علي بدور وجورج طعمة ومحمد علي القابس ، علاوة على كتاب « مع القومية العربية » الذي سبق أن ناقشه فريد أبو عيطة . ويستدعي ناجي علوش أفكار سعدون حمادي في مقاله « الواقعية والفكر العربي المعاصر » المنشور في « الآداب » في آذار عام ١٩٥٧ ، فيضيف الى نفس الاسس السابقة ، فكرة ان الاسس الثورية للعقيدة : « لا يمكن أن تبدأ الا من الفرد العربي باعتباره الوحدة التي تمثل ما تحدثنا عنه أولا ، ولانه الخلية التي يعتمد على تفتحها وازدهارها .. وتفتح الحياة العربية وازدهارها .. » وان « انقلاب الفرد العربي على نفسه ، هو القدر الذي يحقق الثورة » وان « الانقلاب مرتبط بالحلول الجذرية التي تعالج أسباب الازمة الذاتية والموضوعية » وبالتالي فان : « الانقلاب لا يمكن ان تحققه الا طليعة منظمة واعية ، وان الوعي والتنظيم والثورية هي عناصر العقيدة ، وان على هذه العقيدة ان تضع تجسيمها العملي - أي مبادئها وشعاراتها - المعبر عن الصورة الحية بتجربة النضال العربي » وانه في النهاية : « التحرر الذن عملية انقلابية تبدأ بالفرد ، بانقلابه على نفسه ، وانقلابه على نفسه يعني مواجهته الثورية للواقع المواجهة التي تتحقق كليا وبصراحة فائقة ، وهذه المواجهة التي تعني تجاوز لا انسانية هذا الواقع لا يمكن الا أن تعني في نفس الوقت التصور الكلي والثوري لقضية الشعب ، قضية حريته وحياته » .

ان الرغبة في صياغة مصطلحات « أصيلة » وعذراء ، للتجربة الاصيلة والرؤية الخاصة اليها ، تمنع الكثير من الافكار من الوصول الى وضوحها الكامل . وفي نفس الوقت ، فان الحاح الاحساس بضرورة اعادة اكتشاف « الوجود القومي » المتميز للامة ، تطغى على القدرة على تحديد « القوى الاجتماعية » على نطاق الامة كلها ، وفي كل قطر من أقطارها (للتفاوت الواقعي في مستويات التطور الاجتماعي بينها) ، القوى التي تستطيع أن تتحمل مسؤوليات « كل » معارك الطريق نحو الاهداف النهائية للنضال القومي ، والقوى التي لا تستطيع أن تتحمل سوى معارك محدودة نحو بعض تلك الاهداف . فان وحدة جوانب القضية القومية ، لا تلغي ضرورة التبصر بأهداف كل مرحلة على حدة ، وأحيانا في كل قطر على حدة ، من مراحل السير نحو تحقيق أهداف تلك القضية . ولذلك فان مصطلح « انقلاب الفرد على نفسه » وان كان ينصب هنا على « الطليعة الواعية المنظمة » فانه سيطالب في العمل النضالي نفسه بأن يساعد جماهير القضية القومية نفسها على الاندماج في معاركها المتتالية ، ولا بد بالتالي أن تتحدد تلك الجماهير، حتى تعرف الثورة القومية « قوتها » الحقيقية في كل مرحلة وفي كل ميدان ، وقوة خصومها .

ومن الجانب الآخر يعبر حكم دروزة ، في «الآداب» (كانون الثاني ١٩٥٨) عن الخلط في ادراك مفهوم الضرورة « العملية » لاكتشاف المراحل التي تمر بها مسيرة الثورة ، ومعنى « المراحل » في استراتيجية متكاملة ، تخضع لعقيدة ثورية شاملة . ان التجزئة نفسها وما خلفته من أوضاع متفاوتة التطور الاجتماعي - سياسيا واقتصاديا وثقافيا - تكاد تكون مسؤولة عن ارتباك الفكر القومي في هذه « المرحلة » ، وتكاد تكون مسؤولة أيضا عن استمرار تفكك الفصائل القومية المختلفة ، في المراحل التالية . ولكن علم الثورة ، الذي هو علم تغيير المجتمع ، يستطيع - أو ينبغي أن يستطيع - استيعاب تعقدات الواقع وتضارباته ، وتفاوت متطلبات كل جزء منه . يكاد أحيانا - هذا الجزء - أن يتفرد الى درجة تحوله الى ظاهرة اجتماعية خاصة ، تحتاج الى معالجة

خاصة في اطار التصور النظري الشامل (العقيدة) وفي اطار الاستراتيجية القومية السياسية ، ثم في اطار التكتيك السياسي الخاص بمرحلة أو بلحظة من مرحلة من تلك الاستراتيجية . ولكن القاعدة الاصلية لتلك « الاستطاعة » أو القدرة ، هي « النظرية » القومية العلمية ، وهي القدرة على بناء الادارة العملية الملتزمة بتلك النظرية ، والى تملك قطاعاتها قدرا معقولا من حرية التدبير الاستراتيجي ، الفكري والعملي ، وحرية العمل وفقا لظروفها الخاصة ، في اطار انضباط مركزي وديموقراطي صحيح. ومرة اخرى تكاد الظروف التاريخية (المعطيات الواقعية) نفسها تمنع الوصول الى هذا الوضع ، ولكن علينا في نفس الوقت ان نبحث عن دور الوعي الانساني المتطور ، والمستفيد بأصالة من مثل وتجارب الآخرين ، هذا الوعي القادر على التحكم في معطيات التاريخ ، وعلى أن يكون هو نفسه أسمى معطيات التاريخ الذي « يجري صنعه » .

***

٤ ـ قضية تحقيق الوجود القومي ديموقراطيا واشتراكيا

لم تنعكس هذه القضية على صفحات « الآداب » الا في عام ١٩٦١ ، بل في الشهور الاخيرة من ذلك العام (تشرين الاول ، وتشرين الثاني) . في الشهر الاول تناول الدكتور عبد الله عبد الدائم قضية « الديموقراطية وسيلة لتحقيق أهداف القومية العربية » ، وكان المقال في الاصل بحثا القاه الكاتب في حلقة عقدت بالقاهرة لدراسة أسس التربية في العالم العربي ، في الشهر السابق (ايلول) ، أي ان الكاتب وضع بحثه (أو مقاله) في الاسابيع السابقة مباشرة لوقوع الانفصال ، اثر الانقلاب العسكري الانفصالي في سوريا ليدمر اول تجربة وحدوية عربية في التاريخ الحديث . وقد قيل يومها ان الارضية التي هيأت للانقلاب ، وجعلته ينجح في ضرب أولى ثمار كفاح الجيل « القومي » العلمي الاول ، هو غياب الديموقراطية ، بمعنى غياب دور الجماهير الشعبية العريضة ، صاحبة المصلحة الاولى في تحقيق الوجود (الكيان) القومي ، في « حماية » دولة الوحدة بشكل ديموقراطي وتعبئة منظمة واعية سليمة ، بعد أن تولت هذه الجماهير ، بقيادة منظماتها الواعية ، دفع التاريخ والارادات السياسية القائمة دفعا نحو الوحدة .

ويربط عبد الله عبد الدائم في البداية بين المعنى السليم للقومية وبين التزام هذه القومية بالانسانية ، بمعنى « القيم الانسانية » ، كشرط لازب لقدرة القومية على تفتيح حياة ابنائها وتفجير طاقاتهم . ومن هذا المعنى يصل الكاتب الى ان المناخ الديموقراطي ، والممارسة الديموقراطية ، والبناء الديموقراطي للدولة القومية ، شروط أساسية لنجاح القومية في تحقيق هدفها الاسمى وهو الوصول بالافراد من ابنائها الى حقوقهم في الحرية والكرامة والازدهار المادي والفكري والنفسي .

ويربط الكاتب بعد ذلك بين معنى الديموقراطية ـ التي تكفل الحرية والمساواة على الصعيد السياسي ـ وبين الاشتراكية التي تكفل المساواة والحرية على الصعيد الاجتماعي ، ويؤكد ان الوحدة القومية العربية هي الشرط الاساسي لامكان انفتاح الافق أمام الديموقراطية والاشتراكية جميعا لتحقيق أهدافهما .

والمشكلة في هذا النوع من الكتابة (او التفكير) السياسية انها تقوم على « مبادىء » لا يستطيع ان ينكرها انسان يفكر تفكيرا عقلانيا متحررا ومؤمن حقا بالحرية ، ولكنها لا تستطيع أن تتجاوز مع مثل هذا الانسان القدرة على « تجنب معارضته » ، ولا تستطيع أن تتجاوز مع الانسان غير « السياسي » الواعي القدرة على اثارة حماسه الاخلاقي : انها لا تضيف الى الواعي وعيا ، ولا تبذر بذرة الوعي الحقيقي لدى طالب الوعي أو من كان من واجب الكاتب أن يحمل الوعي اليه . انه لا يجيب على اي سؤال من نوع : ما هي « الديموقراطية » حتى ولا باجابة تعليمية مدرسية عادية ، أو سؤال من نوع : ديموقراطية « من ؟ » وديموقراطية « لمن ؟ » وكيف يمكن أن تمارس وفي أي سياق تاريخي ؟ انه مثلا يرى ان ماركس أخذ من هيغل فكرة سيادة الدولة والغاء قيمة الافراد ـ فهل هذا صحيح ؟ وهو يرى مثلا ان «القومية» هي التي اتخذت شعارا لتبرير العنف والعدوان النازي والفاشي ، فهل هذا ايضا صحيح ؟ ـ أي : ماذا كان دور « القومية » في الفكر النازي والفاشي ، وهل كان لـ « القومية » في ذلك الفكر وجود حقا ؟ ، وهو يتحدث عن الديموقراطية باعتبار ان : « جوهرها احترام الانسان كغاية في ذاته ، واتخاذه هدفا لا وسيلة » ، وهذا كلام انشائي جيد ، ولكنه لا يقول لنا كيف ، ولا في أي ظروف تاريخية محددة ، ولا اعتمادا على أي قوى اجتماعية قومية يمكن ذلك .

وفي يقيني ان تلك الاسئلة كان من البديهي أن تثور بعد نحو ثلاثة أعوام من قيام دولة الوحدة ، وبعد ظهور المشاكل ـ التي كان عبد الله عبد الدائم نفسه قد تنبأ بأنها ستوجد في مقاله في « الآداب » (آذار ١٩٥٨) بعنوان « العقل الانقلابي والجمهورية العربية المتحدة » ـ وان لم يكن قد استطاع أن يتنبأ ـ علميا ـ بنوعية تلك المشاكل ، لانه وهو أحد دعاة ضرورة « النظرية » للحركة القومية ، لم يكن قد تبين بعد خطورة غياب « النظرية » العلمية القومية الكاملة حين قامت دولة الوحدة . كانت دولة الوحدة ـ حين انشأ الكاتب مقاله عن الديموقراطية والقومية العربية ـ قد شرعت بالفعل تتحول الى دولة تستند اساسا الى الجماهير العريضة من الفقراء ، اصحاب المصلحة الحقيقية في الوحدة القومية ، وفي

الديموقراطية الاشتراكية ، ولكنها في نفس الوقت لم تكن قد اكتشفت بعد انها في حاجة الى الثوريين القوميين الديموقراطيين الاشتراكيين الحقيقيين ، لكي ينظموا الجماهير — فلا تترك كتلا هلامية عشوائية الحركة، ولكي يتولوا ادارة اجهزة الدولة ذاتها وتشغيلها ، حتى لا تترك هذه الاجهزة في أيدي عناصر « لا قومية » ، ولا ديموقراطية ولا اشتراكية بالتالي ، قد تتولى بنفسها ضرب الوحدة وما يرتبط بها ، أو في أسوأ الظروف قد تكتفي بالنجاة بغنائمها تاركة الوحدة والقومية والامة جميعا لتذهب الى حيث يريد لها أعداؤها وخصومها الالداء .

***

وربما تكون مصادفة ، أو لا تكون ، أن يكتب الدكتور عبد الله عبد الدائم نفسه ، في العدد التالي من « الآداب » ، أي انه كتب — وهو يقرر ذلك على أي حال بعد وقوع الانفصال (الذي يسميه : حركة سوريا الاخيرة) ، يكتب عن « الاشتراكية والديموقراطية » لكي ينتقد الاسلوب الذي كان التحول الاشتراكي في دولة الوحدة قد بدأ يتم به ، عن طريق فرض القوانين « الاشتراكية » في تموز ١٩٦١ .

انه يتحدث أولا عن البيروقراطية التي أصبحت بحكم طريقة صدور هذه القوانين واسلوب تطبيقها : « الوصية على هذه القوانين ، والمشرعة لها والمنفذة في آن واحد ، دون أن تكون هناك رقابة شعبية وعمالية حقيقية » . ولا شك في ان هذا النقد يصيب جانبا كبيرا من الحقيقة ، ولكنه يتضمن ايضا قضيتين تتعلقان بتطور الفكر القومي ذاته من ناحية ، وبأخلاقية المفكر القومي من ناحية أخرى .

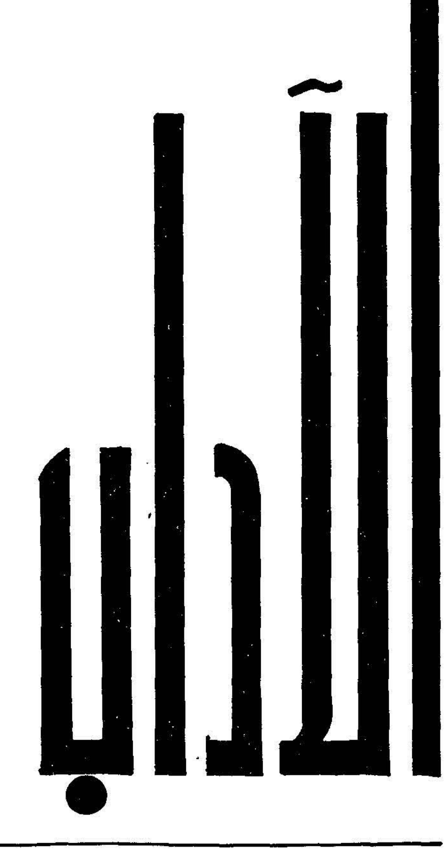
من الناحية الاولى ، يرجع الكاتب في محاجته الى اقوال الماركسيين ، محددا مصادره هذه للمرة الاولى ، مثل كتاب « ضد دوهرنج » لانجلز . ويقول ان الماركسية « ينتسب اليها الشيوعيون ، كما ينتسب اليها غيرهم من الاشتراكيين » فيفاجئنا بهذا الحكم « الجديد » في زمانه والذي لم يظهر قبلها بهذا الوضوح في كتابات الاشتراكيين القوميين العرب ، وهي مفاجأة لها ما يبررها بالطبع ، ولكن الكاتب لم يقدم مبررا واحدا لها . ورغم انه يعد بأنه سيستند الى « تجربة العالم في هذا المجال » يعني مجال التطبيق الاشتراكي ، فانه في الحقيقة يستند الى كتابات رجال لم يجربوا أي « تطبيق اشتراكي » من أي نوع ، وعاشوا عمرهم كله في اطار التفكير النظري والنضال السياسي دون ان تتاح لهم فرصة « التطبيق » ومعاناة تجربة العلاقة بين الفكر والواقع الحقيقي ، رجال بينهم انجلز نفسه ، وبينهم من تخلوا عن النضال الثوري مثل أوتو بوير ، ومن انشقوا على الثورة مثل كارل كاوتسكي وحاولوا اسقاطها . ولذلك فاننا نتحفظ كثيرا في قيمة استشهاداته من الناحية النظرية . ولكن المدهش — مرة ثانية — ان الكاتب ينتقد « تدخل الدولة » على الاطلاق في التطبيق الاشتراكي وفي ادارة المؤسسات المؤممة ، انتقادا يكشف عن موقف فوضوي أصيل ، أو عن موقف بعيد عن الامانة الثورية ، لانه لا يسأل : ما هي الدولة التي ستتدخل ؟ أهي دولة راسمالية ، أم دولة اشتراكية ؟ دولة بيروقراطية وراسمالية أم دولة عمال وفلاحين : انه اذا رفض تدخل الدولة مهما كانت ، وقع في ارض الفوضوية ، واذا شرع يناقش « دولة من ؟ » دخل في ارض « الماركسية » التي لمس طرفها بأصابع قدميه على مضض فيما يبدو لمجرد أن يجد حجة « وجيهة » . والمشكلة هنا ، تطرح ، في وجهها الآخر ، على أساس انها قضية علاقة الفكر القومي العربي العلمي ، بالفكر الفلسفي الثوري الغربي في عمومه ، والاشتراكي العلمي بوجه خاص . ولتلك العلاقة مجال آخر .

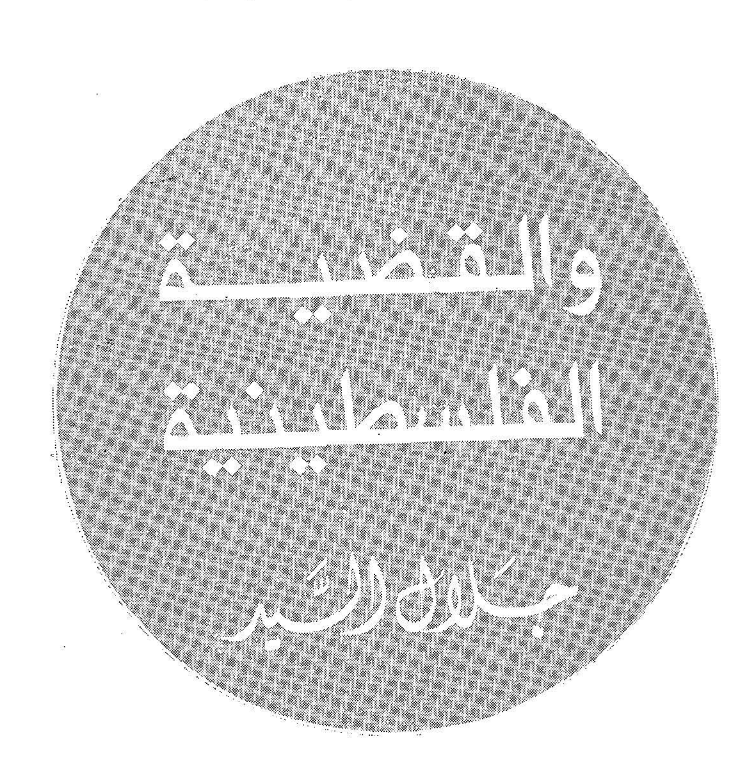
والكاتب يحرص — من ناحيته — على تحديد علاقته تلك بالفكر « الثوري » : انه حريص على ان يأخذ وان يسترشد بفكر « الماركسيين غير الشيوعيين » — وهم غالبا ممن لم يخوضوا تجربة التطبيق ، ثم انهم ممن خاضوا تجربة « لا قومية » ، بل انها كانت « ضد » الفكر القومي وضد استمرار الوجود القومي «أيديولوجيا» في جوهرها .

خاتمة :

لقد قطع الفكر القومي بعد تلك السنوات اشواطا كبيرة نحو مزيد من الالتصاق بالواقع القومي الفعلي للامة في مجموعها ، وفي « تفاصيلها » القطرية ، ودخلت الى ميدانه فصائل جديدة ، فيما اغنت تجربة النضال مدا وجزرا ، وتجارب التطبيق في انجاز الثورة وفي ادارة دفة الحكم ، الفصائل القديمة ، وادت نفس التجارب الى كثير من عمليات « الفرز » واعادة امتحان معدن الكثير من العناصر — شخصيا وايديولوجيا ... — وما نزال أمام الفكر القومي — في مجالات النظرية والعمل النضالي والتطبيق — آفاق واسعة ، سعة حياة أمتنا كلها وامتدادها في المستقبل ومعاركها المحتمة : ولذلك قد يكون من الافضل ، أن تمزج نقد الماضي وتحليله ودراسته ، باستشراف المستقبل . بل ان النقد والتحليل والدراسة باعتباره قد أصبح تاريخا ، لن يكون له معنى الا بمثل ذلك الاستشراف : فان هذا التاريخ هو تاريخنا الشخصي ، هو الماضي الشخصي لاجيال تعيش ولا يعلم سوى الله متى تقضي وتسلم امانتها ، اكثر ثراء ووضوحا مما تسلمتها . فللمستقبل ، اذن ، نمد الابصار .

القاهرة **سامي خشبة**





على مدى قرن من الزمان ، لعبت بعض المجلات دورا هاما في حياتنا الثقافية والفكرية ، وما زلنا نذكر — على سبيل المثال — مجلات : المقتطف ، الجامعة ، الهلال ، العصور ، الرسالة ، الثقافة ، الكاتب المصري ، الاديب ، الآداب ، الطريق ، المعرفة ، الكاتب ، الطليعة .

واذا كانت بعض المجلات استطاعت ان تستمر سنوات طويلة ، فقد حالت الظروف والصعاب دون ان تؤدي بعض هذه المجلات دورها ، ولم تمكن من الاستمرار.

وبالطبع تعرضت مجلة الآداب لمشاكل وصعاب ، عبّر عنها الدكتور سهيل ادريس في بعض افتتاحيات المجلة ، ولكنها استطاعت ان تعبر ازماتها ومشاكلها ، واستمرت في تأدية دورها ، طوال ربع قرن من الزمان .

ومن هنا يأتي الاحتفاء بمجلة الاداب — في عيدها الفضي — والتي استطاعت — على مدى ربع قرن — ان تثير العديد من القضايا التي تهم المثقف والقارىء العربي ، وتبنت العديد من القضايا الفكرية والثقافية على المستوى القومي والعالمي ، كما حرصت على التمسك بقضية اساسية ، وهي الدفاع عن حرية الفكر والمفكرين ، والتقى على صفحاتها العديد من المثقفين العرب ، على اختلاف منابعهم الفكرية ، واختلاف وجهات نظرهم ، فأتاحت للجميع حرية الراي وفرصة التعبير .

وسنحاول — في هذا المقال — تتبع قضية اساسية اهتمت بها الاداب ، وهي القضية الفلسطينية ، ورغم تداخلها في قضايا اخرى ، الا اننا سنحاول قدر الامكان ، اعطاء صورة لدرجة اهتمام المجلة بهذه القضية . ومدى

انعكاسها في الآداب ، وقد يسقط — سهوا — بحث هنا، او رأي هناك ، وقد اظلم المجلة ، او اظلم بعض الكتاب ، لكن — شفاعتي — لدى القراء انني اتناول المجلة على مدى ربع قرن من الزمان .

تمت فصول المأساة بحرب عام ١٩٤٨ ، واعلنت دولة اسرائيل ، بعد ان طرد الشعب الفلسطيني من ارضه ، واصبح اسمه المتداول « اللاجئون » واصبح وطنه « المخيمات » في بعض الاقطار العربية . والعالم صامت ، ومعظم الدول الكبرى والصغرى ، كل شارك بدوره في المأساة ، اقتلاع شعب من وطنه ، والموافقة على زرع غرباء على ارض هذا الوطن — فلسطين — وتحت سمع وبصر الامم المتحدة تمت الجريمة . وفي البداية وضع في جدول الامم المتحدة بند خاص بالشعب الفلسطيني وتقرير مصيره وعودته او تعويضه ، ومع الزمن تراجع هذا البند ، ولم يعد في جدول الامم المتحدة — لسنوات طويلة — سوى تقرير مدير وكالة الغوث . وانتهى الامر عند ذلك .

العرب يجترون الاحزان ، ورغم وضوح الموقف فلم تتوقف الاتهامات .. مجرد اتهامات : واصبحت القضية تدعى « النكبة » وتسابق الشعراء ، اما غرقى في بحور الاحزان ، او يحلمون بابطال بلا ميدان ، وبعد حرب ١٩٤٨ ، قامت عدة انقلابات عسكرية وثورات . فقد ثار الضباط الشبان ، الذين عاشوا المأساة ، وخاضوا الحرب . وصدرت البيانات الاولى ، وتصدرت فلسطين كل بيان .

ويأتي السؤال ، ماذا فعلت الانقلابات والثورات العربية — على الاقل طوال الخمسينات من هذا القرن — بالنسبة للقضية الفلسطينية ؟ وماذا قدمت الاحزاب العربية جميعها — وبلا استثناء — للقضية ؟ بل ماذا قدم المفكرون والمثقفون العرب ؟

وانا لا أتهم احدا ، ولا الوم احدا ، ولكني — فقط — اطرح السؤال !

ولنعد لمجلة الآداب التي ظهرت عام ١٩٥٣ ولنتصفح اعداد السنوات الثلاث الاولى — ٥٣ — ١٩٥٥ — ولنبحث عن القضية الفلسطينية .

نجدها في الشعر ، واحيانا في القصص ، ونادرا في المقال ، اما النظرة للقضية ، فيغلب عليها طابع الحزن ، والحلم بالعودة ، والثأر ، كلمات ، تعبر عن السخط والغضب والحلم واليأس معا .

في عدد ابريل ١٩٥٣ — قصيدة لعدنان الراوي — « قريتنا على البحر الابيض .. حيفا »

وتاه الشراع بغير دليل
هناك ربابنة يرقصون
على الشط الف ذبيح قتيل
والف الى ملجأ يركضون
عراهم جنون
على ارضهم يسفحون الحنان .

وفي سبتمبر ١٩٥٣ — مسرحية لخليل هنداوي — « طريق العودة »

« سلوى : اماه — يا للحلم الجميل : لماذا ايقظني صوتك ؟ لاول مرة يسالمني الشيخ المخيف . رأيته على الربوة نفسها بسلاحه نفسه يفتح لي الطريق .. طريق العودة ، وهو يبتسم ، لقد رأيت مرابعنا وسهولنا الحالمة مخضبة بالدماء .

الام : لا بد لي من العودة ، وان لم اصل .. »

وفي نفس العدد نجد قصيدتين : لعبدالوهاب البياتي ، والثانية لسمير صنبر

من قصيدة البياتي : « الملجأ العشرون »

كانت اغانينا وكنا هائمين بلا ظلال
مترقبين الليل انباء البريد
الملجأ العشرون
ما زلنا بخير والعيال .

ومن قصيدة سمير صنبر — « على الحدود »

والليل والشهداء والدم والحديد
والحقد والثأر المبيد
يرددون
على الحدود
غدا نعود !!

وفي عدد مارس ١٩٥٤ ، قصيدة لمحمد مجذوب — « آه لو تنفع آه »

دمك المهدور يا قبية قد فتق في الصدر الجراحا
رد طيف اللد والرملة للقلب وحيفا
وضحايا دير ياسين ، ودنيا الشهداء
لسنا يا قبيه في الايتام بدعا
كلنا في وحشة اليتم وفي الثكل سواء .

وفي نفس العدد قصيدة لمحمد جميل شلش — على الحدود —

اماه ، أين ابي ؟ رفاقي ؟ اين حراس الحدود
اماه ها هم يقدمون . هم اليهود ، هم اليهود
لا — لن اموت ... ولن اموت ..
لن يقتلوني .. لن اموت
او ما يزال جنودنا وابي وجاري يحرسون .

وفي عدد ابريل ١٩٥٤ ، قصيدة « لاجئة » للدكتور بديع حقي » .

وفي عدد يونيو ١٩٥٤ — قصيدة « نداء الارض » لفدوى طوقان .

اتغصب ارضي ؟ أيسلب حقي وابقى انا
حليف التشرد أصحب ذلة عاري هنا
أأبقى هنا لاموت غريبا بأرض غريبة
أأبقى ؟ ومن قالها ؟
سأعود لارضي الحبيبة
سأرجع لا بد من عودتي
سأرجع مهما بدت محنتي .

وفي نفس العدد نجد عرضا لكتاب « ادفع دولارا

تقتل عربيا » ـ لورانس غريزوولد ـ ترجمة منير البعلبكي ـ وعرض اميل شويري . ثم نجد حتى نهاية عام ١٩٥٤ قصة لفارس زرزور « حفنة من تراب » وقصيدة لسهام الحايك « الشهيد » وقصيدة لعبدالرحمن رباح الكيالي « خمسة دنانير »

وفي عدد يناير وفبراير عام ١٩٥٥، نجد لاول مرة، بحثا هاما ، لشاكر مصطفى ـ « ماذا في تل ابيب » ؟ تناول فيه الاحزاب السياسية في اسرائيل وتشكيل الحكومة الاسرائيلية ، مع عرض للمؤتمر الصهيوني والوكالة اليهودية ، ثم انتقل الى الوضع السياسي والاجتماعي والاحوال الاقتصادية والمشروعات والمساعدات التي تصل اسرائيل وكذلك اوضاعها العسكرية ، وحدد ما يجري على ارض هذا المجتمع وما يريده حكامه من استغلال الامكانيات المتاحة لخدمة الغزوة اليهودية ، كما اشار الى وجود نقط الضعف في هذا التكوين ـ خاصة عدد السكان ـ وتباين مشاربهم ولغتهم ، وتوصل الى ان هذه المغامرة الصهيونية لا يمكن ان تدوم ، سيخرجون كما خرج الرومان من فلسطين وكما جلا الصليبيون ، وسترجع « فاطمة » الى هذا التراب !

وربما كان هذا هو البحث الوحيد ـ على مدى ثلاث سنوات ـ عن اسرائيل ـ اما خلاف ذلك فلا يخرج عن الاعمال الادبية ، شعر ، قصص ، ومن هنا حين نرصد ما نشر من قصائد ـ في تلك الفترة ـ فلتحديد النظرة للقضية ، لان هذا كان الشكل العام الذي عرضت من خلاله القضية ، ولكننا لن نرصد ما نشر من ادب ، فهذا ليس موضوعنا ، فنحن نشير الى ما يعطي الدلالة فقط للنظرة من القضية .

في عدد ابريل ١٩٥٥، نجد قصة « دماء على الاسفلت » لمطاع صفدي ، وقصيدة « مرثية جيكور » لبدر شاكر السياب .

وفي يونيو ١٩٥٥ قصيدة ـ دير ياسين ـ لنذير العظمة

عبث الذئاب بارضنا ومضوا بها طعنا وقتلا
ملأوا صدور شبابنا غدرا وتشويها وهولا
. . . .
. . . .
والشعب جلله السواد
وبلادنا وجه حزين
افتحلمين ؟

وفي يوليو ١٩٥٥ ـ قصيدة ليوسف الخطيب ـ اسطورة النسر والخفاش .

لم يعد في الناس افراح أغنيها لشعبي !

وفي عدد اغسطس ١٩٥٥ نجد اشارة هامة في اهداء قصيدة ، لحقيقة ما كان يدور من عمليات فدائية في تلك الفترة ، مجرد اشارة عابرة ، لا يمكن ان يتوقف عندها احد .

القصيدة ـ المتسللون ـ لسمير صنبر . والاهداء « الى الابطال الصامتين الذين يلقون الرعب في قلب اليهود، ثم يعودون بركانا من الايمان »

بسلاحهم يترصدون على الحدود
يتقدمون الى الامام
الى الحياة ـ الى الخلود
بقنابل صنعت بأيديهم الى جحر اليهود
يتقدمون . .

ولا نجد اي متابعة لهؤلاء المتسللين ، فما زال التعبير عن القضية والنظرة اليها ـ ما زال وقفا على الاشكال الادبية فقط ، واصبح بعيدا عما كان يحدث على ارض الواقع ، مهما كان حجمه او ظروفه . ونجد في عدد اكتوبر ١٩٥٥ ـ قصيدة لكاظم جواد ـ فلسطين ابدا .

وفي ديسمبر من نفس العام ـ عجالة في الشعر الاردني الحديث ـ لناجي علوش ، ومن خلال دراسة الشعر ، جاء حديثه عن ثورة ١٩٢٩ ، ١٩٣٦ في فلسطين، وتتبع الشعراء الفلسطينيين البارزين في كل مرحلة : ابراهيم طوقان ـ عبدالرحيم محمود (الذي استشهد في معركة الشجرة عام ١٩٤٨) ـ فدوى طوقان ـ عبد الرحمن الكيالي ـ ابو سلمى ـ كمال ناصر ـ عبدالكريم خريس ـ يوسف الخطيب ـ خالد نصره ـ خليل زقطان .

وانتهت السنوات الثلاث الاولى من عمر الآداب ، فكيف مرت في عمر القضية الفلسطينية هذه السنوات الثلاث ؟

في هذه السنوات لم تتوقف الاعتداءات الاسرائيلية على مواقع الجيش المصري .

وعلى الحولة وقبية وغالين وغزة ، والمواقع السورية قرب بحيرة طبرية .

وفي هذه السنوات خاض الشعب معركة انتصر فيها ،وهي وقوفه ضد سياسة التوطين وقضت المظاهرات الصاخبة في غزة وفي المخيمات على مؤامرة التوطين . وفي نفس الوقت اجتاز الحدود مجموعات بشكل فردي، وقاموا ببعض العمليات الفدائية الثورية ، حتى كان عام ١٩٥٥ بداية لنشاط فدائي،وجاء هذا نتيجة الاعتداءات الاسرائيلية وتمت لقاءات بين حكومة الثورة المصرية وبين بعض الضباط السوريين والاردنيين وبعض المجاهدين الفلسطينيين . ـ وكما يقول ـ صبحي ياسين ـ اعلن المناضل جمال عبدالناصر استعداد حكومة الثورة لدعم العمل الفدائي داخل الارض المحتلة ، حيث ذهبت وفود فلسطينية من قطاع غزة ، لمقابلة قادة ثورة ٢٣ يوليو ، تطالب بالسلاح وتدريب سكان القطاع على استعماله ، وكان ذلك اثر الهجوم الاسرائيلي على غزة في ٢٨ فبراير عام ١٩٥٥ ، والذي راح ضحيته حوالي ٤٠ شهيدا واكثر من ثلاثين جريحا من العسكريين والمدنيين .

وانطلق العمل الفدائي الفلسطيني عام ١٩٥٥ ،

داخل فلسطين المحتلة ، تحت اشراف الحكومة المصرية ، والتي قد عينت المقدم الشجاع مصطفى حافظ قائدا للفدائيين . وكانت قاعدة الانطلاق في البداية غزة ، وقد كان من الممكن ان تكون هذه البداية ، نقطة انطلاق حقيقية لحركة الشعب الفلسطيني ، لو اخذت مسارها الحقيقي وارتبطت بالجماهير وبحركة سياسية واسعة ، لكن الذي حدث ان قامت هذه المجموعات الفدائية باعمال بطولية وارهقت اسرائيل ، لدرجة ان بعض المحللين السياسيين يفسرون ، ان العمليات الفدائية كانت من الاسباب الرئيسية لعدوان ١٩٥٦ على مصر ، كما قامت هذه المجموعات باعمال فدائية اخرى في اقطار عربية ، الا ان النظرة للعمل الفدائي والموقف من القضية الفلسطينية، جعل القائمون على تنظيم واعداد هذه المجموعات يعدونها بأسلوب معين ، ومن البداية كانت اسيرة لنظرة الاجهزة وطبيعتها ، وكانت العمليات معزولة عن حركة الجماهير وعن الممارسات السياسية ، وفي ظل غياب الديموقراطية. ومن هنا كانت حركتها محكوم عليها بالتوقف والتلاشي حسب التعليمات الرسمية .

ومع كل هذا فقد ادت دورا هاما واعادت الحماس للذين شاركوا في الثورات الفلسطينية وطرحت فكرة العمل الفدائي – من جديد – امام الشعب الفلسطيني .

ولنرجع لتصفح الاداب في عام ١٩٥٦ وما بعد ذلك.

في فبراير ١٩٥٦، نجد قصيدة لنزار قباني – قصة راشيل شوار زنبرج

وفي نفس العدد قصة – لسامي عطفة – وداعا ... ايها الشهداء .

« ليست هذه فصولا ملفقة ، بل كان ابطالها ابطالا روحا ودما ، فلقد سقطوا – حقيقة – صرعى العدوان الاثيم على المخافر السورية الآمنة على بحيرة طبرية .. لكن بعدما دفعوا العدو الغادر ببطولتهم وشهامتهم . لقد كتبوا تمجيدا لاستشهادهم ، فلعلها تكون جديرة بهم ».

وتبرز افتتاحية عدد ابريل ١٩٥٦ – معركتنا المقبلة – ولاول مرة نجد في الاداب تشخيصا لجوهر المشكلة واجتهادا في مواجهتها .

« ان معركتنا مع اسرائيل هي – في هذه الفترة من تاريخنا – اهم ما ينبغي ان نجند له قوانا ونحشد امكانياتنا . ولكنا نعتقد ان هذه المعركة ستنتهي بالخسران اذا اجتزناها بشنها على ميدان اسرائيل ، ولم نرفدها بسلسلة من المعارك الاخرى في كثير من الميادين الداخلية » .

وحدد الدكتور سهيل في الافتتاحية المعركة السياسية : استبعاد العناصر التي لا تستطيع ان تتحسس مهمة قومية ، الصحافة الحرة التي غالبا ما نفتقدها في ظروفنا ، خوض معركة الوحدة في مختلف البلاد العربية ، المعارك ضد الرجعية والتقاليد البالية والنفاق والاستغلال ومعركة تحرير المراة .

هذه المعارك والوان الصراع هي التي تمكننا من الانتصار في معاركنا مع اسرائيل والاستعمار .

وكان هذا بداية للتيار القومي الوحدوي الذي عبر عن نفسه على صفحات المجلة – طوال اعدادها – ويرى هذا التيار ان الوحدة العربية هي طريق فلسطين ، ويركز اصحاب هذا التيار على الموقف من الوحدة العربية اكثر من النظرة الى القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، باعتبار ان القضية الفلسطينية جزء من القضية الكبرى – الوحدة – وتحل من خلالها .

ونجد في نفس العدد – مقالا للدكتور احمد السمان – ماذا اعددنا للمعركة – يستعرض فيه استعدادات اسرائيل وميزانياتها ومقدرتها على التعبئة .. الخ .

ويتساءل عماذا فعلنا نحن ؟

ويتساءل عن ميزانية كل بلد عربي . هل هي ميزانية ثأر وحرب؟ام ميزانية تواكل وسلم. ويلتقي مع الافتتاحية في مواقف كثيرة، فيحدد انه لكسب المعركة ، لا بد من ربط الوحدة الاقتصادية مع التعاون العسكري ، توحيد الاقتصاد العربي ، وحشد امكانياته البشرية والمادية على اساس التعاون الدفاعي ، والايمان بان الحرب ليست حرب جيوش فحسب ، بل هي حرب الشعوب بكامل طاقاتها.

وفي نفس العدد نجد تعليقا للشاعر صلاح الدين عبد الصبور عن شعر النكبة ، والذي سبق ان اشرنا اليه في الاعداد الماضية ،حيث كان الشعر ، هو الصوت المعبر عن النكبة .

« لا ادري لم انصرف عن كثير من الشعر المعقول في نكبة فلسطين آسفا ، اترى هذه النكبة لم تهزنا الى الحد الذي يفتق قرائحنا ؟ الا تستطيع هذه النكبة أن تجد تعبيرها الخاص ؟ لم نلجأ الى التأوهات الصارخة ، والهتافات العنترية الجوفاء ؟

والتأوهات تلبس الفاظا جديدة ولكنها لا تعدو ان تكون تأوهات

ضاعت مرابعنا وضاع المجد والحلم العظيم !

والهتافات العنترية تتخذ هي الاخرى الفاظا جديدة.

وغدا سنحفر قبرهم .. شيء جديد

لا شيء غير السجن والتشريد والدم والقيود

وهتاف شعب لن نحيد

ونجد في نفس العدد زحف القصة القصيرة ،والتي اصبحت تزاحم الشعر في موضوع القضية الفلسطينية . ثلاث قصص . (عدد ابريل ١٩٥٦) .

رسالة من الميدان – سامي عطفة .

استشهاد احد المتطوعين في فلسطين بعد ان فشل في تجربة حب – فنجد الخلاص في الاستشهاد – وان كانت الصورة تعطي انطباعا بالفشل الخاص والعام (السياسي والعسكري) .

اما قصة الدبابة – الساردي –

« كان الثائرون من ابناء فلسطين .. اعلان الاحزاب

الكبيرة فلسطين ...

لم يصبح ابنه أستاذا بالجامعة ولا دكتورا كبيرا ولا تاجرا غنيا ، ولكنه اليوم من الفدائيين يحرس الحدود ويرقب اليوم الذي يزحف فيه مع الزاحفين لتطهير ارض الوطن وغسل عارها بدماء الغاصبين المجرمين ويرجو ان يلحق بأبيه في جنات الخلد ..» !!

وتبرز قصة كفن حمود - للدكتور عبدالسلام العجيلي.

اصرت العمة نجمة ان تلم عظام ابنها حمود الذي استشهد في معركة الشجرة ، يوم أن تطوع مع ابناء قومه الى فلسطين واشترت له كفنا اعطته للجنة التسلح ،لانها سمعت انه حين قتل ظل في العراء .

قضية فلسطين كلها بالنسبة للعمة نجمة هي طريق مسدود ، لا بد ان تفتح، ان لم تفتح اليوم فستفتح غدا.

جيل آثم يريد أن يشتري خطيئته ويكفر عن عاره. وجيل يريد ان يلقي بنفسه في النار ، ولا يدري انها تحترق ، وجيل يتهيأ ليكون كفؤا للهم الذي اعد له ، واجيال لا تزال في باطن الغيب .

وفي ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ اعلن جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس ، وكان عامي ٥٥ - ١٩٥٦ من أعوام المواجهة للاستعمار ومخططاته في المنطقة على الصعيد الشعبي والرسمي ، فسقط مخطط الاحلاف العسكرية ، وكانت صفقة الأسلحة السوفياتية اعلانا لكسر احتكار السلاح وتحكم الدول الاستعمارية في تسليحنا ، وكان الدعم الشعبي والرسمي لثورة الجزائر ، وكانت العمليات الفدائية داخل فلسطين المحتلة، وجاء العدوان الثلاثي على مصر - ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ - وكان عدد ديسمبر ١٩٥٦ من المجلة عددا خاصا بمعركة السويس .

وجاءت المقالات والابحاث والقصائد عن المعركة القومية ، القومية العربية ، ومصر وزعيمها جمال عبدالناصر ، وتراجعت القضية الفلسطينية فالمثار القضية الام - الوحدة - القومية العربية - والاشارة الوحيدة التي نجدها في عدد المعركة في مقدمة المقالات النقدية عن مجموعة « الدمع المر » للدكتور سهيل ادريس .« وسوف يلاحظ القارىء الحاج النقاد الثلاثة على معالجة المجموعة لقضية المأساة الفلسطينية ، هذه المأساة التي تجددت مرة اخرى هذا الشهر » .

وفي عام ١٩٥٧ ، ربما لا نجد سوى اشارات متواضعة عن القضية الفلسطينية ، كما جاء في مقال محمد النقاش ، في عدد ابريل - المشكلة الحقيقية في الشرق الاوسط .

وفي عدد يوليو ١٩٥٧،نجد تلخيصا لكتاب فرنسي - كتبه بيار هيبيس « جمهورية اسرائيل العالمية » والذي لخصه وقدمه شفيق الارناؤوط - تحت عنوان - كتاب الشهر .

وفيه يربط الكاتب بين الصهيونية والماسونية ،والتي في رأيه انها فرع من الماسونية ، هذا مع كثير من المبالغات عن الصهيونية وتأثيرها ، وتتبع تأثير اليهود في الدولة العثمانية وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية وانجلترا وسيطرة اليهود على الجيش الفرنسي ، كذلك تابع اقطاعية الصحف الفرنسية اليهودية حتى صحف الاطفال والمرأة .

وقد يكون هناك بعض المعلومات المفيدة في صراعنا مع الصهيونية واسرائيل ، وكشف العلاقات بين الصهيونية والدول الاستعمارية والمناخ الذي يساعد على تأثير اليهود والصهيونية .

الا ان مثل هذه الكتب - عانى منها القارىء العربي كثيرا ، والتي تقوم على اساس المبالغة وتضخيم دور الصهيونية وانها اخطبوط تسيطر على العالم ، ودون قصد من المؤلفين العرب او المترجمين يتركوا احساسا لدى القارىء بانه لا امل في الانتصار على هذا الاخطبوط العالمي - الصهيونية - وهذا غير صحيح . واذا كانت هناك بعض الظواهر سواء تاريخية ، او حالية - من سيطرة بعض البيوت المالية اليهودية على بعض المؤسسات في اوروبا وامريكا . فعلينا فهم الظاهرة ، والظروف التي أوجدتها، مع ادراكنا ان الصهيونية لم تنشأ وتقوى الا في ظل الموجات الاستعمارية ولم تحقق أي نجاح الا بمساعدة دولة او مجموعة دول استعمارية ، كما حدث بالنسبة للقضية الفلسطينية .

ومن الواضح انه في فترة الوحدة بين مصر وسوريا (٥٨ - ١٩٦١) تراجع التعبير عن الموقف من القضية الفلسطينية ، واصبح الحديث عن الوحدة العربية ،القومية العربية،الحضارة العربية ، وحتى معظم الكتاب الفلسطينيين لم يخرجوا من تناول هذه الموضوعات ، وتفسير ذلك ان الامل كان يحدو الفلسطينيين، وانهم وضعوا امالهم وحل قضيتهم من خلال الوحدة العربية ، والتي كانت نواتها مصر وسوريا .

ونشرت الاداب توصيات المؤتمر الثالث للادباء العرب - في عدد يناير ١٩٥٨ - والتي تناولت القومية العربية، الوحدة ، العناية بالتراث، ولا توجد اي اشارة في توصيات المؤتمر لا الى القضية الفلسطينية او الحفاظ على تراثها او وضع الاديب الفلسطيني !

اما مقال كامل السوافيري عن نكبة فلسطين في ادبنا القومي - يناير ١٩٥٨ - فهو كما جاء تعليق سامي الدروبي عليه - في عدد فبراير - « في مقالة الاستاذ كامل حرارة هي الى حماس المراهقين اقرب ولم يزد على ان ذكر عددا كبيرا من اسماء الكتاب الذين عنوا بالقضية القومية كل العناية او بعض العناية ، مستشهدا بفقرة من مقال للزيات واخرى من مقال للاستاذ عمر الدسوقي » .

وفي عدد فبراير ١٩٥٨ - كتب رئيف خوري عن مؤتمر التضامن الافريقي الاسيوي الذي عقد في القاهرة في نهاية ديسمبر ١٩٥٧ ، واشار الى موقف المؤتمر من القضية الفلسطينية وتبنيه لتقرير وفد فلسطين ، كما

حلل رئيف خوري ظاهرة اسرائيل، وانها عدوان سافر في اصل وجودها ، هذا الوجود الغير شرعي ، ودعا الى اقامة دولة عربية في فلسطين .

وفي عدد مايو ١٩٥٨ – وفي ذكرى عشر سنوات على اغتصاب فلسطين ، نشرت الاداب : حقائق واكاذيب لمحمد توفيق حسين ، حول كتاب « جندي مع العرب للجنرال جلوب » والذي اوضح اكاذيب جلوب مع تتبع دور انجلترا والاردن بالنسبة للقضية الفلسطينية .

ثم نجد اشارة للقضية في افتتاحية عدد سبتمبر ١٩٥٩ . وكانت تعليقا على خطب الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في اعياد ثورة يوليو ، عن القضية الفلسطينية، وعن مشروع همرشولد لاسكان الفلسطينيين،وان اسرائيل زائلة مهما امتد الاجل لانها قامت على الظلم والاضطهاد « ان القضية في نظر العرب عامة ، وعرب فلسطين خاصة هي قضية روح وكرامة وحس الكرامة هذا هو الذي ما فتىء يقي الامة العربية غوائل الزمن ويحفظ عليها حياتها عبر القرون » .

ومن عام ٥٩ حتى عام ١٩٦٢ لا حديث عن القضية الفلسطينية في المجلة اللهم سوى عرض كتاب قديم وهو كتاب هام بلا شك – يقظة العرب لجورج انطونيوس .وكان التركيز في تلك الفترة عن الثورة الجزائرية ، اماالقضية الفلسطينية ، فما زالت تعالج من خلال قضايا الوحدة والقومية ، الموقف الذي عكسته وحدة سوريا ومصر على الفكر الفلسطيني والعربي بصفة عامة .

وفي عام ١٩٦٣ فتحت الاداب الباب امام معركةهامة ثقافيا وسياسيا – وقد يعالجها احد الكتاب في هذا العدد بالتفصيل – ولكن الذي يهمنا من هذه المعركة علاقتها بالقضية الفلسطينية وارتباط الاستعمار بالصهيونية ليس فقط في السياسة والاقتصاد بل ايضا في المجالات الثقافية ، التي كانت قد بدات تتسلل الينا ، عبر بعض المؤسسات .

ففيعدد يناير ١٩٦٣ – الاداب في عامها الحاديعشر – يقول الدكتور سهيل ادريس :

« وكان اتفاقا ذا دلالة ومغزى ان تنبثق الانطلاقة العربية الجديدة مع ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .في وقت كنا نعد فيه العدة لاصدار هذه المجلة ، فكان قدرا عليها ان تقدم النتاج العربي الذي يولد مع التفاعل المثمر معتلك الانطلاقة، التي هزت الدنيا العربية ،مرهصة بانبعاثادب جديد حي يلتزم القضية الجديدة بكل ابعادها ويسهم في قوة الدفع التي تساند هذه الانطلاقة ..

ولا يزال القراء يذكرون موقف الاداب من حركة مجلتي « شعر » و « ادب » كما ان المجلة تقف اليوم موقفا مماثلا من « منظمة حركة الثقافة » بعد ان اثبتت التحقيقات انها تؤيد الصهيونية وتدعو لاسرائيل فيما تنشره مجلتاها : « بروف » و « انكاونتر » ومن المؤسف ان بعض الاقلام العربية النظيفة كان مخدوعا ومضللا حين قبل المشاركة في تحرير مجلة « حوار »التي يصدرها فرع هذه المنظمة في لبنان .

وفي عدد فبراير ١٩٦٣ تابعت المجلة موضوع منظمة حرية الثقافة ومجلاتها ومنها مجلة حوار – في باب النشاط الثقافي في الوطن العربي – لبنان – .

وقد لعبت الاداب دورا هاما بالنسبة لهذا التسلل الثقافي الاستعماري وتبعتها بعد ذلك مجلات وصحف اخرى تدعم نفس اتجاهها .

• ومع بداية عام ١٩٦٤ تحركت القضية الفلسطينية على المستوى العربي والفلسطيني ، ففي يناير كان مؤتمر القمة العربي الاول ، والذي تدارس تهديدات اسرائيل والوقوف ضد أطماعها التوسعية في محاولتها تحويل مياه نهر الاردن، وجاءت قراراته تخويل احمد الشقيري – ممثل فلسطين في الجامعة العربية بمتابعة اتصالاته بالدول الاعضاء في الجامعة والاتصال بافراد الشعب الفلسطيني وذلك للبحث معهم عن الطريقة المثلى لتنظيم شعب فلسطين والعمل على تمكينه للقيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره .

وفي سبتمبر من نفس العام – ١٩٦٤ – عقد مؤتمر القمة العربي الثاني ، وتضمن بيانه ترحيب المجلس بقيام منظمة التحرير الفلسطينية « دعما للكيان الفلسطيني وطليعة للنضال العربي الجماعي لتحرير فلسطين » .كما اعتمد المجلس قرار المنظمة بانشاء جيش التحرير الفلسطيني .

وكان قد عقد المؤتمر الفلسطيني في القدس في مايو ١٩٦٤ وانتخب الشقيري رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ووضع الميثاق الوطني الفلسطيني ، ودخلت القضية الفلسطينية مرحلة جديدة من مراحل كفاحها – رغم ما شابها من خلافات وقصور بالنسبة لطموحات الشعب الفلسطيني .

وفي هذا العام – ١٩٦٤ – صدر عدد ممتاز خاص بفلسطين (مارس) وكان استفتاء العدد عن ملاحظة ان اثر النكبة الفلسطينية في الادب العربي الحديث كان دون المستوى الذي تفرضه الاحداث الضخمة فيتاريخ حضارات الامم ولا سيما في الميدان الثقافي . واسباب هذا ؟ وتصور المستقبل ؟

وقد امتاز هذا العدد بعدة دراسات هامة عن القضية الفلسطينية وعن العدو الصهيوني .

وكان ابرز ما في هذا العدد مقال هيثم الكيلاني – متى تحارب اسرائيل ؟ .

والذي اعطى صورة ناقدة لوضع اسرائيل السياسي والعسكري ، وتصوراتها القريبة والبعيدة ، وتكوين جيشها ومذهبه العسكري ، وتبنى فكرة « الحرب الصاعقة »التي توافق ظروف اسرائيل وامكاناتها . ومحاور هجومها على الجبهات العربية – وهي مقيدة في ذلك – نحو الجبهة السورية – اللبنانية في الشمال ، ونحو الجمهورية العربية

المتحدة وغزة في الجنوب .

ويقول الكاتب : « ان الدرس الذي يمكن ان تلقننا اياه حرب العدوان الثلاثي ـ ١٩٥٦ ـ هو ان اسرائيل مصممة على شن حرب وقائية ، كلما ثبت لها ان القوة العسكرية العربية قد رجحت كفة طاقة استيعابها في التسلح وقدرتها في القتال والدفاع عن كيانها ، شريطة ان تتوفر لها ظروف تبرر العدوان في نظرها ونظر اعوانها من الدول الاستعمارية .

واعطى الكاتب امثلة على الظروف التي لا بد ان تشن اسرائيل ازاءها حربا وقائية ، مع فهم لطبيعة اسرائيل وجيشها وتوقيف عدوانها .

ويأتي مقال عبدالجليل حسن ـ حصاد المعركة في الفكر ـ وهو مقال هام خاصة للمهتمين بدراسة القضية الفلسطينية ، فقد تتبع عبدالجليل ما نشر من كتب عن القضية الفلسطينية واسرائيل والصهيونية منذ عشرينيات هذا القرن ـ حتى كتابة المقال ـ

ولم يكن دوره التجميع ـ وهو في حد ذاته مفيد ـ لكنه صنف هذه الكتب وعرضها وعلق عليها وابرز الهام منها ، كما اشار الى ما كانت تصدره دور النشر العربية من كتب صهيونية في الثلاثينيات ـ في فترات الغفلة ـ كما اشار الى المعركة بين اسماعيل مظهر (المقتطف) والدكتور طه حسين (الكاتب المصري) ، والذي اتهم فيها طه حسين بانه يتعاون مع شركة ذات رأسمال يهودي، كما اشار الى اهمية دراسة مظاهر الاهتمام بالقضية الفلسطينية كما ينعكس في الكتب التعليمية . وكما قال انه اشار الى ضرورة مثل هذه الدراسة على باحثا اخر يقوم بهذه الدراسة .

وقد اعطى مقال عبدالجليل صورة لحصاد المعركة من خلال ما نشر من كتب ، وربما كانت هذه الدراسة من اولى الدراسات الببلوجرافية عن الكتب التي ظهرت عن القضية الفلسطينية والعدو الصهيوني .

وفي نفس العدد الممتاز ، كانت دراسة صلاح عيسى ـ في اصول المسألة الفلسطينية ـ والذي فند فيها بعض وجهات النظر تجاه المسألة اليهودية ، سواء كانت من منطلق ديني ، أو شوفيني . وتتبع في جهد وصبر المشكلة اليهودية وعلاقتها بالرأسمالية وارتباط هذا بالواقع الراسمالي والواقع العربي التي نمت فيه وظهرت الصهيونية وموقف الفكر السياسي العربي من الصهيونية وايضا من القضية الفلسطينية .

ومع عدد مارس ١٩٦٤ ، فتحت الاداب صفحاتها لوجهات النظر المختلفة والتي استمرت حول النظرة للقضية الفلسطينية ، وكذلك للمسألة اليهودية والصهيونية . وكانت البداية المناقشات في عددي ابريل ومايو ١٩٦٤ ، لدراسة صلاح عيسى ، (مطاع صفدي ، صدقي البيك) ورد صلاح عليهما ، وقد خفتت هذه المناقشات ، الا انها ظهرت من جديد مع بداية السبعينيات وعبرت الاتجاهات المختلفة عن رأيها على صفحات المجلة .

وفي عدد اكتوبر ١٩٦٤ ، جاء في افتتاحية المجلة ـ فلسطين ابدا ـ تحية لمقررات مؤتمر القمة العربي الثاني ، بانشاء الكيان الفلسطيني والجيش الفلسطيني .

وبحكم ولادة منظمة التحرير الفلسطينية وتشابكاتها العربية فلم تستطع توحيد جميع القوى الثورية الفلسطينية، فاختلف معها من اختلف ونسق بعضها او ساهم في نشاطها اخرون . حتى كان الاول من يناير عام ١٩٦٥، انطلقت الرصاصة الاولى لتعلن بداية مرحلة من مراحل الكفاح المسلح، واشعلت حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » نيران الثورة الفلسطينية المسلحة . والتي كانت قد اعدت لها منذ سنوات وطرحت افكارها من خلال مجلة « فلسطيننا » عام ١٩٥٩ واستوعبت الحركة تجربة الوحدة بين مصر وسوريا ، كما استوعبت من قبل تجربة العدوان الثلاثي على مصر ، وما واجهوه في غزة ، الامر الذي دفع البعض الى تكوين تنظيم فلسطيني ،يقوم على اساس الكفاح المسلح ،وينفض عنه الانتماءات الحزبية السابقة .

وبدات عمليات حركة « فتح »داخل الارض المحتلة، وووجهت باتهامات وقيود وحصار لم تشهده ثورة من قبل وبدات الاتهامات من سياسة التوريط الى العمالة للسنتو ، ولم يتوقف الثوار ، بل تزايدت العمليات ، وبدأ القلق يدب داخل الكيان الصهيوني .

وجاء ٥ يونيو ١٩٦٧ ، الذي هز كيان الشعب العربي ووجدانه وتفكيره ، ومع هول ما حدث انعكس الموقف على ساحة المثقفين، فقد فقد البعض الثقة في كل شيء ، وطرحت قضايا واثيرت اخرى ، وتوقف البعض عند مواجهة الازمة ، والمسئولية ،وكانت التفسيرات والتنظيرات،هذا مع محاولات جادة في البحث الجدي عن المشاكل الحقيقية التي نواجهها والتي تغاضينا عنها، وبرزت مشكلة الديموقراطية ، وحرية الفكر والمفكرين وعاش البعض سنوات في حالة عدم اتزان . وسادت لفترات نغمات اليأس والهزيمة ، فقد كان ٥ يونيو حدثا مروعا !

واعلنت المجلة في افتتاحية عدد يوليو ـ اغسطس ١٩٦٧ ـ طريقنا الجديد .

وحاولت على ضوء عدوان يونيو البحث عن المسئولية، على من تقع ؟ وان التدخل الاستعماري ليس وحده المسئول عن الهزيمة التي لحقت بالعرب في حرب يونيو ١٩٦٧ ، وجاء استفتاء العدد ـ بعد ان اختفى هذا الباب طويلا ـ عن درس الهزيمة الاكبر .

وعبر ادونيس عن هذا الموقف في « بيان حزيران ١٩٦٧ » من منطلق شاعر وقلق فنان . وفي هذه الفترة لم تعد القضية الفلسطينية منفصلة عن القضية العربية ، فالكلام عن النكسة هو كلام عن اسرائيل ، والكلام عن اسرائيل هو كلام عن القضية الفلسطينية ، ومن هنا تداخلت

القضايا والافكار ، وزاد اهتمام المجلة بالقضية على ضوء الاحداث .

وفي نفس العدد نجد مقالا للبروفسور الفرنسي جاك بيرك ــ النكبة المتجددة ــ والتي سنجد معظم افكار هذا المقال في الندوة التي اشترك فيها ونشرتها المجلة في ديسمبر ١٩٦٧ والتي اختلفنا معه فيما جاء على لسانه من افكار ــ في قرأت العدد الماضي ــ يناير ١٩٦٨ ــ

ونجد في عدد يوليو ــ اغسطس ٦٧ ان موضوع الوحدة العربية طرح نفسه على الظروف التي نتجت عن عدوان يونيو ، فكان مقال د . حسن صعب ــ نحو دولة عربية واحدة . وان هذا هو الحل . وان الحروب الثلاثة التي هزمنا فيها ، كانت استراتيجية اسرائيل تقوم على التفرد بكل دولة عربية على حدة ، فكانت الدعوة للوحدة مجددا هي الرد على الهزيمة من قبل بعض الكتاب واكد ذلك مقال احمد عثمان ــ الوحدة ــ الدرس الاول والدرس الاخير ــ « ان هذا الدرس وحده هو الذي ينتزع هذا الخنجر المغموس ويرد الينا وقفتنا الكريمة » . وكان مقال انور قصيباني ــ معركتنا معركة بين حضارتين ويرى ان هذه الحروب لن تنتهي الا بزوال الحضارة الاوروبية وجرائيمها الفتاكة ــ اليهود ــ واشراق بوادر الحضارة العربية الجديدة .

وفي عدد فبراير ١٩٦٨ ، كانت الافتتاحية ــ تحية الى الفدائي ــ

« يتجه الانسان العربي اليوم ــ حيث كان ــ بعينه وفكره وقلبه الى ذلك الذي يحاول ان يمحو عن جبينه لطخة الهزيمة ، الى الفدائي العربي في ارض فلسطين .

ان الفدائي هو الآن رمز لروح المقاومة والصمود العربي ، والمثقفون العرب مدعوون اليوم ــ اكثر من اي يوم مضى ــ الى دعم هذا العمل ، على الصعيد الفكري والادبي »

وفي ابريل ١٩٦٨ نشرت المجلة ابحاث المؤتمر السادس للادباء العرب في مكافحة الاستعمار والصهيونية ودراسات في ادب المقاومة ــ عدد ممتاز ــ ادب المقاومة ــ وكتب الدكتور سهيل ادريس ــ ادب ما بعد النكسة ــ

« نحن نعتقد ان الادباء لا يقلون مسئولية في تلك الهزيمة عن القادة العسكريين والسياسيين لانهم لم يضطلعوا بدورهم الحقيقي في الدرس والتوجيه والتخطيط ، واذا كان من حقنا ان ندعي ان السلطات في معظم البلاد العربية ، كانت تحول دون ان يتمتع المفكر بحرية التعبير ، فمن واجبنا ان نعترف بانهم قلة نادرة اولئك المفكرون والادباء الذين ناضلوا دفاعا عن حرية الفكر او قاموا بتضحية من اجل المحافظة على حقهم في تلك الحرية ، ولا بد لنا من ان نقر بأن مكافحة الاستعمار وربيبته الصهيونية في نتاجنا الفكري والادبي قلما يبلغ المستوى المطلوب ، فهو يفتقر الى العمق والموضوعية والمنهجية بمقدار ما يتسم بالعاطفية والشاعرية والدوغمائية » .

وفي عدد مايو ١٩٦٨ ، كتب عدنان ابراهيم ــ فلسطين في باريس ــ وقد رصد موقف المثقفين الفرنسيين من القضية الفلسطينية ، وفسر الخلط الذي وقع فيه البعض بين اليهودية والصهيونية ثم استعرض بداية التغيير ، وتأييد الكفاح المسلح الفلسطيني ، من خلال بطولات المقاومة .

وفي عدد يونيو ١٩٦٨ وضع اسم « فتح » على الغلاف وهي قصيدة نزار قباني تحية لحركة فتح .

وفي مارس ١٩٦٩ اصدرت المجلة عددا ممتازا عن الثورة الفدائية ــ

كان من اهم موضوعاته : الثورة العربية في الفكر العربي ــ احمد عباس صالح ، هذا التراب الغريب المرعب للدكتور شاكر مصطفى ، استراتيجية العمل الفدائي ــ سمير كرم ، قضية فلسطين : من مستوى الدعاية الى مستوى التضامن الاممي ــ جورج طرابيشي . .

وحددت الافتتاحية الهدف من اصدار العدد : الثورة الفدائية ، عنوان هذا العدد الممتاز ينم عن معناه ، ولا يحتاج الى اكثر من توضيح واحد : هو أن العمل الفدائي الذي تقوم به عناصر محددة من الشعب العربي مدعو لان يتحول الى ثورة فدائية شاملة ، لا تقتصر على الميدان العسكري والمقاومة المسلحة بل تمتد الى جميع مرافق الحياة العربية ، وتبث روح التضحية والفداء في كل ركن من اركان المجتمع العربي الذي تنخره آفات لا حصر لها ولا عد ... والفداء وحده هو المطهر الحقيقي .. »

ولقد ظلت الاداب في معظم افتتاحياتها منذ عدوان يونيو ١٩٦٧ تؤكد على هذا المعنى .

وفي مقال احمد عباس صالح : الثورة العربية والفكر العربي ــ يقول : « تاه الفكر العربي في الحديث عن الوحدة قبل الاشتراكية او الاشتراكية قبل الوحدة ، والقيت اسئلة كثيرة من هذا الطراز ، والقيت قضية فلسطين في الظل حتى تتم الوحدة وتقوم الدولة العظمى بتصفية إسرائيل . وحين نفتش في الفكر الذي طرح نفسه منذ عدوان ١٩٥٦ حتى عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ لا نجد الا ان قضية فلسطين قضية مؤجلة .

وهكذا أجل الفلسطينيون دورهم في انتظار قيام الدولة العظمى الموحدة ، وكان هناك كلام كثير عن الاشتراكية والمجتمع الصناعي .. لقد ظننا في لحظة من لحظات الحذر التاريخي ان معركة التحرر الوطني قد حسمت وان البلاد العربية قد نالت استقلالها ، ولم نستطع ان نرى وجه الشبه بين اسرائيل كقاعدة عسكرية وبين السويس ــ مثلا ــ كقاعدة عسكرية قبل جلاء الانجليز » .

وتأتي دراسة الدكتور شاكر مصطفى بارزة ــ في هذا العدد الممتاز ــ هذا التراب الغريب المرعب ــ دراسة هامة لطبيعة المجتمع الصهيوني ، بأسلوب ادبي اخاذ ، مليء بالمعلومات والتفسيرات الصائبة فهو يتتبع التغلغل الصهيوني ونهب الارض ، والتكتيك الصهيوني حول التشبث بالارض منذ هرتزل والاقتصاد الاسرائيلي ،

ومشاكل استيعاب المهاجرين ، والمعاهد العلمية في اسرائيل ، والجيش ، وجميع عمليات الزرع الاصطناعية، ورغم انتصارات اسرائيل ، فانها تجد نفسها امام نقطة ما حسبت يوما من الايام حسابها الحقيقي ، فكل ما كسبته مهدد بكابوس اصحاب الارض. وفي مقال استراتيجية العمل الفدائي — سمير كرم — يتحدث طويلا عن المصطلح «استراتيجية» واعطى نماذجا للعمل الفدائي في المناطق المختلفة ، وعرض لمبادىء حرب العصابات والحرب الثورية حتى وصل لموقع العمل الفدائي الفلسطيني وتساءل عن موقعه من المقولات الاساسية في استراتيجية الحرب الثورية ، وعرض لما انجزه العمل الفدائي الفلسطيني وما خدمه ، ومن خلال دراسته لجغرافية فلسطين حدد بعض النقاط التي من الممكن الاستفادة منها ، كذلك حدد العوائق التي تحول دون انطلاق العمل الفدائي لتحقيق استراتيجيته ، وعدد الاسباب التي تجعله دون مستوى الاهداف الاستراتيجية ، ورغم تماسك الدراسة الا انها اغفلت بعض الجوانب ، خاصة التأثير العربي ، الذي يتأثر به العمل الفدائي — مهما كانت درجة استقلاليته — حيث انه يتحرك على ارض عربية ويحتاج لكثير من المساعدات والتي لا تصل الا من خلال اقطار عربية .

وعن قضية فلسطين — من مستوى الدعاية الى مستوى التضامن الاممي — كتب جورج طرابيشي في نفس العدد — مارس ١٩٦٩ — عن التغير الاعلامي العربي وما تبع ذلك من تغير في الرأي العام العالمي ، واشار الى ان التغيير الجوهري الذي طرأ على الوضع الاعلامي للقضية الفلسطينية بعد حرب الخامس من حزيران يكمن في ان العالم وجد نفسه امام شعب حي، لا امام حق او شعب تاريخي : ان الفلسطينيين لم يمتنعوا عن النزوح من الاراضي المحتلة فحسب ، بل قرروا ايضا ان يقاوموا . وتتبع حركة الاعلام الغربي — خاصة الفرنسي — وكيف تغير من خلال المقاومة الفلسطينية ، ويطرح قضية التعامل مع الرأي العالمي المساند للقضية العربية والقضية الفلسطينية وتحديد درجات الاختلاف معه، مع العمل على كسبه، بدلا من مناصبة هؤلاء العداء ، وكما يرى الكاتب ، انه لتحقيق التضامن الاممي بشكل فعال فهذا يتطلب ان يكون نضال التحرر القومي فعالا ، واذن فمن واجبنا الاممي وواجبنا القومي أن نهيء الظروف التي تطور الثورة الفلسطينية.

وفي عدد ابريل ١٩٦٩ جاءت افتتاحية العدد تحت عنوان — شهادة جديدة — عن استشهاد الفريق عبدالمنعم رياض ، وفايز جراد . «شهادة جديدة على ان الانسان العربي لا يستطيع الا ان يحيا لانه يعرف ان يموت ».

وفي هذا العدد بحث هام للدكتور اسماعيل صبري عبدالله — الى أين المصير ؟ —

والذي حدد فيه ابعاد الثورة العربية : التحرري — التقدمي — الوحدوي — والتي احرزت نجاحات مؤكدة ، وعزا الدكتور اسماعيل تعثر الثورة في مواقع كثيرة لاسباب متعددة منها : تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينهما ، وتحدث عن ردود الفعل بالنسبة لهزيمة يونيو ١٩٦٧ فحدد رد الفعل التلقائي للجماهير العربية التي رفضت الهزيمة وصمدت في وجه العدوان واصرت على النضال حتى النصر ،وعرض الكاتب للمخطط الصهيوني وابعاده ووسائله ، واهدافه في السيطرة الاقتصادية على الشرق العربي ، عرضا جيدا ، كما عرض لطبيعة الحركة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين ،وان كنا نختلف معه حول ما جاء عن هجرة اليهود الى فلسطين (راجع عدد الاداب — مايو ١٩٦٩ — قرأت العدد الماضي — الابحاث) وكذلك اشاراته السريعة حول الشعب الفلسطيني، ومع ذلك نجد ان ابحاث الدكتور شاكر مصطفى واسماعيل صبري عبدالله وغيرهم، كانت بداية الدراسات الجادة التي نشرتها المجلة عن العدو الصهيوني ، والتي برزت مع بداية السبعينات .

(وربما كان من أهم الاعوام التي اهتمت بها المجلة بالنسبة للقضية الفلسطينية وطبيعة العدو الصهيوني عام ١٩٧٠) .

وقد تتابعت الدراسات والابحاث عن العدو الصهيوني ومؤسساته بشكل علمي وجاد .

ففي عدد يناير ١٩٧٠ . نشرت المجلة — الخصائص الاجتماعية للجيش الاسرائيلي — للدكتور اياد القزاز ، وظهر باب جديد — اعرف عدوك — وان اختفى سريعا ، ونشر في هذا الباب في عدد فبراير ١٩٧٠ — راس المال الصهيوني واسرائيل — الكاتب السوفياتي م — ايسييف — ترجمة ريمون نشاطي ، وكذلك نشر في نفس العدد في النشاط الثقافي — الاتحاد السوفييتي — تل ابيب والكارتيلات .

وفي عدد مارس — نشرت دراسة عن الاحزاب السياسية الاسرائيلية — للدكتور اياد القزاز .

وفي ابريل ١٩٧٠ — نشرت مقال — اسرائيل باطل الاباطيل — احمد يوسف المحمود .

وفي عدد يونيو ١٩٧٠ — الهستدروت — د . اياد القزاز .

وفي يناير عام ١٩٧١ نشر في المجلة مقال عن الخدمات السرية للصهيونية — للكاتب السوفييتي بوتلتيسكي — ترجمة جليل كمال الدين .

كما نشرت المجلة في عدد يونيو ١٩٧٤ مقالا هاما جدا للدكتور ابراهيم ابولغد عن: السيطرة الصهيونية على الدراسات العربية في امريكا ، نرجو ان يراجعه القراء من جديد ويتأملون ما جاء به من معلومات .

وفي عدد مارس عام ١٩٧٥ نشرت المجلة ملفا خاصا عن « الاونسكو واسرائيل »

كما نشرت في عدد يناير — فبراير عام ١٩٧٧، فصلا من كتاب د . اسرائيل شاحاك « عنصرية دولة اسرائيل » .

وقد تتبعنا الدراسات حول العدو الصهيوني حتى عام ١٩٧٧ وسنعود من جديد لمتابعة القضية الفلسطينية وكيف عولجت في السبعينات ووجهات النظر المختلفة حول القضية والمقاومة الفلسطينية .

واحب ان اشير الى ملاحظة حول صعوبة معالجة القضية الفلسطينية في المجلات الشهرية في العشر سنوات الاخيرة .

فقد وجد مركز للابحاث الفلسطينية . ومؤسسة للدراسات الفلسطينية ، وظهرت مجلة شئون فلسطينية — في مارس ١٩٧١ — عن مركز الابحاث في بيروت . كما ظهرت مجلة مركز الدراسات الفلسطينية في بغداد عام ١٩٧٢ ، هذا مع عديد من مجلات المنظمات الفلسطينية والتي كان منها — صحيفة فتح — مجلة الثورة الفلسطينية — والتي اصبحت مجلة الاعلام الموحد — فيما بعد ومجلة الهدف ، الى الامام ، الطلائع ، صوت فلسطين ، وغيرها . هذا الى جانب اهتمام المجلات العربية الشهرية بالقضية الفلسطينية طوال العشر سنوات الماضية . فكانت مجلة الكاتب القاهرية الى جانب اهتمامها بشكل عام بالقضية الفلسطينية ، كان بها باب ثابت عن « الثورة الفلسطينية المسلحة » والذي استمر منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٣ ، وكذلك عولجت القضية بشكل مستمر في مجلة الطليعة القاهرية ، كما فعلت نفس الشيء مجلة المعرفة السورية ، ودراسات عربية ، والثقافة العراقية ، وهذه مجرد امثلة لبعض المجلات الشهرية ، الى جانب العشرات من المجلات الاسبوعية ومعالجات الصحف اليومية للقضية الفلسطينية .

كل هذا يجعل من الصعب امام اي مجلة ان تؤدي دورها — كما تتمنى — بالنسبة لمعالجة القضية الفلسطينية ، خاصة ان معظم الكتاب الفلسطينيين قد اختاروا مجالات نشاطهم من خلال ما تصوره المنظمات الفدائية من مجلات ونشرات ، او من خلال نشاط مركز الابحاث ومجلة شئون فلسطينية ، ومع ذلك فقد استطاعت الاداب ان تؤدي دورها — كمجلة ثقافية — في هذا المجال .

ولم تقف عند نشر الابحاث ، سواء عن القضية الفلسطينية او العدو الصهيوني ، بل اتاحت الفرصة كاملة — عام ١٩٧٠ — لمناقشات طويلة ومستمرة حول المقاومة الفلسطينية ، والتي تبلورت عن نظرتين : الاولى التي تجعل من الوحدة طريقا لتحرير فلسطين والثانية تجعل من تحرير فلسطين طريقا للوحدة ، مع اجتهادات ومناقشات حول حماية الثورة الفلسطينية ، ومخاطر الاقليمية ، والذي كان يعيب هذه المناقشات ، الافكار المسبقة والاحكام الجاهزة لبعض الكتاب ، الامر الذي كان يبعد المناقشات ووجهات النظر عن هدفها وما يجب ان تؤديه ، وما زالت هذه القضية هامة وتحتاج لمناقشات هادئة ، خاصة انه بالقراءة المتأنية لاجتهادات الكتاب لا نجد اختلافا جوهريا حول الوحدة العربية او حول القضية الفلسطينية ، والخلاف ينتج عندما يكون الحديث مجردا ، وكلما بعد عن الواقع الذي نعيشه ، ومهما كان الرأي حول هذا الجدل — الذي استمر طوال عام — فقد كان انعكاسا حقيقيا لوجهات نظر لها وجودها وكتابها على الساحة العربية والفلسطينية .

واذا كانت المجلة اتاحت الفرصة لوجهات النظر المختلفة أن تعبر عن نفسها ، فقد حرصت دائما على اعلان موقفها من الثورة الفلسطينية من الدعم والمساندة والتحية والتقدير ، خاصة في افتتاحياتها المتكررة .

وتابعت المجلة النشاط داخل فلسطين المحتلة ، سواء بنشر المقالات او الاعمال الادبية للكتاب الفلسطينيين ، ولكنها لم تتوان عن مواجهة الاخطاء او الخطايا التي وقع فيها البعض ، مثل النداء الذي صدر في يونيو ١٩٧٤ من ادباء يهود وعرب توقف الاحتراب والاعتراف بحقوق الشعبين .

ففي عدد الاداب — اغسطس ١٩٧٤ — كتب عن هذا النداء — رئيس التحرير — شهريات .

وكما قال : « وقد كفاني الشاعر محمود درويش مؤونة الرد على هذا النداء المشبوه » .

ونجد في نفس العدد — مقالا لمحمود درويش — شعراء المقاومة ضد المقاومة ، وهو نموذج للمقال السياسي المسئول ، والذي استطاع محمود باقتدار ان يتخطى جميع الالغام والحساسيات ويضع القضية في وضعها الصحيح ، « للمحاذير واللياقة حدودا تنتهي عندما تنتقل المسألة من الشعر الى القضايا العامة » .

وقد جاء في مقال محمود اهم المبادىء التي تضمنها النداء — كما نشر في جريدة الاتحاد — في ٧ — ٦ — ١٩٧٤ — والذي ورد فيه « نحن الموقعين ادناه من الكتاب العرب واليهود ، مواطني اسرائيل ، نتوجه بهذا الى شعوب المنطقة والعالم للعمل معا وبصورة فردية ، على ايقاف جميع اعمال الارهاب والعنف نهائيا ، ضد النساء والاطفال خاصة وضد السكان المدنيين عامة ، ونقرر :

● ان استعمال طرق الارهاب الشخصية او الجماعية في المنطقة او في العالم . لنيل اهداف ايا كان نوعها ، يسقط عن صاحبه حق تمثيل المصالح القومية والسياسية والدولية والاقليمية .

وقد فند محمود درويش نداءهم وما جاءوا به من مبادىء . وتساءل كيف استطاعوا ان يقرروا تحميل الشعب الفلسطيني مسؤولية تشرده وموته مقابل تحميل السياسة الاسرائيلية نصف هذه المسئولية ، وما هو الهدف من مراعاة مفكري الصهيونية في سعيهم الى تبرئة الصهيونية من مسئولية تشريع قانون الارهاب في المنطقة الى درجة مساواة الضحية بالجلاد ؟

وخطورة هذا النداء — الخطأ او الخطيئة — كما يقول الشاعر الكبير « لانه يسجل شهادة المظلومين بشرعية الظلم وتنازل شعراء المقاومة عن المحاكمات الفلسطينية للعدوان الاسرائيلي ويطرح الكفاح الفلسطيني العادل خارج

الاعتراف .. ومن هنا يحق لنا ومن واجبنا ان نرفض هذا النداء ، وان نعتبره تزويرا لارادة الشعب الفلسطيني وضميره وتشويها لحقيقة اشرف كفاح يقوده هذا الشعب المظلوم ومن واجبنا أن نتصدى لفاعلية هذا النداء المتوقعة في ضمائر ادباء العالم » .

وبذلك نلاحظ ان مجلة الاداب قد استطاعت ان تؤدي دورها ـ في حدود الممكن ـ بالنسبة للقضية الفلسطينية ، خاصة في العشر سنوات الاخيرة . وجاء العدوان ـ نوفمبر وديسمبر ١٩٧٣ ـ ادباؤنا في المعركة ـ بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ سجلا وثائقيا لمعظم ما عبر عنه الكتاب العرب في الاقطار العربية ، عن هذه الحرب المجيدة ، التي اعادت للانسان العربي كرامته ، وقضت على غربة بعض المثقفين ، وعمقت الاحساس بالمسئولية والالتزام تجاه الحرف .

حقا لقد ساهمت الظروف التي عاشتها المنطقة العربية ـ طوال ربع قرن ـ واحداثها الهائلة المتنوعة ، وثوراتها ، وقضاياها الكبيرة التي طرحت للمناقشة والممارسة ، في أن تضفي الكثير على مجلة الاداب ، ولكن من الانصاف ان نقول ان مجلة الاداب باختيارها القضايا، وتحديد موقفها من القضايا العربية، وبالتالي القضية الفلسطينية التي تتبعنا موقعها من انتاج المجلة ـ ٢٥ عاما ـ كان اختيارا مسئولا ، والتزاما بجوهر القضايا المطروحة ، ولم تكن المجلة مجرد صدى لاحداث تسجلها او تنعكس عليها بحكم قوتها ، ولم تقف المجلة عند طرح فكر واحد تشبثت به وتغاضت عن افكار اخرى ، بل نسجل للاداب اتاحتها الفرصة لصراع الافكار ، وتمسكها بالدفاع عن حرية الفكر والمفكرين . وكان كسبا عظيما للمثقفين ان تستمر المجلة ـ طوال هذه الفترة ـ

تحية لمجلة الاداب في عيدها الفضي ، تحية لقرائها الذين أعطوا القوة للكتاب ان يستمروا . وتحية للكتاب الذين قاموا بمسئوليتهم تجاه وطنهم ، وتحية للمشرفين على المجلة ، الذين عملوا من اجل استمرارها لتؤدي دورها الثقافي والفكري .

ومزيدا من العمل والمثابرة والاستمرار ، ولقاء على صفحات الاداب من اجل افكار تخدم قضايا شعبنا العربي العظيم .

القاهرة

د. عبد الرحمن منيف

العودة الى أوراق الذاكرة

.. ربع قرن كامل ، خمس وعشرون سنة ، كأنها العصور في رحلة هذا الزمن المثقل بالاحزان والقلق والتغيرات والحروب .. وأمل المستقبل الافضل ايضا ، وكأنها ، في الوجه الاخر ، ايام سريعة تشبه الخيول الجامحة في انطلاقتها نحو المجهول والموت !

ماذا يستطيع الانسان ان يكتب في ظل الحرائق ورائحة الموت وشبح الرحيل الدائم ؟ ماذا ابقت هذه الخمس والعشرون من السنين في الحقائب وعلى جدران الذاكرة؟ واخيرا ما فائدة الكلمات التي كتبت او التي تكتب الآن ما دام الانسان العربي يعيش تحت وطأة الموت المباشر: المادي والمعنوي ، وما دامت شريعة الغاب هي التي تسيطر على الواقع العربي من المحيط الى الخليج ؟

لقد حصلت أشياء كثيرة ، اكبر من الكلمات واقسى آلاف المرات في هذي الخمس والعشرين سنة ، ولانها بهذه الضخامة والقسوة فالخوف والتهيب يمنعان من تحويلها الى حروف سوداء ، او مجرد كلمات وافكار غير قادرة على الوصول الى ذلك الشموخ النادر المثال ، والذي لا يحصل الا في فترات التغير الكبرى والانتقال .

ان كثيرا مما حصل اقرب الى الخرافة وعدم التصديق ، وكأنه كابوس دام ، او شيء يوازي المستحيل ، واذا لم تكن الكتابة قادرة على تفجير تلك الفزارة المميتة ، ذلك الطوفان الذي لا يعرف التوقف ولا يترك امامه شيئا ، فعندئذ ستكون الكتابة اقرب الى الخيانة ، او في احسن النوايا ، مساهمة في سوق النخاسة الذي بدأ منذ وقت طويل ولم ينته بعد .

هل يمكن للكلمة ان تصبح بتأثيرها واهميتها موازية للقنبلة ، للطلقة ، لحبل المشنقة ؟ هل يمكن ان تفجر هذا العفن المتراكم ، والذي يعلو يوما بعد اخر ، ليصبح الملح الوحيد للحياة العربية المعاصرة ؟ هل يمكن للكلمة ان تفجره ، ان تخضه ، ان تقلبه ، واخيرا ان تغيره لتقيم بديلا ، افضل منه ؟ يكاد الانسان ان يقول : لا .. لكن رغم المرارة التي يحسها من لا يملك سوى الكلمة ، ورغم قناعته انها لا تزال سلاحا ثانويا ، وتأثيرها لا يتعدى خفقة ريح واشارة طريق ، فان من يكون سلاحه هذا لا يجد مفرا من اللجوء اليه لكي لا يختنق ويموت .

وفي ظلال الحلم ــ الرغبة لا يجد مفرا من ان يقول شيئا ، ان يكتب شيئا ، ومن خلال السخاء الذي يرفع الحدود ، في ان تحمل الكلمات بعض الدلالات ، يغامر ، يصلب نفسه آلاف المرات كل يوم ، لعله يستطيع ان يخلص الاخرين من خلال نضاله المستمر من اجل خلاص نفسه!

هذه .. وعشرات الافكار والرغبات الاخرى تعبر حين يمسك الانسان القلم ، حتى لو اراد ان يكتب اسمه وعنوانه ، لكن مع ذلك ، بالرغم من ذلك ، فان مجازفة الكتابة تبقى حارة نفاذة مثل رائحة الدم التي تملأ كل شيء في هذا الوطن .

هذه اذن محاولة ، ومحاولة في اصعب الظروف ، ليس لان الموضوع من الاتساع والرحابة الى درجة يعجز عنها كاتب واحد فقط ، وانما لان الاوراق احترقت في النيران الكثيرة التي بدأت منذ اكثر من ربع قرن ولم تنته بعد ، ولان الرحيل الدائم لم يبق من الاشياء في الذاكرة الا لمعانها الاول .

اوراق الذاكرة :

.. في ذلك اليوم الشتائي البعيد ، في شباط ١٩٥٤ كنا نتابع بلهفة ، عبر راديو قديم كبير الحجم من ذلك النوع الذي كان سائدا آنذاك ، اخبار الانتفاضة الشعبية التي حدثت في سورية ، والتي استهدفت اسقاط النظام الديكتاتوري واعادة الحريات الديمقراطية للشعب ، بعد سنوات عجاف من الحكم الفردي المتسلط .. في ذلك

مسيرة عبر الآداب

الوقت ، وعن طريق ذلك الراديو المختنق ، كنا نتحرق من اجل سماع كلمات قليلة : سقوط الديكتاتورية وعودة الديمقراطية .. او بكلمة واحدة : الحرية .. وكانت تتمثل بسقوط النظام القائم من خلال النضال الشعبي ، وارتفاع رايات الديمقراطية من جديد لتواصل سورية دورها .

... وخلال الفترة الواقعة بين بلاغ واخر ، بين قنبلة واخرى ، بين مظاهرة ورصاص الشرطة ، بين حضور صوت الراديو وغيابه ، كنا نطالع بعض الكتب ونناقش كيف كانت الاوضاع وما يجب ان تكون عليه .. وكنا من الكتب نستخرج الافكار والاحلام ، وكانت بين هذه الكتب: « الآداب » ، فنقرأ اشعارها وقصصها وترجماتها ... وكانت تؤكد لنا بحروفها المضيئة المتوهجة ان الحرية لا يمكن ان تغلب، وان الديمقراطية حق لا يمكن التنازل عنه!

هل كانت هذه اول ذكرى واول لقاء مع الاداب ؟

لا .. كانت قبلها ذكريات ولقاءات كثيرة ، ولكنها اقل حدة ولمعانا ، او لم تكتسب معانيها المحددة في غمرة التعب والانتظار والتخفي .. وكانت ما تزال بين الشك واليقين .. هل يمكن في ظل الظروف التي سادت المنطقة آنذاك ان تولد مجلة جديدة تتغنى بالمستقبل وتبشر بالحرية وتحمل معها احزان واعباء مرحلة كاملة ؟

لقد كانت المرحلة كلها ، في تلك الايام ، مليئة بالاحزان والاضطهاد والسجون ، وكانت فلسفة الحكام لا تتمثل بتقييد الحريات وتحديد الديمقراطية وانما كانت تتمثل بالغاء هذه المفاهيم التي بدات تتسرب الى العقل العربي لتصبح من مقوماته الرئيسية ، ولتصبح الهم اليومي لكثير من المثقفين والجماهير ، ولتأخذ شكلا منظما عبر الاحزاب ، ولتصبح اخيراً نضالا يوميا لا يتوقف ولا يهدأ .

لافترض اذن ان اول لقاء وذكرى للاداب كانت هذه، فاذا حاولت ان اضع لها المعادل الموضوعي فلا اجد سوى : الحرية .

كانت الحرية اذن هماً اساسيا ،او الهم الاساسي لهذه المجلة منذ لحظة الميلاد ، ومنذ ذلك الوقت . وعبر مسيرة طويلة مليئة بالمصاعب ، استمر هذا الهم وعبر عن نفسه باشكال عديدة ، لا تزال اصداؤها ترن حتى الآن.. والآن اكثر من قبل . هذا في الوقت الذي هرمت الكثير من المجلات والمؤسسات واصيبت بفقر الدم وفقدت القدرة على تحديد اوليات الهموم واستشراف المستقبل .

واذا كانت المجلات هي نتاج البشر والمراحل والفلسفات ، فقد كان القسم الاكبر من تلك المجلات ، في مرحلة ولادة الاداب ، قد بدأ يدب نحو القبور ، اعلانا عن ان مرحلة قد انتهت ، وان مرحلة جديدة توشك ان تبدأ.

وما دامت الحرية الباب الكبير الذي دخلت منه الآداب ، فلا بد ان تعكس كل رغبات وتطلعات وآمال المستقبل ، وهكذا ابتدأت ، الى جانب الحريات الديمقراطية المطلوب توفرها ، مناقشات ومعارك لا تزال آثارها الى الآن .

كيف يمكن تحديد وتصنيف القضايا واولوياتها ؟

هل يكون ذلك من خلال التطرق الى حرية الاديب ، ليس باعتباره انسانا متميزا وانما من خلال كونه مواطنا في هذا الوطن الذي هدرت فيه حقوق جميع المواطنين ؟

هل يكون ذلك من خلال المفاهيم العصرية التي يراد التبشير بها في الوطن ، والتي تحدد العصر الذي نعيش فيه على انه النصف الثاني من القرن العشرين ، النصف الذي انتصرت فيه الاشتراكية في كثير من بقاع الارض واعترف للمواطن بحق العلم والعمل والضمان الصحي وضمان الشيخوخة .. الخ ؟

هل يكون ذلك من خلال المفاهيم التي لم تعد مجالا

المناقشة حول حرية الانسان في الاعتقاد والتفكير والتنظيم والاتصال وحرية المراسلة والسفر .. هذه المفاهيم التي عبر عنها الاعلان العالمي لحقوق الانسان واصبحت شريعة واقعية في معظم بقاع الارض ، في الوقت الذي لم يعترف بها في الارض العربية ، رغم التواقيع الخضراء والزرقاء التي مهر بها ممثلو العرب هذه الوثيقة ؟

هل يكون ذلك من خلال الوقوف في وجه المد الرجعي الاسود الذي ساد المنطقة في الفترة التي تلت هزيمة ١٩٤٨ ، والذي حاول ان يستغل النكبة من اجل مزيد من الارتباط مع الغرب واحلافه وقواعده ، واعتبار الغرب قدرا لا يمكن مقاومته او الوقوف في وجهه ؟

هل يكون ذلك من خلال الوقوف في وجه التيارات الاقليمية التي انتشرت وحاولت ان تفرض منطقها وفلسفتها في فترة التراجع ؟

هل يكون ذلك من خلال تأكيد عروبة بعض الاقطار التي كانت تناقش في تلك الفترة هل هي عربية او غير عربية ؟

هذه .. واخرى غيرها ، بعض ملامح الفترة التي ولدت فيها الآداب ، ولانها ولدت في هذه الفترة فقد تصدت بكثير من الجرأة الى طرح هذه المفاهيم ، وخاضت من اجلها معارك كبيرة .

واذا كان جزء مما نراه اليوم قد استقر في وجدان المواطن واصبح حقيقة لا يناقش فيها ، فقد كان مثارا للمناقشات والاختلافات في فترات سابقة ، ولا يزال جزء اخر مثارا للمناقشات والاختلاف حتى الآن .. وخاصة الان ، ولا تزال الاداب تساهم فيه .

لم تكن الاداب في اية فترة من الفترات مجلة بعيدة عن الواقع ، كانت انعكاسا له في جانب ، وكانت مبشرة بالآتي في الجانب الاخر ، ومن خلال تعبيرها عن واقع الجماهير وهمومها ورغباتها وطموحها ، ومن خلال ما تطرحه من الافكار وما تعكسه من واقع المجتمعات الاخرى ، كانت تساهم في تشكيل قناعة المواطن وتملأ وجدانه .

لم تكن مجلة « الاداب » مجلة للاداب فقط ، كانت مجلة للفكر بكل مجالاته ، وحتى الادب الذي فتحت صفحاتها لاستقباله كان ادبا من اجل خدمة الحياة ، ويعبر عن فكر جديد لا عهد لكثير من المجلات التي سبقتها اليه .

لقد ثارت « معارك » عديدة قبل صدور الاداب ، وكانت هذه المعارك ، وان حدثت في نهاية النصف الاول من هذا القرن ، تنتمي الى معارك العصور الوسطى ، سواء من حيث المواضيع او الاساليب . واذا كانت تلك المعارك قد شغلت كتاب تلك المرحلة ، وكانت من الشراسة والحدة الى درجة كبيرة ، فان الاجيال الجديدة كانت بعيدة عنها ، وكانت تنشغل بهموم مختلفة ، وتعبر عن ذلك في المقاهي الشعبية ، في دهاليز الجامعات ، في الحلقات الصغيرة والتجمعات والمنتديات . كانت الاجيال الجديدة تبحث بلهفة عن اشياء مختلفة ، وكانت تريد تجاوز الفكر السائد ، ذلك الفكر الذي انتهى منذ وقت طويل في اماكن اخرى ، لكن الجيل المثقف الذي درس في اوروبا في مطلع هذا القرن حمل في طريق عودته ما كانت اوروبا تريد ان تتخلص منه وان تتجاوزه .

كان الصراع بين الاجيال قويا عنيفا ، وكان غير متكافيء ايضا . ففي الوقت الذي كان يمتلك الجيل الاول كل شيء ، كان الجيل الثاني لا يملك الا القليل . كان الجيل الاول يمتلك الاسماء الكبيرة ، الوجاهة ، النفوذ ، القوة ... وكان يمتلك ايضا وسائل تعبيره .. اما الجيل الثاني فكان يمتلك فقط رفضه ورغبته في التجاوز ، وذلك الجنون الذي يجعل كل شيء ممكنا ويجب ان يناضل من اجله .

في ظل هذه المعركة غير المتكافئة جاءت الآداب .

قدر لها اناس كثيرون أن تقول كلمات قليلة وتنتهي ، كما تنتهي في بعض الاحيان افكار واساليب تخلقها الصدفة وتدفع بها الى سطح الاحداث ، وتصبح خلال فترة من الزمن تقليعة مثل غيرها ، ومحكومة مثل غيرها بظروف الزمن العابر .

وقدر لها اصدقاؤها ان تواجه من الصعوبات الكثير الكثير ، وان الجهد الذي يقوى على احتمال التحديات والمصاعب لا يمكن ان يقوم به فرد واحد ، ولذلك نظروا اليها نظرة تمتزج فيها الرغبة بالشفقة ، ولم يتفاءلوا كثيرا ، بل ظنوا ان مرحلتها لم تبدأ بعد ، وعليهم ان ينتظروا وقتا اطول .

في ظل هذه الاجواء والشروط جاءت الاداب ، واذا كانت جدارة اية مجلة وقدرتها على الاستمرار والصمود تنشأ بالدرجة الاولى من خلال الافكار التي تعبر عنها والاجيال التي تخاطبها والمرحلة التي تمثلها ، فان الاداب قد جاءت لتعبر عن افكار جديدة وعن اجيال جديدة وعن مرحلة جديدة ، وهذه كلها تتطلب عقلا وارادة ونظرة مختلفة عما هو سائد ، نظرة مختلفة نوعيا . فالاسماء الكبيرة لم تعد تعني كل شيء بعد أن فقدت القدرة على التعبير عن المرحلة ، والوجاهة يمكن ان تفتح ابواب الوزارات لكنها لا تستطيع أن تفتح قلوب الجماهير ، والنفوذ يمكن ان يوظف لمحاربة الخصوم لا لكسب اصدقاء جدد ، والقوة ليس مظهرها الوحيد أن تصدر عشرات المجلات والصحف ولا يقراها احد !

في ظل الظروف غير المتكافئة بين الجيلين ، كما اشرنا ، بدات المحاولات هنا وهناك ، على شكل تجمعات صغيرة ، او نشرات مكتوبة بخط اليد ، او على شكل مجلات لا تستطيع ان تصدر الا عددها الاول ثم تتوارى ، نظرا للاحقة الدائنين والسلطات ومحاكم التفتيش « العصرية » !

واذا كانت الفنون التشكيلية ، خاصة الرسم ، قد

استطاعت ان تشق لنفسها اخاديد صغيرة هنا وهناك ،من خلال المعارض الشخصية والجماعية ، ومن خلال الدعم والروافد التي ساندتها في فترة من الزمن ، سواء من قبل الفنانين الوافدين ،ومن قبل البرجوازية الصاعدة التي تطمح في ان تزين جدران قصورها العارية بشيء من ثقافة العصر،فقد استطاعت بعض الفنون التشكيلية ان تتقدم ضمن ظروف افضل نسبيا .. اما باقي الفنون فقد ظلت تعاني الكثير ، اذ ما عدا الشعر ، والذي كان ينتقل شفهيا ،ويشكل تجاوزا لكثير من المدارس والشعراء المسيطرين والسائدين ، ظلت هذه الفنون بحاجة الى وسائل تعبير جديدة او الى امكانيات مادية غير متوفرة لها . فالمجلات التقليدية التي كانت اقرب الى الحلقات الصغيرة الخاصة ، والمقصورة على مجموعات بذاتها ، لم تكن تنظر الى الجيل الجديد نظرة ثقة ، وكانت لا تفسح مجالا الا بمقدار ، ومن خلال الفجوات الصغيرة التي سمح بها آنذاك لم يستطيع النفاذ والوصول الا قلة محدودة ومحظوظة .

اما الفنون المعقدة ، والتي تحتاج الى امكانيات كبيرة ، سواء أكانت السينما او المسرح ، فقد ظلت محكومة بقوانين خاصة ، وكانت هذه القوانين من الصعوبة والقسوة بحيث لم تنشأ لها تقاليد ولم تتطور ضمن اشكال عصرية نامية، فما عدا المجالات التي اقتصرت على الترفيه والاغاني لم تتقدم السينما ، وما عدا المحاولات التي اقتصرت على ترجمة بعض المسرحيات العالمية وتقديم قسم منها ،لم ينشأ مسرح الشعب ، ولم يولد الكاتب المسرحي المحلي ، واذا استثنينا توفيق الحكيم الذي اهتم بالمسرح الذهني، المسرح من اجل القراءة بالدرجة الاولى ، فان النص المسرحي المحلي لم يظهر في هذه الفترة .

وما يقال عن المسرح ينطبق على السينما ايضا ، فقد خضعت الى قوانين الربح والخسارة ، ضمن مفاهيم مجتمع متخلف ، واقتصرت على التقليد السطحي ، وبدات تتراجع سنة بعد اخرى ، وتحكمها الصدفة والتهريج والتركيب النفعي المصطنع .

اما الموسيقى الشعبية المتطورة فقد كان جو الارهاب الذي ساد خلال فترة معينة من القسوة والارهاق الى درجة ان البذور الاولى التي نمت وترعرعت في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى ، وعلى ايدي موسيقيين شعبيين موهوبين امثال سيد درويش وبيرم ، ان هذا النوع من الموسيقى تراجع في مرحلة تراجع الحركة الشعبية والسياسية ليحل محله نوع آخر ، يراد له ان يلائم المرحلة « الجديدة » ويستجيب لها .

واقتصرت الموسيقى الغربية المتطورة على مجموعات صغيرة ، ولم تصل الى وجدان الجماهير .

وهذه الحالة ذاتها تنطبق على الغناء ، فالتغني بامجاد الملوك العرب والاعاجم ساد وانتشر ، والاشادة بحياة الفلاح « السعيد » والريف في ظل الاقطاعي ، لم يعودا مجرد ذكر لحالة من الحالات وانما رغبة من رغبات التكريس والتأبيد ، وتراجع او زال من وسائل التعبير الرسمية كل التراث الشعبي للغناء الوطني الذي ساد في فترات سابقه، والذي ولد جزء منه في ظلمات السجون والمنافي البعيدة او تحت ظلال المشانق .

ان حالة من الركود والتراجع والهبوط سادت وسيطرت خلال فترة السيطرة الاجنبية ، واستمرت بعد ذلك ، ولان البرجوازية العربية « الصاعدة »، والتي استلمت السلطة بعد ان تراجعت القوى الاستعمارية المحتلة، هي مزيج من الاقطاع والطبقة التجارية ، ومرتبطة الى حد بعيد بالمرحلة السابقة ، وليست نقيضا لها ، ولانها متخلفة ضمن مقاييس البرجوازية الصناعية التي سيطرت في الغرب ، فقد كانت وسائل تعبيرها متخلفة ايضا ، ولم تتجاوز الوسائل التي كانت سائدة في ظل الاحتلال المباشر .

ضمن هذه المعطيات كان من الصعوبة بمكان كبير ان تتغير الصورة الفنية او الادبية ، نظرا للاسباب التي ذكرنا بعضها ، ونظرا للتخلف الكبير الذي ميز الحركات السياسية، حتى التقدمية ، سواء من حيث تنظيمها وتأثيرها ، او من حيث نظرتها الى وسائل التعبير هذه .

ان النظرة الى الاداب والفنون هي جزء من النظرة الى المجتمع ، وهي جزء من الفلسفة التي تنبع منها تلك النظرة او تحكمها ، فما دامت النظرة الى المجتمع، والتي تنبع منها المواقف السياسية محكومة بهذه العقلية والاساليب البدائية ، وافرزت تلك الاشكال والعلاقات ، فان الآداب والفنون كانت في نهاية قائمة الاولويات بالنسبة لتلك الحركات . يضاف الى ذلك ان الفترة المقصودة كانت محكومة ايضا ، في الجانب التقدمي، بنظرة خاطئة ومتزمتة وعميقة في نفس الوقت، ولقد ادت بدورها الى افراز اشكال ومفاهيم ساهمت ، بنسبة معينة ، في التخلف الذي ساد وسيطر في تلك المرحلة .

ولان الكثير من الفنون الحديثة المتأثرة بالغرب لم تجد الاجواء والامكانيات التي تساعدها في التعبير عن نفسها ، حتى داخل الحركات السياسية الجديدة ، فقد بدات تعبر عن نفسها باشكال فردية ، او ضمن مجموعات صغيرة ومحدودة ، وظلت اقرب الى الهموم الذاتية ، او في احسن الاحوال ، لم تصبح بعد هما شعبيا ، فالكثير من الروابط والصلات التي تنشأ في مجتمعات سليمة ، وتعبر عن نفسها في ظل الحرية ، لم تتوفر بعد ، ولم يخلق التفاعل الضروري من اجل الوصول الى صيغ جديدة .

وهكذا ظلت الافكار والاشكال القديمة هي المسيطرة، وظلت وسائل التعبير ذاتها ، مع تغييرات جزئية اقتضتها طبيعة المرحلة ، وخلقت طموحات واوهاما جديدة ؛ اضافت الى التراث التعسفي الذي كان سائدا عبئا جديدا.

اصبحنا اذن امام حركة مركبة ، حالة اكثر تعقيدا

وصعوبة من تلك التي كانت سائدة من قبل ، واصبحت الاجيال الجديدة تعاني اكثر من السابق ، لان الكثيرين ممن كانوا في ركاب المستعمر غيروا جلودهم واستمروا في نفس المواقع ويملكون نفس السلطات ، ومن تلك المواقع والسلطات ، اخذوا يمارسون اساليب اشد قسوة من قبل لقمع اية محاولات جديدة ، ولسد الطريق امام الاجيال التي عرفت المذاهب والاساليب العصرية وبدأت تحاول التبشير بها . لكن شيئا جديدا بدأ يظهر في هذه المرحلة : الطموحات والافكار التي اخذت تتكون اكبر من محاولات القسوة والترويض ، والاشكال السائدة لم تعد قادرة على الاحتواء واستمرار فرض السيطرة ، هذا في الوقت الذي بدأت تذبل وتموت الصرخات العمياء القديمة ـ « الجديدة » ، واصبحت وسائل تعبيرها من التهافت والضعف بحيث لم تعد تقوى على الصمود والاستمرار .

وكانت أولى المعارك التي وقعت في هذه المرحلة هي معركة الشعر الحر .

صحيح ان معارك عديدة سبقت معركة الشعر الحر ، خاصة معارك الديمقراطية والمعاصرة والتراث ، وعبرت عن نفسها باشكال عديدة ، في الصحافة الجديدة ، في البرلمانات التي قامت بعد الاحتلال ، في الدساتير الجديدة ، في الافكار والشعارات التي بدات تطرحها وتطالب بها الحركات السياسية التقدمية ، في الفضبات الجماهيرية الواسعة التي حدثت في اماكن عديدة من الوطن العربي ، ثم في التغيرات التي اخذت شكل هزات كبيرة ، هنا وهناك ، لكن ظلت معظم هذه التغيرات ضعيفة وعمياء ، لانها لم تستند الى دليل نظري واضح ومتكامل . وحتى الحركات التي كانت اكثر تقدما من غيرها لم تستطع ان تقدم افكارا واضحة عن الكثير من المفاهيم والشعارات التي تنادي بها .. وفي نطاق الادب والفن .. لم تستطع هذه الحركات ان تقدم المساعدة الفعالة او النماذج المتفوقة لاقناع الناس ودفعهم الى الامام خطوات كبيرة .

واذا كانت « الاداب » قد جاءت في هذه الفترة ، فترة المخاضات السياسية الكبيرة ، وفي اعقاب تغيرات سياسية عاصفة ، فان الهم الذي انطلقت منه ، رغم الاعلان غير المباشر ، كان الديمقراطية والمعاصرة . وخلف الشعر والقصة والمسرحية والرواية والدراسة كانت تكمن المفاهيم الجديدة عن الديمقراطية والمعاصرة ، وكان هذا الهم المحرك الاساسي في الاختيار ، وفي المواقف والمعارك التي خاضتها .

ان مقياسا ما يكمن بالضرورة وراء جميع المواقف ، واذا كان الفكر انعكاسا للواقع المادي ولحركة المجتمع ، فان التعبيرات المباشرة وغير المباشرة عن المواقف والسلوك ، في الآداب والفنون ، وفي جميع النشاطات الاخرى ايضا ، تنبع من حركة المجتمع ومن الموقف الذي يفسر هذه الحركة ويعطيها ابعادها ومفهومها . ولذلك ، ومن اجل التعبير عن الجديد ، فلا بد لكل نشاط ابداعي ان يعبر عن هذه الحركة ، وان يسهم في أعطاء مفهومها بعدا اضافيا لاغنائه وتوضيحه وتحديده ، واذا لم يتوفر لهذا النشاط الابداعي تلك الصفة ، فانه لا يحظى بهذه التسمية ، ولا يمكن اعتباره اضافة نوعية جدية .

واذا كان مجرد ظهور « الاداب » ، ضمن الظروف والشروط .. والمفاهيم التي اشرنا اليها ، مساهمة في النشاط الابداعي ، فان المواقف والمبادرات والمساهمات .. والمعارك ايضا ، كانت تعبيراً عن هذا النشاط .

ولما كانت « الاداب » مجلة للاداب والفنون ، بالدرجة الاولى ، وتتركز همومها ومعاركها الاساسية في هذا المجال قبل غيره واكثر من غيره ، فقد بدأت اولى المعارك في مجالات قبل غيرها واكثر من غيرها ، ومن جملة المعارك الرئيسية التي خاضتها كانت معركة الشعر الحر ، الالتزام ، الرواية ، المسرح ، التراث ، شعر المقاومة ، وعشرات المعارك الاخرى .

وما دام الانسان لا يملك اوراقا ، فان الافكار التي يمكن ان يعرضها اعتمادا على الذاكرة تشير ولا تسجل ، وتذكر ولا تستعرض ، لان الاشارة من ذاكرة محترقة ، وفي ظل اجواء الحزن والرحيل والموت .. تبقى محاولة ، وغالبا ما تخيب المحاولة ، لكن مع ذلك فان الكثير من المحاولات تستحق المغامرة والاقدام ، مهما كانت صعبة ، فلاحاول اذن الاشارة الى بعض ما حصل في ظل الحرائق والرحيل الدائم وانتظار المجهول !

الشعر الحر

صحيح ان بدايات الشعر الحر تعود الى فترة سابقة لظهور الاداب ، لكن الاداب هي السجل الحقيقي لهذا الشعر ، بالدرجة الاولى والاساسية ، ولفترة طويلة . لقد حدث ذلك منذ البدايات الاولى . وفي هذا السجل لم تثبت تواريخ الميلاد والنسب وصلات القربى فقط ، بل وثبتت فيه ايضا فلسفة الشعر ومبررات وجوده وجدارته ، ولقد خط ذلك كله جيل باكمله وليس الشعراء وحدهم .

واذا كانت معركة الشعر الحر قد حسمت منذ وقت طويل ، ولم تعد مجالا للمناقشة من حيث كونه شعرا او غير شعر ، وانه جدير بالبقاء ، فان المعارك التي رافقت تلك البدايات من الاهمية والاتساع والعنف بحيث ان اصداءها لا تزال حتى الآن !

كلنا يتذكر مواقف الشعراء التقليديين وفلاسفة الشعر التقليدي .. ولعل العقاد ، « شاعرا » وناقدا ، واحد من هؤلاء ومن تلك المواقف .. وكلنا يتذكر المعارك العنيفة التي حصلت قبل العقاد وبعده . واذا كان هذا الشعر قد عمد وتم الاعتراف به ، ولم يعد احد يناقش في انتسابه ، فان المعارك الاولى ساعدت كثيرا في وضع القواعد وتكوين التراث له ، ولقد ساهم الشعراء الرواد انفسهم في التعبير عن الطبيعة الجديدة لهذا الشعر ، وقدموا نماذج كانت من القوة والاصالة الى درجة اصبح

معها هذا الشعر ، فيما بعد ، الطريقة الوحيدة ، او الاساسية ، في المرحلة الحالية .

لا يعنينا هنا ان نؤكد من هو الذي كتب اول قصيدة في هذا الشعر ، بلند الحيدري ام نازك الملائكة ام بدر شاكر السياب ، المهم التأكيد ، هنا ، ان رواد هذا الشعر وجدوا ضالتهم في الاداب ، ووجدوا السند او الحائط الذي يعلقون عليه قصائدهم ، ومن خلال الآداب قدموا ، اضافة الى الشعر ، فلسفة هذا الشعر ومبرراته واروع نماذجه .. واستطاعوا بالجهد والمثابرة والتفوق ان يكرسوه نهائيا .

ان معركة الشعر الحر من اهم المعارك واكثرها خصوبة واهمية في التاريخ البكر للاداب ، وبعدها انتقل هذا الشعر الى دواوين العرب ومنابرهم ومجلاتهم ، واصبحت له تقاليد وحصانة ، ولم يعد مضطرا للدفاع عن النفس او التواري في دهاليز الجامعات او في زوايا المقاهي الشعبية ، اصبح مخلوقا حيويا ينتقل من مكان الى آخر واضحا جريئا .. ومتهورا في بعض الاحيان .. وتم الاعتراف به نهائيا .

الالتزام

من القضايا البارزة التي شغلت قسما كبيرا من المثقفين ، ولا تزال اثارها باقية الى الآن ، قضية الالتزام: لمن يكتب الاديب ؟ هل الالتزام يتناقض مع الحرية او الوجه الآخر لها ؟هل الادب والفن وسيلتان للتغيير والمساهمة من اجل بناء عالم افضل ام هما وسيلتان للمتعة واشباع ذات الفنان قبل اي شيء آخر ؟

ان هذه القضية التي احتلت مساحات كبيرة في صحافة الغرب ، وخلقت مناقشات طويلة بين تيارين في الفكر والفن ، وجدت اصداءها في الصحافة العربية ، وانتقلت الى حلقات المناقشة والحوار بين المثقفين العرب ايضا .. واذا كانت قد حسمت بصورة معينة ، بنسبة معينة، فان لحسمها في الفكر الغربي، دورا في سرعة حسمها بين المثقفين العرب ، اولا ، ولان طبيعة المشاكل والهموم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها المنطقة العربية من الاهمية والثقل والالحاح لدرجة تسلب انصار الفن للفن معظم اسلحتهم او كل اسلحتهم ، ثانيا . ولذلك فان معظم الادباء والمفكرين العرب يتفقون في جوانب عديدة بنظرتهم الى دور الادب والفن ، لكن الاختلاف ينشأ حول قضايا اخرى : الشكل والمضمون ، المدارس الاجتماعية والسياسية ، المدارس الفنية ، المقاييس التي يجب ان تعتمد في فهم وتقييم العمل الفني ، النظرة المتفائلة او المتشائمة التي توجه الفنان .. ومدى مساهمة هذه المدرسة او تلك ، هذه النظرة او تلك ، في دفع الامور الى امام .. وهكذا ..

لقد هزم انصار الفن للفن .. لم يبق منهم الا فلول هرمة وعاجزة ..وحتى هذه الفلول تحاول تقديم المزيد من البراهين والادلة ، ليس على اقتناعها بهذه النظرية ، وانما في تبنيها لمواقف رجعية وغيبية ومضللة .. اما في سلوكها العملي فانها تصب في المجرى الاخر .. المجرى الذي يخدم التخلف ، وتؤكد كل يوم مدى ارتباطها وعلاقاتها السياسية !

ان مفهوم الالتزام وقع بين تيارين في الفكر العربي المعاصر ، تيار الوجودية وتيار الماركسية ، لكن التطورات التي طرأت على كلا التيارين الاساسيين انعكست بوضوح ايضا ،فلم يعد احد يتبنى التيار الوجودي الذي ساد خلال مرحلة معينة ، واذا كان هناك من يتبناه فان تأثيره محدود،ومساهمته لا تتجاوز الدفاع عن الموقف الفلسفي اكثر منها القدرة على التعبير الابداعي عن هذا الموقف. كما ان الماركسية ، خاصة في مجال الادب والفن، قد تطورت الى درجة كبيرة ، وعلى التجديد في الربع الاخير . وبدأت تقدم افكارا ومفاهيم جديدة ومختلفة عما كان سائدا في الفترة الستالينية .

ان استعراضنا لهذين التيارين لا يهدف الى التقييم قدر ما يهدف الى تسجيل بعض الملامح التي سادت الفكر العربي في فترة الخمسينات والستينات ، ويؤشر الخارطة الفنية والفكرية التي كانت سائدة آنذاك . وهذان التياران، وان كانت لهما بقايا في الاعمال الابداعية ، بصفتهما الاولى ، فان الاعمال الابداعية المعاصرة قد تجاوزتهما بمراحل كثيرة ، اذ لم يعد هناك من يصرخ صرخات سارتر او ينظر الى الحياة على انها الجحيم وان الاخرين هم الابالسة ، كما ان جدانوف توارى من الادب العالمي، بما في ذلك الادب العربي،واصبحنا الآن امام مرحلة جديدة، وهذه المرحلة ليست نتيجة تزاوج بين تيارين او مدرستين وانما تجاوز للمدرسة الاولى واعطاء مفاهيم ومضامين اكثر ايجابية ورحابة للمدرسة الثانية ، وبذلك حسمت احدى اكثر المشاكل تعقيدا وخطورة ، وكان حسمها لصالح الفكر التقدمي وانتصارا له .

لم تعد المسألة الالتزام في الادب والفن موضع خلاف من حيث المبدأ ، لكن نظرا لتعدد مدارس النقد ، فان كل مدرسة من هذه المدارس تعطي لمفهوم الالتزام حدودا تختلف عن الاخرى ، ولا تزال المسألة قائمة حتى الآن ، ولقد كان « للاداب » تاريخيا ، دور في هذه المسألة ، وان كان هذا الدور قد تأثر الى حد كبير بالمفهوم الوجودي خلال بعض المراحل ، لكنه استقل عنه وتجاوزه.

القصة والرواية :

سوف يأتي يوم يكتب فيه تاريخ القصة والرواية العربية : متى بدأت ، كيف تطورت ، وما هو موقعها ضمن الفنون الاخرى ، وضمن تطور القصة والرواية في العالم ، وحتى ذلك الوقت فان القصة ، تاريخيا ، لا تزال تؤخذ ، اغلب الاحيان ، حسب الاقطار ، وتكاد تتميز بهذه الخاصية خلافا لفنون اخرى ، كالشعر والسينما

والموسيقى ، واذا كانت هناك ضرورة لتقديم بعض الاسباب التي تفسر هذه الظاهرة فلا بد أن يبرز ضمن هذه الاسباب: عدم الاعتراف بالدور المستقل والمتميز لهذه الاداة من ادوات التعبير ، او عدم اعتبارهـا موازية في اهميتها للادوات الاخرى ، نظرا لضعف النماذج، ولتباعد الفترات الزمنية، اضافـة الى تداخل هذه الاداة مع غيرها ،او عدم وجـود قصاصين محترفين يعتبرون القصـة والرواية همهـم الاساسي او الوحيد .. اضافة الى استقلال نشوء القصة والرواية في كل قطر وعدم الترابط بيـن الاقطار ، ربمـا لاسباب سياسية ، في هذا المجال ، ولضعف حركة الكتاب في السوق ووجود العراقيل في وجه انتشاره . لذلك نجد ان القصة العراقية ظهرت وتطورت ضمن بيئة محلية ، وكذلك الحال بالنسبة للقصة السورية واللبنانية ، اما في الشمال الافريقي فلقـد كان تأثير الثقافة الفرنسية عليها واضحا ، اضافـة الى انقطاعها ، بسبب اللغة ، عن النماذج العربية ، ممـا اعطاها ملامح مختلفة . ومـا عدا القصـة المصرية ، التي كانت اكثر انتشارا وتأثيرا فـي قصص الاقطار الاخرى ، واكثر تطورا ، ومن حيث توفر وسائـل التعبير في وقت مبكر ، وامتدادها الى اقطار اخرى ، فان القصة العربيه ظلت محكومة بقوانين وشروط محليـــة قاسية ، وهذه القوانين والشروط اعطتهـا ملامح وحددت لهـا مسارا جعلتهـا في النهاية ضعيفة البناء محـدودة الانتشار ، واخرت بالتالي الاعتراف بها وسيلة اساسية من وسائل التعبير . هذا بالرغم من وجود نماذج بـارزة وناضجة ظهرت في اكثر من قطر عربي ، فرغيف يوسف عواد ، وقصص فؤاد الشايب ، او شكيب الجابري وروايات ذو النون ايوب وغيرهم ، تعتبر متقدمة في جوانب كثيرة على قصص عديدة ظهرت في مصر، لكن لم تتـح لها فرص الانتشار والتأثير الا في الحدود المحلية ، عكس النماذج ، حتى الروائية ، التي ظهرت في مصر، والتي غزت معظـم الاقطار العربية واثرت سلبيا على تطور القصة العربية.

لا شـك ان طبيعة الاوضاع والعلاقـات العربية ، ومستوى التطور ، بمـا في ذلك العلاقات الثقافيـة او مستوى الثقافـة وانتشار التعليم ، لعبت دورا سلبيا او ايجابيا في هذا المجال .

ان هذا شيء من التاريخ وشأن من شؤونه ، وسوف يأتي يوم يقيم ويسبب فيه ذلك بوضوح ودقة .. امـا الصورة التي تبدو لنا الان فانها شديدة الاختـلاف ، اذ اضافـة الى الاعتراف الكامل بالقصة والرواية ، باعتبارهما وسيلتين اساسيتين من وسائل التعبير ، فان الصفـة التي بداتا تكتسبانها ايضا هي انها عربية بالدرجة الاولى، واصبح تقييمها يصدر من خلال هذه الصفة، لانها اصبحت عربيـة من حيث قراؤهـا ونقادها ، رغم بعض المعوقات ، ورغم الملامح المحلية التي تميز قصة عن اخرى ، نظرا لمكان صدورهـا والموضوع الذي تتناوله .

لا شك ان وسائل التعبير المعاصرة اكثر قـــدرة وتأثيرا بالمقارنة مع الوسائل التي كانت متاحة من قبل ، لكن القيود السياسية . خاصة في المرحلة الحالية ، اصبحت اكثر قسوة وشدة من اوقت سابقة، ورغم ذلك فان ايـة قصة او روايـة جيدة تمتلك من الامكانية ما يوازي الكتاب السياسي في بعض الحالات ، وتستطيـع ان تتجـاوز الكثير من العراقيل والقيود ، ولو بطريق التهريب .

هل حصل هذا بالصدفة ؟ هل حصل نتيجة التطور التقني ؟ هل حصل بظهور امكانيات قصصية وروائية في اقطار عربية عديدة وتخطيها للحواجز الاقليمية ؟

لا ينكـر ان عوامل عديدة ساهمت في خلق الظاهرة او الحالة التي نراها اليوم ، لكن يجب ان نسجل باعتراف كامل ان دور بيروت كان كبيرا وهاما ، وان في بيروت من المنابر والامكانيات ما اتاح وصول الصوت وصداه الى اقصى المناطق العربية ، وبعقلية متجاوزة للمنطق الذي كان سائدا ، وبتخطيط عربي يهدف الى اقامة بناء متكامـل للقصـة العربيـة .

لقد لعبت بيروت دورا بارزا وكبير الاثر ، سياسيا وثقافيا ، خلال العشرين سنة الاخيرة ، ولقـد لعبـت « الآداب » دورا متميزا وهاما في مجال القصة والرواية واذا كان الدكتور سهيل ادريس قد استطاع من خـلال الاداب ان يساهم في ايجاد صحافة من نوع جديد ، فـان مساهمته في بناء قصة ورواية عربيـة كانت هامـة واساسية ، ليس من حيث كونه قاصا وروائيا فحسب ، بل ومن خلال تكريس الاعتراف وتعزيزه لهاتين الاداتين من ادوات التعبير . حصل ذلك اولا من خلال اعتبار الاداب مجلة عربية بالدرجـة الاولى ، عربية بمادتهـا وكتابتهـا واسواقها ، وثانيا في ايجاد تقاليد لم تكن مألوفة ، او لم تكن واسعة الانتشار ، حيث تبنى التعريف بالقصاصين والروائيين العرب ، وتبنى اقامة مسابقات للقصة القصيرة والرواية . وقـد لا يكون من المبالغة اذا اشرنا ان عددا من المع كتاب القصة والرواية دخلوا هذا الملكوت من خـلال الاداب ومن خلال الجوائز التي حصلوا عليها ، حين كانوا كتابا ناشئين ، ثم انطلقوا في رحاب المنطقة ، بحرص على المكانة التـي حصلوا عليها ، او بتفريط ، تحـت تأثير نشوة الظفر الاولى ، ليستمروا في الكتابة القصصيـــة والروائية .. او لينتهوا في اماكن اخرى !

بايجاز يمكن القول ان دور الاداب في بناء القصـة والرواية العربية كان هامـا وهو الان ، وفـي المستقبل ، جدير بان يسجل ، كاحد مظاهر ومراحل تطور القصـة العربيـة .

وضمن هذا المجال لم تقتصر الاداب على اقامـــة المسابقات وتخصيص الجوائز للقصة والرواية ، وانمــا ساهمت ايضـا في تقديم نماذج ناجحة وهامة للقصـة العالميـة ، سواء تلـك التي نشرت على صفحـات الاداب مباشرة ، او التي نشرت بطبعات خاصة صادرة عن دار الاداب واذا كان من الضروري تقييم هذا الجهد وابـراز

ملامحه الايجابية ، فلا شك ايضا أن له ملامح سلبية انعكست بوضوح على مجموعات كبيرة من كتاب القصة والنقد ، وقد تمثل ذلك بالاسراف المبالغ فيه والذي طبع عددا كبيرا من ترجماتها خلال فترة من الزمن ، خاصة ترجمة الفكر الوجودي وترجمة معظم او كل ما كتبه كولون ويلسن ، اضافة الى عدم وجود خطة دقيقة في اختيار امهات الكتب العالمية في مجال القصة والرواية والنقد ، وترجمتها .

ان الهجمة الوجودية التي طفت في اواخر الخمسينات واوائل الستينات ، والتي تركت بصماتها الواضحة على الكثيرين ، قد تراجعت الآن ، ولم تعد اكثر من مجرد رافد من جملة روافد الفكر العربي والاسلوب العربي في التفكير والكتابة .

ان الجهد الفردي — مهما كان كبيرا وذكيا — لا يمكن ان يساهم الا في نطاق محدود ، كما لا يستطيع ان يكون بديلا عن الجهد الجماعي ، فالجهد الفردي محكوم بقوانين وعوامل ليست هي بالضرورة التي تحكم الجهد الجماعي ، ولذلك تقضي الضرورة تحرير الفرد من ضغط قوانين السوق المباشرة وافساح المجال لخيارات افضل من خلال جهد جماعي ، وربما رسمي ايضا ، والاعتماد على تخطيط بعيد المدى ، ووضع اولويات من نوع معين غير محكومة بعوامل المنافسة والربح السريع .

ومع ذلك ،وبالرغم من ذلك ايضا، فقد استطاعت الاداب ان تقدم عددا بارزا من الترجمات الهامة ، وان تساهم في حركة الترجمة والتبادل الثقافي . وان توفر للاجيال الجديدة ترجمات اكثر دقة واكتمالا من تلك التي كانت سائدة خلال فترة سابقة .

المسرح

بموازاة الجهد الكبير الذي بذلته الاداب من اجل اقامة بنيان مستقل ومتميز للقصة والرواية ، فقد بذلت جهدا بارزا ايضا في مجال المسرح، فنشرت عددا من المسرحيات الهامة ، التي لعبت دورا في المسرح العالمي المعاصر ، نشرت عددا من المسرحيات على صفحاتها ، ثم اصدرت سلسلة المسرح العالمي ، ولقد كان لما تنشره تأثير كبير على الحركة المسرحية العربية ، لانها هدفت من خلال اختيارها ان تقدم مسرحا من نوع جديد ،فاختارت مسرحيات ليست للقراءة فقط وانما للعرض ايضا ،ودفعت عددا من كتاب المسرح العرب الى الاهتمام بالموجات المسرحية الجديدة ومحاولة الاستفادة منها .

وفي هذا المجال لم تقتصر على المسرح الوجودي ،وان كان قد احتل الجزء الاكبر من هذه السلسلة ، وانما قدمت مسرحيات اخرى ايضا : بستان الكرز مثلا .

ان عملية الترجمة في المسرح اكثر صعوبة وارهاقا بالنسبة لفرد او لمؤسسة نشر خاصة. فالرواية او الكتاب السياسي تكتسبان حياتهما المستقلة والكاملة بمجرد صدورهما ،اما المسرحية ، اية مسرحية ، حين تكون نصا مطبوعا فقط ، فانها تكون محدودة الانتشار ، ولا تتكامل الا حين تعرض ، وما دامت الحركة المسرحية العربية ضعيفة ومحكومة بقوانين وقيود قاسية ، وما دامت الفرق المسرحية تتناول النص دون مقابل ، ودون استئذان في كثير من الاحيان ، فان من المفهوم الا تستمر المؤسسات الخاصة في القيام بهذا العبء وتحمل الخسائر الكبيرة نتيجة ذلك ، خاصة في ظل منافسة غير متكافئة وبشروط غير اقتصادية .

يضاف الى ما تقدم ان النقد المسرحي احتل حيزا مهما على صفحات الاداب ، واستطاع ان يواكب الحركة المسرحية مواكبة مستنيرة وأن يسدد خطواتها ، وان يقدم لها ابرز التطورات في المسرح العالمي ، ولقد كان لهذا النقد فائدة مزدوجة ، فهو من ناحية ساهم في تنمية ثقافة القارىء ، واطلاعه على اخر تطورات المسرح العالمي، ومن ناحية ثانية جعل الحركة المسرحية ، خاصة بالنسبة للعاملين فيها ، ضمن دائرة الضوء ، ورتب مسؤوليات اضافية تجاه المتفرج الذي اصبح يطالب بموضوعات ومستويات جديدة .

التراث :

الرجعية السياسية بحاجة دوما الى سند فكري لكي تستمر بسيطرتها وتحكمها ، ولقد لجأت في كل المراحل ، وفي كل مكان ، الى ايجاد الاطار الفكري لتبرير السيطرة والاستغلال من جانب، والى محاربة الافكار التقدمية والعصرية من جانب اخر . وكان لديها باستمرار « فلاسفتها » وكتابها وشعراؤها ،وكان هؤلاء يقومون بهذا الدور قناعة او ارتزاقا ، ويستفيدون من جميع الوسائل في الحروب التي يخوضونها ، وبشكل خاص من التراث.

واذا كان في تراث كل شعب العديد من القيم والافكار والتقاليد ، فان الرجعية وفلاسفتها يلجأون دوما الى ما يؤيد ويدعم استغلالهم وسيطرتهم ، ويتناسون الجوانب الاخرى في التراث ، بل ويحاولون أن يدفنوا هذه الجوانب تحت ركام الاضاليل والارهاب ، وكثيرا ما لجأوا الى الدين والى السلطة الدينية من اجل تعزيز مواقفهم . اما القيم والافكار والتقاليد التي من شأنها محاربة الاستغلال ، والتي تدعو الى المساواة وتطالب بتحرير الانسان وابراز الجوانب الايجابية المشرقة في تراث وتاريخ الشعوب، فقد كانت بعيدة عن متناول الجماهير وراقدة في بطون الكتب القديمة .

هذه الحرب المعلنة او الخفية بين مفهومين للتراث لم تقتصر على الفلاسفة المحليين ،وانما ساهمت فيها ايضا جهات اجنبية عديدة، ولاهداف اقتصادية وسياسية، فكانت حملات التبشير ، وكانت البعثات الكثيرة تحت عناوين متعددة ، من بعثات الاثار الى بعثات دراسة اوضاع الجماعات والاقليات ، الى دراسة اللغات واللهجات ... والتاريخ .. الخ،وكان الهدف الاساسي لهذه الحملات

كلها أن تكـون في خدمة الطبقات الحاكمة ، اجنبية كانت او محليــة .

ولو استعدنا الى الذاكرة البعثات الاجنبية التي زارت المنطقة منذ مطلع هذا القرن ، وحاولنا دراسة نتائج نشاطها في المجال الفكري وحده ، نجد ان جزءا مهمـا مـن مرتكزات الفكر الرجعي مستمد من الافكار والاجتهادات التي روجت لها تلك البعثات ، خاصة في مجال التاريـخ واللغـة . فالتاريخ الاسود ، سواء بمادته او طريقة فهمه وتحليله ، والذي يتناول تفسير التراث على انه مجموعة من الفتوحات والحروب ، وانه تاريخ القادة والملوك ، وان الشعوب المتخلفـة بحاجة فقط الى المستبد « العادل » ولا يمكـن ان تحكم نفسهـا بنفسها .. ان هـذا الفهـم للتاريخ تلقفته الطبقات الرجعية وحـاولت الترويج له ، ووضعته في مواجهة افكار العدالة والحرية والمساواة التي كانت تطالب بهـا الشعوب . وفي مجال اللغة ، ونتيجـة لعصر الانحطاط الطويل الذي ساد خلال قرون ، فقـد ساهمت البعثات الاجنبية في التأكيد على عناصر العامية ، وفي الفرق بقضايا فقه اللغة ونحوها وصرفها واشكـال البديع والبلاغة ، دون الالتفات الى الجوانب الايجابية في اللغـة ومحاولة تطويرها وجعلها اداة عصرية تستجيـب لمتطلبات الحياة وضروراتهـا .

هذا الاستطراد في بحث موضوع التراث لا يستمد اهميـة باعتباره جزءا من تاريخ المنطقة خلال مرحلة سابقة ، وانما لانه موضوع مثار في الوقت الحاضر ، وربمـا اكثر من السابق ، وبحاجة الى معالجة جدية ومستمرة لاكتشاف الجوانب المضيئة فيه ، وتقديمها الى الجماهير لتكـون سلاحا في يدهـا بمواجهة القوى الرجعية السوداء .

واذا كانت الاداب بمجمل فهمها وموقفها من التراث قد ساهمت في ايجاد ثوابت اكثر ايجابية وفعالية من اجل اعادة النظر ، فان المهمة في المرحلتين الحالية والمقبلـة تبدو اكثر اهمية والحاحا .

شعر الارض المحتلـة :

مثل الصرخة المفاجئة في ظلمة شديدة السواد انبثق شعر المقاومة ، ومن الارض المحتلة بالذات ، ليعلن اشياء كثيرة في وقت واحد : ليعلن أن روح الاصرار قوية الـى درجـة ان جميع قوى ومحاولات البغي والقهر والعدوان لا يمكن ان تروضهـا او ان تنتزعها ، وان علاقة الانسان بالارض مثل علاقة الاشجار والصخور ، وان الحرية رغبة تصل حدود الغريزة فلا تزول ولا تدمر ، وليعلن ايضا ان الشعر ، والشعر الجيد خصوصا ، اداة هامة من ادوات الحرب ، وهذه الاداة حين تنبع من القلب وتلتحم مع العقل وتنتشر بين المحرومين والمضطهدين تصبح اشد خطـورة واكثر فعاليـة ، وليعلن ايضا ان ذلك الخيط المجدول من التاريخ والزمن والعذاب بين اجزاء الوطن ، رغم الحواجز والاسلاك الشائكـة والالغام وراجمات الصواريخ .. ورغم المستعمرات المصنوعة ، لا يمكن ان ينقطع او يتلاشى .

لقد فاجأ شعر الارض المحتلة الشعراء والمثقفيـن اكثر مما فاجأ الناس البسطاء ، ومن هول هذه المفاجأة حدثت اشياء كثيرة لا تحدث في الاحوال الطبيعية عادة ، فبيـن عشية وضحاها اصبح هذا الشعر ينتقل من شفة لاخرى ، من مجلة لديوان شعر الى اغنية ، ودخل المعركة .

لنترك النقاد يقولون كلمتهم في ذلك الشعر ، لكـن الذي يمكـن تسجيله الان ان هذا الشعر ، اكثر من اي شعر اخر ، لعب دورا بارزا وهاما ، وفي وقت شديـد الدقة والخطورة .. واذا كانت هناك ادوات فنية كـونت وجدان العرب المعاصرين ، وساهمت في تغذيـــة روح المقاومـة فان شعر الارض المحتلة ، بالتوقيت ، بالخصوبة ، بالتفجر الصادق ، بالمعاناة ، بالعنفوان الجامح الذي لا يعرف التوقف او التسليم .. كان اسهاما بالغ الاثر في خلق روح جديدة لدى العرب ، وعزز الثقة بالنفس ودلل ان العرب في الارض المحتلة اقوى واصلب .. واكثر صدقا مـن العرب الاخريـن !

لقد دخل شعر الارض المحتلة المعركة كاقوى مـا يكون المحارب واكثر ما يكون رباطـة جأش وجسارة ... وشراسة ايضا ، وهذه الصفات التي اكتسبها ليس مـن خلال رنين الفاظ المناسبات ، ولا من خلال الانفعال الآنـي المؤقت ، وانمـا من خلال التشبث بالارض ، من معرفـة معناها ، من معاناة الاضطهاد المباشر .. ومن خلال معرفة العدو ايضـا .

ان معظم شعر الارض المحتلة من نوع خاص : فيـه رائحة الارض والبرتقال ، فيه نكهـة الزعتر وقطرات زيت الزيتون ، وفيه تلـك الاغاني القديمة المتوهجة الموحية ، وفيه حكايات الجدات التي لا تنسى .. وهذه المعاني ، التي غابت عن الكثير من الشعر العربي ، في الارض غير المحتلة ، اكتشفهـا اولئك الشعراء الذيـن كانوا في البداية بـلا اسماء ، بلا ملامح ، ثم فجأة اكتسبوا اسماء كبيرة وملامح شديـدة الوضوح ، هي اسماء جميع الذين ينتظرون وراء الاسلاك الشائكة ، وملامح البشر الذين يعضون علــى جراحهم باسنانهم انتظارا ليوم الخلاص . واصبح هذا الشعر عاملا مهمـا في تطوير الشعر العربي والحيـــاة العربية . انه يعمق ارتباط الانسان بالارض ويعزز مقاومته ... ويقرب الغد كثيرا ، لان هؤلاء الذين ينشدون ، اضافة الى الصدق والعفوية ، فانهم يتحدثون عن تجربة حارقة ، عن عذاب عاشوه ، عن معنى ان يكون الانسان على ارضه ، في بيته ، ذليلا ، مهانا ، وغير قادر علـى ان يتحرك او يتنفس او ان يستحم في بحر وهواء بلاده !

لقد كانت الاداب من اوائل المجلات التي احتضنت هذا الشعر وعرفت معناه وخطورته ، وكانت من المساهمين في دراسة هذه الظاهرة واستخراج الرموز الكبيرة منهـا وتعميمهـا .

ان كثيرا من الاعمال الفنية والادبية تكتسب جزءا

هاما من قيمتها من حيث توقيت ظهورها ، لان هذا التوقيت لا ينفصل عن الحس التاريخي بضرورة المساهمة في التغيير والبحث عن الافضل ، او التبشير به . وان المجلات تكتسب جزءا من جدارتها التاريخية من خلال اكتشاف هذه الظواهر الايجابية وتقديمها وتهيئة الفرصة لانتشارها ووصولها الى اقصى الامكنة .

قد يبدو شعر الارض المحتلة الان اقل بريقا ، نتيجة التعود او نتيجة المرحلة الراهنة التي تمر بها المنطقة العربية ، لكنه يبقى احدى الظواهر البارزة في هذه المرحلة .. وفي المرحلة اللاحقة .

النقد

في نطاق تأسيس حركة فكرية متكاملة شجعت الاداب ، وعلى نطاق واسع ، حركة النقد ، واصبحت منبرا هاما ، وطوال الفترة الماضية ، لهذه الحركة اكثر من اية مجلة اخرى .

ان هذا الموقف يشير بوضوح الى مدى الاهمية التي يتمتع بها النقد الادبي والفني ، من حيث كونه عنصرا مبدعا أولا ، ومن حيث مساهمته في اضاءة العمل الابداعي ، وابراز الجوانب الايجابية والسلبية فيه ثانيا. ومن حيث الرغبة في تكوين مدارس نقدية موضوعية وعصرية تتناول العملية الابداعية من جوانبها المتعددة والمختلفة ، اخيرا .

هذا الفهم لدور النقد لم يكن موجودا بثبات ووضوح قبل الاداب ، فقد كان اغلب الاحيان ، عملا هامشيا وذاتيا ، وكان ينصب على الاجزاء ولا يتناول العملية الابداعية بكاملها ومن جميع جوانبها ، اضافة الى الطابع غير الموضوعي الذي اتسم به القسم الاكبر ، من خلال المساجلات والقسوة وعمليات التحريض ، في نفس الوقت الذي افتقد فيه الاسس المنهجية التي تساعد على اقامة بناء متكامل وتام للعملية النقدية .

الطريقة التي اتبعتها الاداب في فهم العملية النقدية وممارستها اقامت الكثير من الجسور بين المبدع والناقد ، واقامت جسورا بين هذين الاثنين من ناحية والقراء الذين كانوا شهودا وحكاما في نفس الوقت ، من ناحية ثانية . فحين يتناول الناقد عملا من الاعمال ويحلله ويفسره واخيرا يقيمه ، ثم يأتي صاحب العمل ليقول رايه في طريقة العمل ثم في نتائجه وفي رأي الناقد .. ان هذه العملية بالاضافة الى اهميتها الخاصة ، والتي تلقي اضواء اضافية ، قد لا يتاح لها الظهور لولا نشوء هذه العلاقة وضمن هذه الصيغة ، تساعد كثيرا في توضيح جوانب عديدة في العملية الابداعية ، وتشكل اضافة نوعية تساعد الناقد نفسه على ان يفهم العمل بشكل افضل وتساعد القارىء ايضا ، وتعطي العملية الابداعية صفة الحياة والحيوية ، وتكون نتائجها في النهاية كبيرة الاهمية .

لقد كانت بعض الاشارات التي وردت في الرسائل الخاصة ، او في مذكرات الكتاب ، اهمية كبيرة في تفسير العملية الابداعية ، ليس من حيث كونها عملا متكاملا وفي لحظته الاخيرة ، وانما من حيث الدوافع والمراحل وطريقة البناء وعشرات الملاحظات الصغيرة او الكبيرة الاخرى التي كونته بهذه الطريقة وعلى هذا الشكل .

واذا كنا في المرحلة الحالية نستطيع فهم بعض الاعمال الابداعية الهامة بصورة افضل ، فقد كان الكثير من الاشارات الخارجة عن العمل ذاته ، سواء من الاوراق الخاصة او من ملاحظات الذين كانوا على صلة بصاحب العمل ، اهمية في هذا الفهم ، واسرار تكوينه واكتشاف هذا التكوين .

ليس المقصود هنا المقارنة تماما بين هذه الاشارات الاخيرة والنقد الذي نشر ، ولايزال ، على صفحات الاداب ، لان بعضه لم يكتسب هذه الصفة ، ولكن المقصود الاشارة الى المساهمة التي قام بها بعض المبدعين في توضيح الدفاع عن العمل الذي قدموه . فالشعر ما كان ليكتسب ملامحه الواضحة او تتحدد مسيرته التاريخية من حيث الزمن لولا المساهمات البارزة التي قدمها السياب ونازك الملائكة والبياتي وكاظم جواد وبلند الحيدري وعبدالصبور وغيرهم . لقد كان لتوضيحاتهم اثر في تسهيل عمل النقد في وقت لاحق .. او ربما في تقصيره ! وقد تم ذلك كله ، او القسم الاكبر منه ، على صفحات الاداب ، ومن خلال المعارك التي نشأت على هامش الشعر الحر .

وما يقال عن الشعر الحر يقال ايضا عن الكثير من القصص والروايات ، او بكلمة اشمل ، عن العملية الروائية: تطورها ومدارسها وابرز كتابها .

ان هذه القضايا ، واخرى غيرها ، امثلة في عملية تأسيس الحركة النقدية المعاصرة ، هذه الحركة التي عبرت عن نفسها بعدة اتجاهات ومدارس ، والتي استمرت في التطور والتراجع تبعا لعوامل كثيرة .

اما الباب الذي استحدثته الاداب في وقت مبكر ، « قرات العدد الماضي من الاداب » ، والذي تناوب على الكتابة فيه مجموعة كبيرة من النقاد والمتابعين ، فقد كان اضافة نوعية الى الصحافة الادبية العربية ، واصبح تقليدا ايجابيا مفيدا للكتاب والقراء معا ، حيث كان بمثابة الدليل الذي يرشد ويؤشر لقضايا كثيرة ، ما كانت تستوقف القارىء لولا هذه الاشارات ، وكان بمثابة الانذار او الاشارة المبكرة لعدد من الكتاب ، شعراء وقصاصين ودارسين ، بحيث يأخذ كل صاحب حق حقه ، وبشكل عاجل ، دون انتظار المصادفات او العلاقات الشخصية او بعض الاعتبارات الاخرى غير الموضوعية .

لقد كان هذا الباب بابا كبيرا لابراز المواهب واقامة الحوار المتصل بين الذين يكتبون والذين يقراون ، وكان بمثابة رئاسة تحرير اضافية تراقب وتقيم ، وان كان بعد

النشر ، ولقد ساعد على انتزاع الفرور وتثبيت المقاييس وترسيخ تقاليـد أكثر ايجابية وموضوعية في النقد .

واخيرا ..

ان رحلة الذاكرة كثيرا ما تخـون .. او تضعف وتتداخل،واذا كان جزء من سعادة الانسان ، على المستوى الشخصي ، قدرته على النسيان ، فان هـذه السعادة لا تلبث ان تتحول الى تعاسة على المستوى العام .

لا شك ان عددا من الباحثين سوف يتصدى الى كل نقطـة من النقاط المشار اليهـا سابقا ، وربما كـان كل عنوان بحثا مستقلا او اكثر من بحث .. وبالرغم من انني كنت قد التزمت بالكتابة عن موضوع محدد : « مفهـوم الحرية في مسيرة الآداب خلال ربع قرن » فان الموضوع من الخطورة واتساع المدى لدرجة انه بحاجة الى التفـرغ والبحث المستقصي والعودة الى اوراق الحياة اليومية لا الاعتماد على اوراق الذاكرة .. واذا أفلتت الفرصة هـذه المرة فقد لا تفوت في مرة لاحقة ، هذا مع الاشارة الـى الترابط الحي والمتشابك في الكثير من العلاقات ، وان كل قضية تعكس القضايا الاخرى وتعطيهـا ابعادا اكثر وضوحا وتحديـدا .

أن ازمة المنطقة قبل ولادة الاداب .. وبوجودها خلال ربع قرن .. والآن .. وفي المستقبل المنظور .. ان الازمة بالدرجـة الاولى والرئيسية ، هي ازمة الديمقراطية ، ازمة حريـة التعبيـر والعمل ، وما دامت هذه الازمة موجودة فان الكثير من القضايا ستبقى معلقة وبحاجة الى حل .

ان الانظمة الحاكمة في المنطقـة كلهـا لا تؤمـن بالديمقراطية ، او تحول الديمقراطية الى صيغ ومفاهيم كاريكاتيرية ، وحتى هذه الصيغ والمفاهيم موجودة بمقدار ما تخدمهـا وتساعد على استمرارها ، وفي الوقت الذي تعجز هذه الصيغ عن تلبية حاجاتها او تصبح خطرا عليها ، فان أول من ينقض عليهـا هم الحكام انفسهم . وفـي الجانب الاخر فان الجماهير العربية لم تتوصل بعـد الـى قناعات كاملة ونهائية ، وعملية ايضا ، في اعتبار الديمقراطية الشرط الاساسي لتطورهـا وتقدمها .. ولا تزال عرضـة للكثير من المؤثرات وعمليات التضليل ، والتـي تصـور الديمقراطية وكأنهـا ترف او قضية ثانوية ، أو ان دورها في قائمة الاولويات يأتي في نهاية السلم ، نظـرا للتجارب « الديمقراطية » البائسة التي طبعت في بعض اجزاء المنطقة خلال فترة معينة ، ونظرا الى ضعف الممارسة الديمقراطية على المستويين العام والخاص ، داخل المجتمعات او داخل الهيئات ، ولم تصبح هما يوميـا له منطقه وضروراته .

هذه الحالة من التعقيد والتشابك جعلت الديمقراطية تضمر وتضعف ، وتأخذ اشكـالا مشوهة . ولقد وقـع المثقفـون انفسهم في اخطاء المفاهيم والتطبيقات .. حتى ان عددا منهم ساهم في وأد الديمقراطية وتشويهها وخلق مزيـد من الارتباك في صفوف الجماهير الشعبية ، ولقد انعكس ذلك كله على النضال الثقافي والشعبي ، وبـدأت موجة من التراجع والانتكاس تعم المنطقة ، وستبقى كذلك في فترة لاحقة من الزمن ، او الى الوقت الـذي تصبـح الديمقراطية حجر الزاوية ، وتأخذ اشكالا وصيغا واضحة ومحددة وعمليـة ايضا .

لقد جرت عمليات تبادل واحلال للقضايا والمفاهيـم في الفترة السابقة ، واعتبرت بعض القضايا اكثر اهمية ، او لها أولوية اكثر من غيرها ، لكن ضمن منطق الفكر المجزأ او الانتقائي ، وليس ضمن المنطق الجدلي ، وثبت بالتجربة ان المنطق الاول لم يؤد الى الخطأ فقط بل والى التدهـور والتراجع ، والى ضرورة البدء من جديد . وثبت ايضا ان الفرضيات الخاطئة سوف تؤدي بالضرورة الى نتائـج خاطئة . وهذه النتائج لا تنعكس على الجماهير بخبزهـا وتقدمها وحريتها ومساهمتها فقط ، بل وتنعكس ايضا ، وبدرجة اكبر ، على عمليـة الزمن ، ففي الوقت الذي بدأت بعض الاقطار تضع اقدامهـا على اول الطريق الصحيح ، وقدمت نموذجـا ايجابيـا يمكـن ان يستمر وينمو مـع الايام ، لم تلبث عمليات الاحلال والتبادل التي بدأت في فترة معينة ان قلبت الامور وغيرت مسيرتها ، وحولتها بالتالي الى مجموعـة من الهزائم والانتكاسات ، وادت الى اضاعة وقت طويل . والى خلق حالة من الفوضى والارتباك .

من هنا تقضي الضرورة ان تبدأ من جديد ، وبجسارة عمليـة مراجعة جدية للفكر العربي ، بمفاهيم النظريـة وتطبيقاته العملية ، وان تطرح كافة القضايا طرحا عميقـا وواسعـا وجريئا ، من اجل اختيار الطريق الملائم بطبيعـة المرحلـة وبطبيعـة التطورات التي دخلت العصر ، خاصة في الربع الاخير من هذا القرن . وان طريق ذلك كلـه بالديمقراطية .

ان الديمقراطية المطلوب الاقتناع بها واشاعتهـا وممارستهـا لا تشكل شرطـا ضمن شروط كثيرة لبداية الانتقال ، وانمـا الشرط الاساسي والاول والاهم ، وهـذا الشرط لا يمنح من احد ، ولا يتم الوصول اليه بسهولة ، ولا يتحقق بشكل عفوي وعبر التطور البطيء ، وانما بحاجة الى ثورة ، ثورة من نوع خاص ، وربما كان المثقفون الصادقون الملتزمون اكثر قدرة ومهيئين قبل غيرهم واكثر من غيرهم لتوضيح معالم الطريق الجديد .

.. واذا كانت بداية اللقاء مع الاداب في شباط ١٩٥٤ او اول ذكرى لاحقة .. وفي ظل أجواء من نوع خاص .. فـان ذكرى ذلك اللقاء في ذاك الشتاء البعيد مقترنة بنوع من الانتظار الممض : انتظار سقوط الديكتاتورية ..

وان بدايـة جديدة للاداب يجب ان تنهض الان .. في صيف ١٩٧٧ اللاهب القاسي ، والمليء بالمفاجآت .. وليس عبر راديـو من الحجم الكبير الذي كان شائعا فـي تلك الايام ، وانمـا عبر تلـك الاجهزة الصغيرة التـي انتشرت في كل مكـان ، حتى مع الرعاة في الجـرود والوديان العميقة والصحاري البعيدة .. ويمكن عبر تلك الاجهزة أن تنتقل اخبار كبيرة : سقوط الديكتاتوريـة

العربية « الجديدة » وبداية نهضة الشعب لممارسة دوره.

وربما جاءت مفاجآت كثيرة من حيث لا يقدر الانسان ولا يتوقع ، كما جاء شعر الارض المحتلة ، وكما جاءت الانتفاضات الكاسحة .. وكما سقطت ممالك كبيرة بدت في بعض اللحظات وكأنها خلقت للابد !

يجب ان نتأكد ان اكبر الثورات واخطرها في حياة الشعوب تبدأ ، في مرحلة من المراحل ، حلما في رأس ، ثم فكرة .. ثم تصبح ممارسة .. وعندها تصبح احلام جميع الناس ، وتصبح افكارهم وتتحول اخيرا الى ممارسة يومية تنتهي الى طوفان يمسح كل شيء امامه .

لننتظر .. لكن ليس ذلك الانتظار الابله .. وانما ذلك الانتظار الواعي الصبور .. والذي لا يتوقف عن العمل والتحريض .. لحظة واحدة .. وان انتظارا مثل هذا سيكون عظيما وخطيرا !

د. عبدالرحمن منيف





ان أهمية أية مجلة ادبية لا تنحصر فقط في نوع المادة التي تنشرها ، بل في فعالية الدور الذي تلعبه في تطوير الادب والفكر في زمنها .

في تاريخ الادب العربي الحديث عدد محدود من المجلات الادبية لعبت دورا تاريخيا في تغيير أوضاع الادب في الفترة التي عاصرتها . من هذه المجلات كانت «أبولو» ، فهي ، بعد اكثر من اربعين سنة من انقطاعها ، لم تزل موضع الدراسة والاهتمام بينما نسي الناس عشرات المجلات الاخرى التي ظهرت على المسرح ثم اختفت . ومن هذه المجلات مجلة « شعر » التي ستحتفظ بأهميتها في تاريخ الشعر العربي الحديث لانها لعبت دورا غاية في الاهمية في الدفاع عن قضيته وفي تثبيت اسسه الفنية. ومن هذه المجلات أيضا « الآداب » .

عاشت « أبولو » من سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٣٤ ، وعاشت « شعر » من سنة ١٩٥٧ حتى سنة ١٩٦٤ ثم من سنة ١٩٦٧ حتى سنة ١٩٦٩ . أما « الآداب » فقد استمرت في الظهور .

يعود الفرق بين مصير هذه المجلات الثلاث الى عدة أسباب لعل اكثرها وضوحا هو ان « الآداب » لم تقتصر ، كما فعلت كل من « ابولو » و « شعر » على الشعر وقضاياه . غير ان أسبابا أخرى ، غاية في الاهمية ، تكمن وراء استمرارها .

لا أذكر « الآداب » الا وتمتد أمامي صور العالم العربي الواسع . هذا لا يعود فقط الى ان « الآداب » اقترنت بهذا الوطن وقضاياه منذ نشأتها ، وفتحت منبرها الحر الى أدبائه وشعرائه جميعهم ، بل لانها اقترنت بشخصيته أيضا ، وعكستها كما لم تعكسها مجلة ادبية أخرى في العالم العربي .

حاول ابو شادي يوم أنشأ « ابولو » أن يلونها بلون ثقافته الانكليزية . كان أبو شادي لا منتميا في مجتمعه ، ولم يكن لاانتماؤه صادرا فقط عن رفضه الواعي للاوضاع الاجتماعية والاخلاقية والادبية في وطنه ، بل بحكم شخصيته أيضا وطبيعته النفسية التي لم تنسجم قط مع الروح العامة حوله ، فعاش غريبا ومات غريبا معذبا . كان عالم الادب في زمنه ، وفي مصر بالذات ، قاسيا عسيرا سيطر عليه عدد من الادباء اتسم بعضهم بالشراسة والفطرسة وبعضهم بالتحزب والتعصب . وقد اقتحم ابو شادي هذا العالم الصعب بروحه الحساسة المغامرة وبمفاهيمه الادبية الطريفة ، ليجد سريعا بأنه لم يكن كفؤا للذين تصدوا له من المضطلعين بالمناخ الفكري والمزاج العاطفي في وطنه ، فقضوا على مجلته الرائدة التي كانت اول مجلة اختصت بالشعر في تاريخ الادب العربي جميعه.

والسر في الامر هو ان « أبولو » عجزت عن استقطاب عدد كاف من القراء في زمنها يناصرونها ويمدونها بالمال



سلمى الخضراء الجيوسي

اللازم لاستمرارها . وهذا ما حدث لـ « شعر » أيضا . يحسب المرء ان فترة ربع قرن من الزمن بين المجلتين كانت كفيلة بخلق جيل من محبي الشعر وقرائه اكبر عددا وأكثر وعيا منه في الثلاثينات . ولكن تجربة «شعر» برهنت على ان النسبة كانت غير كافية لمساندة المجلة . وقد آذى « شعر » أيضا انها اقتصرت على المشكلات الفنية في فترة كانت تتفجر بحديث الثورة والالتزام وتصر على حيوية الدور الذي يلعبه الادب في المجتمع . فقد تجنبت « شعر » الامرين : تجنبت أولا الاشتراك في معركة الالتزام التي خاضتها « الآداب » بقوة وتمرس ، وتجنبت ثانيا دراسة الادب من وجهة النظر الاجتماعية ، فقد كان محررو المجلة وكتابها البارزون اكثر ميلا الى الدراسات الفنية والتقنية ، أي الى النظر الى العوامل الداخلية في الفن ، منهم الى دراسة الادب من خلال العوامل الخارجية من اجتماعية وسياسية واقتصادية . ولعل قدرة « شعر » على تجنب هاتين الطريقتين في النظر الى الادب كانت تنضوي على استقلال في المذهب الفني الذي التزمته . غير ان العصر لم يكن قادرا على الخروج من انهماكه بقضايا الحياة العربية الملحة . ولذا فان التزام « شعر » بالحديث عن أسس الشعر الفنية وقضاياه الجمالية والتقنية وتطورها (تطور هو نفسه من نتاج هذا العصر المتحرك) لم يستطع أن يشبع حاجة القراء الى الالتفات الدائم الى واقع الحياة العربية وانعكاسه في الشعر وتأثير الشعر عليه . وقد برهنوا على هذا في موقفهم من المجلتين . لعل سهيل ادريس رجل أعمال أقدر من يوسف الخال ، ولكننا يجب أن نذكر ان العصر كان في جانبه وان مجلته كانت دائما تعبيرا عن قضايا هذا العصر .

كانت « الآداب » بروحها وهدفها وانتمائها قادرة على أن تضمن لها جمهورا واسعا . فهي ، منذ نشأتها ، واكبت الاحداث القومية وعبرت بقوة عن المشاعر العربية العامة، فركبت رأس الموجة في الصراع الفكري والحضاري في العالم العربي ، وعرفت كيف تتبنى الروح الثورية المهيمنة على هذا العالم وتعلن عنها . في هذا كانت « الآداب » مدينة الى سياسة مديرها من جهة ، والى طبيعة الفترة الزمنية من جهة اخرى .

عندما صدرت « الآداب » في بيروت في مطلع سنة ١٩٥٣ كانت مجلة « الاديب » لصاحبها البير أديب هي المهيمنة على الحقل الادبي . غير ان « الآداب » استطاعت في أقل من سنتين ان تشق طريقها الى مركز الريادة في لبنان وفي العالم العربي . واستطاعت ان تصدر في مطلع سنة ١٩٥٥ عددا خاصا بالشعر الحديث لا يزال أهم ما كتب عنه .

وكانت بيروت نفسها قد بدأت تحتل مكان الصدارة الادبية في العالم العربي ، وهو مركز حافظت عليه حتى الحرب الاهلية الاخيرة . فقد كانت تتمتع يومئذ بحرية سياسية واجتماعية وثقافية لم تتمتع بها مدينة عربية اخرى في المرحلة . كانت منبرا للفكر السياسي وللاراء الادبية المختلفة ، ومنحتها الحرية القدرة على التنويع ، والحصانة من تحكم المذهبية والسلطوية على جوها — فغلب عليها ، يومئذ ، طابع التسامح واصبحت مقصد الكتاب والشعراء في العالم العربي . وهذا بدوره شجع حركة النشر والتوزيع وأحدث نشاطا لا حد له في الحركة الادبية .

في مثل هذا الجو المتمتع بالحرية والتسامح الذي كان يتوق اليه الكاتب العربي في كل مكان استطاعت « الآداب » ان تشق طريقها الى محل الصدارة في أقصر وقت ممكن .

وكانت الفترة التي نشأت فيها « الآداب » ، فترة الخمسينات ، هي فترة التجديد الواسع المبدع في الشعر العربي ، وفي الادب أيضا . وتفاعلت المجلة الناشئة مع هذه الموجة الجديدة التي امتدت وانتشرت سريعا في العالم العربي من بغداد الى دمشق والقاهرة وبيروت ، وتبنت معركة التجديد ، مفسحة المجال لذلك النقاش التاريخي الحاد الذي تبع حركة الشعر الحر . ان

« الآداب » سجل وثائقي مهم لتطور المفهوم الشعري في مطلع الخمسينات وعلى صفحاتها وصل رواد حركة التجديد الشعري الى الشهرة والتمرس . حتى اذا جاءت « شعر » سنة ١٩٥٧ وجدت القائمة معدة ، تكاد تكون كاملة ، ولم تحتج الى أن تخوض المعركة التي نشبت اثر الصدمة العنيفة التي احدثها الشعر الحر في الحساسية الشعرية الموروثة ، فقد خاضتها لها « الآداب » ، ومهدت طريق التجديد ووجهت الحساسية الشعرية عند جيل الشبان في مطلع الخمسينات نحو تذوق الايقاعات الجديدة والتفاعل مع المحتوى الحديث . وبدأت « شعر » من هذه القاعدة الممهدة لتصل بفكرة التجديد الى مستوى العقيدة الفنية .

ومن أهم ميزات الدور الذي لعبته « الآداب » ، ولعله أهم أدوارها ، هو انها وقفت الى جانب الثقافة الحديثة ودعت الى المعرفة الواعية بالنقد والادب الغربيين ، ولكنها وقفت في الوقت نفسه بقوة الى جانب التراث العربي الروحي والادبي ، ودعت الى التمرس بالاصالة العربية في اللغة والروح . قدمت للقارىء سارتر وكامو وبوفوار واليوت ولوركا وكولن ويلسون وكثيرين من الادباء العالميين ، دون أن تسهم في تعميق الاحساس بالنقص تجاه الفكر الغربي . انها لم تمجد قط الابداع الغربي على حساب الابداع العربي ولم تسمح بالشك في الحضارة العربية وامكاناتها وقدرتها على الحياة . قلة من نقادنا الحديثين استطاعوا أن يتجنبوا تحميل القارىء عبئا لا ضرورة له من مركب النقص والاحساس بالعجز ازاء حضارة الغرب (من هذه القلة مارون عبود ، احسان عباس ، رجاء النقاش مثلا) . أن تاريخ النقد العربي الحديث تاريخ مرهق بعدد النقاد الذين قارنوا مقارنة مجحفة بين التراث الادبي العربي والادب الغربي الحديث فشذبوا الاول ومجدوا الثاني بلا حساب .

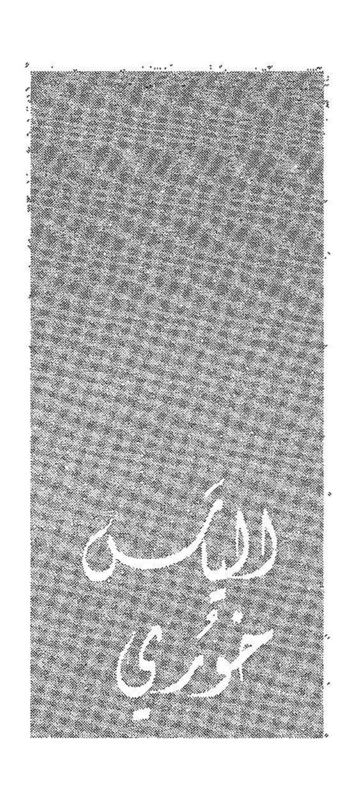
لا شك أن في حياتنا المعاصرة واخلاقنا المعاصرة الكثير مما يجب رفضه والاصرار على تغييره . غير ان هؤلاء النقاد لم يدركوا ان البناء الصحيح لا تقوم به الا النفوس المعافاة التي تدرك حتمية الاوضاع المعاصرة وتعتبر نفسها وريثة الحضارة الانسانية جميعها ، في الشرق وفي الغرب . « الآداب » ادركت هذا . وكان اسلوبها واهتماماتها (انتقاؤها للمواضيع ، برنامجها ، استفتاءاتها ، مناقشاتها) تشير الى ثقتها بمستقبل الحياة العربية وبقدرة الانسان في العالم العربي على تجاوز حاضره وعلى الابداع . وكان هذا من بواعث نجاحها واستمرارها .

ولقد كانت « الآداب » صوتا عربيا انطلق مؤكدا وحدة الحضارة والمصير ووحدة الحركة الادبية في العالم العربي . ومن يدرس هذه المجلة عبر السنوات يتأكد من تفاعل التيارات الادبية بعضها مع البعض الآخر في العالم العربي وانسجام الحركة الادبية فيه .

هل كانت رغبة « الآداب » في التعبير عن روح العصر وفي تنشيط الحركة الادبية المعاصرة هي السبب في عدم اهتمامها بدراسة الادب العربي الكلاسيكي ، بشكل خاص ؟ لا شك أن منهاجها العام كان مبنياً في الدرجة الاولى على الاهتمام بالاحداث الادبية المعاصرة وبما يحدث في الادب من تغيير وتجديد في المرحلة . غير ان سببا آخر قد يكمن وراء ذلك . فحتى مطلع السبعينات كان اغلب الذين هاجموا الادب الكلاسيكي والتراث يجهلونه ، وكان اغلب الذين دافعوا عنه تقليديين سلفيين لا ينفع هذا الادب دفاعهم . ولعل « الآداب » كانت تدرك هذا فتجنبته .

هذه بعض النقاط الايجابية التي تميزت بها « الآداب » . وبقي نقطة اخيرة احب ان اذكرها ، وهي ان « الآداب » ليست مؤسسة عامة كالهلال والمقتطف وروز اليوسف التي تلونت باللون المحلي العام بحيث تستطيع أن تغير محرريها وادارتها دون أن يحدث تغيير جذري في منهاجها او روحها . « الآداب » تختلف عن هذا ، فهي في روحها واسلوبها ذات علاقة صميمة مباشرة بشخصية صاحبها ، تستمد طاقتها مجددا في كل عدد من طاقة محرريها وتتلون بسياستهما ومفهومهما للادب والحياة . وان ما ينقذها من سيطرة الاسلوب الفردي عليها هو ان في موقف صاحبيها تجاوبا مستمرا مع روح العصر العامة وتطلعات جمهور القراء في العالم العربي .

سلمى الخضراء الجيوسي



أسئلة المرحلة الشعرية

تثير استعادة الماضي اسئلة في الحاضر . وتثير قراءة الشعر الاسئلة الاولية في مسار ما نسميه اصطلاحا بالحركة الشعرية الجديدة . والاسئلة هي المدخل الاولي للبحث . فالمسألة التي كتب حولها الكثير ، ودارت حولها نقاشات لا تحصى ، لا تزال تطرح اسئلتها البديهية . والمسألة الاولى ، من اجل فهم وتقييم مرحلة شعرية كاملة، تبقى في كيفية طرح هذه الاسئلة .

ربما كانت « الآداب » في مسيرتها الثقافية والشعرية، مدخلا ممكنا لطرح اسئلة الشعر . فهي منذ عام ١٩٥٤، حين نشرت قصيدة بدر شاكر السياب « انشودة المطر »، القت بنفسها في نار البحث عن اللغة الشعرية الجديدة، دون ان تحتكر هذا البحث. فكان الشعر يتعدد بتعدد منابره وتعدد اصواته . لكن مراجعة « الآداب » تسمح لنا على الاقل بان نكتشف الاسئلة ، لا من خلال النصوص التي نشرت فقط ، بل ومن خلال النصوص التي لم تنشر او التي نشرت في اماكن اخرى . ولا من خلال التوجه النقدي المعلن فيها فقط ، بل ومن خلال التوجه النقدي المعلن في مرحلة شعرية كاملة ، بات من الضروري الآن استعادة ملامحها السابقة وطرح الاسئلة حولها .

سوف نحاول ان نطرح مجموعة من الاسئلة . فالسؤال حين يتحدد يفتح امكانية الجواب. وهو ضروري ، من اجل ان نصل الى تحديد دقيق للمصطلحات التي نكتبها. ومن اجل اخراج لغة النقد من مجانية اللغة السائدة .

يمكن طرح اسئلة المرحلة الشعرية بطرائق مختلفة .

يمكننا ان نستخرج اسئلة النص الشعري من النص نفسه . لكن هذه الاسئلة ، التي لا بد منها باعتباها اساس العملية النقدية ، لا يمكن الوصول اليها خارج رسم الاطار العام الذي تتحرك فيه الحركة الشعرية . اي ان الانطلاق من النص ، يفترض اساسا ، وضع النص داخل مرحلته التاريخية ، داخل المستوى الايديولوجي العام ودون اهمال خصوصيته الادبية، اي دراسته ضمن المستوى ايضا .

كما يمكننا ان نطرح مجموعة من المفاهيم وندرس تطورها نقديا، وفي العلاقة بالنص الادبي : القصيدة ، اللغة الشعرية ، الرمز ، الاسطورة ، الصورة ، البثية ، الايقاع ، قصيدة النثر الخ .

لكننا نفضل ان نتدرج في عملية طرح الاسئلة . فنحن نفترض انفجارا في التعبير عبر عن نفسه في قصيدة جديدة ، وداخل لغة شعرية جديدة . فكيف نحدد الانفجار هذا ، وكيف تقرأ القصيدة ؟

يبدو ان مسألة تقييم الحركة الشعرية المعاصرة ، في السنوات الثلاثين الماضية ، لا تزال على المستوى النظري خاضعة لجدل شديد . فرغم ان الشعر نفسه ، قد حسم مسألة القصيدة الجديدة ، فان هذه القصيدة لا تزال تبحث عن مكانها وفعاليتها وسط تاريخ ثقافي وادبي معقد ومليء بالانعطافات الحادة . فاللغة الشعرية الجديدة ، لم تكن مجرد تنويع على بنية القصيدة ، كما فعل الشعر الاندلسي ، او لم يكن هذا هو طموحها المعلن . لذلك وضعت نفسها منذ البداية ضمن طموح جذري ، ورسمت عبر هذا الطموح، تاريخا من التجاوز والاخفاق. لكنها كانت على الاقل ، مؤشرا لمرحلة ثقافية كاملة .

تطرح لنا استعادة الماضي اسئلة في الحاضر وعن الحاضر فنحن لا نؤرخ . انما نحاول ان نستكشف اساسا لقراءة القصيدة في واقعها الراهن ، وفي الاحتمالات المستقبلية التي تبشر بها .

١ –

« والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني . وانما الشأن في اقامة الوزن وتميز اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء . وفي صحة الطبع وجودة السبك . فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ».

يضع الجاحظ في هذا النص،حتى ولو نقضه بعد ذلك ولم يتقيد به في تطبيقاته النقدية ، النقطة المفصلية التي تشكل الشعر .المعاني مطروحة في الطريق .وما على الشاعر سوى تنظيمها . اي وضعها في شكل فني . لكن وضع المعاني المطروحة والتي يعرفها الجميع في شكل فني ، تقود الى اعادة تنظيمها كمعان . اي انها تتغير وتأخذ ابعادا جديدة . هذا هو ما نسميه نحن اليوم بالابداع . فالمبدع لا يخلق الاشياء من العدم . يأخذها من حيث اتت : من الطريق . ويصنعها مرة اخرى ، اي يبدعها في شكل جديد . والشكل الجديد يحررها من المعنى السابق ، اي يعطيها المعنى او يضعهافي احتمالات دلالات . هنا يكمن الابداع . او هنا تكمن العملية الابداعية التي تعطي النص ابعادا متجددة في الزمن .

لم نأخذ عبارة الجاحظ لندرسها ، او لنفصلها عن سياقها التاريخي . فهي يجب ان تدرس داخل مكانها التاريخي الحقيقي ، ضمن الجدل النقدي العربي القديم . لكن هذا النص ، وعبر قراءته في وضعيتنا الثقافية الراهنة ، يطرح علينا سؤالين محددين :

المعاني مطروحة في الطريق

عن اي طريق نتكلم . وفي اي شوط تاريخي . على المستوى الشعري والادبي كان كل شيء يهتز منذ ان جاء الغرب الامبريالي غازيا . فلقد ترافق التدمير الذي اصاب بنية الانتاج المحلية ، مع الجيوش القادمة بهدف تقطيع المنطقة افقيا ، بعد أن قطعها الرأسمال الزاحف عموديا . اما على مستوى الثقافة والفكر فقد قاد ردالفعل الى اطر تشبه الهذيان . وكانتمحاولة الصد التراجيدية التي عبر عنها فكر الافغاني، هي مزيج من الذهول ومحاولة التركب في سياق الانهيار . اما على المستوى الادبي ، فهذه هي المرة الاولى التي يأتي فيها النموذج صاعقا من الخارج . لم يتعرض الادب العربي في تاريخه لهزة بمثل هذا العنف . لا يمكن مقارنة الظرف الجديد بمرحلة نمو الترجمات الفارسية والهندية ولا بانكسار العمود الشعري وبروز المحدث مع ابي تمام وابي نواس . الذي يجدي ، هو انه على المستوى الادبي ، يفقد النموذ[illegible]م ودفعة واحدة ، كل نموذجيته وسحره . فمع [illegible] الترجمة وتراكم المدينة الجديدة ، وتراكم الاجهاض القومي، كانت الحركة الادبية تواجه نفسها ، ولاول مرة عاريةامام النموذج الجديد وامام تحدياته . واذا كان الانتقال الى القصة الفنية ، قد تم دون انهيارات على صفحات الصحف، وكتلبية للحاجة الاجتماعية الجديدة التي تتمثل في نمو المدينة ونمو الصحافة ، فان الانتقال الشعري ، قد مر هو الاخر بمراحل مختلفة تبدو في الواقع وكأنها محاولة سريعة او متسرعة لاستعادة تاريخ الشعر العربي وحرق مراحله . فمع ما يسمى بحركة الاحياء ، ثم الحركة المهجرية ، التي اعطت اللغة الجبرانية ، وصولا الى « الديوان » ورومانسية « ابوللو » وابو شبكة ورمزية اديب مظهر وغيره ، بدا وكأن الشعر العربي باعلامه الكبار، قد وصل الى الطريق المسدود .. وخير نموذج لهذا السد هو ما يمثله الجواهري في عبقريته التي استطاعت ان تتجاوز حركة الاحياء والاستعادة وصولا الى محاولة استقراء الحاضر والتقاط نبضه الاجتماعي داخل هذه اللغة . لكن هذا الافق كان مسدودا . فالتغيير واحلامه ، الحركة الاجتماعية الجديدة بشعاراتها القومية والاشتراكية ، بدأت تطرح افقها . وبدا وكأن لغة الاحياء والاستعادة بدأت تفقد ارضها في ظل مرحلة انتقالية معقدة .

امام انكسار الماضي ، وانكسار الذوق العام القديم، كان صراع الخيارات الدموي في اوجه . وكانت هزيمة ١٩٤٨ هي التتويج العملي لمرحلة تاريخية سقطت قبل ان تبدأ .

هذا هو مقياس الترجرج الهائل الذي عرفته الحركة الشعرية في مراحلها المحترقة السريعة الذبول . فلم يكن النسق واضحا حتى تصبح المعاني المرمية في الطريق اطارا للدلالة . فكان الجدل الرئيسي على المستوى الثقافي هو جدل الطريق التي تتبع . وكان الصراع الرئيسي بين « الحداثة » وبين اعدائها صراعا على الافق والحدود ،على موقع عمود الشعر ودرجة التلاعب به . وربما قدمتنازك الملائكة في شعرها وفي تنظيرها للشعر الحديث ،افضل نموذج لحوافز لجم المد الذي بدا وكأنه جامح الى درجة تدمير التراث العربي .

لكن السطح الحاد كان يخفي فيداخله هدوءا شبه كلاسيكي . هو قدرة الماضي التراثي بادأته الخاصة – اللغة العربية – شبه المقدسة ، على ان يرسم من خارج ايقاع الذاكرة ، ايقاعا لذاكرة جديدة تحد من الجموح . فالاعصار الذي تعرض لهكل شيء في الشرق لم يستطع ان يخترق تخوم اللغة . بل اخضعها لانحناءاتمتعددة. هكذا استطاعت اللغة ان تستوعب الترجمات دون ان تفقد على مستوى فنيتها – اي حين لا تكون فقط اداة اتصال بل مادة ابداع – علاقاتها الماضية وضوابطها . فاستطاعت ان تنحني ، وفي انحنائها استطاعت انتتجدد ليس فقط في الشعر ، بل وانطلاقا من الشعر في جميع مجالات الكتابة .

الشعر نموذجي كمؤشر . فلقد حمل في ثناياه جميع اشكال الانفعال والتوجه الشمولي الذي يحمله الفكر العربي . فهو ليس شعر التفاصيل . اي انه لم يمس التفاصيل اليومية الا عرضا . كان في اغلبه شعرا عاما

وشموليا ، يستعير التفاصيل احيانا من اجل استخدامها. او يتوكأ على الماضي والتراث ، من اجل ان يقول عبرهما ما عجزت اللغة « الفكرية » عن قوله . فقام هو باحراقها وصولا الى النتائج . انه اختيار لطريق التغيير . لكنه تغيير من طبيعة خاصة ، محاولة لاستنطاق الحاضر انطلاقا من لغتين :

لغة الماضي بكل ما تحمله من مقاومة تراثية للهيمنة القادمة والتي لا يمكن ردها .

لغة المستقبل او اللغة الجديدة القادمة مع النموذج الجديد .

وبين اللغتين ، كان الواقع ، اي التجربة الاجتماعية، يبحث عن لغته وعن اشكاله .

الشعر صناعة . صناعة الشعر تصبح بهذا المعنى واستنادا الى هذا القياس ، صناعة تنكسر من داخلها ، مليئة بالتناقضات ومشرعة للجدل . بين اللغتين انكسرت لغة الشعر . انكسر العمود . وشكليا على الاقل ، بدأت قصيدة التفعيلة تنتشر وكأنها هي اللحمة بين القطبين اللذين يشدان القصيدة . او يشدان المؤشر الثقافي الذي يمثله الشعر .

على مستوى الصناعة كان اثر اللغة الجديدة ساحقا. فجرى تجاوز ايقاعي مذهل في سرعته . فبعد قصيدة التفعيلة الخجولة ، جاء الرمز والايقاع الداخلي والصورة الجديدة وقصيدة النثر بكل الجدل الذي احاط بها ، ليعلن تطورا وقطيعة مع الماضي الشعري باسره . واصبحت الترجمات الشعرية لايليوت ، وباوند ، وسان جون بيرس الخ ، هي المقياس الجديد الذي تقاس به القصيدة .

تقود هذه الملاحظة الوصفية الى نتيجة بالغة الخطورة. فلقد أصبح الشكل الجديد هو تاريخ القصيدة . اي ان دراسة الاشكال وتطورها ، اصبح هو الوسيلة الوحيدة لفهم هذه الحركة الجديدة وتقييمها .

غير ان هذه الاندفاعة الشكلية لم تكن دون مقدمات. انها ، وعلى الاقل في مراحلها الاولى ، اوصلت مقدمات التأثر بالنموذج الغربي الى نهاياتها المنطقية . فالمسألة لم تكن تجاوزا للرومانسية . كانت محاولة ضرب نموذج محدد . لذلك كتبت القصائد الجديدة الاولى باسرها بنفس رومانسي . هكذا وصل النموذج الجديد الى بدايته الشكلية على الاقل .

هل من المنطقي ان تؤخذ المعاني من طريق ويؤتى بالصناعة من طريق آخر ؟

وهل تبدأ حركة شعرية من لحظة تجمع بين طريقين ولا تعرف طريقها ؟.

٢ ـ

ليست مسألة بداية القصيدة الجديدة مجرد مسألة تاريخية . هل بدأت بقصيدة الملائكة ام بالسياب ام بالحيدري أم بمحاولات لويس عوض المبكرة ام الخ ؟فالجو العام الذي نشأت فيه القصيدة الجديدة كان جوا مستعدا حتى الاشباع لتقبل انفجار ما في الشعر . لكن هذا الانفجار مع كل الصخب الذي رافقه ، كان يحكمه تناقض داخلي :

ـ لغة رومانسية ورؤية رومانسية في قصائد لم تستكمل شكلها ، فبقيت تترجرج بين الايقاع العمودي بكل تنويعاته وبين ايقاع جديد .

ـ تنظير سريع ، يطرح هذا التحول الشكلي بوصفه بداية ثورة حقيقية في الشعر .

يؤكد هذا التناقض على مسألة بالغة الاهمية . فالولادة الشعرية مع ما رافقها منه انقطاع لاحق ، كانت تتهيأ في أحشاء التجربة الشعرية العربية منذ اوائل القرن . فقد تم استيعاب الانجاز اللغوي في تجربة المهجريين ، والايقاع الجديد القادم مع اللغة الرومانسية. وسط هذا الجو ولدت القصيدة الجديدة ، وهي تحمل جميع سمات العمود الشعري . حتى ايقاعيا ، فقد بقيت التجربة ضمن هذا الاطار ولم تخرج عنه . لكنها من جهة اخرى كانت تحمل عناصر اخرى استطاعت ان تأخذ من انكسار العمود الشعري امتدادا الى كسره نهائيا . ومحاولة تأسيس قصيدة جديدة . اي محاولة كسر الايقاع وكسر الرؤية القديمة . وهذا لن يأخذ اكتماله الا في التجربة السيابية ، وفي اكثر لحظاتها نقاء وبلورة . في قصيدة انشودة المطر .

انشودة المطر هي الاطار الذي استطاع ان يحسم جدل القصيدة الجديدة ، وان يرسم ملامحها في اتجاهات ثلاثة :

١ ـ الايقاع ، حيث تم وبشكل نهائي استغلال التفعيلة الخليلية داخل نسج موسيقي جديد . اي ان موسيقى القصيدة ليست عاملا خارجيا يتحدد سلفا بالوزن والقافية . فالايقاع يتحدد في القصيدة ويشارك في تحديدها . هنا ، يستخدم الموروث الشعري في خدمة الرؤيا الشعرية الجديدة . من هنا ، تأتي مقدرة القصيدة على استنبات لحظاتها الايقاعية منذ المقطع الاول ، وان غرقت بعد ذلك في رتابة ايقاعية نسبية ، كانت اللازمة الايقاعية ـ مطر ، مطر ـ تحاول انتشالها منها .

٢ ـ القصيدة كبنية تتحدد برمز يحملها .

لا يزال الرمز في « انشودة المطر » شفافا . عشتار والصلوات الوثنية تحمل القصيدة وتقيم مسافة بينها وبين مرجعها الواقعي ـ اطارها السياسي الايديولوجي ـ لكنها لا تلغي العلاقة بينهما ، تقيم مسافة . تجعل الحيز الشعري حيزا لا يمكن قراءته من الواقع بشكل مباشر، كما لا يمكن استخدامه بشكل ذرائعي في قراءة الواقع. فهي لا تقول حكمة . ولا تشير الى رأي يتحول الى شعار. انها تبني مستواها الخاص . تؤكد بنيتها . وتتحدد انطلاقا من هذه البنية .

٢ - الوحدة الاساسية في القصيدة هي الصورة .

فالايقاع الذي يتقاطع بالرمز الاسطوري داخل بنية القصيدة ، تعيد الصورة تنظيمه التفعيلي الداخلي . فالصورة الشعرية بكل اتكالها على المووث العربي (الجناس ، الطباق ، التشبيه ، الاستعارة ، الكناية ..) تصبح هنا اكثر من مجرد لقطة خارجية لمشهد ما . تصبح وحدة صغيرة داخل وحدة كبيرة .

تشكل هذه السمات ، الاتجاه الرئيسي في القصيدة الجديدة . لكن السياب لا يشكل نقطة انقطاع . انه حلقة وسيطة بين زمنين شعريين . فهو حين يؤسس الجديد، يؤسسه بلغة قديمة يتوكأ عليها ، دون ان تجرفه الى اطرها الجاهزة . وبرؤيا جديدة تريد ان تحيل القصيدة الى عالم مليء بالاحتمالات ، يؤشر للعلاقة الواقعية دون ان يكون مجرد صدى لها .

القصيدة الجديدة هي بهذا المعنى اداة تجربة وارض تجربة . وانطلاقا من هذه المعطيات استطاعت ان تستجيب بادواتها لظاهرة انكسار الريف في مدينة تابعة . هذا الانكسار الذي بدأ جزءا من لغة الماضي الرومانسية استطاع ان يتجاوز هذه اللغة . فالريف لم يعد حنينا الى ماض ، بل اصبح دلالة جديدة في لهجة الانبعاث التي بشر بها الشعر .

هكذا ترتفع اصوات ادونيس وخليل حاوي ويوسف الخال في محاولة للانبعاث ، وضمن الرمز التموزي الذي يسيطر على المرحلة .او هكذا تنحني لغة حجازي الرومانسية لاعصار المدينة ، وتفتت واقعية البياتي اللحظات في لهجة شبه رومانسية .

القصيدة الجديدة بهذا المعنى ليست قصيدة التفعيلة . انها قصيدة تحمل رؤيا خاصة وجديدة داخل لغة انشطارها الداخلي التي اشرنا اليها . وهي بهذا المعنى كانت مؤشرا لتغيرات محتملة في الواقع . لغة جديدة تحاول ان تسمي واقعا جديدا .

٣ -

كيف نؤرخ للحركة الشعرية الحديثة وما معنى ان نؤرخ ؟

ان نؤرخ نعني اولا ان نصنف . اي ان نقدم اقتراحات لتيارات يمكن ان تدرج داخلها الحركة الشعرية الحديثة . والتيارات مسألة بالغة البساطة والتعقيد في آن . بسيطة : لانها تستطيع ان تقدم وصفا خارجيا للموضوعات والهموم : قصائد الحب وقصائد السياسة كما يسميها احد الشعراء : او الشعر الوجودي ، او التركيز على الموقف السياسي . ان هذا التصنيف الموضوعاتي (تيماتيل) ممكن ، لكنه لا يفود في الواقع الى شيء اكثر من الوصف الخارجي الذي يؤكد على المعنى او المضمون ، وهو لا معنى ولا مضمون له . فالمسألة اكثر تعقيدا : لان الاشكال الشعرية لم تنتج بانطباق مع التوجهات السياسية - الايديولوجية . وهذا دليل حالة ثقافية يجب عدم الاكتفاء بوصفها الخارجي .

يمكن ايضا اعتماد مبدأ المرحلة . اي تقسيم هذا الشعر الى مراحل: المرحلة الرومانسية، المرحلة الواقعية، المرحلة التموزية الخ . وهذا التقسيم بدوره غير ممكن . فالمراحل لا تتزامن فقط بل تختلط . ونكتشف من خلال قراءتنا للوصفية الشعرية العربية ، ان المسألة لا تزال بحاجة الى دراسة او الى لغة نقدية جديدة تستطيع ان تتجاوز هذه الاسماء .

هناك امكانية اخرى . هي دراسة مفهوم القصيدة . هذا المفهوم الذي حاولنا الاشارة اليه في قراءتنا السريعة لقصيدة السياب . يمكن ان يشكل هذا المفهوم مؤشرا للحركة الشعرية باسرها . وقد اخضع هذا المفهوم لتعديلات متعددة في مسار التجربة الشعرية المعاصرة . لكنه يمكن ان يشكل اساسا لفهم الخط البياني لتطورها . لكن المسألة التي تعترض هذا النسق من الدراسة هي انعطافات التجربة الشعرية نفسها . فهذه التجربة التي استطاعت ان تشكل ما يشبه النسق او الذاكرة ، لا يمكن دراستها من خلال ذاكرتها . لانها في تجاوز مستمر .

الانعطافات والتجاوز المستمر ، تعني ان النسق في القصيدة العربية ليس مفقودا، لكنه صعب التحديد وهذا يعود اساسا الى عاملين :

- مرحلة الانتقال التي تعيشها الثقافة العربية . وهي مرحلة بالغة التعقيد في ظل صراعات وطنية وطبقية مستمرة .
- علاقة هذا الانتقال بالنموذج الذي يقدمه الادب العربي . هنا يلعب هذا النموذج دورا تحريضيا من أجل حرق المراحل والتأثر بها .

بين هذين العاملين تصبح مسألة كتابة تاريخ المرحلة الشعرية مسألة تتجاوز الشعر . فبنية القصيدة في تعرجاتها المختلفة تبدو مؤشرا للحظة ثقافية كاملة .

هل هذا يعني ان الطريق الى قرارة الشعر هي قراءته نفسه . اي دراسته تفصيليا ومن الداخل . ومحاولة تصنيفه انطلاقا من علاقاته الداخلية ومن لغته، وربطه بعد ذلك بالمستوى الايديولوجي العام . اي ان الدراسة الداخلية تصبح هي الطريق الاساسي ؟

ولكن حين نتكلم عن تاريخ الشعر او تاريخ الادب ، الا يحق لنا ان نتساءل هل للادب تاريخ ؟

الادب بوصفه شكلا ايديولوجيا لا تاريخ له . كما ان الايديولوجيا لا تاريخ لها . هناك تاريخ سياسي ، اي تاريخ للصراعات الطبقية والاجتماعية . لكن هذا الافتراض لا يلغي النسق . فهناك نسق للانقطاعات في الادب . وهذه الانقطاعات هي بدورها جزء من الحركة الفكرية العامة . لكن النسق يحتاج الى نموذج . والنموذج لا يقدمه الماضي الذي انتهى ولا الرأسمالية الغربية .

فالنسق الادبي العربي لا يمكن دراسته الا انطلاقا من داخله. اي من القيم والاشكال التي يحاول ترسيخها ، وعلى اساس مستقبلها . فتاريخ هذه المرحلة الشعرية لا معنى له خارج مستقبلها . اي انها لم تكتب الماضي ، بل كتبت اشارات الى مستقبل ما .

٤ -

كانت المرحلة الشعرية في طرحها الاساسي جوابا او محاولة جواب على تقنين الشعر وقولبته . لكنها ، ومنذ البداية ، لم تكن موحدة على المستوى الايديولوجي . ففي منبريها الرئيسيين، «الآداب» و«شعر» ، ثم في منابرها المتعددة بعد ذلك، كان واضحا مدى الاستقطاب الايديولوجي والسياسي الذي تتعرض له .

فالمنبر المجلة ، هو جواب داخل ظرف محدد . انه موقف . وهو مسيّس بالضرورة . لذلك كانت المعركة الرئيسية بين «الآداب» و «شعر» تعبيرا عن خيارات سياسية محددة ، وانتماءات ثقافية بدت مختلفة .

والآن بعد احتجاب شعر ، وخفوت الهم التحديثي في الآداب ، وبعد تغير الظرف السياسي ، نستطيع ان نترك جانبا العامل الظرفي ، لنحاول ان نكتشف على المستوى المنهجي والفكري جذور الخلاف .

يمكننا ان نلاحظ اقترابا في التوجه من خلال نقطتين

النموذج . هو الثقافة الغربية . الوجودية او الليبرالية . تجري معالجة النموذج من خلال الخطتين متداخلتين . انه في الخارج : اي انه تجربة خاصة وجديدة ومختلفة ويجب تمثلها . وهو في الداخل : فالعالم قد وحدته الرأسمالية كما وحدة الصراع . وبالتالي فلا وجود لغرب واحد . الغرب نفسه يخضع لمنطق الصراع . لذلك يجب البحث عن مصادر التأثر والتأثير . لكننا نلاحظ اختلاطا في هذه المصادر . بينما تحافظ «شعر» على خط ظاهري شبه متماسك، نكتشف ان هذا التماسك الظاهري تخترقه الصراعات العنيفة التي لا يمكن طمسها باسم القيم الفنية. اما « الآداب » فانها رغم تركيزها على جانب الالتزام – النموذج الذي يقدمه سارتر – فانها مرت في مراحل متعددة ، كان يحددها الانتماء السياسي وتغير التحالفات السياسية . فالآداب تؤكد دائما على انتمائها السياسي الواضح .

نلاحظ هنا ، ان الهم في بدايات الحركة الشعرية الجديدة كان هما تأسيسيا . ومن اجل التأسيس كان كل شيء ممكنا . التأسيس . يقود الى محاولة استخدام جميع الوسائل الممكنة والمتوفرة في سبيل الوصول الى غاية محددة . من هنا . كان الغرب . على المستوى النظري . وسيلة في سبيل انجاز محلي . كجزء من عملية الثورة القومية او كجزء من الحداثة .

الانبعاث . الانبعاث الحضاري ، الرمز التموزي ، العنقاء ، طائر الفينيق ، هي القاسم المشترك في مرحلة شعرية كاملة. وفكرة الانبعاث تبدو وكانها محاولة لاستكمال عصر النهضة العربية . انها استعادة للماضي . لكنها في تبلورها الشعري لا تستعيد القديم بشكل مجاني . بل توظفه في خدمة مشروع جديد . بوصفه نموذجا . او اطارا او رمزا . لذلك غرقت في الاسطورة . والاسطورة هي وعاء . مجرد وعاء للحظة جماعية هاربة . العودة الى الماضي ليست عودة نقدية، انها عودة وظيفية . توظيف للماضي في سبيل هدف آخر . والماضي ليس واضحا . انه المرحلة الاسلامية . او المرحلة ما قبل الاسلامية . لكن هذه العودة هي مشروع حذف الواقع . والحذف لا يقود الا الى السقوط في الماضي . اي السقوط في المسألة التي يحاول الشعر استخدامها وتجنبها في آن. فموضوعة الانبعاث برموزها واساطيرها ، تصبح حدا سياسيا ظرفيا او تصبح طريقا الى الحداثة لن تلبث في النهاية ان تكتشف طريقها المسدود في جدار اللغة . كما اعلن يوسف الخال معلنا موت مجلة شعر .

اما نقاط الخلاف فكثيرة تبدأ بالتركيز على علاقة الشعر بالسياسة . حيث يلعب الهم السياسي المباشر دورا رئيسيا فيه بتحديد المسألة في الاداب او حيث بشكل خلفية تغلفها ايديولوجيا مترابطة كما في شعر . لكن مسألة قصيدة النثر تكشف حدود التجربة .

فالنقاش الرئيسي الذي دار كان حول قصيدة النثر ولم تكن قصيدة النثر هي المقصودة . لذلك نجد دعاتها يفقدون « لا لغتهم » في لغة مكررة هي مزيج من الاناجيل والاناشيد والصور الرومانسية . بينما تدخل قصيدة النثر في الشعر العربي وتؤكد وجودها وشرعيتها .

حدود التجربة كانت اساسا حدودا لفهم سائد . فالتجريبية وضعت نفسها في حدود الانبعاث وسقطت في قوالب شبه جاهزة . لكن الحدود التي وضعت . والمقاييس الجاهزة او شبه الجاهزة التي استنبطت بسرعة من اجل وضع حدود للمرحلة الشعرية ما لبثت ان تساقطت جميعها . هنا لا نتكلم عن الكم الكثير من التكرار الشعري . بل نشير الى المجاري الفعلية التي تحدث تحولات في جسد القصيدة تكاد لا تنتهي . والحدود كانت تأتي غالبا في لحظات تعب التجربة الشعرية لتفرض عليها استقرارا ما . هو صدى لمحاولة فرض استقرار في واقع غير مستقر او لردات رجعية ماضوية .

ان النقطة المركزية التي يمكن استنتاجها حين نقرأ الخيارات الشعرية ، هي ان الاطار قد انكسر داخل التجربة الشعرية الجديدة . وهذا الانكسار لا يمكن ان يفهم الا اذا وضع داخل جدل التغيير في بنية اجتماعية تفجرها الصراعات الطبقية والوطنية والاجتماعية المعقدة . فهم التغيير في بنية القصيدة هو اساسا هم استكشاف لغة الجديد اي لغة الصراع .

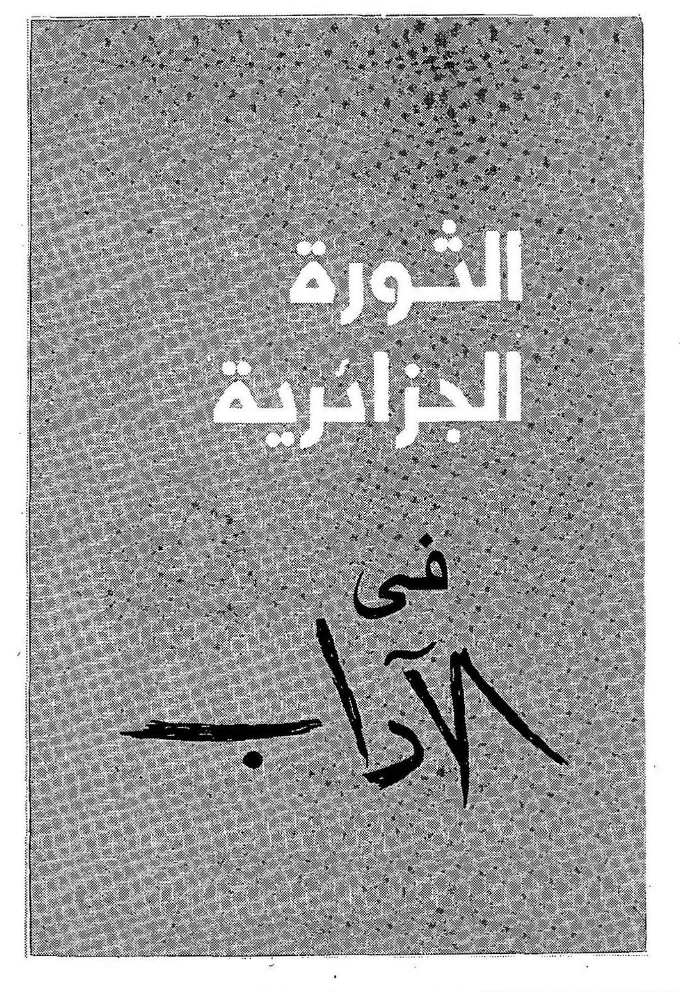
الشعر. بهذا المعنى هو اللغة الجديدة : التجاوز الدائم ورفض القواعد الجامدة او الجاهزة . بهذا الافق نستطيع ان نقرأ انعطافات القصيدة، ونفهم محاولتها الدائمة للخروج من جلدها. هذا يعني ان الشعر الجديد الذي يبدو للوهلة الاولى انه استقر على صيغة ثابتة او شبه ثابتة ، هو في اوج لحظات اثباته . في اوج التحولات. فالكتابة ، كمؤشر ثقافي ، في ظل غياب الديمقراطية القسري ، هي في النهاية لغة اللغة الجديدة . سلاح في وجه الارهاب. اي ان الشعر لا يستطيع متابعة انفجاره الذي بدأ في الماضي القريب ، الا عبر تجاوز اطره السابقة . فلغة المصالحة وايقاع الذاكرة لم تعد تستطيع ان تجيب على مرحلة تبدو فيها الصراعات في اعنف لحظاتها .

اللغة الجديدة لا تنشأ ضمن قوالب جاهزة اوضمن فكر محافظ . فلقد استبيح كل شيء . جميع القيم المتوارثة والمستحدثة والجديدة جرت استباحتها الى درجة التفتيت الاجتماعي الشامل . فلم يعد هناك افق غير ارض الصراع نفسها . ولم تعد اللغة الشعرية مجرد صدى ، فهي كمؤشر ، لا تستطيع ان تتقولب في قوالب جامدة تحافظ على ماض لم يحافظ عليه احد. بل جرى تدميره في سياق الهيمنة الامبريالية وبادوات متعددة .

تسقط كذلك والى الابد القوالب الغيبية التي تدعي التجريبية وهي مستعبدة لنموذج خارجي ، وبل ولاكثر عناصر هذا النموذج رجعية وتخلفا .

تاريخ الشعر هو في مستقبله ، في ثورته من اجل صياغة لغة الثورات والحروب القادمة . وهو بهذا المعنى، اشارة لمسار ثقافي ، لن يأخذ معناه الحقيقي ، الا حين يكتب لغة الصراعات وبأفق مفتوح، وبعض شرط ولادته هو استنباطه للقواعد التي سيهدمها .

بيروت



د. أبو القاسم سعد الله

العودة الى مجلة الآداب في الخمسينات تعني العودة الى شيئين عزيزين على نفسي : الشباب الذي كان حقيقة فاصبح حلما والثورة التي كانت حلما فاصبحت حقيقة. فقد عدت الى انتاج هذه المجلة ابحث عما نشرته عن الثورة الجزائرية فاذا بي اعيش من جديد الايام التي كانت الآداب تصلنا فيها ونحن طلاب بتونس نبحث ، كجزائريين، عن منبع للثقافة العربية التي حرمنا منها الاستعمار في بلادنا . وكانت الآداب عندئذ في نظرنا تمثل تيارا جديدا تقدميا قوميا لا يؤمن به اساتذة الزيتونة ولا طلابها المتزمتون . وكان من يقرأ الآداب عندئذ كمن يقرأ موسوعة ديدرو في القرن الثامن عشر .

ومن حقي ان اكتب عن الآداب لانني قد عاصرتها قارئا وكاتبا منذ عهد الطلب الى اليوم . فرغم انني كنت طالبا في السنة الاخيرة من الثانوية العامة (التحصيل) نشرت فيها اول مقالة بعنوان (أرض الملاحم) . ومع هذا العنوان عنوان فرعي يقرأ هكذا (في طريق الياذة جزائرية) وهذا العنوان وحده كان كافيا لتحديد علاقتي بالثورة وعلاقة الآداب بالجزائر . ذلك ان المقال المذكور قد نشر قبل انفجار الثورة الجزائرية ، التي كرست لها الآداب صفحات كثيرة من أعدادها ، بستة شهور . وكانت هذه الثورة هي (الالياذة) الحقيقية التي تحدث عليها المقال .

وقد ازددت ارتباطا بالآداب يوم نشرت فيها بعض القصائد التي تنوه بكفاح الجزائر وتربط بينه وبين كفاح فلسطين وكفاح الامة العربية في جميع اجزائها ، ثم عندما نشرت فيها ابحاثا عن الادب الجزائري في جميع اشكاله ، محاولا تعريف القراء العرب به ، وخصوصا المثقفين منهم . وقد نشرت ذلك كله بينما كنت ما ازال طالبا في جامعة القاهرة . وكما شعرت الآداب بواجبها القومي نحو المعركة العربية في الجزائر شعرت انا بواجبي الوطني في النضال القلمي من اجل هذه المعركة . وهكذا التقت ارادة الآداب وارادتي فكانت هي تكمل ضعفي الذي يعود احيانا الى عدم النضج بحرارة ايمانها بالمعركة القومية ، وكنت اثبت ايمانها بما اقدمه لها من نماذج حية للادب الجزائري باعتباره مكملا للادب العربي حيثما كان .

وهذا البحث الذي اكتبه بمناسبة العيد الفضي للمجلة لا يغطي في الواقع سوى فترة الثورة الجزائرية ولا يمتد عبر سنوات صدور الآداب الطويلة ، وهي الفترة التي اشتدت فيها فورة شبابي بحدة المعركة في الجزائر

وانعكس كل ذلك على صفحات الآداب التي اصبحت ديوانا يضم عن الجزائر فصولا كتبت ليس فقط عن الادب ولكن عن السياسة والاقتصاد والمواقف الانسانية ايضا .

- ١ -

صدرت الآداب في يناير ١٩٥٣ والحالة السياسية في منطقة المغرب العربي في اضطراب شديد وعلاقة بلدانها، وخصوصا تونس ومراكش (المغرب) بفرنسا متوترة الى اقصى الحدود . فلا غرابة حينئذ ان تبدأ الآداب اهتمامها

باوضاع المغرب العربي . ولكن صورة هذا المغرب لم تكن قد تبلورت بعد في اذهان كتاب المجلة . ذلك ان هؤلاء الكتاب كانوا يستعملون عبارات جغرافية غير محددة نقلا عن المصادر الفرنسية غالبا ، مثل (افريقية الشمالية). وكان اول عنوان اختاره مراسل الاداب في باريس لمراسلته هو (الادب الافريقي بالفرنسية) . وقد تحدث فيها عن روايتين لكاتبين جزائريين وهما (الربوة المنسية) لمولود معمري و (البيت الكبير) لمحمد ديب. وقد حلل الروايتين واظهر مفهومهما السياسي المعارض للاستعمار رغم انهما كتبتا بالفرنسية . وفي المراسلة الموالية عاد الى نفس العنوان وهو (عود الى الادب الافريقي) حيث تحدث عن نيل محمد ديب جائزة عن روايته السابقة وعن قرب صدور رواية مولود فرعون (الارض والدم) وعن كون (الربوة المنسية) لمولود معمري قد حصلت ايضا على جائزة ، الخ . ولكن الاداب سنة ١٩٥٣ كانت ما تزال تتحدث عن الادب الافريقي بدلا من الادب الجزائري ،وكان مصدرها في ذلك (باريس) وليس (الجزائر) ولاحتى المغرب العربي .

غير ان هذا الغموض الجغرافي بدأ يزول بدخول سنة ١٩٥٤ . ففي العدد الاول من هذه السنة خرج الدكتور سهيل ادريس بمقالة عن (القصة العربية في افريقية الشمالية) التي لفتت الانتباه الى ادب المغرب العربي ، كما اثارت بعض التعاليق . وقد ركز الدكتور ادريس على ادب تونس ، وخصوصا انتاج محمود المسعدي . اما فيما يتعلق بالجزائر (التي لم تكن الثورة قد وقعت فيها بعد) فقد اشار الى ضعف مستوى الثقافة العربية فيها ، وحكم بانعدام القصة العربية في الجزائر، وعد من ادبائها بالفرنسية محمد ديب ومولود فرعون . ومما يلفت النظر انه اضاف الى هذين ادباء الفرنسيين المولودين بالجزائر مثل البير كامو وعمانويل روبلس، غير ان الدكتور ادريس ربط في مقالته بين نهضة الادب العربي في المغرب العربي وبين تحقيق الاستقلال والحرية . لذلك تمنى في النهاية حصول « افريقية الشمالية » على استقلالها السياسي حتى تغني الادب العربي بطاقة جديدة .

وسرعان ما بدا اسم (المغرب العربي) يظهر على صفحات الاداب . فقد فتحت بابا بذلك العنوان في قسم النشاط الثقافي في العالم العربي . واستقبلت مراسلات من تونس عن الحركة الادبية في هذا القطر ،ومن مراكش (المغرب) عن القصة العربية في هذا القطر ايضا. وقد استمر هذا الاهتمام بالمغرب العربي في تصاعد . وفي هذه الفترة كتبت في الاداب مقالتي (ارض الملاحم او في طريق اليذة جزائرية) المشار اليها . كما نشرت بعد ذلك فيها ، باسم رشيد الخولي ، تعليقا حول ارض الملاحم . ولكن اهتمام الاداب بالجزائر كان ما يزال ثانويا . فقد كانت اخبارها تاتي من باريس كما اشرنا وليس من المغرب العربي ، يضاف الى ذلك ان كلا من تونس والمغرب كان في انتفاضة سياسية تجلب اليه الانظار ، بينما كانت الجزائر ما تزال في هدوء ، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . وقد هبت هذه العاصفة في فاتح نوفمبر ١٩٥٤ . ومع ذلك فقد انتهى عام ١٩٥٤ من حياة الاداب دون تعليق يذكر على هذا الحدث الكبير.

- ٢ -

وفي السنه الموالية كان هذا الاهتمام ما يزال ضعيفا ايضا . فاذا استثنينا انتاج عثمان سعدي فان الاداب لم تنشر شيئا عن الجزائر جديرا بالذكر . ففي العدد الثالث (١٩٥٥) نشر سعدي مقالة بعنوان (مشكلة الثقافة في الجزائر) عرف فيها بالحياة السياسية والاحزاب وعلاقة الجزائريين بالفرنسيين ونوه بالثورة . وتحدث عن زعماء الجزائر . وانتهى في بحثه الى ان الثقافة في الجزائر قد اتجهت ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الشعبي (لغته العامية - البربرية) والاتجاه العربي التعليمي (لغته الفصحى) والاتجاه الثقافي العام (لغته الفرنسية) . ومهما كان محتوى هذا المقال فانه يعتبر اول تعريف بالجزائر سياسيا في مجلة الاداب.

ولم تمض فترة طويلة حتى اخرجت الاداب بحثا طويلا عن الجزائر اهتمت به اهتماما خاصا حين جعلته (بحث الشهر) وهو (الفن الشعبي في الجزائر) لعثمان سعدي ايضا . وقد ترجم سعدي نفسه قطعة لكامو بعنوان (رجوع الى تيبازة) . ولا تهمنا هنا ترجمة هذه القطعة بقدر ما يهمنا ما دار حولها بعد نشرها . ذلك ان الاداب قد اعتبرت كامو اديبا جزائريا كبيرا حين قالت في تقديم الترجمة « هذه قطعة من روائع الاديب الجزائري الكبيرالبير كامو » ولعل اهتمامها بكامو يعود الى«جزائريته» في نظرها . غير ان هذا قد ينقضه عناية الاداب بكامو الفيلسوف والقصاص ايضا ، كما سنرى ، والنقطة الثانية التي اثارتها ترجمة سعدي ايضا هي ان الاداب قد اختارت لها عنوانا آخر بارزا وهو (صفحات من الادب الجزائري الحديث) . ولا شك ان هذا يعكس اهتمام الاداب بقضية الجزائر اكثر مما يعكس اهتمامها بأدب كامو . فقراؤها كانوا في حاجة الى اخبار الجزائر فيها اكثر من حاجتهم الى اخبار كامو . وقد اعترض الدكتور علي سعد في تعليقه على وضع الاداب (صفحات من الادب الجزائري الحديث) امام قطعة كامو (رجوع الى تيبازة) لان كامو في نظره ليس عربيا ، ومن ثمة فان ادبه ليس ادبا عربيا جزائريا بل هو ادب فرنسي لحما ودما .ورغم ان سعدي قد انتصر لكامو الجزائري وهاجم الموقف العربي في المشرف من ثورة الجزائر ، فان تعليق الدكتور علي سعد كان درسا للاداب التي لا نجدها تذكر كامو مستقبلا على انه جزائري ، باستثناء المولد طبعا .

— ٣ —

ولكن الآداب قد اكتشفت الجزائر سنة ١٩٥٦ ، فقد ضمت اعدادها خلال هذه السنة ابحاثا ضافية عن ثورة الجزائر وعن علاقتها بالاستعمار الفرنسي وعلاقة كفاح الجزائر بكفاح الامة العربية . كما ضمت عددا كبيرا من القصائد والقصص والاخبار التي يتعاطف اصحابها مع الثورة ، وكان هؤلاء من مختلف انحاء الوطن العربي ، بما في ذلك الجزائر نفسها ، كما قدمت الاداب اعمالا مترجمة لكتاب فرنسيين او جزائريين يكتبون بالفرنسية .

فقد صدر العدد الثاني من السنة المذكورة يحمل عرضا لحياةالشهيد زيدونبن قاسم قدمه عثمان سعدي. وكان الشهيد زيدون من الشبان الجزائريين المثقفين الذين تلقوا علومهم في كلية دار العلوم بالقاهرة . وبعد انضمامه للثورة القت عليه سلطات الاحتلال في وهران القبض وحكمت عليه بالموت في الثالث من نوفمبر ١٩٥٤ .

ولكن العدد الثالث ضم خمسة ابحاث عن الجزائر، بما فيها افتتاحية المجلة نفسها . كما ضم قصيدتين احداهما لبدر شاكر السياب والاخرى لكاتب هذا البحث، ذلك ان الآداب قد خصصت القسم الاول من العدد المذكور لقضية الجزائر بمناسبة عرضها على هيئة الامم المتحدة. وكان هذا الموقف من الاداب يندرج في ايمانها « بوحدة النضال العربي » من جهة وفي مشاركتها في التعريف بقضية الجزائر التي جعلتها الامة العربية قضيتها في تلك الفترة . وانتهى رئيف خوري ، الذي كتب عن(الحل الوحيد لقضية الجزائر) الى ان الحل في نظره يكمن في « التسليم باستقلال وطني للجزائريين تنبثق منهجمهورية جزائرية عربية وطنية ديموقراطية » وحلل الدكتور عبدالله عبدالدائم (مآثر فرنسا في الجزائر) ودحض دعاوي فرنسا الحضارية هناك ، وخلص الى ان الموضوع ليس موضوع ازدهار اجتماعي بالنسبة للانسان العربي في الجزائر ، ولكن « المسألة بالنسبة اليه قضية كرامة قومية » .

وترجمت الاداب تعليقا على رواية (نجمة) لكاتب ياسين كتبه الفرنسي موريس نادو ، وجعلت للترجمة عنوانا يناسب احداث ذلك الوقت ، وهو (نجمة رواية الجزائر المناضلة) كما وضعت صورة كاتب ياسين وعرفت بحياته وقالتانه هو مؤلف رواية (الجثة المطوقة) ايضا . وقدمت الاداب لقرائها العرب عرضا لكتاب فرنسي هام عن الجزائر في ذلك الوقت ، وهو (الجزائر الخارجة على القانون) لكوليت وفرانسيس جونسون . فهو اول كتاب يعرض لاصول الاستعمار الفرنسي في الجزائر ويوضح العلاقة بين الانسان الجزائري والفرنسيين . وقد لخصته تلخيصا وافيا استغرق منها حوالي ست صفحات . وانتهى عرضها له بقول المترجم « فالكتاب جدير بان يطلع عليه كل عربي ، وجدير بان يحمل الشكر لكاتبيه، شكر كل مؤمن بالانسانية وبالتحرر القومي » واهتمت الاداب فينفس العدد باخبار النشاط الثقافي فيفرنسا، فاوردت من هناك حديثا عن (الادب وقضية الجزائر) ذكرت فيه بيانين للكتاب الفرنسيين عن حرب الجزائر ، ومهاجمة الاستعمار الفرنسي هناك من طرف الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية ، مثل محمدديب.

وافتتحت الاداب عددها الخامس من نفس السنة (بالديموقراطية والابادة) الذي تحدثت فيه بلهجة شديدة عن مساندة الاحزاب الفرنسية للحكومة ، وهي الاحزاب التي كانت من قبل تنادي بالديموقراطية ومحاربةالطغيان. كما تحدثت عن زيف الضمير العالمي ، وتفاءلت بانتصار الثورة الجزائرية ضد الطغيان والاستعمار . ومما يلفت النظر ان المجلة قد وضعت صورة على غلافها الخارجي لرجل يحمل بندقية وكتبت تحتها « تحية الى ثوار الجزائر العربية » . وهكذا يظهر جليا اهتمام المجلة الكبير بقضية الجزائر وبربط نضالها بنضال الامة العربية .

وفي نفس العدد بحث لعثمان سعدي ، وهو (مأساة شعب وتبلد ضمير) تحدث فيه عن العلاقات الجزائرية ــ الفرنسية منذ الاحتلال وسياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر القائمة على نهب الثروات وتجريد السكان من شخصيتهم العربية . كما ضم العدد قصيدة لكاظم جواد واخرى لكاتب هذا البحث بعنوان (المروحة) التي ترمز الى احتلال فرنسا للجزائر ، واحتوى نفس العدد علىبيان من العراق عنوانه « انقذوا الجزائر العربية ، نداء من المثقفين العراقيين الاحرار الى العرب الاحرار اينما كانوا » وقعه عدد من كتاب وشعراء العراق الشقيق ، منهم السياب ، والشواف ، والحلى ، وجواد ، ونيازي الخ .

ولم يفت الدكتورين سامي الدروبي ومحمد مندور، اللذين علقا على العدد السابق ، تناول البحثين المذكورين ، وهما (الديموقراطية والابادة) و (مأساة شعب وتبلد ضمير) . واستمرارا لهذا الجو ترجمت الاداب مقالة جان بول سارتر عن (نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر) في عددها السادس . والمقالة هي خطبةكان قد القاها سارتر في باريس برعاية لجنة المثقفين للعمل ضد متابعة الحرب في شمال افريقية ، ونشرها في مجلته (الازمنة الحديثة) وقد ترجم المقالة الدكتور سهيل ادريس بنفسه ، ووجه بهذه المناسبة تحية حارة الى سارتر والى جميع الفرنسيين الاحرار .

وتوالت الدراسات والمناقشات والقصائد فيالاعداد اللاحقة . فاحتوى العدد السابع على اربع قصائد لعلي الحلى ، ومحمد النقدي ، ومحمد شمسالدين ، وزهير احمد، وعلى(رسالة الى فتى فرنسيفي الجزائر) كتبها جان سوناك وترجمتها الآداب ايضا . كما احتوى العدد على مناقشتين تعرضان للجزائر وهيمناقشة محيالدين

اسماعيل لمقالة (نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر) لسارتر ، وتعليق كاتب هذا البحث على نقد قصيدة (المروحة) . اما العدد الثامن فقد ضم قصيدتين احداهما لعبدالرضا الطعان والاخرى لكاتب هذا البحث . ولاول مرة تضم الآداب قصة عربية تقارن بين الوضع في الجزائر وفي بلد عربي آخر ، وهي قصة مطاع صفدي (المزيفون والثورة العظيمة) التي جعلتها الاداب في باب (قصة الشهر) ، فقد قارن فيها الكاتب بين نضال الكلام في دمشق ونضال السلاح في الجزائر عندئذ . ولذلك اهداها «الى رفاق لي لم يزالوا في ارض الغبار اقدم لهم هذه القصة من ارض الدم » والعبارة الاخيرة هي التي جعلت الآداب تضيف الى عنوان القصة عبارة « من الجزائر » .

اما الاعداد الباقية من السنة فقد ضمت قصائد لنازك الملائكة وعلي الحلي وجلال السامرائي وقصيدتين لكاتب هذا البحث . غير ان العدد الاخير قد ضم بحثا لكلود بوريه (معركتنا في الجزائر او الخطف المجرم) الذي ترجمته الآداب وعلقت عليه بقولها « لا حاجة بالاداب الى التذكير بوحدة المعركة العربية في كل جزء من اجزاء الوطن العربي الكبير . وان ضراوة المعركة في مصر لن تنسينا الجزائر المجاهدة التي ابتليت بالاستعمار الفرنسي ،هذا الاستعمار الذي اصبح شعاره الاول : الغدر » وهذا البحث كان قد كتب بمناسبة اختطاف فرنسا لعدد من زعماء الجزائر في خريف سنة ١٩٥٦ .

فالآداب اذن قد اكتشفت الجزائر العربية المجاهدة خلال هذه السنة ، ولم تعد تتحدث عنها كشيء ضائع في النطاق الجغرافي « لشمال افريقية » او في الاخطبوط الاستعماري المسمى وحدة الامبراطورية الفرنسية ، بل اصبح للجزائر لدى كتاب الآداب ومحرريها معركتها الخاصة ضد الاستعمار ، وان لهذه المعركة ادبها وفنها واهدافها التي تلتقي مع اهداف النضال العربي الآنية والآجلة .

— ٤ —

وقد اظهرت السنوات اللاحقة صورة هذا التطور بشكل اكثر جلاء . فمنذ العدد الثاني من سنة ١٩٥٧ كتب الدكتور محمد مندور مقالة بعنوان (زحف التحرر العربي) ربط فيها بين تحرر البلاد العربية من ربقة الاستعمار والتبعية فذكر سوريا ومصر ولبنان ومراكش وتونس ثم قال « وها هي الجزائر الباسلة في سبيلها الى التحرر بفضل جهاد ابنائها الابطال ومؤازرة الامة العربية كلها لها في هذا الجهاد » فالامة العربية من الخليج الى المحيط كانت تعتبر نضال الجزائر هو نضالها لانها اكتشفت ان هذا النضال هو شرف لها وانه جزء من حركة التحرر العالمي ضد التخلف .

واهتمت الآداب في نفس العدد ببحث للكاتب الجزائري مالك بن نبي (أسس فعالية اقتصاد افريقي — اسيوي) . وقد صدرت البحث بصورة صاحبه بل جعلته (بحث الشهر الاقتصادي) . والملاحظ هنا انها قد اضافت اليه عبارة « بقلم الكاتب الجزائري لفتا لنظر القارىء الى مفكري الجزائر والى ابطالها معا . وفي باب النشاط الثقافي اوردت المجلة اخبارا عن حركة الارهاب والاعتقال التي تباشرها السلطات الفرنسية في الجزائر بمناسبة عرض قضية الجزائر على الامم المتحدة . ودخلت اسماء جبال الجزائر ومدنها في الشعر العربي وغيره مثل وهران واوراس الخ . وفي هذا الصدد نشر الشاعر احمد عبدالمعطي حجازي قصيدته (اوراس) كما نشر محمود النجدي قصيدة بعنوان (رجال من الجزائر) . وفي العدد الخامس نشر الشاعر ايوب طه قصيدة بعنوان (اوراس) ايضا .

وقد ناقش ناجي علوش في العدد الثالث من هذه السنة كتاب (ثورة الجزائر) لعلي الشلقاني . ونلاحظ ان المناقش قد رفض اجتهادات المؤلف حول القضية القومية في الجزائر العربية ، وقضية ادماج الجزائر في فرنسا ، وقضية الصراع الطبقي واثره في الوحدة القومية ، وكانت للمؤلف الشلقاني تفسيراته لهذه القضايا التي لم يكن فيها ، كما لاحظ المناقش ، ملتزما بوحدة كفاح الجزائر من الداخل ولا بوجهة كفاحها القومية . وقد عاد علوش الى نفس الموضوع في العدد الخامس .

واعطت الاداب اهتماما خاصا لموقف الكتاب الفرنسيين من قضية الجزائر ، فكنت لا تقرأ عددا منها خلال هذه الفترة الا وفيه حديث من مراسلها في فرنسا عن موقف هؤلاء الكتاب . ففي العدد الرابع حديث عن (معركة الجزائر) تناول فيه المراسل المناقشة التي دارت بين فرنسوا مورياك وجان عمروش حول القومية الجزائرية التي يؤمن بها الثاني ويرفضها الاول . وكان مورياك ينادي بالتفاوض مع فرنسا بدل المطالبة بقومية جزائرية مستقلة عن فرنسا . اما في العدد الموالي فقد دارت المراسلة من باريس حول البيان الذي وقعه ٣٥٠ كاتبا وصحفيا وشخصية فرنسية والذين طالبوا فيه بوقف الارهاب في الجزائر . كما تحدث المراسل عن مقتل علي بو منجل الجزائري ووثيقة الكاتب سرجان شرايبر التي اصدرها بعنوان (ليوتنان في الجزائر) .

وهذه النقطة هي التي عاد اليها سهيل ادريس في العدد الموالي عندما كتب تحت عنوان (قضية الجزائر — التعذيب والشرف) وهو يعني بالتعذيب انتحار علي بو منجل هروبا من التعذيب ، وبالشرف موقف موريال الذي اعلن انه لن يكتب الرواية بعد اليوم لان فظاعة الواقع تطرده من ميدان التأليف الخيالي . وتناول الدكتور ادريس في هذا العدد مجموعة من الكتب الفرنسية التي صدرت عن الجزائر وتتحدث عن التعذيب والارهاب هناك . ومنها كتاب شرايبر المذكور ، وكتاب ب.هـ. سيمون (ضد التعذيب) الخ . ومما يلفت النظر ان الدكتور ادريس قد انهى مقالته بهذه العبارات الساخنة « ايها المكافحون

المعذبـون في الجزائر .. لن تكونوا ابدا عراة مـا دمتم ترتدون ثـوب الشرف » .

وفي نطاق التعريف بالقضية الجزائريـة ضم نفس العدد مقالا لعبدالحميد مهري ، مندوب جبهـة التحرير الوطني في دمشق عندئذ تحدث فيه عن الجانب الانشائي من الثورة الجزائرية وعمـا تبنيه هذه الثورة اثناء هدمها للنظام الاستعماري ، وخاصة انعقـاد مؤتمر الصومام التاريخي الذي وضع آسسا صلبة لاستمراريـة الثـورة وضمانات نجاحها .

واستمرت الاداب في نفس الخط في اعدادهـا اللاحقة . فنحـن نجد العدد الثامن قد ضم ترجمة لمقالة سارتر (مجندون يشهدون) التي حلـل فيها نفسية الانسان الفرنسي تجاه قضيـة الجزائر ، وقد جعلتهـا الآداب تحت هذا العنوان (قضية الجزائر ابدا) وتحت هذا العنوان ايضا عاد الدكتور عبدالله عبدالدائم يحلـل مأساة الجزائر من خلال الكتاب الـذي الفه الفيلسوف الفرنسي ، ريمون ارون . ورغم ان ارون كاتب يمينـي واستاذ علم الاجتماع بالسوربون فقد تحرك ضميره ازاء قضية الجزائر ويكفي العنوان الذي وضعه المؤلف ، وهو (مأساة الجزائر) .وحول نفس الموضوع تناول جليل كمال الدين كتاب (اضواء على القضية الجزائرية) الذي الفـه ابراهيم كبه في بغداد . وقد ضم الكتاب سبعة فصـول عن الثورة الجزائرية ، واعتبره المراجع تعبيرا عن المساهمة العربيـة في التعريف بالثورة .

وقد عرف قراء الاداب خلال هذه السنة مجموعة من الدراسات عن الجزائر مكتوبة باقلام جزائرية . وكـان الفضل في تقديم هؤلاء الكتاب يعـود حقا الى الاداب . فقد نشرت لاربعـة كتاب جزائريين على الاقل دراسـات وقصصا . من ذلك بحث المفكر مالك بن نبي (من اجـل ثقافـة افريقاسية) وهـو الذي ترجمه عن الفرنسيـة الطيب الشريف ، وقدم عثمان سعدي دراسة مطولـة عن (الادب الشعبي والمقاومة الجزائرية) وهي دراسـة تاريخيـة ووصفية للادب الشعبي الجزائري وعلاقتـه بالكفاح السياسي وبالثورة . اما الدراسـة الاخـرى فلكاتب هذا البحث تناول فيها الشعر الجزائري المكتوب بالعربية بعنوان (تصميم للشعر الجزائري الحديث). اما في ميدان المسرحية والقصة فقد نشرت الاداب تمثيليـة (عذابات) لابي العيددودو ، وهي من فصل واحد وتقـع احداثهـا في معسكر للجيش بالقرب من بجاية . كما كتب عثمان سعدي قصته (اثنان وثلاثون طلقة) .

— ٥ —

اما الشعر فقد ضعف خلال هذه السنة (١٩٥٧) فلم تورد الآداب منه سوى قصيدة لحبيب صادق ، بالاضافة الى مـا ذكرناه من قصائد لحجازي والنجدي وطه ،بينما ضمت سنة ١٩٥٨ عددا كبيرا من القصائد عن الجزائـر، معظمها خاص بجميلة بوحيرد اثر الحكم عليها بالاعـدام من قبل الفرنسيين . ومن الذيـن ساهموا في هـذه المناسبة نزار قباني ، وشفيق الكمالي ، ونجيب سرور ، ومحمد المصري ، وعيسى الناعوري ، وسليمان العيسى، وحسن البياتي ، وعلي الحلي ، ومحمد الفيتوري ، وفارس قويدر . وفي هذه الاثنـاء صدر في القاهرة كتاب بعنوان (جميلة) يضم احدى عشرة قصيدة وقد راجعه للاداب علي شلش .

وكان احتفال الاداب بالدراسات والابحاث عـن الجزائر اقل بكثير من احتفالها بالشعر فلا نكاد نجد في اعداد سنة ١٩٥٨ سوى مقال لسارتر (الجلادون) الذي اعتبرته المترجمة عائدة مطرجي ادريس ، « اخطر مقال عن حقيقـة التعذيب في الجزائر » والمقـال عبارة عـن التعليق الذي كتبه سارتر على كتاب (الاستجواب) لبيير اليغ . وقد ساهم جليل كمال الدين ببحث عن (الجزائـر في الفـن العراقي) ضم لوحتين : الجزائر لفرج عبو ، ومجزرة الجزائر لمحمود صبري ، بالاضافة الى تمثـال جميلة لاسماعيل الترك . وما دمنا بصدد الحديث عن الفن فلنذكر ان صورة غلاف العدد الرابع كانت رسما لجميلة بو عزة مكتوبا تحتهـا بقلم الفنان ناظم ايراني « الى المناضلة الباسلـة جميلة مع اكباري العميق » .

وتحت عنوان (ثورتنا العربية في الجزائر) ناقش ناجي علوش كتاب (شروط النهضة ومشكلات الحضارة) لمالك بن نبي ، وقد عالج فيه افكار ابن نبي بشيء مـن الاعجاب . وفي العدد الثاني كتب الجنيدي خليفة (رسالة من سجين جزائري)، كمـا نشر كاتب هذا البحث دراسة عن (الغزل في الشعر الجزائري) . اما القصص فقـد نشرت منهـا الاداب اثنتيـن احداهما (الزنزانة السابعة لم تعد تجيب) لاحمد عكاش التي ترجمها عـن الفرنسية حنفي بن عيسى . والملاحظ ان القصاص والمترجـم جزائريان . ونفس الشيء يقال عن عثمـان سعدي الذي كتب قصة (الشيخ حداد) .

ولم تخل الاداب من اهتمامات اخرى عن الجزائـر خلال هذه السنة. فقد كانت تنشر وقائع المؤتمرات العربية وغيرها ، وخاصة ما يتعلق منها بالجزائر ، مثل برقية الى الامم المتحدة بشأن الجزائر ، وبيان عن الجزائر الصادرين عـن مؤتمر الادباء العرب الثالث (القاهرة ، ١٩٥٨)،ومثل الاعلان عن صدور كتاب(عارنا في الجزائر) لسارتر بمناسبة اسبوع الجزائر في البلاد الافريقية والاسيوية ، وكذلـك الاعلان عن قرب صدور (انسان الجزائر) للشاعر علي الحلـي ..

— ٦ —

وبقدر ما ضعف الشعر عن الجزائر سنة ١٩٥٩ بقدر ما تضاعفت الدراسات ، فامـا الشعر فلا نكـاد نجد منه سوى اربع قصائد لنازك الملائكة ، وصادق الصائغ ، وحسن

فتح الباب ــ وكلها تقريبا عن جميلة ايضا . ولكن افتتاحية الاداب للعدد الحادي عشر كانت قمة في التعبير عن ايمانها بالنصر للثورة . فقد كتب الدكتور سهيل ادريس (تحية الى الجزائر) جاء فيها على الخصوص « ليس من شك بعد في ان الشعب العربي في الجزائر قد انتصر . . فلقد انتزع بكفاحه الطويل المرير الدامي حقه المقدس في تقرير مصيره ، وارغم الاستعمار الفرنسي على الاعتراف بهذا الحق الذي سيؤدي بلا ريب الى استقلال الجزائر . وسيادة الشعب العربي في الجزائر » . وهذه بدون شك كلمات قوية في ذلك الوقت ، وهي تعبر عن الايمان الصامد بتحقيق الاستقلال ، رغم ان كثيرين ، ومنهم بعض الجزائريين ، كانوا الى ذلك الحين غير متأكدين منه . وهناك افتتاحية اخرى للاداب تناولت (قضايانا القومية) وخصصها الدكتور سهيل ادريس للحديث عن قنبلة فرنسا الذرية وعن بترول الصحراء الجزائرية . وقد مجد فيها مجددا الثورة واشاد بعروبة الجزائر وصمود ثوارها .

وقد ضمت ابحاث هذه السنة ثلاثة دراسات عن كتب تتعرض لقضية الجزائر . احداها العرض الذي قدمه محمد وهبي لكتاب (الثورة الجزائرية) لاحمد الخطيب ، والثانية عرض الدكتور سهيل ادريس لكتاب (مأساة انسان الجزائر حين يدخل فرنسا) لجانين اوريانو الذي وضعه في باب (كتاب الشهر) . وقد انتهى الدكتور ادريس منه بقوله انه مهما وجد في هذا الكتاب من مآخذ فانه يعترف بحق الجزائريين في الاستقلال والحرية . واما الدراسة الثالثة فهي لخميس شاهين (الانسان العربي ورواية دريس) الذي ابى الا ان يناقش قضية الجزائر ايضا من خلال هذه الرواية التي تبدو الى حد ما بعيدة عنها . ومن جهة اخرى نشر احمد الخطيب بحثا عن (الامير عبد القادر الجزائري : بطولة وشعر) .

واشترك عدد من الكتاب الجزائريين ايضا بابحاثهم وقصصهم في الاداب خلال هذه السنة . اما الابحاث فنذكر منها (الفلاح والثورة العربية في الجزائر) لعثمان سعدي الذي سبق له ان القاه محاضرة في الكويت ، وهو بحث يتناول تاريخ الجزائر مع الاستعمار الفرنسي ، وخاصة الجانب الاقتصادي الاستغلالي منه . ولنفس الكاتب مقال عنوانه (رسالة الى مناضل) . كما اسهم محمد الصالح الصديق بمقاله (الى البطل القائد عمروش) . اما كاتب هذا البحث فقد نشر في الاداب خلال هذه السنة دراستين احداهما عن (البطولة في الاداب الجزائري الحديث) والاخرى عن (رسالة الجمعيات والنوادي ، في الجزائر) . واما في ميدان القصة فقد نشرت الاداب قصتين لكاتبين جزائريين هما عثمان سعدي وقصته (تحت الجسر المعلق) وحنفي بن عيسى وقصته (في حي القصبة) .

وبالاضافة الى ذلك تابع مراسل الاداب في فرنسا مدها باخبار مواقف المفكرين الفرنسيين من قضية الجزائر ، وخاصة ما اثاره كتاب (التعفن) او الفنفرينا من نقاش ، وهو الكتاب الذي يصف فظاعة التعذيب في الجزائر . ومن جهة اخرى اوردت المجلة خلاصة لكلمة ممثل الجزائر في مؤتمر الادباء العرب الرابع الذي انعقد في الكويت خلال سنة ١٩٥٩ .

- ٧ -

واحتفلت الاداب خلال سنة ١٩٦٠ بعدة ابحاث عن كامو وعن الادب الجزائري كما احتفلت بعدد من القصائد التي تغنى اصحابها بالثورة . فاما الابحاث المخصصة لكامو فنذكر منها (كامو والتمزق) للدكتور سهيل ادريس الذي كتب بهذه المناسبة « نحن نعتقد بان مأساة الجزائر تكمن وراء هذا التمزق » . وفي نفس الدرب سار محي الدين اسماعيل في بحثيه عن (كامو والبحث عن السعادة) الذي حلل فيه مواقف كامو العامة ، ومنها موقفه من قضية الجزائر ، و (كامو ونظرية التمرد) . وقد سبق ان لاحظنا ان الاهتمام بكامو يعود في نظر عدد من الكتاب العرب عندئذ الى اهتمامهم بقضية الجزائر ، حتى ان بعضهم قد اعتقد في « جزائريته » . ولولا ذلك لاعتبرنا اهتمامهم به مجرد دراسة للفلسفة المعاصرة ومواقف الانسان من مجتمعه .

اما الابحاث المركزة على ادباء جزائريين بعينهم فنذكر منها (محمد العيد كبير شعراء الجزائر) لكاتب هذا البحث الذي قدم به لقراء الاداب شاعر العربية في الجزائر المستعمرة ، و (رضا حوحو ونضال الكلمة) لكاتب هذا البحث ايضا الذي عرض فيه حياة واثار الشهيد احمد رضا حوحو ومواقفه الادبية . ورضا حوحو من ادباء العربية ايضا في الجزائر . وكاتب هذا البحث ايضا هو الذي نشر (محاولاتنا في النقد الادبي) تناول فيه الحركة النقدية في الجزائر ولا سيما مدرسة مجلة (الشباب) وجريدة (البصائر) . وكانت هذه الابحاث الثلاثة تركز كما سبق ، على كتاب وشعراء الجزائر بالعربية ، في الوقت الذي نشرت فيه الآداب ايضا مقالات تلقي اضواء على كتاب جزائريين يكتبون بالفرنسية . ومن هؤلاء ما نشره عثمان سعدي عن مولود معمري صاحب روايتي (الربوة المنسية) و (سبات العادل) . وقد نشر عثمان سعدي ايضا قصة تنفسه بعنوان (الثلج والشوف) كما نشر مواطنه حنفي بن عيسى قصة بعنوان (عائدون) . وهكذا عرف قراء الآداب خلال هذه السنة عددا من ادباء الجزائر وشعرائها ، ناقدين ومنقودين ، بالعربية وبالفرنسية .

وهناك افتتاحيتان هامتان للاداب خلال هذه السنة كرستا للجزائر ، اولاهما كتبها الدكتور سهيل ادريس بعنوان (الجزائر والحرية) تحدث فيها عن الـ ١٢٠ مثقفا فرنسيا حرا الذين اصدروا بيانا دفاعا عن اعضاء

منظمة جانسون) التي كانت تعين الجزائريين . وقد قال الكاتب بعد ذلك « ونحن المثقفين العرب نستطيع ان نقدر اكبر التقدير موقف هذه الحفنة من احرار فرنسا لاننا نعيش المأساة الجزائرية في ضمائرنا ودمائنا » ثم وجه « تحية اليهم ، وتحية الى شعب الجزائر العظيم ، صانع المعجزات والبطولات ! » اما الافتتاحيه الثانية فقد كتبها الدكتور عبدالله عبدالدائم بعنوان (الانسان وازمةالجزائر) وتعرض فيها لعلاقة الجزائر بفرنسا من الناحية المأساوية، والثورة ، وموقف الفرنسيين الاحرار ، واساليب التعذيب ضد الجزائريين . وبذلك يتجلى ان اهتمام الاداب بالثورة لم يكن ادبيا فحسب بل كان سياسيا وقوميا ايضا .

اما الشعر خلال هذه الفترة فقداشترك فيه خليل الخوري ، ومحمود كلزي ، وسليمان العيسى ، ونجيب سرور ، واحمد سويد ، ويظهر من هذه القائمة ان هؤلاء الشعراء يمثلون عدة اقطار عربية ، ولكن عددهم قليل بالنسبة لبعض الفترات الاخرى .

— ٨ —

وقد كادت الاداب سنة ١٩٦١ تخلو من ابحاث جادة وقصائد هامة عن الجزائر . ولولا ثلاث قصائد لمالكحداد (ترجمة ملك الابيض العيسى) وقصيدة لسليمانالعيسى (وكلها في عدد واحد هو الثامن) لما عثرنا فيها على اية قصيدة تتناول موضوع الجزائر خلال السنة المذكورة .

اما الابحاث فقد كتبت الاداب افتتاحية بعنوان (وثيقة بطولة) مترجمة عن مقال للكاتب الفرنسي جانكو . وقد اغتنمت هذه الفرصة للتنويه بالثورة الجزائرية التي كانت قد دخلت عامها الثامن ، ولتحية كفاح الشعب الجزائري من جديد ، والاشادة بالمظاهرة الكبيرة التي قام بها الجزائريون في ذلك الوقت متحدين بهاالسلطات الفرنسية الفاشمة .

وفي هذه الاثناء تلقت الآداب مراسلة منالجزائر، اكتفى صاحبها بحروف (ع.ا.ق) وجعل لها عنوانا مثيرا هو (الادب العربي يحتضر في الجزائر) . وقد صور الكاتب فيها الصعوبات التي يمر بها الادب المكتوب باللغة العربية هناك . ومن جهة اخرى ساهم الجنيدي خليفة بمقال فلسفي سماه (الوجود بلا وسيط) . كما ترجم محمد برادة مقالة مولود معمري عن (الادب الروائي المغربي المكتوب باللغة الفرنسية) وهو هنا يقصد ادب المغرب العربي وليس ادب قطر بعينه . اما الانتاج القصصي فلم نعثر منه سوى علىقصة لحنفي بن عيسى بعنوان (الشمس لا تشرق من باريس) .

غير اننا نجد في الاداب خلال هذه السنة بعض المراجعات للكتب التي تتناول قضية الجزائر وادبها . ومن ذلك مراسلة من باريس عن كتاب (اصوات في القصبة) لحسين بوهازر (بوزاهر ؟) وهو كتاب يضم عدة قصائد ومسرحيتين . وكتاب (حرب الجزائر) لجول روي الذي يعتبر من انتاجشاهد عيان وقد احدث ضجة عندصدوره. وقد كتب مندوز الفرنسي (الثورة الجزائرية بالنصوص) . وبهذه المناسبة نذكر مراجعة عبدالرحمن الزناقي للكتاب الذي الفه كاتب هذا البحث عن (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) .

— ٩ —

واذا انتهينا بسنة ١٩٦٢ الى شهر يوليو ، وهوتاريخ استقلال الجزائر ، فاننا لا نجد في الاداب خلال هذه الفترة اكثر من ثلاث قصائد لفاروق مردم وكاظم جواد ومحيالدين فارس . اما الابحاث فقليلة جدا نسبيا . فقد ترجم الدكتور سهيل ادريس مقدمة سارتر لكتاب (معذبو الارض) لفرانز فانون ، وهذا الكتاب ، كما اصبحمعروفا، وثيقة ادانة ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، لذلك صادرته السلطات الفرنسية في باريس فور صدوره .

ومن جهة اخرى كتبت الاداب افتتاحية جديدة (تحية الى الجزائر) بمناسبة قرب اعلان الاستقلال . وقد بدأتها هكذا « البشرى لنا ايتها الجزائر العظيمة، يا ارض البطولات الخالدة ! » وتمنى كاتبها الذي يغلبعلى الظن انه هو رئيس التحرير نفسه ، ان ترد الثورة الجزائرية « القيمة للحرف العربي ، هذا الحرف الذي ما يزال يهدره كثير من التدجيل والنفاق ، وسيكون من شأن ثورتك (الجزائر) ان يرفعه من جديد الى صعيد الحرمة والقداسة » وكانت هذه التحية من الاداب احر ما قدمته من عواطف قومية وشخصية للثورة .

ورغم ان الدكتور عبدالدائم قد نشر مقالته (الجزائر المستقلة والثورة) خلال شهر اغسطس فان ما جاء فيها يعتبر تحليلا للاحداث التي جرت بعد مارس ١٩٦٢ . فقد راجع فيها الاسباب التي ادت الى تطور العلاقات الفرنسية الجزائرية من جهة والعلاقات بين الجزائريين انفسهم وارجعها الى وضع الجزائر الخاص ايام الاستعمار . وكان الكاتب متفائلا ، رغم كثرة المصدومين مما وقع عندئذ ، حين بشر بان ثورة الجزائر ستتغلب على الصعوبات الطارئة وانها ستؤدي الى « تحرر الانسان العربي من كل صنوف العبودية واطلاق قواه وطاقات الابداع لديه وخلق الحضارة العربية الموحدة المبدعة في سبيل تقدم الانسان وغنى الانسانية » .

واحتوت الاداب على لقطات هامة عن حياة الشاعر مالك حداد والقصاص مولود فرعون . فمزيد الظاهر عرض ونقد كتاب (الشقاء في خطر) لحداد الذي ترجمته السيدة ملك ابيض العيسى . اما فرعون فقد وردتعلى المجلة مراسلة عن حياته وآثاره بعد مقتله من طرف منظمة الجيش السري الارهابية .

ونحب ان نختم هذا البحث بالكلمات التي كتبها

الدكتور سهيل ادريس في افتتاحيته (على ارض الجزائر) حينما دعي لحضور احتفالات اول نوفمبر ١٩٦٢ اعترافا بفضل الاداب على الثورة وتقديرا لموقف رئيس تحريرها . فقد كتب بتلك المناسبة « تلمس قدماي ارض الجزائر فيتحقق الحلم الاثير ، وتغيم عيناي بغشاوة من دموع حين يرف فيهما علم الجزائر فوق بناء المطار : لقد ولدت اذن بنت المخاض المسير الدامي » ان هذه الكلمات كانت في الواقع تعبيرا على ما كان يختلج في نفوس العرب الاحرار في كل مكان تجاه الثورة الجزائرية التي اعادت للانسان العربي كرامته .

– ١٠ –

ويمكننا ان نستخلص عدة نقاط من هذه الدراسة:

١ – ان اهتمام الاداب بالثورة الجزائرية كان قوميا بالدرجة الاولى . فقد نظر العرب القوميون الى هذه الثورة على انها تعبير عن كرامتهم وتحفزهم وطموحهم في وقت كانوا يبحثون فيه عن (الفارس) الذي يحقق لهم الحلم ويرد لهم الاعتبار . ويلاحظ الدارس ذلك من افتتاحيات المجلة وفي التقديم الذي كان يكتبه قلم التحرير لهذه الدراسة او تلك . وقد استطاعت الآداب ، من جهة اخرى ، ان تربط ، من خلال ابحاث كتابها وقصصهم وقصائد شعرائها ، بين الثورة الجزائرية ونضال الامة العربية ، وان تربط القارىء العربي الذي كان ، قبل الثورة ، يجهل تقريبا كل شيء عن الجزائر ، بنضال الشعب الجزائري . وقد كانت الاداب في ذلك منسجمة كل الانسجام مع نفسها لان رسالتها منذ البداية كانت ،على الصعيد السياسي ، رسالة قومية .

٢ – من خلال الآداب عرف الناس الادب الجزائري بلغتيه العربية والفرنسية . فبعد قرن وربع من الاحتلال والاستعمار المباشر وطمس معالم الثقافة العربية ، قدمت الاداب الى قرائها نماذج من انتاج الجزائريين الادبي. فعن صفحاتها عرف هؤلاء الناس ، عربا وغير عرب ،من هم ادباء الجزائر بالفرنسية (كاتب ياسين ، مولود معمري ، مولود فرعون ، محمد ديب ، مالك حداد ، مالك ابن نبي) كما عرفوا نماذج من ادبائها بالعربية (محمد العيد ، احمدرضا حوحو ، عثمان سعدي، الجنيدي خليفة، ابو العيد دودو ، حنفي بن عيسى ، ابو القاسم سعدالله). حقا ان بعض الخلط قد وقع في البداية بين كتاب الجزائريين والفرنسيين مثل كامو وروبلس . ولكن هذا الخلط ما لبث ان زال .

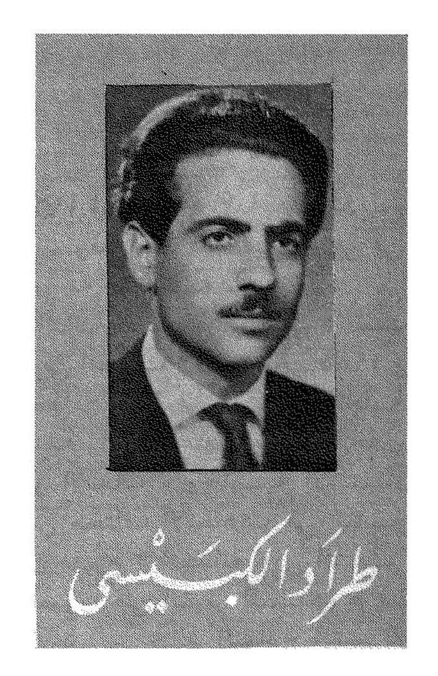
٣ – ان الاداب ، بما احتوته من انتاج واخبار ودراسات عن الجزائر ، تعتبر بحق مكتبة هامة لدراسة جوانب كثيرة من الثورة الجزائرية وتطورها ، وخاصة على الصعيد العربي . فهي لم تكتف بالنقل مما كتب عن الثورة فقط بل ضمت انتاجا غزيرا من اهل العربية ، سواء كانوا من الجزائريين او من العرب الاخرين ، وهي لذلك تعد مصدرا لا غنى عنه لدراسة ادب الثورة الجزائرية .

٤ – واخيرا نحب ان نلاحظ ان معرفة هيئة تحرير المجلة للغة الفرنسية قد سهلت مهمتها في الاتصال بالادب الفرنسي المتعلق بالجزائر والنقل منه الى قرائها . وهذه الميزة لم تتيسر لمجلات اخرى . فقد حفلت الاداب ، نتيجة لذلك ، باخبار الادب الجزائري (جغرافيا وقوميا) الواردة من فرنسا من المجلات والمصادر الاخرى الفرنسية، مثل ليكسبريس ، وفرانس اوبسارفاتور ، والازمنة الحديثة ، والعديد من الكتب الصادرة بفرنسا .

* * *

وبعد فان هذه الدراسة ليست الا عرضا سريعا لما نشرته الآداب عن الثورة الجزائرية منذ ظهورها الى يوليو ١٩٦٢ . وقد اردنا بها معرفة دور الآداب بالنسبة الى قضية عربية كانت تملأ الدنيا دويا في فترة من فترات صحوتنا القومية . اما التوقف عند كل جزئية ، والبحث والمقارنة في الانتاج المنشور ، وتقييمه ، فهو متروك لدارسين آخرين ، ولا سيما الجيل الصاعد الذي قد يخصص ابحاثا اكاديمية مستقصية لما اكتفينا نحن هنا بجمعه وترتيبه وعرضه . وحسبنا في هذا المجال ان ننوه بخطوات الاداب في رصدها لاحداث الامة العربية والتعبير عنها قوميا ، وحسبها هي فخرا انها اصبحت لسان حال جيل كامل من هذه الامة ، جيل يؤمن بالوحدة العربية وبالتقدم العلمي وبالتحرر من جميع اشكال التبعية .

ابو القاسم سعدالله
(جامعة الجزائر)





الآداب ودورها في الشعر العربي الحديث

صدر العدد الاول من مجلة الآداب في (كانون الثاني ١٩٥٣) بهيئة تحرير عربية ـ غالبيتهم من (مصر ، ولبنان، وسوريا ، والعراق) مصدّرة بافتتاحية تحت عنـــوان (رسالة الآداب) مؤكدة فيهـا على ان الامة العربية تمر بمنعطف تاريخي خطير . وفي هذه المرحلة على اهل القلم ان يتحملوا مسؤوليتهم ، ويكونوا شاهدا علىهذا العصر، شاهدا فعّالا . وعلى هذا (فالادب الذي تدعو .. اليـه المجلة وتشجعه هـو ادب الالتزام الذي ينبع من المجتمـع العربي ويصب فيه) . يعني هـذا ان رسالة المجلة ، هي « رسالة قومية مثلى » « ومفهوم الادب القومي سيكون من السعة والشمول حتى ليتصل اتصالا مباشرا بالادب الانساني ، ما دام يعمل على رد الاعتبار الانساني لكـــل وطني ، وعلى الدعوة الى توفير العدالة الاجتماعية له وتحريره من العبوديات المادية والفكرية .. »

هذا بالاضافة الى معالجة مشكلات اخرى كثيـرة كأبراز حيوية الادب العربي الحديث وخصبه وغناه ... بحيث « سيتاح للاداب ان تكون مرجعا مهمـا من مراجع الادب العربي الحديث ... »

وهذا ما حصل بالفعل . فالآداب اليوم ، مرجع لا يمكـن لباحث في الادب العربي الحديث ان يستغنـي عنه بأيـة حالة من الاحوال وفي هذا العدد من « الآداب » نجد قصائـد من الشعر الحديث (نزار قباني ، نازك الملائكـة ، احمد سليمان الاحمد) منشورة الى جانب قصائد مـــن الشعر التقليدي (د . سليم حيدر ، ابراهيم العريضي)، الى جانب الشعر المترجم ، والمنشور باللغة الام مقابـــل ترجمته العربية لجورج شحادة (ولـو ان جورج شحادة عربي ـ لبناني الاصل) .

وهذا يعني على مستوى « الآداب » والشعرالعربي:

اولا : ان قضيــة الشعر العمودي لم تحسم بعد . بل ان هـذا الشعـــر ما يزال يحتل مكانته ، ومـــا يـــزال شعراؤه الاصلاء (الجواهري ، عمر ابو ريشه ، بـدوي الجبل ، الاخطل الصغير) قادرين على العطاء الفحـــل ، قبل ان يصل الى مـــا وصل اليه من الرثانة والسخف في نهايـة الخمسينات . ولهذا فلا عجب ان لا نرى «الاداب» تنشر منه شيئـا بعد الستينـــات الا مـــا جاء فـــي المناسبات .

ثانيا ، ان « الاداب » اسهمت قبل غيرها من المجلات العربية ذات الطابع والانتشار القومي ، في تبني الشعـر الجديد ونشره والدفاع عنه ، كمجلـة (شعـــر) مثلا . « فالآداب » :

(١) اسبق تاريخا وتاريخيا في الصدور وتبنـي الشعـر الجديد بأربع سنوات على الاقـل (صدرت (شعر) في ١٩٥٧) .

(٢) انها لم تتوقف على مدى ربع قرن ، بينما توقفـــت « شعر » مرتين قبل ان تمـوت نهائيــــا بانكشاف هويتهـــا .

(٣) ان كل شعراء العربية تقريبا التقوا على صفحات « الآداب » ومن مختلف الاجيال . اما مجلة « شعر » فرغم انها في البداية كسبت عددا من الاسماء ، الا انهم سرعان ما انفضوا عنها ، بعد ان دارت الشبهة حولها ، واقتصرت على بعضة اسماء . فكان اعتمادها الاساسي على الترجمات من الشعر العالمي .

(٤) كما تميزت « الآداب » باعدادها الخاصة عن الشعر العربي المعاصر وقضايا الادب والادباء .

(٥) والمهم في ذلك ايضا ، انها تبنت قضية الشعر الجديد وافسحت المجال واسعا لمعركة التجديد الشعري بشتى الاشكال : المناقشات ، والتعليقات ، والندوات .. ورغم انها بدت ظاهرة كما لو كانت « محايدة » بين الجديد والقديم ، الا انها عمليا وجوهريا مع الجديد أبدا . هذا بينما لم تصدر « شعر » الا عددا خاصا « بالشعر في الارض المحتلة » وكان مسيئا اكثر منه دفاعا عن هذا الشعر وعن المقاومة وشعرها .

(٦) واذا اعتبرنا شعراء الشعر الجديد (البياتي ، السياب ، نازك الملائكة ، سعدي يوسف ، صلاح عبدالصبور ، احمد حجازي ، نزار قباني .. الخ) ناشئة آنذاك ، والشعر الجديد شعرا ناشئا ، فأن (الآداب) قد عبرت عن تبنيها لشعر هؤلاء « الناشئة » وتشجيعهم من خلال الاستفتاء الذي طرحته على جملة من الادباء العرب الذي قد تجاوزوا سن الناشئة آنذاك.

حيث اكد الجميع على ضرورة ذلك ، واعتباره « واجبا مقدسا » اذا توفرت في نتاجهم « شروط الابداع والتجويد » . بحيث غدت « الزوبعة » التي اثارتها « الاداب » نفسها عن احتمال ، ان الشعر العربي اصيب بنكسة ، بعد شوقي ، زوبعة في فنجان ! سيما وان اعمدة الشعر العمودي (الجواهري ، الاخطل الصغير ، بدوي الجبل ، عمر ابو ريشة) كما قلنا ما تزال تتألق في سماء الشعر .. وان « الناشئة » الجديدة : « السياب ، فدوى طوقان ، نزار قباني ، البياتي ، نازك الملائكة ... وغيرهم » « تطمئننا على الشعر في حاضره ومستقبله » كما قال سيد قطب . في ذلك الاستفتاء . (الاداب) (٤) نيسان ١٩٥٣)

ولعل اول شهادة تقدير حازت عليها قصيدة حرة على صفحات الآداب هي قصيدة (الملجأ العشرون) للبياتي التي عدها الناقد محمد النقاش : « فتحا جديدا في لغتنا » (ع (٦) حزيران ١٩٥٣) وفي العدد (٨) آب ١٩٥٣) طرحت « الآداب » لاول مرة قضية الشعر الحديث ، ومسألة تحرره من القافية وقوالب الوزن التقليدية ، وكان الرأي هناك متناقضا تماما ، بين جيلين ، ففي الوقت الذي ايد الشعراء الشباب وبعض النقاد هذه القضية ، رأى الجيل الاسبق ، ان على من شاء ان يتحرر من قوالب الوزن والقافية ان ينظم « بلغة غير اللغة العربية » .

وبذلك ينفي بدوي الجبل عن نفسه تهمة التعصب للقديم ومحاولة فرضه على الناس » !؟ هكذا وبكل بساطة !

عددان ومنعطفان :

بين عامي ٥٥ - ١٩٦٦ اصدرت « الآداب » عددين خاصين بالشعر الحديث . وقد شكلا منعطفين بارزين في مسيرة هذا الشعر ، وتقويمه ، وتدعيمه .

ففي بداية سنتها الثالثة اصدرت « الآداب » العدد الاول الخاص بالشعر العربي الحديث (كانون ثاني ١٩٥٥) فكان رغم تبكيره ، انعطافا كبيرا في احتضان المجلة للاتجاهات الشعرية الجديدة والدفاع عنها ، سواء من خلال النصوص المنشورة ، او الابحاث ، وخاصة الاستفتاء الذي شارك فيه ادباء من مختلف الاتجاهات في كتابة الشعر ونقده . ورغم ان مفهوم « الحداثة » في الشعر لم يكن واضحا ، او مقصورا على الشعر الذي عرف بالشعر الحر آنذاك . ذلك اننا نجد النماذج الشعرية المقدمة ، وحتى الفائزة بجائزة ، باستثناء قصيدة (سعد دعبيس) ليست من الشعر الحر ، وليست هذه مسؤولية « الآداب » بقدر ما هي مسؤولية الشعراء العرب الذين لم يحسموا نهائيا قضية الشكل في الشعر ، وما زالوا يتأرجحون بين الشكلين .

ثم اننا نجد شعراء معاصرين تم يشاركوا في هذا العدد ، كالبياتي واحمد حجازي وادونيس وغيرهم .. بينما شارك بعضهم بقصائد ليست حرة . كفدوى طوقان ونازك الملائكة وبلند الحيدري ويوسف الخطيب والفيتوري بينما شارك (السياب) بقصيدة من رؤيا فوكاي ، وكاظم جواد ب (الشمس تشرق من المغرب) وصلاح عبدالصبور ب (الناس في بلادي) وهذا يؤكد ما قلناه ، من ان المجلات ليست هي التي تخلق الاتجاه ، بل تتبناه وترعاه .. والخالقون هم المسؤولون .

كما عكست الدراسات عن الشعر الحديث نفسها ، هذا المفهوم عن الحداثة ، الذي كان اقرب في محتواه الى « المزامنة » منه الى « الحداثة » مؤشرا بالموضوعات التي تهم الانسان المعاصر وتشغل حياته وتشكل اهتماماته . ومهما يكن فقد فتحت « الآداب » بهذا العدد افقا جديدا ، واوجدت مناخا حريا بأن يؤثر فيما بعد ، وقد تلمس القارىء آثاره فعلا ، في الشعر ، وفيما عكسته الدراسات التي تضمنها العدد عن : الشعر والحلم ، واصوات الشعر الثلاثة لاليوت ، والشعر الفرنسي المعاصر ، والشعر الروسي الحديث ، والانكليزي الحديث والامريكي الحديث .. فكأنها بذلك ربطت الحداثة بين الشعر العربي والشعر في العالم .

ورغم كل المآخذ التي قد نجدها اليوم على ذلك العدد ، الا ان تقويم العدد في وقته ، لا بد ان ينتهي الى

انه كان حقا شهادة حقة عن واقع الشعر (وامتاز بصفة الشمول والاحاطة باحوال الشعر المعاصر في البلاد العربية ، وخاصة الاكثر تقدما حضاريا . فليس هو مجرد عدد من مجلة ادبية ، ولكنه كتاب واسع الاطراف يدور في موضوع واحد ، ويستوعبه استيعابا عميقا في كثير من الاحيان) كما قال رئيف خوري في نقده .

اما العدد الثاني (٣) اذار ١٩٦٦ الخاص (بالشعر العربي الحديث) فيشكل تحولا كبيرا في مجرى تجربة الشعر الحديث من جهة ، وفي دفاع الآداب عن هذا الشعر الذي لامت نازك الملائكة ، والدكتور سهيل على نشره بدافع من انها (انتكست انتكاسا كبيرا عن موقفها السابق في تأييد الشعر الحر ودعمه ، لا لشيء الا لانه تجاوز بعض القواعد التي وضعتها هي له ..) (الآداب ع (١) ١٩٦٦) .

وقد كان من غايات هذا العدد الخاص بالشعر الحديث (مراجعة تجربة الشعر الحر ، واستعراض انجازاته وتعميق موضوعاته واستشراق آفاقه) كما قال رئيس التحرير في تقديمه للعدد . فقد تضمن العدد احاديث عن تجارب الشعراء الشعرية بأقلام كبار ممثليه: البياتي ، ادونيس ، صلاح عبدالصبور ، احمد حجازي ، محمد الفيتوري ، كما تضمن نماذج شعرية كثيرة لهم ولعدد آخر كبير من الشعراء الرواد وما بعد الرواد وشعراء ما بعد بعد الرواد .. كما تضمن دراسات نقدية تناولت مختلف القضايا الفكرية والفنية لهذا الشعر : المعاصرة والتراث ، والمعاناة الحضارية ، وغير ذلك من اوجه الحداثة : التيار الثوري ، المونولوغ ، المونتاج ، الفكر في الشعر ، العروض وموسيقاه .. هذا فضلا عن ان العدد تضمن دراسات عن (الشعر الاجنبي الحديث) و (الشعر السوفياتي الحديث)

وبمقارنة سريعة بين العدد الاول الخاص بالشعر العربي الحديث (ع (١) ١٩٥٥) وهذا العدد وبينهما مسافة احد عشر عاما تقريبا نتبين التطور الهائل في الشعر الجديد . والتطور في الصحافة الادبية ، ووضوح كثير من القضايا التي كانت غامضة او مشوشة آنذاك (اوائل الخمسينات) . لقد كان العددان الخاصان بالشعر وثيقة هامة كاشفة عن المنحنى التطوري الذي بلغه شعرنا الحديث ، والذي رفعت « الآداب » وما تزال ، قوس الدفاع عنه وتتعهده بالرعاية والانماء والتطوير .

اعداد ممتازة :

والجدير بالذكر ، اذا ذكرنا الاعداد الخاصة بالشعر الحديث ، ان « الاداب » لم تقتصر على هذا وحسب ، بل انها حرصت دائما ان تصدر اعدادا ممتازة تقع في المجال نفسه : (الادب والحياة) (من قضايانا الادبية) (الادب والقومية العربية) (دور الادب في معركة التحرر والبناء) (عدد خاص بأدب المقاومة) (والثورة الفدائية) (وفي ذكرى السياب) و (شوقي) و (فلسطين) وغير ذلك عشرات الاعداد التي يلعب الشعر فيها دورا كبيرا .

والتقويم الذي يمكن ان نلاحظه اجمالا ، بالاضافة الى ما ذكرنا :

(١) لقد كانت « الآداب » جريئة في طرحها نماذج الشعر الجديد ، سواء في شكله او موضوعه ، فلم تتحرج عن نشر اي نموذج مهما كانت العواقب والمواقف التي ستترتب على ذلك من منع او نقد جارح.

(٢) كما ساهمت في تطوير الشعر الحديث ومفهوم الحداثة ، ليس من خلال النماذج الشعرية والدراسات كما قلنا ، وحسب ، بل ومن خلال نقد الدواوين في باب (النتاج الجديد) وفي المناقشات التي دارت حول الشعر الحر بين شعرائه ونقاده ، وعرض النشاط الثقافي في الوطن العربي ، والعالم ، ونقد العدد الماضي .

(٣) ولم تكن « الآداب » في عنايتها بالشعر ، معنية بالشعر من حيث هو لغة او وزن او بلاغة ، بل ومن حيث صلته بالواقع الاجتماعي والسياسي ، وصلته بتجربة الانسان في عصره .

(٤) وتدعيما لموقفها من الشعر الجديد ، لم تقتصر على شهادات شعرائه في مشروعيته ، بل استمزجت آراء الشيوخ ، كطه حسين الذي لم ير بأسا في التجديد والخروج على عمود الشعر ، فليس عمود الشعر منزلا من السماء ، اذا توفرت لهذا الشعر ، عناصر : الصدق والقوة وجمال الصور وطرافتها .. الخ وان يكون عربيا لا يدركه فساد من جهة اللغة ..

(٥) وكانت « الآداب » تملك هاجسا وحسا تنبؤيا بالجديد فمنذ العدد الاول لسنة ١٩٦٥ لمست بواكير الجيل الجديد (الستيني) وبشرت به ، وحرصت على ان توفر له الفرصة لان ينمو ويكبر ، ويحتل موقعه الجدير به .

(٦) والحقيقة ان « الآداب » لم تدخر وسيلة الا واستخدمتها في ابراز الشعر الجديد وتشخيص دوره في الحياة العربية الجديدة ، ومساعدته على اداء هذا الدور ، من خلال الاعداد الخاصة ، والممتازة . والملفات عن الشعر في هذا القطر العربي وذاك ..

بغداد

النقد وحركة التجديد

ندوة ساهم فيها : الناقد ، والروائي : جبرا ابراهيم جبرا ، الشاعر عبدالوهاب البياتي ، الناقد الدكتور جلال الخياط .. وأدارها مراسل الآداب في العراق : ماجد السامرائي)

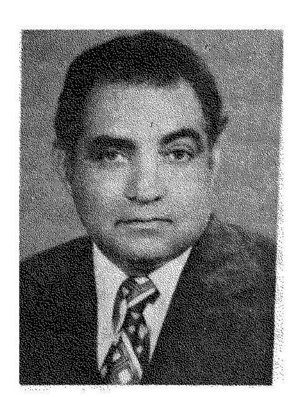
جبرا ابراهيم جبرا
عبد الوهاب البياتي
د. جلال الخياط

من يرصد مسيرة « الآداب » عبر خمسة وعشرين عاما قطعتها منذ صدور عددها الاول حتى اليوم ، يجد انها قدمت الكثير ، على كل مستويات الثقافة العربية ، وفي مختلف حقولها الابداعية .. وبالذات على صعيد « النقد » ـ الذي يهمنا الآن بحثه ,ورصد آفاق المساهمة التي قدمتها « الآداب » في حقله .. سواء في ما يتعلق بتاصيل مفهوم نقدي عربي جديد، أم على مستوى الممارسة النقدية لما تنشره من نتاج ، والنتاج العربي عموما . ولا أظن ان هناك من ينكر الدور الذي لعبه ذلك المسار الجديد الذي اختطته ، والمتمثل في باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » ، الذي ساهم ، ولا شك ، في اغناء الحركة الابداعية العربية ، وعلى كل مستوى من مستوياتها .. كما ساهم في بلورة مفهوم نقدي عربي سليم ، له بعده الواقعي ، ولكن غير الدوغمائي ..

كل هذا ، جاء في حقبة دقيقة ومهمة من تاريخنا العربي الجديد .. سواء فيما يتصل بالحياة الثقافية نفسها ، ام بحركة الابداع ـ كتعبير عن الحقيقة







ـــديد من خــلال « الآداب »

الحضارية العربية الجديدة ـ أم بحركة الواقع العربي ذاته .. وهي حقبه حرجة ودقيقة .. شهدت هـذا الميـلاد الجديد في أكثر من مجال ..

واذا كان عسيرا علينا في لقاء كهذا يغلب عليه طابع العفوية ، ان نحدد ، كمـا يفعل الباحثـون ، الخصائص المميزة التي اضطلعت بها « الآداب » على صعيد الحركة النقدية ، وفي بلورة قيم التجديد في الادب العربي ، وفي الشعر بصورة خاصة .. فساعدت ، من خلال ذلك ، على نمو وتبلور كثير من القيم والمفـاهيم والاتجاهات بمـا أفسحته من مجال كان ، ولا شك ، منبرا حرا ، في أفق الالتزام القومي التقدمي .. اقول : اذا كان عسيرا علينا هنـا بحيث نعرض لجميع تلك الخصائص .. فانـه بوسعنا ، كمـا أظـن ، أن نتلمس بعض الابعاد ، ونحـدد النتائج العامة ، او شيئا منها ، كمبادىء عامة في هـذا الاتجاه الذي استطاعت « الآداب » عبر ربع قرن من حياتها ، ان تستوعبه ضمـن توجه جاد ، فتعبر عنه خير تعبير ، بحيث جاء خروجا على كثير من التقاليد الادبية والمفاهيـم الثقافيـة الجامدة ، وارهاصا بفتح جديد ، ووعي جديـد في الحياة الثقافيـة العربية .. اذ كانت ، في كثير ممـا طرحته عبر صفحاتها ، معبرة عـن اصالة وعمق تبعهمـا ، او نتج عنهمـا تغيير جذري في التقاليد الادبية العربية .

حبذا لو نبدأ من هذا .. من هـــذه الحقائـق ، التاريخية والموضوعية ، التي اكدتها « الآداب » .

الدكتـور جـلال الخياط :

ـ حين صدرت « الآداب » في مطالع الخمسينات كانت حدثا فريدا ، أقبل عليهـا الادباء ، واستقطبت حولها القراء .. وسرعان مـا اتخذت سمات مدرسة ادبية ، او تيار جديد في الادب .. واصبح النشر فيها نوعا من التقويم النقدي ، فاستطاعت ان تحرك الحياة الادبية ، منذ صدورها . فالمقالات التي تنشر ، والقصائد .. الخ .. تطرح آراء او اشكالا جديدة جريئة تحمل الاثارة للاخرين وقد دعمت المجلة ما تقدمه للقراء من ادب خالص بمقالات نقديـة تتضمن نوعا من وعي ، او منحى نقدي غيرمعهود فالقـارىء الجديد بدأ يخرج من اهاب المتلقـي الصامت الذي لا دور لـه سوى الانصات والاقتناع والاعجـاب والتصفيق ، مهمـا كان الاثر الادبي رديئا . ونزع الشاعر مسوح التلقين والامر والخطابة والتقريرية والمباشرة وحل المعضلات الكبيرة بأوامر شعرية سريعة ، دون تقديـم الحلول العمليـة ، او الايحاء بها ، ودون الالتفات الى ضرورة الفن وجماليته ومدى ابداعه في تقديم المضمون الحديث .

واتفق صدور « الآداب » ووجود جيل مستقل من المبدعين يريد ان يؤكـد ذاته ، وجيل من القراء يتطلع الى ما يغنيه ويثريه .. فأخذت المبادرة في توجيه جمهور القراء ، وهم في اعتاب عهـد جديد للكلمة العربية ، بتقديم الامثلـة النقديـة الجيدة والمقالات المستفيضة .

ـ عبدالوهاب البياتي :

لقد ظهرت مجلة « الآداب » في اوانها وزمانها ، فكل المجلات التي سبقتها ، او كانت قد صدرت قبلها ، كانت قد لفظت انفاسها ، او انها كانت تحتضر ، ولم تعد مستطيعة ان تستوعب التيارات الجديدة التي بدأت تشق طريقها الى قلوب واذهان القراء العرب ، بل ان هذه المجلات الميتة ، او المحتضرة كانت تصب « الخل بالزيت » ، او تضع العصي في عجلات حركة الادب النامية الجديدة .. بل ان بعض رؤساء تحرير هذه المجلات قد فقدوا وقارهم وتحفظهم ، فشهروا سيوفهم الخشبية في وجه التيار الجديد . ومن هنا جاء صدور مجلة «الآداب» لكي يضع النقاط على الحروف ، ويؤسس حركة جديدة على انقاض القديم المنهزم ، اوالذي فقد القدرة على الديمومة والمواصلة والتواصل .

وكان اختلاف مجلة « الآداب » عن غيرها من المجلات التي ـ ربما ـ صدرت ايضا في نفس عام صدورها ، انها ـ اي الآداب ـ كانت مجلة قومية تقدمية ، تمثل جبهة وطنية ثقافية عربية واسعة وعريضة . كما انها حاولت ان تضع الحركة الادبية في الوطن العربي في مسارها الصحيح ، وذلك بدعوتها الى الالتزام والى ربط حركة التجديد بخاصة ، والادب بشكل عام بحركة المجتمع . بعكس بعض المجلات الاخرى التي وقفت موقفا معاديا وعدائيا من حركة ربط الادب بالمجتمع ، ومن الالتزام ، وراحت هذه المجلات المشبوهة تدعو الى محاربة الالتزام ودعاته وممثليه . ولكن الدعوة الى الاغتراب والكوزموبوليتية انهزمت امام مد الثورة العربية الكاسح الذي ساد الخمسينات من هذا القرن ، وانتصرت « الآداب » ايضا ، بحيث انها استطاعت ان تبلور اتجاها ادبيا قوميا انسانيا ، ظل هو الغالب حتى الآن ، بل اصبح هو التيار الاصيل الوحيد .

جبرا ابراهيم جبرا :

.. ولعل احد اسرار نجاح « الآداب » هو انها اقتحمت الميدان بفتوة وحيوية ونضارة . وفي سعيها نحو الجديد لم تحصر همها فقط في ذوي الاسماء الكبيرة (سابقا) ، على اهميتهم احيانا ، بل راهنت على الشباب. وقد اتت المجلة عن طريق الدراسات النقدية والترجمات المنتقاة ، برياح الوجودية التي كانت ، يومئذ ، في عنفوانها . وبتفاعلها اليومي مع احداث الوطن العربي، في فترة مليئة بالعنف والفاجعة ، حولت ، عن قصد او غير قصد ، فكرة الالتزام ، بمعناه الوجودي ، الى ما يخدم الغرض القومي العربي . فاستقطبت ، في الحال ، عددا كبيرا من ذوي المواهب الفتية في شتى اقطار الوطن العربي ، وبقي الشباب الذهني احدى صفاتها الظاهرة لمدة طويلة . وكان لهذا الاستقطاب اثر قوي اخر في تهديم الحواجز الاقليمية التي كانت من ظواهر النشر في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية . فشددت التواصل الفكري السريع بين القطر والقطر ، مما ساعد على ان يكون للمدرسة الشعرية الجديدة في العراق ، مثلا ، اثرها المباشر على امتداد الساحة العربية . وكان في هذا التواصل السريع المشحون بروح النقد والوعي الفكري لاساليب التجديد وردود الفعل ، تعميق اضافي مهم لحس الوحدة المصيرية والترابط الذهني بين ارجاء العروبة .

ـ عبدالوهاب البياتي :

ان مجلة « الآداب » ظلت امينة لموقفها القومي والانساني ، بالرغم من المحن والكوارث التي مر بها الوطن العربي ، وظلت عرضة للمنع والمصادرة في اقطار عربية في فترات زمنية مختلفة ، وكان يصيبها ، احيانا ، ما يصيب المناضل الثوري من وهن وتعب وقلق وجزع ، ولكنها ظلت في حدود الخط العام ، كما قلت ، امينة على حمل الامانة ، لم تتراجع ، ولم تساوم .. هذا اذا علمنا ان المغريات امامها كانت كثيرة ووفيرة .

كما ان المجلة شجبت كثيرا من المواقف التي كانت تتخذها بعض الحكومات العربية من قضايا حرية الراي والضمير والفكر ، ودافعت عن كثير من الادباء الذين منعت كتاباتهم ، او اعتقلوا او سجنوا بسبب نشاطاتهم الابداعية والوطنية . كما ادانت وفضحت كثيرا من المؤسسات والمنظمات والاتحادات الثقافية العربية والاجنبية التي كانت تتخذ موقفا معاديا من قضايا الشعب العربي المصيرية . وعرّت وفضحت كثيرا من الكتاب الاجانب الصهاينة ، او الذين يتخذون موقفا منحازا الى جانب العنصرية الصهيونية .

وبهذا الشكل او ذاك ، من اشكال النضال، استطاعت « الآداب » ان تفك الحصار عن الكلمة العربية ، وان تكون منبرا للضمائر العربية الحية والاقلام المؤمنة بقضية العرب الكبرى : الوحدة والحرية والاشتراكية .

★ حبذا لو نتوقف هنا عند « الدور النقدي » للاداب ، وما لعبته عبر خمسة وعشرين عاما من حياتها في المسار النقدي الادبي العربي ... سواء على صعيد « المصطلح النقدي » بذاته ، ام على صعيد بلورة اتجاه نقدي واضح ، يدعم الحركة الابداعية ، ويرتفع بها .. مؤكدا الكثير من القيم الايجابية التي جاءت بها .

ـ جبرا ابراهيم جبرا :

كان لباب « قرأت العدد الماضي من الآداب » اهمية خاصة برزت ابتكار الدكتور سهيل ادريس لهذا الاتجاه في معالجة المقالات والقصائد والقصص معالجة آنية وتفصيلية لم يكن اي كاتب ليحلم بها في ما مضى ، او اذا نشر في اية مجلة اخرى . وكان لهذه الطريقة في

المعالجة مفعول في انفس الكتاب انفسهم - فضلا عن الاثارة التي كان يجدها القراء ويتمتعون بها حين يطلعون على ما يقوله النقاد - مدحا او قدحا ، تحليلا او « شرشحة » - لما قرأوه هم في العدد الماضي . المهم هو هذا الاثر في انفس الكتاب .

لقد خيّل اليّ ان كل من اراد ان ينشر في «الآداب» كان يتحسب لهذا النقد الذي سينشر بعد شهر ، فيحاسبه على ما كتب . وكان في ذلك نوع من الزام . الكاتب بأن يقول احسن ما لديه ، وان يصوغه على احسن ما يستطيع ، وان يعنى بجزئياته التي يعلم انها ستعرض لفحص مجهري .

ولما كانت النزعة السائدة في « الآداب » هي نزعة تجديد والتزام للقضايا القومية والمهمة ، والربط بين هذين الالتزامين .. فقد كان لذلك ايضا اثره الخاص في قدح زناد المخيلة لدى الشباب ، والشيوخ ايضا ، ضمن اطار المسؤولية الفكرية التي يحاسب الكاتب نفسه عليها لمعرفته ، على الاقل ، بأنها ستجابه امتحان الناقد في العدد القادم .

طبعا ، كان « للاداب » دور نقدي اهم من ذلك بكثير .. فنقد الجزئيات - كنقد قصيدة واحدة او قصة واحدة - لا يحقق اكثر من انتباه خاص لدى من يكتب في برهة معينة .. انما المهم هو النقد ، بالمعنى الاوسع ، لاعمال كبيرة، وبوجه خاص الاعمال الادبية العربية الجديدة ووضعها جميعا في اطار نقد لاعمال كبيرة للاداب الاخرى . فبقدر ما كانت مجلة « الآداب » مجلة عربية تعنى بمرحلة التجديد في الثقافة العربية ، فقد اقامت ، ايضا ، الصلة بين هذه الثقافة والثقافات الحية في اللغات الاخرى . ولا شك ان التجديد ، سواء في الشعر أم في النقد أم في القصة ، الذي عرفناه في ربع القرن الاخير ، كان مرتبطا بالكثير من التجديد في الثقافة المعاصرة في العالم ، الذي مثلته مجلة « الآداب » .

- عبدالوهاب البياتي :

بالنسبة لحركة النقد ، استطاعت مجلة « الآداب » ايضا ان تعيد حرائة الارض المحروقة الموصدة في وجه هذه الحركة ، وان تبذر البذور المتنوعة المختلفة ، واستطاعت ، ايضا ، ان تفتح الابواب لكافة الوان النقد الادبي ، الذي كان قد تحجر عند اللون السلفي الموروث، او اللون الذاتي المنفعل العشوائي . وقد تم ذلك بفتح صفحات المجلة لكافة الوان النقد الذي مارسه النقاد انفسهم ، والشعراء والكتاب والقصاصون والقراء ايضا، بحيث اصبح النقد الادبي ليس حكرا على النقاد حسب ، بل ملك اي كاتب او قارىء ، او اي ممارس لاي لون من الوان الادب . كما انها غذت حركة النقد الادبي العربية بما قامت به من ترجمات من مختلف حركات النقد الادبي في العالم ، دون أن تدع لاي تيار منها أن يسود ويطمس حركة النقد الادبي العربي الوليدة الناشئة .

د . جلال الخياط :

ان التقليد الذي سارت عليه « الآداب » في نقد ما تنشر ، ولاول مرة بين المجلات العربية ، كما اظن، عاد على المجلة وكتابها وقرائها بفوائد ، وجعل الكتاب يحذرون ويقدمون خير ما يستطيعون - كما اشار الاستاذ جبرا - وانتظر القراء ذلك النقد ليروا مدى تطابقه والانطباع الذي احدثته مواد العدد الماضي في اذهانهم . ورافق ذلك التقليد النقدي ترحيب المجلة بمناقشة القراء والكتاب للاراء النقدية ، سلبا وايجابا .. وما زلنا نذكر الخصومات والمعارك النقدية الحامية التي قدمتها لنا « الآداب » ، وخاصة في الخمسينات ، والاصداء التي كانت تحدثها في الاندية الادبية وجلسات المقاهي واجتماعات الادباء ، وتأثير ذلك بين طلبة الجامعات وغيرهم ..

ولم يقتصر دورها على النقد التطبيقي والاثارة النقدية المفيدة ، ولكن تعدت التطبيق الى التنظير النقدي لقضايا ادبية كثيرة عبر جملة من المقالات النقدية الجيدة، في اعدادها المتتالية ، فكان صدور « الآداب » يرافق تحولات كثيرة في عالم الادب والنقد تبعا للتحولات الاجتماعية والسياسية وعمق الثقافة وتنامي الوعي ، ومولد الشاعر العربي الجديد ، والكاتب العربي المتميز . ولو سئلت عن خير مصدر لتتبع الحركة النقدية في الادب العربي ، عبر ربع قرن ، لما ترددت في ان اشير الى مجلة « الآداب » ، وليس لنا حين ندرّس النقد التطبيقي سوى ان ترجع الطلبة الى مقالات التنظير النقدي في « الآداب » ، والى قراءة مواد عدد ما ، ومناقشة نقده في العدد التالي ... وبهذا اثرت « الآداب » في الحركة النقدية واثرتها ، وقدمت في اعدادها سجلا لمسيرة ادبية مشرفة ، بدات ببداية عهد جديد للادب العربي . فأنا اعتقد ان النصف الاول من القرن العشرين ، بشعرائه وكتابه ومفكريه ، كان يوطيء لهذه النهضة الادبية الحقيقية التي نحيا بداياتها الاولى اليوم ، او كان النصف الاول من هذا القرن طريقا بين عهود الزمن الضائع منذ سقوط بغداد حتى نهاية القرن التاسع عشر، والمستقبل الذي ينضم يوما بعد يوم الى الحاضر .

- جبرا ابراهيم جبرا

كان في وضع الكتابات العربية الجديدة ، عن طريق هذا النقد ، في سياق الابداع المعاصر في العالم ، مزيد من الدفع لها في اتجاهات الحداثة . وهو دفع كنا رأينا شيئا منه في مجلات اخرى تصدر في مصر ولبنان ، غير ان « الآداب » منحته زخما خاصا ، وجعلته ، بتقدم الخمسينات ، الصفة المميزة لافضل ما يكتبه الشباب من شعر وقصة .. الا انها في تنظيرها الشعري ، في

سنواتها الاولى ، كانت ابعد وعيا من الشعر الذي سمحت لنفسها فعلا بنشره ، وهو ما تداركته فيما بعد .

وقد ساهمت « الآداب » (بعد ان فعلت ذلك مجلة « الاديب » لوقت ما) في اخراج النقد العربي من نطاقه المحدود ، سابقا ، بمراجعة الكتب ، الى آفاق الدراسة التفصيلية المدعمة بالفكر والمعرفة المتنوعة . وبهذا كان لها دورها الكبير في ادخال النقد العربي في مجال العملية الابداعية نفسها ..

ـ عبد الوهاب البياتي :

ـ بالنسبة لحركة الشعر الجديدة ، كانت مجلة « الآداب » هي المجلة الاولى التي استقطبت رواد هذه الحركة ومريديها وتلامذتها ، وفتحت لهم صفحاتها ، بحيث ان صدور هذه المجلة كان بمثابة علامة او نبوءة بأن زمن الشعر التقليدي قد بدأ يمضي وينتهي ، أو انه لم يعد قادرا او مستطيعا على استيعاب هموم الانسان العربي الذي خرج من عصر المجاعة الروحية والمادية .

ـ د. جلال الخياط :

ويمكن القول ان مجلة « الآداب » حد فاصل بين نوعين من الشعر .. الاول نسميه شعر ما قبل المطبعة ، ان صح التعبير ، بأن يكون الاسلوب القائيا خطابيا مباشرا صخابا مؤثرا .. والثاني : قصيدة ما بعد المطبعة ، بأن تكون للقراءة لا للالقاء ، وأن تسود جملة شعرية جديدة بعيدة عن الخطابية في القصيدة المعاصرة ، لا يحس معها القارىء بأي نوع من الاغتراب والانفصال والانفصام بينه وبين الحدث ، وبين عصره ومواجد الشاعر .. وقد نجحت في أن تؤرخ للشعر الحديث ، بأمانة ومتابعة ذكية ، ومصاحبة النقد للشعر باحكام .

ـ عبد الوهاب البياتي :

.. كما ان « الآداب » عصمت حركة الشعر الجديدة من الوقوع في الضلال والانجراف وراء الدعاوى التي تبنتها مجلات أدبية أخرى . وقد لعبت « الآداب » دورا خطيرا في تركيز أعلام الشعر الجديد ، وعلى حفر انهار جديدة لهذه الحركة التي ظلت تهدر وهي تمضي نحو المستقبل . « فالآداب » احتضنت المصطلح الشعري الجديد من خلال احتضانها للشعراء المبدعين ، ومن خلال حركة النقد للشعر ، التي ظلت في جدل مستمر ، بما كان يصب فيها من آراء وأفكار ووجهات نظر مختلفة ، كانت تلتقي لكي تختلف ، وتختلف لكي تلتقي . ولكن المصطلح الشعري الذي احتضنته المجلة ، من خلال احتضانها للشعراء ، استطاعت ان تثبت أقدامه في طريقين ، بل في طريق واحد وان كان يلوح بأنه طريقان : الشعر من جهة ارتباطه بحركة المجتمع العربي والانساني ، ومن جهة ثانية ارتباطه بذاته ولذاته ، وبذلك حاولت « الآداب » ان تقضي على الثنائية التي حاول البعض ايقاع الشعر فيها . وبعبارة اخرى : حاولت المجلة ان تنزع عن الشعر بعض ثيابه المثالية التي خلعها عليه الدعاة الآخرون ، وان تجعل المعادل الموضوعي هو المنقذ من الضلال .

وقد كان لي شرف الاسهام في مجلة « الآداب » منذ صدور أعدادها الاولى ، بحيث أن غالبية قصائد ديواني « اباريق مهشمة » كانت قد نشرت فيها ، واذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، ان قصيدة «الملجأ العشرون» التي نشرت في العدد الخامس (مايو ـ أيار) ١٩٥٣ ، قد كتب عنها في العدد التالي (السادس) الاستاذ محمد النقاش ما يلي : « ان هناك قصيدة وسط واحة الشعر العربي ، على الاطلاق ، أنها « الملجأ العشرون » لعبدالوهاب البياتي ، فهذا التحليق الى أسمى المعاني ، هذا التحليق الى دنيا الملاحم على أجنحة حادث يومي تافه ، فتح جديد في لغتنا ، وأني لاتساءل اذا كان في امكان التاريخ أن يحصل على أبدع واروع وأوجز من هذه الصفحة في تصوير حالة اللاجئين الفلسطينيين » ..

وقد شعرت ، في تلك السنة الموغلة في البعد ، بالفخر والاعتزاز بهذا النقد الموجز لقصيدتي ، مما دفعني على مواصلة مسيرتي الشعرية بعزم أمضى واردة اقوى .

ـ د. جلال الخياط :

أود ان أؤكد هنا حقيقة تاريخية .. هي انه في نهاية الاربعينات كانت محاولات الشعراء الجدد الذين استطاعوا بجراة ان يقدموا أساليب مغايرة ، باقامة علاقات غير مألوفة بين الالفاظ ، وصولا الى جملة شعرية خاصة تتوزع على جهود فردية مستقلة ، بدت على استحياء ، لأول مرة ، وتطلع أصحابها الى اطمئنان ووثوق تامين بما يفعلون ، حتى وجدوا ملاذا في مجلة «الآداب» فاستطاعت ببراعة ان تؤطر تلك المحاولات ، وأن تمنحها مجالا حقيقيا ، وأن تؤكد على مضامين تعبر عن العصر تعبيرا صادقا . وشجبت « الآداب » الموضوعات الفردية المحدودة ، واحلت المضمون العام مكان الفردي ، وفضلت شاعر القضية على الشاعر التجريدي المطلق .. وبهذا اشترطت الصوت الخاص للشاعر ، عبر وعيه لهموم الآخرين ، بأصالة العملية الشعرية .. ورفضت الشعر السطحي القائم على البديهيات المعروفة .. فاحترمت قراءها ومستوياتهم الثقافية وقدراتهم على المشاركة في التجربة الابداعية وتمثلها وفهمها بصورة دقيقة .

ولو سئلت ، مرة اخرى ، عن اهم مصادر دراسة الشعر الحديث في الربع الثالث من القرن العشرين ، لأشرت الى مجلة « الآداب » دون تردد .. ولاكدت على العدد الخاص الذي صدر سنة ١٩٦٦ .

ان دور مجلة « الآداب » كبير ، ومؤثر وفعال .



١٧ آب ١٩٥٤ توقف الزمن لحظة ، فقرر امرا وترك للايام ان تنضجه ، ثم استأنف سيره . هل تم هذا القرار بمعزل عني ؟ هل انا التي سعيت اليه بمطلق ارادتي ، أم اننا تواطأنا عليه ؟

كل ما اعرفه ان والدي سألني ، صباح ذلك اليوم : « لماذا اخترت هذا اليوم بالذات للنزول الى العاصمة ؟ ان الحر هنا في المصيف لا يطاق فكيف الحال في بيروت ؟ » كل ما اجبت به ، انا التي لم تتمرد يوما ، ولم تخالف رايا عائليا ، انني جمعت اوراقي ، وتوجهت الى العاصمة .

كنت اسعى لتحقيق حلمي في الالتحاق بالجامعة التي اعتقدت انها ستكون منطلقا لتفتح امكانياتي ، لقد صممت ، منذ سنوات ، وعملت بصبر وجهد ، ضمن نطاق الدراسة وخارجها ، على ان اصبح كاتبة . كنت اعي يومها ما اريد .

في السيارة التي اقلتني الى العاصمة ، التقيت بطريق الصدفة ، بشاعر لبناني كبير، كانت تربطه بأسرتي علاقة صداقة واحترام . وكانت قد بلغته اصداء تفوقي الدراسي ، وخاصة في مادة الادب . وهذا النجاح وضع عائلتي امام مسؤولياتها : ينبغي ان تتابع « البنت » دراستها .. ان تنتقل الى العاصمة .. على ان الانتقال الى العاصمة معناه ، بالنسبة لي ، انا التي لم اغادر مدينتي الا ساعات ، وعشت في جو عائلي مكبوت ومحافظ - معناه ان اقتلع من جذوري ، وان اقذف في اجواء « غير محمودة العواقب » .

في السيارة ، تحدثنا طويلا عن الادب ومشاكله . ونصحني الشاعر بالا اتخصص في مادة الادب العربي لانه ، في نظره ، لا قيمة حقيقية له ، وينبغي نسفه ، مادة وشكلا وحرفا . ثم اننا غير مسؤولين عن تطوره ولا علاقة لنا به . ينبغي ان نعود الى تراثنا الفينيقي الحقيقي ، والى ادبنا القديم واساطيرنا الجبلية ، فالبحر والجبل مادتا تراثنا ، وليست الصحراء . وعلى ذلك ، فان على كل موهبة لبنانية ، خاصة اذا كانت طرية العود (مثلي) ان تسهم في خلق لغة جديدة ، بأسلوب جديد ، بحرف عالمي جديد . فنحن امة مميزة ، ذات حضارة عريقة ، تختلف عن البداوة وعن من اسموهم عربا ..

كنت استمع اليه ، ولم يكن لهذه الافكار اصداء مستجبة لدي . فقد احببت هذا الادب « الصحراوي » ووجدت فيه صورة لذاتي وعواطفي وافكاري . ومن خلال اطلاعي على الادب الفرنسي ، ومقارنتي اياه مع ادبنا ، اقتنعت انه ادب حضاري ، عريق ، استطاع في لحظات التفتح ، ان ينقل رسالة هي من اعظم الرسالات الانسانية . وان اتته ظروف كبا فيها ، فليس المرض في فكره ، ولا في لغته ، وانما في الظروف التاريخية التي فرضت عليه .

ومن الجو العائلي الذي عشت فيه ، سواء من الناحية الدينية او الادبية ، كنت احس بذاتي تخرج من حدودها الاقليمية الضيقة وتتمدد لتتلاقى مع مفهوم للعروبة منفتح وشامل .

كان هذا الشعور « العربي » شعورا عاديا ومألوفا . وحين سمعت كلام الشاعر اجفلت واجتاحتني موجة من الغضب والرفض ..

ترجلت من السيارة ، متوجهة الى مكتبة كنت اتردد اليها لشراء كتب فرنسية . وقع نظري على مجلة ، سبق لي ان قرات بعضا من اعدادها . احسست براحة . سألت الموظف اين تقع ادارة المجلة . فخرج يشير بأصبعه: هناك ، في اول هذا الشارع .

* * *

وقفت امام الباب ، واجلت نظري . كانت وجوه ثلاثة تنظر الي . اصبت برهبة . ولكنني تشجعت . سألت عن رئيس التحرير . نظروا فيما بينهم ، وابتسموا . قام احدهم وقال، وهو يتقدمني الى غرفة مجاورة :« انا هو ».

وجلس خلف مكتبه . وارسل الي نظرات متسائلة . ظللت لحظات صامتة ، واحسست بجو ثقيل يربض على صدري . وكأنه احس بضيقي فكلمني مرحبا ، لم ارد. سألني ان كان لدي مادة اريد تقديمها للمجلة . هززت رأسي بالنفي. تابع :« هل تريدين اشتراكا بالمجلة؟» ماذا اجيب ؟ لست لهذا الامر قصدته . وساءلت نفسي : ماذا اريد بالضبط ، ولماذا جئت الى هنا ؟ علا الاحمرار وجهي، وارتبكت . راودتني فكرة الهروب. الآن فقط ، اعي خطورة ما اقدمت عليه . رفعت رأسي اليه . فاجأته يحدق بي . واذ التقت نظراتنا الدهشة والمستفهمة اخذ يهز رأسه يمينا وشمالا وهو يضحك . قام من خلف مكتبه وجلس على مقعد قبالتي . قال لي : لقد اخافك رئيس التحرير ؟ (كنت على يقين بانه لم يكن يريد بي سوءا) سأساعدك في الكلام . وكاستاذ يمتحن تلميذا نسي درسه راح يطرح علي اسئلة - مفاتيح . كنت اجيب على بعضها، فيما الاحظ ان البعض الآخر لم يكن يعنيه . كان يفاجأ بليني وبفجاجتي . ولقد صبر علي . وحين اجبته اين اسكن علّق مازحا : انت اذن من بلدة الشاعر (...) ولم ادعه يكمل ، قفزت من مقعدي ثم هبطت كطفل مرح .

عايده مطرجي إدريس

واخذت احدثه ، بسرعة وحماس كتلميذ حفظ درسه ولكنه نسي اول كلمة منه . لا ، لست من بلدته ، ولكني اقيم فيها بحكم وظيفة والدي . ان جذوري تمتد هناك ، في طرابلس الفيحاء ، احدى قلاع العروبة الصامدة في لبنان . تركني اتكلم ، ولم يقاطعني . لعله خشي ان يعاودني البكم قبل ان اتم فكرتي . حدثته عن يومي هذا، عن المي لاحتقار العالم لنا ، لنعته ايانا بالمتوحشين وبالمتخلفين ، عن عدم ايماننا بانفسنا ..

كان مطرقا . وحين نظرت اليه ، لاحظت انه كان يأخذ كلامي مأخذ الجد . وحين سألته ماذا ينبغي ان نفعل ، قال : علينا ان نناضل . ان قضيتنا شاقة ، وان اعداءنا كثر ، في الداخل وفي الخارج، وطريقنا شائك وطويل . ولكنه كان يؤمن باننا سنصل . وقال لي انه لهذه الغاية يصدر مجلته .

قام وقدّم لي نسخة . قلبتها . اكد لي ان باستطاعتي الاحتفاظ بها ، واذا اردت أرسلها لي . سألني عن عنواني . حين هممت بأن اجيب انتصبت امامي قافلة من الاسئلة ينبغي ان اجيب عليها حين تصلني المجلة الى البيت . قلت بحسم : لا داعي لذلك . اجفلته . ولكني عللت هذا بانني سوف استقر هنا ، في اول العام الدراسي . سألني باهتمام : اين ستلتحقين؟ قلت : سأقرر اليوم : اما الادب الفرنسي او الفلسفة اوالادب العربي . قال : الفلسفة ، ربما ناسبتك اكثر . قلت ، في هذه الحالة سألتحق بالمعهد الفلاني . قال وهو يشير بيده : عظيم . انه قريب جدا. وحين وقفت اريد الانصراف .قال لي: مهلا . سأقدم لك روايتي . وامسك قلمه وانتظر ان اذكر له اسمي . ولكنني انصرفت من غير ان اودعه . ناداني. قلت : سآخذها بلا اهداء . قال بغضب : يمكنك شراؤها من السوق اذن . ثم تراجع واردف بلين : تفضلي . ولكن يده ظلت ملتصقة بصفحتها الاولى وظل القلم بين اصابعه. قلت وانا اقترب من مكتبه : قل لي قبل ذلك ماذا تريد ان تكتب . قال : هذا يتعلق بي . واذ راى الامتقاع في وجهي قال : اهداء للانسة ، اليس لك اسم ؟ وكتب اسمي على نسخة من اول طبعة من « الحي اللاتيني » .

اخذت الكتاب . ما ازال احتفظ به . لقد مرّت على ذاكرتي عشرات التواريخ ، ونسيتها . وظل ١٧ آب ١٩٥٤ مستعصيا على النسيان ، كشهادة ميلاد ثانية .

قبل ان اغادر مكتبه ، سألني ان كنت اريد المساهمة في تحرير المجلة ، واعطاني قصة قصيرة للترجمة .حملت اوراقي وكتابي ومشيت . واذ وصلت الباب سألني: « متى تعودين ؟ »

وعدت بعد شهر . وحين رآني شعّ فرح حقيقي من عينيه . بادرني على الفور : لقد تأخرت . اجبته : لم يكن لدي سبب للمجيء من قبل . احتدت لهجته وقال : ولماذا جئت اليوم اذن ؟ قلت : انه آخر يوم للتسجيل . علق : ولماذا تتركين البت حتى آخر يوم ؟

اجبت بأنني كنت افكر . فأنـــا لا احب أن اقرر مصير دراستي على عجل . سألني ساخرا : وهل كل قراراتك تطلب مثل هذه الروية والتفكير ؟ لم أجد في هذا السؤال ما يثير اهتمامي ، فلم اعلق عليه . وانما قدمت له اوراقا ووضعتها على مكتبه . وظللت واقفة قبالتـــه . قلبها . قال : اولا الخط رديء جداً . ثانيا ينبغي الا تكتبي عـــلى قفا الورقة ، فليس هنا مجال الاقتصاد . ثالثا (قالهـا بغضب) : انك تخطئين في النحو . واستمر في القراءة . كدت ابكي . منذ شهر وأنا أعمل جاهدة في ترجمة هــذه القصـــة . لم يسبق لي قط ان تعاملت مع نص بهذا الطول وبتلك الصعوبة الناجمة عن ضبابيـــــة تلف جو القصة واسلوبها . قارن بين النص والترجمـــة ، وعلق : انك تفهمين الاصل . هذه خطوة تبشر . وابعد الاوراق قائلا : سأنظر فيها فيما بعد . ولكن كان يهمني انا ان يبت فيها الآن . قلت : الملاحظة الاولى والثانية لا اهمية لهما . اما الثالثة فليست خطرة الى هذا الحد . قاطعني : بل أخطر مما تتصورين . انها قضية لا يمكن التساهل فيهـا على الاطلاق . ان قواعد اللغة هي دعائمها . فاذا كانت الدعائم هشة انهار البناء . ينبغي أن نبني على أسس سليمــة ، أن نعود الى الاصول ، الى الجذور . قلت : ليس اللغوي بالضرورة اديبا . قال : ولكن لا يمكـن للاديب ان يكـون اديبا اذا لم يتصالح مع اللغوي .

* * *

فوجئت ذات مساء ، وكـــانت دراستي ليلية ، بالمديرة تستدعيني لتسلمني رسالة . اخذتهــا فوجدت فيها سطرا واحدا وتوقيعــا . لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذا التوقيع. وتذكرت :بلى،مرة واحدة. اما السطر فكان يقول: « لماذا لم تأتي .انـنــي انتظرك » . طويـت الرسالة . وحرت أين أضعها . ان ضبطها أحد من أهلي فسيعلقون : لقد بدأ الخير منذ الايام الاولى .

لم اذهب . كان لدي شعور خفي بأنني قد اتــورط في امر لن يكون في نهاية الامر لصالح دراستي . ينبغي الا أفكر في الوقت الحاضر على الاقل بنشاط عدا النشاط الاكاديمي . كان هذا هو قراري النهـائي . ولكنني وانــا مغادرة معهدي رأيته . ناداني وقال : انها صدفة جميلة . شككت في الامر ، وقد اكدت لي ذلك ابتسامته . فـــلم يكن يريد ان يكذب علي . سألته : ماذا تريد مني ؟ قال : يمكننا ان نتحدث . قلت : الوقت متأخر وأريد أن اعــود الى البيت . سألني اين اقطن وعلق : انها الطريق نفسها. رافقني . لم يحدثني عن نفسه ، ولم يسألني من امري شيئا . كان يتكلم عن مجلته ، وعن الحملة المركزة التـي تستهدفها في الداخل وفي الخارج ، وعن المضايقات التي تلحق شخصيا به . قال ولكنه لن يتراجــع . وسـوف يقف ، ولو ظل وحيدا ويصمد . علقت ، وكنت قد قرأت افتتاحية العدد الاول من جديد : ولكن طموحات المجـــلة اكبر من امكانياتها . وليس وراءها ، كما ذكرت ، مـــن يدعمها . فهل يمكنك ان تستمر طويلا ؟ أجابني ، وقـد ارتاحت نفســه ، بأن الامر يتوقف على عزمه وعلى قراره .

* * *

كنا نلتقي بين فترة واخرى عن طريق « الصدفة » دائما . كان يحدثني عن مشاريعه ، عن اعـــداد خاصة ينوي اصدارها ، عن مقال نشره ، عن كتـاب يترجمه ، عن آخر ينفذه وعن تجمع ادبي يسهم به . ذاك كان محور تفكيره ، وهذا هو عالمه : عالم منسجم ، لا ازدواجية فيه، وان كان عالما مشحونا ، قلقا ، مضطربا .

فكرت ذات يوم ، بعد حديث دار بيننا : ما شأنـي بهذا العالم ؟ كنا في اوائل تشرين عام ١٩٥٤ حين شكا لي من ان مجلته تمنع في العراق . قال : تصوري اية شروط تريد ان تفرضها الرقابة : « ان لا ننشر لاي شاعر عراقي الا ما كان متعلقا بالثقافة والادب فقط ، الإبتعاد عن نشر الرسائل والقصائد ذات الصبغة «الثورجية» او التقدمية، الابتعـاد عن نشر اي شيء يتعلق بالعمــل والعمال ». سألته بشرود : وماذا ستفعل ؟ اجـــاب بغضب : مـاذا سأفعل ؟ سأرد بالطبع . واخرج من جيبه اوراقا وقرأ : « هذا الارهاب الفكري » . وحين وصـــل الى قوله : « لا بد ان القارىء يضحك الآن كما ضحكنا ويتساءل : اذا لم تتحدث « الآداب » عن العمل والعمال ولم تنشر قصائد وطنية « ثورجية » وتقدمية ، فعلام تصدر ولماذا تواصل جهودها ؟ اتنتظر حكومة العراق ، واية حكومة عربيـــة أخرى ، أن تخصص « الآداب » صفحاتها لتمجيد الاوضاع القائمة ، ولا سيما في العراق ، ولكيل الثنـــاء لحكومة تخنق الحريات وتعطل الصحف بلا تمييز وتهدد بتجريـد الجنسية و ... » كنت أستمع اليه مصعوقة . هـــذا الشاب الرقيق ، الدمث ، كيف تحول الـــى هذا العنف والصرامة ؟ اية طبيعة هي طبيعته الحقيقية ؟ وتحـاورت مع نفسي لدقائق . وتوصلت الى تلك القناعة : ما شأني بهذا العالم ، ولماذا اقحم نفسي فيه ؟ وقدرت ذاتـي ، فوجدت هذا العالم اكبر مني وأشمل من هموم صغيرة تراودني . انه ينتمي الى عالم الكبار ، وأنا ما ازال طفلة . وعجبت كيف تعلق بي .

* * *

تأخر أستاذنا ، فتأخرت ساعة الدراسة . وحيـن خرجت من المعهد ، متوجهة الـــى موقف السيارات ، لاحظت ان « مكتبه » كان ما يزال مضاء . انه هنـاك . تابعت سيري . ولكن امطارا غزيرة هطلت فجأة فـوق رأسي ، وهبت عاصفة من الريح الثلجيـــة جعلتني غير قادرة على المضي . كان الماء عند تقاطع الارصفة يدخل في قدمي ، وكان شعري الطويل يسيل مع المياه . حـاولت الاحتماء بأي مكان . ولكن المحلات كانت مغلقة والابنيـة

كلها بلا رفوف . انتظرت سيارة تحت المطر . فلم تمر . خطرت ببالي فكرة : سأنتظر عند مدخل بنايته ، الذي كان بابها ما يزال مفتوحا ، حتى أعثر على سيارة .

ما كدت أصل ، حتى سمعت وقع أقدام خلفي . تملكني ذعر حقيقي . كدت ابكي . الدنيا ليل ، وانا غريبة في هذه المدينة وخائفة والبرد ينفذ الى عظامي فتأخذني موجة من الارتجاف . لم التفت الى الوراء . واقتحمت مخيلتي صور الطفولة المليئة بأشباح الرعب والجريمة . اخفيت رأسي ، واختصرت جسدي . فجأة تقدم وجهه مني ، قال متعجبا : انت ؟ ووضع يده على شعري . قال : انك مبتلة حتى الجلد . احسست بيده كيد أمي الحنون . حدّق الي وسألني : انت تبكين ؟ كنت عاجزة عن الكلام . امسك بيدي وقال : تعالي استريحي قليلا . رفضت . انه وحده . والدنيا ليل . قال : ولكنك ستمرضين ! فكرت . ليس هذا مهما . تركني ووقف على الرصيف . انتظر بعض الوقت . لم تمر اية سيارة . وكان المطر ما يزال يتدفق كالشلالات . ناديته : ستبتل انت أيضا . قال : ما العمل ؟ وحزم امره : تعالي . وتقدمني الى المصعد . لم الحق به . سألني : انت خائفة ؟ لم اجب . كنت ارتجف بردا وضعفا وخوفا .

في مكتبه ، قرّب المدفأة الكهربائية مني . ظللت واقفة . كانت الابخرة تتصاعد من ثوبي وتغلفني بجو ضبابي . انحنيت قليلا وجففت يدي . احسست بدفء يتسرب اليّ . هذه المدفأة هي كل عالمي في هذه اللحظات .

ثم تنبهت له . كان واقفا يرتب اوراقه . فأغضضت طرفي . بعد لحظات نظرت اليه . كان أمام النافذة ينظر الى الخارج . فجففت شعري . ثم رأيته يذرع الغرفة رواحا ومجيئا . لاح لي بطله اتباريسي فعاودني الخوف. ازال الشك من عينيّ قائلا : يبدو ان المطر لن يتوقف . يجب أن نتدبر امرنا .

خرجت قبله . ناداني ضاحكا وقد افرحته براءتي : يمكنك ان تأخذي هذه المظلة . ثم أردف : من الافضل أن أوصلك . وسرنا معا ، تحت مظلة واحدة . ثم خلع معطفه ووضعه على كتفي ليحميني . رفعت اليه عينيّ لاشكره : ستبرد انت ، قلت . قال:انك مدهشة ، طفلة مدهشة . ولامست يده المشتعلة وجهي برفق . كان احساس غريزي يفاجئني : انه يكبت نفسه . لم يشأ أن يستغل ضعفي وخوفي .

ومضيت الى جانبه تحت المظلة ، يراودني شعور انني سأمشي طويلا الى جانبه ، وتحت مظلته ...

***

لم يكن لديّ نهارا اي عمل اقوم به . فقد أردت أن أصرف نشاطي كله في نطاق المطالعة والدراسة . اقترح عليّ ذات مرة أن أساعده . لم أجب . وحين نظرت اليه ، احسست بعوالم من الجليد تتكسر في أعماقي ، وبتواصل أثيري اكتشفت ما يجول في نفسه وما يضطرب في ذاتي. كان حبا قويا جارفا نما ببطء وبخفاء ولكنه اللحظة ينفجر .

***

رأيته هذا المساء غارقا بين أوراقه . حييته فهز رأسه وتابع قراءته . انتظرته وانا اشغل نفسي بكتاب . ثم ما لبثت أن احسست بدموع في عينيّ . وفكرت . أن عالمه لا يسعني . واستنتجت أن حبه لي كان عابرا . وقارنت بين هذا الواقع ـ الحب وبين الحب الذي صوره في رواياته . لعل هذا هو الحب الذي احببته فيه والذي ينصرف فيه العاشق الى حبيبه فلا يشغله عنه اي همّ . وساهم في قناعتي جو الروايات الذي عشته حلما وتمنيته واقعا . ولربما حين ارتضيت حبه وتمت خطبتنا ، كانت هذه الرغبة اللاواعية في اعماقي هي دافعي اليه .

أمسك وجهي بين يديه وقبلني وهو يقول : لقد ظلمتك يا صغيرتي . ولكنها حياتي ، ولا مجال للتخلي عنها . ألا يمكنك أن تتكيفي معها ؟ كنت أريد أن اقول له : اما انا ، واما هذه الاوراق . ولكن صوته كان صادقا ، مكشوفا ، وكان مع حسمه حنونا . وتراءت لي حياتي . كانت آفاقها ضبابية ، غائمة ، وكانت الاوهام والخيالات ترسم واقعها ولا تحدده . افهمني ان المجلة لن تكون منافسة لي . فهي طفلة ، ما تزال في سنواتها الاولى . واما المستقبل ، فسنقطعه معا ، وبامكاننا ان نعتبر المجلة اولى ثمرات التقائنا . ستكون بنتنا الاولى . الا تحبين الاطفال ؟

***

كانت « الآداب » تحتل غرفة من بيتنا . فامتزجت بحياتنا اليومية وامتزجنا بها . كان باستطاعته أن يعمل حتى ساعات متأخرة من الليل احيانا ، واحيانا أخرى كنت أراه جالسا خلف مكتبه قبل طلوع الفجر . وكنت انا اتدرب لمساعدته .

كانت امكانياتنا المادية ضئيلة : ما يربحه من ساعات قليلة من التدريس أو من ترجمة بعض كتب او القاء بعض الاحاديث في الاذاعات العربية. ومردود بسيط من كتبه. ولم تكن المجلة تعود علينا بأكثر من سد نفقاتها . وكل ما كان بامكاننا أن نفعله ، في هذا الظرف ، أن نعتصر النفقات حتى أصبحت جزءا من مصروفنا ، جزءا من خبزنا .

ولكن المشكلة كانت تتفاقم كلما ازدادت مسؤولياتنا العائلية ، وكلما ازداد المنع في البلاد العربية . وكنا اكثر ما نتعرض له في العراق . كانت سوقا رئيسية . وكان كثير من كتابنا وقرائنا هناك . وكان القمع والارهاب

يجثم في كل مكان . ومن اقبية التعذيب ، ومن خلف السجون ، ومن كل المنافي ، كانت تصلنا قصائد مهربة أو قصص أو مقالات . وحين كنت أعترض على نشر بعضها كان يجيب : لن اهادن . لن اخون هذه الاصوات . ينبغي أن نكون على مستوى تضحياتها ، ان نكون صدى لها حتى آخر مكان تصله « الآداب » .

كنا ننشر ونغامر . وكان الارهاب يحول بيننا وبين ترجيعات هذه الاصوات . ولكن لنعترف انه ، حين كانت تصل ساعة تسديد الفواتير ، كان الزهو يغادره ، وكان هم حقيقي يربض على صدره ، فأشاركه اياه .

وجاءنا اقتراح من بعض اصدقاء لنا من العراق (١) . كانوا يريدون ان تصلهم المجلة . قال بعضهم اذا لم يكن بالامكان توصيل أفكاركم مئة بالمئة ، فمن الافضل ان نقنع بالتسعين . واقترحوا حلا : يمكننا حذف ما يمنعها ، كتدبير مؤقت . ولكنه رفضه اولا . واعترف انني الححت عليه الحاحا شديدا حتى وافق على مضض ،اذ رأى انه لم يكن امامنا اي منفذ ، والديون تتراكم وترهقنا ، الا اغلاق المجلة . وكان هذا الامر مستحيلا بالنسبة له . وكان تخلي « الآداب » ايضا عن صوتها الحقيقي يعادل احتجابها . كانت المعادلة صعبة . وللخروج من المأزق ، ارتأينا أن تظل « الآداب » تصدر بحجمها الطبيعي الذي تُرسل نسخ منه الى العراق، بينما نتحمل اضافة ملزمتين ينشر فيهما ما كان مفروضا ان يوزع بين صفحات العدد ، مما يشكل المادة التي قد تؤدي الى المنع . ولكن ان حلت هذه المشكلة ، جزئيا على الصعيد المادي ، لفترة قصيرة ، لا تتجاوز ثلاثة أعداد أو اربعة ، فانها قد خلقت لنا ازمات نفسية حادة . لم يكن مقتنعا . وكان يحس نفسه مجزأ . وتفاقم قلقه حتى تحول الى ارق . كنت استيقظ احيانا فأجده جالسا في سريره يفكر ، أو ذارعا الغرفة بعصبية. ثم لم يعد باستطاعته أن يتحمل . ولم يعد السكوت ممكنا والارهاب يتفاقم في العراق خاصة . قال لي : سنواجه السفاحين . وتوالت موآد « الآداب » مستنكرة ، منددة ، داعية للثورة ، محملة بأصوات الثوار . سدت في وجهها الاسباب العادية ، ولكن روحها كانت تتسرب حتى السجون . كنا نقطع بعض القصائد او القصص ، ونرسلها قصاصات عبر رسائل خاصة أو مع أصدقاء ، فيضيع بعضها ، ويصل بعضها الآخر فتنسخ وتوزع كمنشورات سرية . وحين كان يقرأ رسائل الاصدقاء مشيدة بدور « الآداب » كانت سعادة حقيقية تغمره ، وكانت الحياة آنذاك تستحق ، في نظره ، أن تعاش .

كانت التجربة قاسية . وبلغ من شدة تأثره بها ان عقد بينه وبين نفسه اتفاقا لم يحد عنه منذ ذلك الوقت : لن يهادن ، لن يراوغ ، سيقول الحقيقة وينشرها مهما كان الثمن ، وسيكون بجانب الاديب الحقيقي وبجانب حريته وحرية وطنه الكبير . فاذا صادف ان ترافقت سلطة قومية مع خطواته كان موقفه منها ايجابيا ، والا فانه بشكل حاسم مع الاديب ضد السلطة . هذا القرار لم يترك لي يوما فرصة لاناقشه فيه ، ولم يترك مجالا لاي نداء أو ضغط من قبل اصدقائه ليتصرف حسب الظروف وبتكتيك . كان قاطعا . كل الحقيقة . انها لا تتجزأ ، وأيا كانت الظروف . ان الفكر مبدئي . أما التكتيك فهو عمل السياسيين المحترفين . ولكي يحافظ على هذه المبدئية في التوجه قال لي : ستنصرفين انت لشؤون المجلة نهارا ، وانا سألتحق بالتدريس ، وأتابع أمرها في الليل . لن ادع « الآداب » تكون مورد رزقنا . بل ويمكننا أن ننفق عليها حتى نجتاز هذا الظرف . لن أكون عبدا لخبزي .

كان يستيقظ باكرا جدا. ينظم أوراقه ويقرأ مادة أو يصححها . واذ تحين الساعة السابعة يستقل سيارة ويتوجه لتدريس التعريب في معهد أنشأه الفرنسيون في قرية لبنانية لتدريب بعض الموظفين الفرنسيين على اللغة العربية . ولم يكن يعود الا ظهرا .

لكنه لم يلبث قليلا حتى قال لي : لست لهذه الحياة خلقت . لم يكن يحب التدريس . بيد انه كان يعتبره عملا شريفا . كان ينسجم مع اهدافه . كان عليه أن يحدث تلاميذه بالعربية . كان بعضهم يتعاطف مع قضيتنا . والبعض الآخر يحاول ان يقتنع ، فيما يقف فريق مناهض لهذا الاستاذ الذي يتجاوز مهمته . ولكن الامور كانت تمشي كما يقولون . وذات يوم ، جاء ثائر الاعصاب مضطربا . لم أسأله ما به . قال بأسى : كان علي الا ارتبط بأسرة لاكون حرا . وأجاب نفسه : ولكن ذلك كان يكون لا بشريا ولا انسانيا . كان متعلقا بأسرته . وكان يرى فيها امتدادا لذاته وتعويضا لنضاله في الحياة، يركن اليها ، فتتسرب اليه ساعات من السعادة والامل في صحراء هذا العالم المضطرب . وسألني ان كنت قد سمعت بأنباء العدوان الثلاثي . قلت : اجل . قال : وما تتوقعين أن يكون موقفي ؟ قلت : ان تترك عملك . قال : هذا ما فعلته بالضبط . لقد قدمت استقالتي . لا مبرر لعملي بعد . لقد نسف العدوان الثلاثي كل أمل . وهؤلاء الذين ادرسهم يحملون وجوه من يقتلون ابناء قومي وأمتي . حاولت ان اناقشه في بعض الظلال . ولكنه رفض الاستماع . كان حاسما . ان اي تردد خيانة . دخل مكتبه وراح يخطط لعدد يندد فيه بالاستعمار الفرنسي ويشيد ببطولة المواجهة العربية ويدعو اصدقاءه لعقد اجتماعات طارئة لمساندة القضية .

بعد ايام اتاه احد الطلبة . ابلغه ان مدير المعهد — وهو مستشرق يحترمه — قد علق الدروس ، انسجاما

---

(١) على رأسهم بدر شاكر السياب . انظر رسالة له بهذا المعنى في كتاب « رسائل بدر شاكر السياب » جمع ماجد السامرائي ، منشورات دار الطليعة .

مع الروح العامة التي دفعته لانشائه . كان هذا الطالب يدعى عبد الله ، وهو من اصل جزائري ، وكان يعمل في الجيش الفرنسي ، ويحدثه عن بلاده التي لم يزرها ، عن حنينه اليها ، عن ثورة لا بد لها يوما أن تنتصر ، عن رغبته في الالتحاق بها ، عن عجزه هذا القاتل . قال له : جئت لاودعك . ان آلامي لم تعد تحتمل . لقد ساعدت انت في اشعالها . سأترك أسرتي وسألتحق بهم . سأعود الى جبال وهران .

كان وداعا مؤثرا . وهو يصافحه ، وعده أن يكون دوما الى جانبه ، أن تظل مجلته دعما لثورته ، وتنديدا بالمستعمر . وكانت « الآداب » قد تبنت الثورة من قبل بفضل قراءاتنا وبفضل ما امدّنا به كتابنا واصدقاؤنا الجزائريون من معلومات وحقائق . وفيما كانت الثورة تتقدم ، كانت « الآداب » عبر قصائد شعرائها ، تغني مع الشعب العربي اجمل ملحمة من ملاحمه .

وانسجاما مع ذاته ، وعلى صعيد واقعي ، انضم الى الجبهة الشعبية لنصرة الجزائر فكان سكرتيرا لها . وراح ، مع رفاق له ، يبشر بالثورة ويدعو لمساندتها .

— لقد حررت نفسي . فحررت مجلتي .

وحين اعلنت الجزائر استقلالها ، دعي الى اول حفلة تقام هناك احتفالا بالحدث الهام . امر لا يصدق . امر اجمل من الخيال . هل باستطاعته ان يصبر فينتظر تلك الايام التي تفصله عن اللحظات التي ستطأ قدماه فيها أرض الجزائر ، تلك الارض التي امتزجت بدماء مليون شهيد ؟ كنت أراه في تلك الايام يترنم بالنشيد الوطني الجزائري ، وكانت الكلمات والالحان تنبض في صوته ، تحمل نضارة الولادة الاولى .

منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٢ ظلت الثورة تعيش في نفسه وفي « الآداب » ، وحين انتصرت ، حق له ان يشارك بانتصارها ، كواحد من أبنائها فيقول : « البشرى لنا أيتها الجزائر العظيمة ، يا ارض البطولات الخالدة » . و « تلمس قدماي أرض الجزائر فيتحقق الحلم الاثير ، وتغيم عيناي بغشاوة من دموع حين يرف فيهما علم الجزائر فوق بناء المطار . لقد ولدت اذن بنت المخاض العسير » . هذه الكلمات كانت أعجز من أن تصور طفرة السعادة الحقيقية التي كان واقعه يعيشها .

من أرض الجزائر ، حمل لي زجاجة صغيرة مملوءة بالتراب . تلك كانت هديته ، أجمل هدية قدمها لي . وكان يعرضها على من يزورنا من الاهل والاصدقاء . اكنا سذجا ؟ ربما اعتقد البعض ذلك . اما نحن ، فكنا نشم رائحة دم مليون شهيد مجبولة بالتراب ، ونحس فيه نبض اللهفة والالم ونشوة النصر واختلاجات اللحظات الاخيرة لشباب نذر نفسه للموت من أجل أن تحيا الجزائر .

***

شهدت « الآداب » خلال الخمسينات تفجر الثورة العربية في وجه الهجمات الشرسة للاستعمار والرجعية العربية . فمقابل نوري السعيد ، والعدوان الثلاثي ، كان المارد العربي يؤمم القناة ، وينتصر على العدوان ، ثم يحقق أول حلم راود الامة العربية وهو الوحدة . كانت «الآداب» حاسمة الملامح . ففيما كانت تخوض معارك ضارية مع أعداء الثورة على الصعيد الثقافي ، كانت تواكب الثورة الصاعدة ، الثورة الامل .

قلت له ذات مرة ، وكانت افتتاحيته مليئة بايمان لا يحد بقدرة هذه الثورة : « كلامك هذا سوف يثير شكوكا . انت تعلم ان معظم الصحف مأجورة . اخاف ان تلحقك التهمة » . قال : « هذه قناعتي . وقناعة ملايين الحناجر التي تسمعين كيف تتفجر . هل هي مأجورة ؟ لماذا لا يمكن ان اكون واحدا منها ؟ هل خوفي من تهمة باطلة ينبغي أن يحول بيني وبين ما أراه واجبا متمما لرسالة «الآداب» ؟ » .

مضت سنوات ، وضعف المارد لكثرة ما اصابه من سهام ، وتخلى عنه الكثيرون . صمتوا او هاجموا . وعلى الرغم من الانتقادات التي كانت « الآداب » تواجهها ، ظلت وفية لذكراه ، معترفة بحقه كرمز لاجمل وانبل واشجع سنوات عرفتها حياتنا .

حدثان في تلك الفترة لا يمكن نسيانهما : الوحدة والانفصال . في الاولى تتحقق السعادة والحلم ، وفي الثانية الهزيمة وبدء الانهيار والالم .

***

عجيب امر هذه الامة التي ننتسب اليها ، والتي ، على رغم ما يلحقنا فيها من مآس وآلام ، نظل متحدين بها ، عاشقين لها ، مؤمنين بمستقبلها . ان صمودنا هذا الطويل ، صورة لصمودها ، وعنادنا ، مثال لعنادها . ما يكاد السهم يصيب عضوا منها ، حتى يخيل لنا انه أصاب منها المقتل ، فاذا هي تنتفض في مكان آخر من هذه البلاد الشاسعة ، فتضمد جراحها ، وتنتصر على الموت وتستأنف المسير .

***

عام ٥٨ ، اندلعت أول ثورة في لبنان . كان هذا البلد القوي الضعيف هدف الاستعمار . ففي بعض مناطقه ، كانت تنطلق وتتأجج أعمق وأعنف دعوة لتأييد الوحدة والاشتراكية . وكانت نواة ثورة واعية شاملة تتكون فيه لتمتد الى سائر أقطار العروبة . وفي غمرة الزهو والانتصار ، وقد حملت « الآداب » الكثير من هذه الملامح ، ضرب الاستعمار ضربته ليقتل الرضيع في مهده. ففي الوقت الذي كان لبنان يحضن الثورة ، كانت الاحلاف الرجعية في الداخل والخارج تتآمر . وحدث هذا الانقسام الطائفي المريع وشهد الشعب تذابحا لم يعهده من قبل . توقفت « الآداب » في تلك الاثناء . فقد

كان مقرها في قلب النار . ولكن نشـــــاط رئيسها لم يتوقف . انضم الى العناصر المؤيدة للثورة يمدها بما يمكن للكلمة أن تفعل ابان الحرب . كان يعتبر نفسه مجندا ، معرضا لجميع المخاطر التي يتعرض لها المقاتل . قال لـي ذات مساء ، وكانت أصوات الرصاص تلعلع : « ساعـة وأعود . سأرسل مقالي الى الجريدة » . قلت له : « ولكننا لن نربح معركة بكلمة » .اثاره تعليقي. كان جادا فـي مهمته . كان يؤمن بأن الكلمة معادلة للبندقية ، ينبغي أن يمشيا معاً .

وكان يحزن لاضطراره الـى توقيف « الآداب ». ولكنه كان يقنع نفسه بأن كل صحيفة تعبر عن أهدافه ، هي صحيفته . وحين انتهت المعركة ، ضمت « الآداب » هذه الكلمات ــ الشهادة لفترة ما كنا نتوقع يوما ان بذور الشر فيها سوف تنمو لتتفجر بعد سبعة عشر عاما حربا مدمرة .

خرجنا من المعركة مجرحين . وخسرت « الآداب » بعضا من كتابها وقرائها في الداخل . لقد افرزت المعركة الاصوات . وحددت ملامحها . المهم ان المجلة استانفت سيرها ، وتجاوزت وجوها كانت مخادعة ، وأخـرى محايدة ، لتؤكد التزامها بقوى التحرر والثورة في الوطن العربـي .

لم يكن هذا الالتزام يسيرا في بلد كلبنان . بل كان الثمن باهظا اقله انك تعيش في بلد تحمـل في نفسك جراحاته ، من غير أن يصيبك ، كمـواطن ، شيء من خيراته . كان هذا الشعور ينمو مع الايام ، وقد تفجـر فيما بعد . وكان فريق آخر يعلل ذلك بعدم انتمائنا الـى لبنان ، وبامتداد جذورنا الى الخارج ، الى الوطن العربي. لم يكن التشخيص صحيحا . كان انتماؤنا للبنان انتمـاء حقيقيا ، وحبنا له حبا عميقا ، حب من لا يجد السعادة الا في زاوية معينة من العالم يختارها وفي بيت معين من جميع البيوت ، هو بيتك . ولكن نظرتنا للبنان تختلف . أجل ، كنا نحبه في ذاته المنفتحة ، في جذوره الراسخة المتغلغلة حتى أعماق العروبة . كان عالمنا كبيرا .

ذات يوم من هذا العام دخلت مكتب « الآداب » . كانت اصوات هرج وصياح لم اسمعهـا من قبل تنبعث منه . فتحت الباب قلم اصدق ما تراه عيناي . رايتـه وسط عدد من الشبـاب يصفق ويغني ويضرب الارض بقدميه . ركض نحوي وأحاطني بذراعيه واخـذ يقبلني وقد ترقرقت الدموع من عينيه . قال لي : « تعالي ! انها أجمل أيام العمر . لقد انتصرنا اخيرا . لقـد أثمرت الثورة » . ثم هدأوا . وعرفني على اصدقائه . كـان بعضهم من الشعراء المنفيين من العـراق يعيشون في لبنان ، وكنت أعرفهم ، وبعضهم الآخر في طريقهم الـى المنافي ، أو هم من الهاربين من سجون التعذيب .

قبل ذلك بأيام ، كان حزننا لان المعركة التي خضناها في لبنان كانت توشك أن تنتهي بجراحات وبلا مقابل .

وها هو الآن سعيد كأشد ما يمكن للمرء أن يعانق السعادة. لقد أعطته هذه الامة تعويضا . وكمرآة لنفسه ، ولجيله ، عكست « الآداب » هذا المنعطف الخطير من تاريخ العرب، يوم قامت ثورة ١٤ تموز في العراق .

* * *

لماذا كتب على هذه الامة ، في هذه السنوات مـن عمرنا ، أن تشهد كل هذا التناقض المريع والمدمر حينـا والرائع والخلاق حينا آخر ؟ ننام على واقع ، ونستيقظ على واقع آخر . نحلم حلما جميلا ، ونحقق زمنا بشعا . نمشي مع هذا التيار ، نواكبه ، نحميه بعيوننـا وقلوبنا ، ثم يأتي الاعصار فيطيح به . كأمواج البحر كانت حياتنا ، زاخرة ، متلاطمة . كان البحر ، على امتداده ، مجـال احلامنا ومربع أمالنا . ولكن الشاطىء كان هنا فـي آخر المطاف ، يحد افقنـــا ، ويختم كل شيء . ولم يكـن الشاطىء آمنا .

لا اذكر يوما انه غفا الا واصوات الراديـو ما تزال مرتفعة . كان عليّ دائما ان اسكت ازراره . وكـان عليّ غالبا ان أهزه في الليل لاوقظه . كانت مآسي النهـار واحزانه تتجسد ليلا كوابيس مريعة تربض على صـدره وتضيق عليه الانفاس فيصرخ ، فألقـاه بين ذراعيّ ، وأضيء النور ، فيقص عليّ كابوسه ، كابوس هذا الوطن، وهذه الامة التي تغلغل حبها في كل ذرات كيانه ، فكانت هي مقياس سعادته وشقائه . وكان هذا الكابوس الليلي يتجسد ، بعد تفكير معذب ، فـي موقف صريـح وحاسم تجاه الاحداث تعبر عنه « الآداب » افتتاحية أو قصة .

هذه الكوابيس ، عرفها ، يوم نزلت الصاعقة عـلى راس العرب ، عام ١٩٦٧ .

في ٥ حزيران كان في القـاهرة . ولايام ، ظل يعتقد ان النصر حليفنا . ثم انكشفت له الحقيقة . قالت لي أختي المتزوجة من مصري ، انهم نقلوه من الفندق الى منزلهم . لم يكن يصدق النبأ ، وكان حزينا حتى الموت . ثم قبع أياما سجين غرفة لا يسمح لاحـد بأن يدخلها . وانقطعت الاتصالات بيننا . واغلقت المطارات . كان وحيدا ومهزوما وتعيسا . منذ ذلك اليـوم ، أصيب بضغط دموي ، وتسلل مرض السكري الى دمه . وقد شفي مـع الايام من الثاني الذي كان نتيجة الحزن . أما الاول فمـا زال يعاني منه .

وحين عاد الى بيروت ، اغرق نفسه لينسى ، فـي عمل معجمي ظل اربعة أعوام يستغرق وقتـه وتفكيره ، وكان ذلك ، كما لاحظ الكثيرون ، على حساب مستوى « الآداب » .

وبالرغم من ذلك ، فانه لم يستسلم للهزيمة ، لان الشعب العربي لم يستسلم لها . وعاد الى المجلة يمنحها من فكره وقلبه وروحه ، مؤكدا لي ، المرة بعد المرة ، ان المجلة ستبقى ، فهي مجال تنفسه الوحيد : « لولاهـا

لاختنقت . انها حياتي ، وحياة آلاف الشباب الذين يعيشون حياتي » . وكان يترجم هذاالتعبير واقعا في افتتاحيات عديدة يرسلها اليه ، عبر البريد ، ادباء تعاملوا مع أحداث الامة العربية كما تعامل هو . « لست بحاجة الى كتابة افتتاحية هذا العدد . لقد عبرت هذه القصيدة أو هذه الكلمة او هذا المقال عن رأيي » .

لم يكن أي قرار نتخذه ، في تحديد موقف صريح ، يتم بسهولة. انه وليد ساعات وليال من التفكير والتدقيق، وان كان انبعاثه وليد انفعال سريع أو رد فعل . في السنوات الاولى من « الآداب » ، كان الموقف يتطلب شجاعة وتضحية . ولكن الخيار كان محسوما . الابيض او الاسود . اما مع عناصر الثورة والوحدة أو مع الرجعية والتخلف والتجزئة . ولكن مع تقدم الايام ، أخذت الالوان تتقارب ، حتى كادت أن تمتزج أو هي امتزجت أحيانا بالفعل . واذ زال المستعمر الخارجي ، المكشوف الوجه والانياب ، راح ظل المستعمر الجديد ينعكس بألف لون بدءا من اللون الازرق والرمادي حتى بلغ احيانا ان اصبح أبيض نقيا نقاء الثلج . وانهارت الثقة ، واندلعت حرب الاخوة الاعداء ، وتكدست الهزائم فوق رؤوسنا . وضاعت ظروف كان بامكاننا أن نستغلها ، واهدرت طاقات عبثا ، وشرد الادب والفكر نتيجة التضييق والخنق للحريات في اكثر من موطن ، وعلى فترات مختلفة .

خلال هذه الازمات الطويلة ، عانت « الآداب » ازمات عديدة خانقة ، مادية ومعنوية . ولكن المستقبل كان لنا ، كنا بعد كل معركة ، نلقي الجلد الميت . وكانت فورات هذه الامة تمدنا بهذا الدم . انها ابدا ترفض أن تموت وان تدفن . فبعد الضربة الموجعة التي أعقبت كارثة ٦٧ ، انفجرت الثورة الفلسطينية فوجد فيها العرب الذين ما زالوا يؤمنون بالامل والمستقبل متنفسا لهم ، ووجدت « الآداب » فيها ومعها طريقا للصمود .

واكبتها لسنوات ، ودافعت عنها في احلك الايام والظروف ، ثم التحمت بها كطليعة للثورة العربية الحديثة .

في ايام الحرب الاخيرة ، كان الامتحان العسير ، سقطت الاقنعة الكثيرة التي كانت تزايد وتنافق . أمام الخيار الصعب لاذت بالفرار . وظللنا مصرين على اصدار المجلة ، رغم الحمم والقذائف التي تهدد وجودنا .. الحقيقة ينبغي أن تعلن . وطبعنا عدة أعداد . ولكن الطرقات سدت برا وجوا . واختنقت « الآداب » بالمطبعة لعدة اشهر دون أن نتمكن من سحب ما طبع . كانت في قلب النار ، وكان الوصول اليها مستحيلا . خلال تلك الشهور التي طالت ، انصرف الى العمل الجماعي ضمن الثورة ، يشارك فيها بسلاح واحد لا يجيد استعمال سواه : الكلمة . ولكن الكلمة التي كان يصوغ منها بيانا او نداء أو تحليلا لم تكن الكلمة التي اعتادها وارادها أن تغزو آفاق الوطن العربي . انها مثله، سجينة هذا الشارع الضيق الذي زرع بالموت والظلام والجفاف . ولايام عديدة ، خلال اكثر من عامين ، كان يقبع معنا في ممر ضيق من البيت لا يغادره أحيانا ليل نهار . القذائف تهاجم بيتنا من كل الجهات فتكسر زجاجا أو تقتلع واجهات او تتجول الرصاصات في غرف نومنا وتستقر على الاسرة أو تحفر لها مقرا في الجدران . الرعب ، كان كل رصيدنا . ويوما فيوما تنهار ارادة الحياة فينا والصمود .

« لا ، لن أموت هنا موتا مجانيا . ان صوتي يختنق، فأختنق معه . ان العالم يجهل قضيتنا . و « الآداب » ينبغي ان تحمل تلك الرسالة ، ينبغي أن تصدر من أية بقعة من الوطن العربي . كل ارض عربية ارضها . اما اذا سد هذا الوطن بابه ، فسأرحل الى اي مكان في العالم يرحب بصوتي » .

وقرر ان يرحل . اخترق النيران حتى المطبعة وحصل على نسخة من كل عدد صدر ولم يوزع . طالت غيبته . وكانت اصوات الانفجارات تتوالى وتصدي . اشتعل قلبي . ليس أسهل من التفكير بالموت في هذه العاصمة المريعة . واكلني الندم . كيف تركته يذهب ؟ وحين عاد ، كنت كتلة من الاعصاب المنهارة . رأيته يحضر حقيبة يضع فيها بعض ملابس خفيفة . ويضع معها اعداده ويغلفها ويقول : عن طريق البحر سأرحل .

جمعنا ، وردد علينا قراره : « لن أجبر احدا على مرافقتي . ربما كانت الرحلة عسيرة » . يومها بكيت . لا أريد أن أغادر وطني . رحل كثيرون ، وظللت أنا مصرة على البقاء . هنا انفقت عمري . وهنا بيتي ، وهنا أهلي ، فالى اين ارحل ؟ اي مصير ينتظرنا في الخارج ، وكيف نعيش ؟ حاولت أن أقنعه بأن الغيوم ستنقشع ، وتعود الينا حياتنا . اغريته بسعادته معنا ، رغم قسوة الظروف . هددته بتأنيب ضمير قد ينخره اذا ما تركنا ورحل . ربما لن نلتقي بعد . فقدت أعصابي ، فقدت منطقي ، فقدت اتزاني وأنا احاوره لكي يعدل . اتهمته انه يحب مجلته أكثر من عائلته . ولم يعدل . حمل حقيبته وفتح الباب . لحقته . يا لعذاب تلك اللحظات . سماح يقفز من الغرفة المجاورة ، يعانق أباه ويرفض ان يتركه . « سأرحل معك » . ضمه اليه وبكيا معا . قال : « لا تترك أمك وحدها . ستكون رجل البيت » . ولكن الصبي اشد عنادا من أبيه . التصق به فاتحدا . ارادتين صلبتين ضد عاطفتي . ووجدتني مهزومة . ما نفع بيت بلا رجلين ؟ ما نفع وطن يرحل عنه أهله ؟

كانت الدموع تتساقط من عيني وانا اجمع ثياب سماح واضعها في حقيبة صغيرة . ووجدتني أضع فيها بعضا من ملابسي . انهما بيتي ووطني .. ورحلت معهما.

وانا اغلق الباب ، حاصرتني فكرة دمرتني : هل سنعود فنفتحه ؟ وتذكرت ما كانت تردده اختي المتزوجة من فلسطيني : « ما زلت احتفظ بمفتاح بيتي بيافا » .

وخفت من أن نصبح لاجئين ..

كم من الاحزان عرفنا ! كم من القلق عانينا ! كم من هواجس حاصرتنا . لياليباكملها لم نعرف طعم النوم . داخل الوطن ، كنا نشاهد الحرائق ونعيش مآسينا . والفناها ثم تآخينا معها فأصبحت جزءا من وجودنا البشع . أما خارج الوطن ، فقد كنا نتحمل الآلام بسادية : كان الوطن يحترق في نفوسنا ويتهدم ، فنتهدم معه .

يا وطني الحبيب ! أي جنون ارتكبته لكي لا افقد الامل بأن أعود اليك . لقد تركت فيك احدى فلذات كبدي رهينة بين يديك،حين رحلت . تركت « رائدة » في بيروت الملتهبة ، فانقطعت عنها وعن اخبارها أسابيع ... « أيام وأعود ، يا حبيبتي » . وبكيت تريدين اللحاق بنا . وضننت على مستقبلك الجامعي أن يضيع ، فرجوتك ان تصبري . ولكن أنا ، كيف أصبر ، كيف أبعد عن نفسي اشباح الحريق والموت ؟..

ايتها الحقيقة ، ايتها الكلمة التي ضمتها صفحات « الآداب » المهاجرة ، كم كان ثمنك غاليا . ها هو وجودك ووجودنا ، لاول مرة ، يتلاحمان ، يقفان معا ، ويشرعان صدرهما معرضين للموت والغدر ...

***

ثلاثة اشهر غبنا ، خلال حرب السنتين ، احسستها دهرا . (من قال ان انتماءنا الى هذا البلد غير حقيقي ؟) وها هو السيف الذي طالما رفعنا صوتنا لنبعده عن اخوة لنا في الوطن العربي يطالنا ، فيخنق صوتنا ، ويحدّ من حريتنا ، ويضيق علينا الانفاس . الحقيقة ، كل الحقيقة، بعد خمسة وعشرين عاما من النضال ، لا نستطيع ان نقولها ، بل نقولها وتحذف ، ونقولها فتحذف ، ثم نهدد بالاغلاق ... فهنيئا لبلد الاشعاع والحريات !..

***

لم يكن الهم القومي في اتخاذ المواقف هو فقط ما كان يقلقنا في مسيرتنا . كانت هناك هموم اخرى يخيل للوهلة الاولى انها منفصلة عن قضيتنا فيما هي تتعلق بها في الصميم . من هنا كانت المعارك التي خاضتها « الآداب » منذ صدورها ضد دعاة اتحرف اللاتيني واللهجة العامية (وكان القصد منها في لبنان بنوع خاص القضاء على الفصحى ، وبالتالي على التراث العربي وعلى وحدة العرب في آخر المطاف) . كما تصدت لمجلات ظاهرها ثقافي ، وغايتها الحقيقية الدس على الثقافة العربية تراثا وحاضرا . واني ما ازال اذكر ذلك اليوم ، الذي دعيت فيه الى المحكمة . كان شيئا فظيعا ، ان يقيم رئيس تحرير مجلة ذات اتجاه مشبوه الدعوى عليّ بحجة فضح المجلة وسوء الظن به . تناقشنا طويلا ، هل نمثل ام نتخلف ؟ وشاركنا في النقاش اصدقاء لنا وارسل لنا بعض الكتاب وبعض القراء يدعوننا الى الصمود . وقررنا ان نجابه ونتصدى . ان الحق معنا .. وعند اول جلسة انهزم الخصم . كانت حججنا ووثائقنا ومستنداتنا تنشر يوميا في الصحف القومية التي ساهمت معنا في الحملة ، مما اضطر المجلة للتوقف : اذ بانت انيابها العدوة،وانتشرت رائحة الدولارات منها .

قلت له ذات يوم ، ونحن نتصفح مجلة شعرية تصدر في بيروت : ينبغي الا نبدي رأينا بها . سيقال اننا نحاربه ، لنبقى وحدنا في الساحة . لم يرد . تابع القراءة . قال لي بعد أن انتهى : تخلي عن ضعفك وانهزاميتك . ليست القضية شخصية . انها قضية عامة . قضية مفهوم للثقافة العربية . من هذا المنظار يبدو اي تردد او تبرير خيانة لمفهوم الفن القومي الذي نذرنا أنفسنا له في هذا الظرف التاريخي الذي تجتازه الامة . اننا مسؤولون أمام قرائنا وكتابنا .

لقد خلقت هذه المجابهات لنا عداوات عديدة ، شخصية وعلى صعيد رسمي . وكان من نتائج هذه المجابهات ، في بلد كلبنان كثرت فيه الارتباطات بالاجنبي، اننا صنفنا ، مجلة غير لبنانية (وهذا غير صحيح)، لاننا مجلة عربية (وهذا صحيح) .

اقرئي هذه القصة . واقرأها . ما رأيك فيها ؟ وادلي برأيي ، فيناقشه . في الماضي ، كان يقنعني اذ كنت أتتلمذ على يديه . كان يشرف على تثقيفي ، القديم والجديد . الكتب العربية والاجنبية . كان يطبق عليّ موازينه الدقيقة في مفهومه الملتزم للثقافة العربية . ليس كل القديم . بعضه دفنه الزمن . أما الباقي فخالد . ولكن ينبغي أن ينظر اليه بمنظار العصر . انه هو الذي يمدنا بالحياة ، بالاصالة ، بالشخصية المميزة . نمتصه ونمتزج به ، فيغنينا . الانطلاقة الاولى من هنا . وتكبر الساق مليئة بالنسغ وتتفتح الاوراق . هنا يأتي دورنا في المعاصرة ، في الانتقال من الواقع دون التطابق معه لاستشراف المستقبل . كيف توفق بين التراث والحداثة، أقول ؟ ليست العملية عملية توفيق . وانما هي عملية اختيار وامتصاص حذرة . الانغماس في الماضي يوقعنا في الرجعية ، وتجاهل الواقع يبعدنا عن عصرنا ، عن هموم مجتمعنا . ينبغي أن ننفعل به حتى نطوره . اما الآداب العالمية فضرورية لاستكمال ثقافتنا الفنية خاصة تلك الفنون المستحدثة في أدبنا كالقصة والرواية . ليس العيب أن نقبل عليها ونترجمها . انها ملك الانسانية ، وبالتالي ملكنا . لقد قدمنا في الماضي قسطا وافرا وأسهمنا في دورنا الحضاري . ويحق لنا ، اليوم ، أن نأخذ ، بعد الكبوات التي الحقها بنا الاستعمار . ولكن المهم ، الا نصبح نسخة مكررة للاخر (كأكثر من مجلة صدرت في بيروت) . ان نظل نحن ، ولكن اشد تألقا وانفتاحا وغنى . وهكذا عكست « الآداب » وهي تقدم الدراسات العصرية لتراثنا القديم ، آخر نماذج الدراسات الفنية والجمالية العربية منها والعالمية . كما كانت تخوض

معركة الشعر الحديث وتؤكده وتشجع اشكالا جديدة للقصة القصيرة تغامر بدفع اصحابها ، كما تقوم بعملية استكشاف مستمر .

واعترف ان هذه العملية تكلفني شخصيا الكثير من العناء . ان « الآداب » تعتمد كثيرا على البريد . أي على ما يقوله لها القراء . وغالبا ما يكشف قارىء ما نفسه، شاعرا أو قاصا . فيطرق الباب . عشرات من القصص تردنا ، ومن انحاء الوطن العربي . انني اقراها حتى النهاية . انها عملية ضميرية . معظم كتاب « الآداب » الذين فرضوا أنفسهم فيما بعد مروا بهذا الطريق ، منهم من تأخر ، ومنهم من سطع عند اول لقاء . لا ازال اذكر تجربتي مع « أرجوحة » محمد خضير ، يومها قال لي رئيس التحرير : هذا العددستتحملين انت وحدك مسؤولية القصص فيه . وكنا قد نشرنا لاكثر من اسم لم يعرفه من قبل قراء الآداب . وكانت قصة خضير جديدة ، موضوعا وشكلا وتجربة . واقرني على انها مدهشة (وكان قد قراها قبلي ، واحتفظ برايه . ربما ليمتحن من جديد حسي النقدي) لقد نجحت تجربتنا معا . واحسست بسعادة كتلك التي عاشها المؤلف .

وقال لي : اننا مسؤولون ، مراقبون . دقيقي في الاختيار . ومن بين عشرات القصص كنا نختار اربع قصص او خمسا يعاد النظر فيها ايضا . لماذا ، وقد عرفنا الكتاب المجيدين ، لا نعتمد عليهم فنستكتبهم ونوفر على انفسنا جهدا ووقتا ؟

ـ لاننا اولا لا نستطيع ان نتحمل الدفع لكل من نستكتب .

ـ لاننا ثانيا سننقطع عن هذا الشريان المتجدد ابدا ، المتدفق بدم نقي ورؤية جديدة . معهم ، لن يصيبنا الهرم ، سنظل قادرين على مواكبتهم وتفهم همومهم الفنية . يوما فيوما نودع القديم ونستقبل الجديد . ولكي لا نخون الفن العربي الجديد ، نتابع ، ونحن نلهث ، آخر الانتاج العالمي الحديث . ان عملية المقارنة ضرورية لتحديد موقفنا .

لسنا في المختبر وحدنا . ان القراء يناقشوننا الراي . كثير من الرسائل تحمل نقدا او وجهة نظر في هذا الكاتب او ذاك الشاعر من دون ان يطلب نشر الراي . انها مصارحة ، أو اقتراح ، أو دعوة الى تبني هذا الموقف أو ذاك . تحس ، وانت تتابعهم ، بتلك العلاقة الانسانية الرائعة التي تربط أفراد أمة واحدة . لكأن هذا الكاتب يعرفك منذ أمد بعيد . يقسو عليك أو يلين ، ولكنه في كلتا الحالتين يحبك .

رسائل الكتاب والقراء ، نافذتنا على أية بقعة وجد فيها عربي يقرأ . من خلالهم تغلغلت هموم الوطن كله في نفسنا . معا نشارك في عملية تثقيف ذواتنا وتثقيف قرائنا . نقدم أفضل ما قرأناه . ويلفتون نظرنا الى أفضل ما قرأوه . وبفضل هذا التبادل تظل العلاقة قائمة بيننا ، ويحس كل طرف انه مسؤول عن الآخر .

* * *

واليوم ، نخوض ، كمجلة ثقافية ، صراعا غير متكافىء الفرص مع المجلات الثقافية الاخرى ، الرسمية بشكل خاص . ليست هي مشكلة حديثة تواجهنا ، ولكنها اليوم اعمق تأثيرا . فتلك المجلات انيقة ، جميلة ، ذات بشرة بيضاء ، تضم اشد الاسماء تألقا . ونحن تغلب علينا البشرة السمراء ، والتكثيف في المادة والطباعة ، والصعوبة في استبقاء المشهورين . كيف استمررنا ؟ وكيف سنبقى ؟ وأي اغراء نقدم ونحن لا نملك أي سلاح ، حتى سلاح أن ندخل بكامل حريتنا هذا البلد أو ذاك ؟ ان كل عاصمة قادرة على محاربتنا ، اذا شاءت ، أو الحد من انتشارنا لصالح مجلاتها الاقليمية ، بفضل شبكات التوزيع الرسمية او شبه الرسمية عندها .

بلى ، نملك اغراء واحدا : الحرية . اننا نستطيع أن نقول لا ، وخاصة حين ينطق بها كتابنا ويطلبها قراؤنا . لا ، حين تكون هذه الكلمة معادلة لوجود برمته ، حياة بأكملها . لا ، في وجه اية سلطة قامعة ...

ولا أظنني بحاجة هنا لان اذكر مواقفه في المؤتمرات، دفاعا عن حرية الاديب العربي ...

اغراء آخر نقدمه . ابوابنا مشرعة بلا اقليمية . شعراء هذا العدد اكثرهم من المصريين ، تكتشف ذلك ونحن نقرأ العدد صادرا . هذا العدد يضم قصصا عراقية فقط . لا بأس ، ما دامت هي افضل ما وردنا .. شعراء الجنوب يحتلون حيزا كبيرا . اجل ، انهم اليوم يحملون قضية ، وشعرهم جيد . الفلسطينيون « يستولون » على « الآداب » ، وأين تراهم يذهبون وهم مطاردون مذبوحون؟ السوريون ، التونسيون ، الجزائريون ، المغربيون ، السودانيون ، اليمنيون ، الليبيون جميعهم وجدوا لهم ملجأ . الافضلية لمن يكون نتاجه ، على صعيد الموضوع ، اقرب الى همومنا القومية والانسانية ، وعلى صعيد الفن ، اقرب الى الجودة .

* * *

والآن ، وقد انقضت خمسة وعشرون عاما على نضالنا ، اراك يا رفيقي تستعد لمتابعة المسيرة ! ولكن الم يصبك بعض التشاؤم او حتى اليأس ؟ الا تتردد قليلا ؟ الا تقف لتنظر الى ما صرنا اليه ، في معركتنا القومية : على عتبة الاستسلام ؟

اسمح لي اذن ، ان اعبر لك عن الحزن الذي يراودني كرفيقة درب لك : حزينة انا ، صباح هذا العيد ، لانني اشعر بأننا نحن ايضا ستذهب جهودنا في ربع قرن ضحية على مذبح التخاذل والاوهام ...

* * *

أعرف جوابك ، ذلك الذي قلته لي منذ لقائنا الاول : ان طريقنا طويل وشاق . وأنت اليوم تضيف : أوتحسبين ان ربع قرن شيء من عمر أمة ؟ ان النضال يكتسب معناه وسط الهزيمة ، ومن قلب الانهيار ...

وانظر معك وأنت تشير الى سماح : انه ينمو ويترعرع ويفوقنا طولا وطموحا . ذراعاه تزدادان صلابة وشدة وعنفا . عيناه تحدقان في الواقع وترفضانه وترفضان الهزيمة وترفضان الاستسلام وتخرقان المستقبل وتتنفزان فوقه . يا ولدي ، لاجل هذه البسمة على شفتيك وشفتي جيلك ناضلنا ، لاجل هذا البريق من الامل الذي يتألق في عينيك وعيني جيلك ضحينا ، وصمدنا ، ظللنا واقفين رغم الوهن ، رغم الكبت ، رغم التعذيب والخيبة كي لا تجرف الهزيمة قاماتكم الطرية فيما هي تجرفنا ...

– لماذا عدت من المدرسة يا سماح ؟

– لقد دعت الحركة الوطنية الى الاضراب احتجاجا على الزيارة المشؤومة .

– ولكن موعد الاضراب هو الغد ؟!

– أنت تعلمين ان الغد هو يوم العطلة العادي .

– واذن ؟

– قررت مع بعض رفاقي أن نضرب اليوم ، مشاركة منا في المعنى الحقيقي للاضراب .

* * *

الطريق نفسها ، طريق التمسك بالحقيقة والحرية والمبدئية والنضال ، هي التي ستقطعها اذن يا حبيبي ، يا أيها الجيل الذي ترفض أن تذل ، وترفض الهزيمة .

فهل أمامنا غير ان نواكبك ؟

* * *

وانت يا رفيقي ، ما دمت محصنا بالامل ، مشحونا بطاقات أمة لا ينضب معينها ، فسأظل الى جانبك . معا ستكون الرحلة القادمة أقل قسوة . لقد كنت أبدا تنشد الوحدة . ولكنهم ما زالوا يحرمونك منها ، وما فتئوا يقسمون أجزاءنا . أجزاء أجزاء .. أما انت ، فقد استطعت ، بالرغم من كل السدود والحواجز والاعاصير ، أن تحقق وحدتك على ارضك الصغيرة المتواضعة ، ولكنها الارض الحقيقية ، الارض التي تحمل أشواق الضمير العربي النقي . من المحيط الى الخليج ، ومن المشرق الى المغرب ، تعانقت أجيال الشباب في رحلة صغيرة ، شريفة ، رحلة البحث فنيا عن الذات والحقيقة والحرية والوحدة والانسانية .

واذن ، فسنواصل الطريق ، نصرخ ونصرخ ونصرخ حتى تخرج أحلام الوحدة والحرية من رؤوسنا وأوراقنا وتتجسد على أرضنا الصلبة المحررة كأجمل قصيدة واروع قصة !

وتحية عرفان للادباء الذين امدونا باللهب وسقطوا قبل ان يكملوا معنا المشوار ، سقطوا حزنا او تفجروا من الهزيمة والخيبة ، تحية وفاء للذين صمدوا معنا طويلا ثم اغتيلوا أو استشهدوا ، وتحية حب صادقة للذين ما زالوا يواصلون معنا المسيرة ، المقيمين منهم في الاوطان أو المشردين، السعيدين أو المعذبين في السجون والمعتقلات، وعهدا للجيل الذي سيكبر بأن لا نلقي السلاح حتى نبلغ الكرامة والنصر .

الفهرس العام لسنة « الآداب » الخامسة والعشرين ١٩٧٧

راجع بريد « الآداب » تحت مادة « بريد » . والقصائد تحت مادة « شعر » . والقصص تحت مادة « قصة » . والنتاج الجديد تحت مادة « كتاب » . والمناقشات تحت مادة « مناقشة » . والنشاط الثقافي تحت مادة « نشاط » .

١ ـ فهرست الموضوعات

٢ ـ فهرست الكتاب